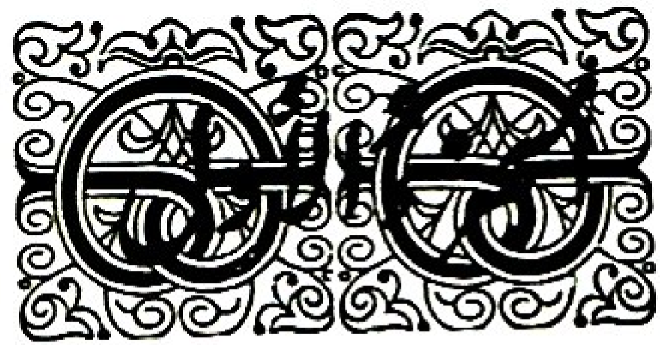
تاريخ الادب الجاهلي

تاريخ الأدب الجاهلي

الجزء الأول

مقدّمة لدراسة الأدب الجاهلي



تأليف

الدكتور على الجندى

الاستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة
وكلية الآداب، بجامعة بيروت العربية

الطبعة الثانية
١٩٦٦

[مزيدة ومنقحة]

الناشر

مكتبة الجامعة العربية
بيروت

الطبعة الأولى : ١٩٦٥
الطبعة الثانية : ١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

اتصلت بالأدب الجاهلي منذ فترة طويلة ، وأعجبني ما فيه من صدق العاطفة ، وجودة التعبير ، فأحببته ، وشغفت به فاتجهت لدراسته والبحث فيه ، فدرست شعر الحرب في العصر الجاهلي ، وفي أثناء دراستي لهذا الموضوع ، رجعت إلى كل مراجع الشعر الجاهلي ، وبخاصة دواوين الشعراء الجاهليين ، فرأيت من له ديوان من الشعراء قد يكون له روايات عديدة تختلف فيما بينها في عدد الأبيات ، وترتيبها ، ومناسباتها ، وطول القصائد والقطع وقصرها ، وبعضها مشروح وبعضها بدون شرح ، والمشروح منها ، كثيراً ما يكون فيه ألفاظ تحتاج إلى شرح وتفسير ، لأنها كانت لغة عصر غير عصرنا الحاضر ، فوددت لو نسقت روايات كل ديوان ، وجمعت في ثبت واحد ، ووضعت في ترتيب يسهّل على الدارس أو القارىء مهمته ، أو يحبّبه في قراءته ، ويساعده على معرفة قصد الشاعر في يسر وراحة ؛ فأخرجت ديوان طرفة بن العبد ، وقد جمعت فيه ما ظهر له من روايات ، ورتبت قوافيه ترتيباً هجائياً ، وجعلت لكل بيت رقماً خاصاً لتسهل الإشارة والرجوع إليه ، ثم شرحته بلغة عصرنا الحاضر ؛ ألفاظاً وإجمالاً ، واتبعت ذلك بدراسة تحليلية نقدية لشعره .

وفي أثناء كل هذه الدراسات كنت أرجع إلى كتب الأدب التي عنيت

بالعصر الجاهلي ، فلم أجد من بينها تاريخاً شاملاً لكل جوانبه ، يتضمن كل ما يحتاج إليه القارىء أو الباحث ، فكلها تترك موضوعات أساسية ، وبخاصة الشخصيات الأدبية ، أو تكتفي بإشارة عابرة لا تشفي غلة الباحث أو تطفىء ظمأه ، وبعضها يفيض في الحديث عن موضوعات لا تتصل بالأدب الجاهلي إلا عن بعد ، مثـــل الحديث عن « كلمة أدب » وهذا أشد اتصالاً بالنقد الأدبي ، ومثل الحديث عن الساميين – لأن العرب منهم – والحديث عن الكتابة العربية – لأن الأدب الجاهلي دوّن بها ؛ وظاهر أن هذين الموضوعين مما يتصل بتاريخ العرب العام ، لا بالأدب الجاهلي وحـــده . وبعضها يقصر بحثه على موضوعات تتصل بالأدب الجاهلي ، وليست من صميم تاريخ الأدب الجاهلي نفسه ، كالحديث عن قضية الانتحال في الأدب الجاهلي ، أو مصادره .

ومن كتبوا في تاريخ الأدب الجاهلي حتى الآن يتفقون جميعهم في اختيار بعض الشخصيات الأدبية ودراستها كنماذج لهذا العصر ، يستنتجون منهـــا خصائص هذا الأدب وسماته العامة ، وبذلـــك ينتهي عندهم تاريخ الأدب الجاهلي .

حقيقة إن هذه الموضوعات مفيدة جداً ، وقد بذل فيها أصحابها جهداً يستحقون عليه كل شكر وتقدير . ولا شك أنهـا تعطي فكرة واضحـة عن الأدب في هذا العصر بوجه عام ، كما أنها تعطي نماذج ممتازة لدراسة الموضوعات والشخصيات الأدبية . ولكنها لا تتضمن أكبر قدر مستطاع مما يحب الباحث أن يعرفه عن تاريخ الأدب الجاهلي ، ولا تروي عطشه للوقوف على كل ما يتصل بالجاهليين ، وبخاصة هذه الشخصيات الأدبية التي تركت لنا هذا التراث العظيم ، كما لا تغنيه عن الرجوع إلى أمهات الكتب الادبية والتاريخية لاستجلاء غامض أو استكشاف مجهول .

ففكرت في هذا الموضوع ، موضوع دراسة تاريخ الأدب الجاهلي ، وكيفية إخراجه ، والحق أني فكرت فيه طويلاً ، ثم انتهيت إلى الشروع فيه على

الصورة التالية :

الجزء الأول ، جعلته كله مقدمة لدراسة الأدب الجاهلي ، لأن ما يحتويه ليس من صميم تاريخ الأدب الجاهلي ، وإنما هو موضوعات تتصل بالأدب الجاهلي ، ولا بد من تجليتها وتوضيحها قبل الشروع في دراسة تاريخ الأدب الجاهلي نفسه ، ليكون القارىء أو الدارس لهذا الأدب على بينة من الأمر ، ويسير في طريقه على هدى ونور . وهذا الجزء يشتمل على بابين ، أولهما في الجاهليين ، وثانيهما حول الأدب الجاهلي . أما الباب الأول ففيه الحديث عن: معنى الجاهلية ، وبلاد العرب الجاهليين ، والعرب القدامى ، وأنسابهم ، ومنازلهم ، وحياتهم ومعيشتهم ، وحالتهم السياسية ، والاجتماعية ، والدينية، واتصالاتهم ، ومعارفهم ؛ وأما الباب الثاني ففيه فصول ستة ، هي : حقائق عامة عن الأدب الجاهلي ، ولغته ، وروايته ، وتدوينه ، ومصادره ، وقضية الانتحال فيه . وفي الباب الأول لم أتحدث عن كل موضوع من موضوعاته إلا فيما يتصل اتصالاً وثيقاً بالأدب الجاهلي بخاصة ، وقد يكون هناك ما يتصل بالأدب العربي بعامة لأن الأدب الجاهلي كان وما يزال أساس الأدب العربي في العصور التالية . وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أجمع في هذا البحث ما اعتقد أنه سيكون كافياً لدارس تاريخ الأدب الجاهلي بحيث يغنيه عن الرجوع إلى مصادر اخرى ، في هذا الموضوع ، لاستكشاف مبهم، أو توضيح غامض.

وبعون الله ، سيلي هذا الجزءَ أجزاء تشتمل على دراسة الشعر والنثر في العصر الجاهلي ، يخص النثر الجاهلي جزء منها ؛ أما الشعر ففيه أكثر من جزء، إذ إنه سيشتمل ، إن شاء الله ، على دراسة : الشعر عند الجاهليين ، والشعر لدى القبائل ، ثم دراسة شعراء كل من : اليمن ، وقضاعة ، ومضر ، وربيعة ، وإياد ، لكل شاعر فصل خاص ؛ ويعقب ذلك كله مقارنات أدبية بين : شعراء القحطانيين والعدنانيين ، وشعراء القبائل ، وشعراء البدو والحضر ، ومن كانوا على صلة بالملوك والرؤساء وغيرهم . ومن هذا كله نستنتج خصائص

الشعر الجاهلي في الأغراض والموضوعات ، والألفاظ والأساليب ، والمعاني ، والصور الشعرية .

والبحث بهذه الصورة طويل وشاق ، ولا يخفى على الأساتذة العلماء والباحثين والأدباء ما فيه من عسر وصعوبة . ويسرني أن أقدم للقراء الجزء الأول من هذا الباحث راجياً أن أكون قد وفقت في الوصول إلى ما أردت ، وداعياً الله جل شأنه أن يعينني ، ويوفقني في الأجزاء التالية ، وفي كل أعمالي وحياتي ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

علي الجندي

البَابُ الأَوَّل

الجاهليّون

الفصل الاول

معنى الجاهلية

الجاهلية : الزمان الذي كثر فيه الجهال ، ويقول ابن خالويه : إن هذا الاسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل بعثة الرسول ﷺ [١] .

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في أربعة مواضع :

١ — قوله تعالى : يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية [٢] .

٢ — « « : أفحكم الجاهلية يبغون [٣] .

٣ — « « : وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى [٤] .

٤ — « « : إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية [٥] .

ويبدو من تفسير هذه الآيات ، أن المقصود بهذه اللفظة ما كان قبل مجيء الإسلام ، ففي تفسير الآية الاولى ، يقول الطبري : «ظن الجاهلية» من

---

(١) بلوغ الأرب « ج ١» ص ١٦ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .
(٣) سورة المائدة الآية ٥٠ .
(٤) سورة الأحزاب : الآية ٢٣ .
(٥) سورة الفتح ، الآية ٢٦ .

أهل الشرك بالله ، شكاً في أمر الله ، وتكذيباً لنبيه ﷺ ، ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه ، ومعمل عليه أهل الكفر بـه . ويقول في الثانية : يعني أحكام عبدة الأوثان ، من أهل الشرك ، وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم ، وأنه الحق الذي لا يجوز خلافه . وفي الآية الثالثة يتعرض لبيان المقصود بالجاهلية الأولى، ويذكر فيها أقوالاً كثيرة؛ منها : أنها الزمن بين آدم ونوح ؛ ومنها أنهـا ما بين نوح وإدريس؛ ومنها أنها ما بين نوح وإبراهيم ، ومنهـا أنها ما بين موسى وعيسى ؛ ومنها أنها ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه تعالى وسلم ؛ مبيناً ما كان في كل فترة من هـذه الفترات من المنهيات المقصودة في الآية الكريمة . وفي الرابعة ، يقول : «حمية الجاهلية حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأن يكتب له : محمد رسول الله ، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ مكة عامه ذلك : وقال : حمية الجاهلية ؛ لأن الذي فعلوا من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر ، ولم يكن شيء منـه مما أذن الله لهم به ولا أحد من رسله .

ولفظ الجاهلية ، قد يكون اسماً للحال ، وهو الغالب في الكتاب والسنة والأقوال المأثورة ، أما في الكتاب الكريم ، فقد بينّا الآيات التي ورد فيهـا هذا اللفظ . ومن السنة قول النبي ﷺ ، لأبي ذر حـين عيّر رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية» . ومن الأقوال المأثورة؛قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إني نذرت في الجاهليـة أن أعتكف ليلة» ؛ وقول عائشة رضي الله عنها : « كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء » ؛ وقولهم : «يارسول الله كنا في جاهلية وشر» ؛ فالمقصود في هذا كله ؛ حال جاهلية ، أو طريقة جاهلية ، أو عادة جاهليـة ، ونحو ذلك ، والجاهلية وإن كانت في الأصل صفة ، فقد غلب عليهـا الاستعمال حتى صـارت اسماً ، ومعناه قريب من المصدر .

وقد يكون لفظ الجاهلية اسماً لذي الحال ، أي صفة ، كقولك : طائفة جاهلية ، وشاعر جاهلي[1] .

والجاهلية ، من حيث الاشتقاق اللغوي : مصـــدر صناعي ، مأخوذ من «الجاهلي» نسبة الى « الجاهل » المشتق من «الجهـــل» . والجهل ، في اللغة ، نقيض العلم . ويقول الآلوسي : هو عـدم العلم ، أو عدم اتباع العلم ... فمن قال خلاف الحق ، عالمـــاً بالحق او غير عالم ، فهو جاهل ، ويقول : قـــال أصحاب محمد ﷺ : كل من عمل سوءاً فهو جاهل ، وإن علم أنه مخالف للحق. وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل ، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه ، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه ، وتلك أحوال تناقض حقيقة العـلم ، فتصير جهلا بهذا الاعتبار[2] . وعلى ذلك « فالناس قبل مبعث النبي ﷺ كانوا في حـــال جاهلية ، جهلا منسوباً إلى الجاهل ، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل ، وإنما يفعله جاهل »[3] . ويستدل على ذلك بما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « إذا سرك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام : « قـــد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير عـلم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين »[4] .

فالجاهلية من حيث كونها اسما لزمن تطلق على الفترة التي كانت قبل بعثة النبي ﷺ ولا تطلق على زمن بعد هذه البعثة . أما من حيث كونها صفة ، فقد يوصف بها بلد غير إسلامي ، وقد يوصف بها الشخص قبل أن يسلم ، وقد يوصف بها شخص مسلم توجد فيه صفات الجاهليين ، فهو جاهلي وإن كان من

---

(١) بلوغ الأرب ، ج ١ ص ١٦ .
(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٧ .

أهل الاسلام ، بدليل قول النبي ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة » . وقوله عليه الصلاة والسلام لأبي ذر لما عيَّر رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » .

فالعرب على هذا كانوا قبل الإسلام جاهليين : في زمن جاهلي ، وهم كانوا جاهلين ، أي غير عالمين ، أو غير متبعين ما يقتضيه العلم . وهل كان العرب قبل الإسلام حقاً كذلك ؟ إن هذا الرأي يفسر الجهل بما يناقض العلم، ويفسر الجاهل بغير العالم ، أو بمن يفعل فعل غير العالم ، ومقتضى هذا أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم علم البتة ، أو كان لديهم علم ولكن سلوكهم كان على غير مقتضاه . والظاهر أن الاحتمال الثاني هو الأقرب للصواب ، بل هو الصواب ، فلم يكن العرب في ذلك الوقت جاهلين جهلاً مطبقاً ، لم يكونوا جاهلين جهلاً ينافي العلم ، فقد ثبت أنهم كانو أهل ذكاء ودراية وخبرة ، وكان فيهم أذهان صافية ، ونظرات صادقة في الطبيعة وأحوال الإنسان بما لا يقل عن بعض نظرات الفلاسفة والباحثين والمفكرين ، ويحكي لنا التاريخ كثيراً عما كان في جزيرة العرب في ذلك الوقت ، مما يدل على أنهم حينئذ لم يكونوا في جهل تام ، بل كانوا على شيء من العلم والتفكير .

فما يروى لهم من الشعر يدل على صفاء نفوسهم ، وصدق عواطفهم ، وعظيم إحساساتهم ومشاعرهم ، ثم إن وصول شعرهم إلينا وهو على هذه الحال من النضج والكمال يدل على أنهم كانوا قد قطعوا أشواطاً كبيرة ، استعملوا فيها عقولهم وتفكيرهم وأذواقهم في مجال التعبير والتصوير حتى وصلوا بفنهم إلى هذه الدرجة العليا من الدقة والعذوبة والجمال . ثم إن ما تضمنه هذا الشعر ، وما نسب إليهم من نثر : من معان سامية ، وأفكار ناضجة ، وإشارات عديدة إلى شيء من العلم ، وبخاصة في الطب يدل على عقلية ميالة إلى التفكير ، قوية الملاحظة ، وربما تكون هذه الإشارات من الأمور البدائية التي تعتمد على الصدفة ، أو تستنتج عن طريق التجربة ، ولكن هذا ، ولا

شك ، يدل على يقظتهم ووعيهم ، وتنبههم إلى ما حولهم ، وقدرتهم على استكشاف ما في الكائنات من أسرار ، وذلك كله لا يصدر عن جاهل ولا يكون إلا عن طريق العقل الكامل والتفكير السليم .

وأسلوب القرآن الكريم وهو في أرقى درجات الفصاحة ، وأقوى مراتب البيان ، يدل على ما كان لهم من تقدم ورسوخ في ميادين البلاغة وروعة التعبير ، فقد كانوا يفهمونه ويدركون مقاصده ، وأكثروا من الجدل والمناقشة حوله ، وذلك لا يتسنى لجاهل ليس لديه شيء من علم أو معرفة أو خبرة أو دراية .

ثم إن آثارهم العظيمة التي يتحدث عنها التاريخ من مدن فخمة ، ومبان شاهقة ، وأعمال هندسية فنية ، ونظم في المعيشة ، والسياسة ، والتجارة والحروب وأدوات القتال وغيرها ، وما قيل عن معارفهم وتجاربهم وخبراتهم في نواح متعددة تدل على تفكير عقلي سليم ، وإدراك قوي صحيح .

كل هذا ينفي عن العرب قبل الإسلام الجهل الذي ينافي العلم على الإطلاق ، اللهم إلا إذا خصصنا هذا الجهل بناحية معينة ، وهي الناحية الدينية ، ففي تلك الحالة يكون وصف العرب قبل الإسلام بالجهل الديني وصفاً معقولاً ، ومطابقاً للواقع . فالعرب قبل الإسلام كان فيهم المشركون والمجوس واليهود والنصارى وغيرهم ، ولكنهم على العموم كانوا ، قبل بعثة الرسول ﷺ ، في ضلال ديني ، وظلام دامس في العقيدة ، وما كانوا يعرفون الدين الصحيح ، فلما جاء الإسلام كشف لهم الحقيقة وهداهم إلى الصراط المستقيم ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فأزاح عنهم جهل العقيدة ، وأسبغ عليهم نور العلم ، نور العلم بحقيقة الله ، والعلم بالعقيدة الصحيحة والدين القويم .

هذا إذا فسرنا « الجاهل » الذي كان وصفَ العربي قبل الإسلام بغير العالم ، أما إذا فسرناه بأنه من يفعل فعل غير العالم أي من يقول قولاً ، أو

يعمل عملاً يتنافى مع علمه ، فإن هذا الوصف كذلك ينطبق على العربي ، بوجه عام ، قبل البعثة ، فما أثر لهم من أقوال ، وحكم ، ونصائح ، وأعمال ، يتنافى مع ما أثر عنهم من سلوك في كثير من شتى مظاهر الحياة ، كالعنف ، والوحشية ، والقسوة ، والتحكمية ، والإسراف إلى حد الإتلاف ، وتقديس ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً .

هذا هو ما يمكن أن يقال عن « الجهل » الذي وصم به العرب قبل الإسلام إذا فسر الجهل بأنه ضد العلم . ولكن إذا فسر هذا الجهل بأنه ضد الحلم كان كذلك تفسيراً سليماً صحيحاً مطابقاً تماماً لحال العرب قبل بعثة الرسول ﷺ ، فالحلم سيد الاخلاق ، كما يقولون ، وتندرج تحته جميع الخصال الحميدة ، وأرقى درجات السلوك الإنساني الحكيم . والجهل الذي ينافي الحلم معناه : السفه والحمق والتهور وعـدم القدرة على ضبط النفس ، وسرعة الانفعال ، واشتداد ثورة الغضب ، والاندفاع في غير تريث ولا تفكير ، وهذه كلها كانت صفات منتشرة بين العرب قبل الإسلام ، فكان العربي يثور لأتفه الاسباب ويشعل نار الحرب إذا توهم إساءة ، أو ظن ظناً ، ولو خطأ ، دون أن يتريث ، أو يتحرى الحقيقة . وقد ورد استعمال لفظة « الجهل » ومشتقاتها في هذا المعنى كثيراً . فمن ذلك قوله تعـالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » [1] . وقول النبي ﷺ : « إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل » . وقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجهل هنا يقصد به السفه والحمق والتهور وعدم ضبط النفس وفقدان سيطرة العقل ، وعدم السلوك الحكيم .

ولكن لا ينبغي أن يغيب عن البال أن ذلك كان حال القوم في مجموعهم ،

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .

لأنه لم يكن كل واحد منهم كان موصوفاً بهذه الصفات التي تتنافى مع العقل والحكمة والاتزان والروية؛ فقد كان هناك أفراد اشتهروا بالعقل السديد والرأي الصائب، وبعد النظر، وحسن السلوك والسيرة، وكانت سمتهم الظاهرة الحكمة، حتى إن العرب اتخذوهم حكاماً، يستشيرونهم في شؤونهم، ويحكمونهم في أمورهم، ومن هؤلاء: **الأفعى بن الأفعى الجرهمي**، وهو الذي حكم بين بني نزار في ميراثهم، **وأكثم بن صيفي** حكيم تميم وعالمها بالانساب، **وحاجب بن زرارة** التميمي كذلك، وكان على معرفة تامة بأخبار العرب وأحوالها وأنسابها، وهو من مشاهير الفصحاء والبلغاء، وكذلك **الأقرع بن حابس** التميمي، **وهاشم بن عبد مناف** القرشي، **وعبد المطلب** بن هاشم، **وحمزة بن حمزة** النهشلي، وكان ذكياً فطناً قوي العقل والتفكير، خبيراً بأحوال العرب وأنسابهم، **وذو الإصبع** العدواني، **وعامر ابن الظرب** العدواني، **وغيلان بن سلمة** الثقفي، **وهرم بن قطبة** الفزاري، **وسنان بن أبي حارثة** المري، **وربيعة بن حذار** الأسدي، **ويعمر بن الشداخ** الكناني، **والقَلَمَّس** (١) الكناني، **ومالك بن جبير** العامري، **وعمرو بن حُمَمَة** الدوسيّ، **والحارث بن عباد** البكري.

ولم يقتصر الأمر على الرجال، بل كان من نساء الجاهلية من اشتهرن بالحكمة وحدّة الذكاء وقوة العقل وسداد الرأي، ومنهن: **ابنة الخُس** الإيادية، وأختها جمعة، وصُحُر بنت لقمان، وخصيلة بنت عامر بن الظرب العدواني، وحَذَامِ بنت الريان، وهي التي قيل فيها:

---

(١) القلمس: ليس اسم علم، انما هي درجة واختصاص، عرف بها من كان ينسيء الشهور، وأول من عرف بها أبو ثمامة جنادة بن أمية الكناني، ومن معانيها: السيد العظيم، والرجل الخيّر المعطاء، والمفكر البعيد الغور، والداهية من الرجال، ونحو ذلك من معان تشير الى صفات عالية في الرجل الذي أطلقت عليه. وقال المرزباني: القلمس الأكبر هو عدي بن عامر ابن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة، جاهلي قديم، وهو أول من نسأ الشهور في الجاهلية (الموشح ص ٨٢).

إذا قالتْ حذَامِ فصدقوها فإن القول ما قالت حذام[1]

وكان هؤلاء وأمثالهم يعرفون بين العرب بأنهم الحكام أو الحكماء .

وبهذا يكون الجهل الذي وصم به الجاهليون على وجه العموم ، الجهل الديني ، أو ما يتنافى مع صفات ذي العلم الرشيد ، أو ما ليس من سلوك الحليم الحكيم .

---

(١) راجع بلوغ الأرب للألوسي ، وتاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٥٨ ويقول المرزباني : إنها زوجة لجيم بن صعب ، وهو القائل هذا البيت ، ويروى لغيره . ويقول عن لجيم : شاعر وأبوه شاعر وعمه بلعاء بن قيس شاعر . (الموشح ص ٢٥٣) .

الفصل الثاني

بلاد العرب الجاهليين

تقع بلاد العرب في أقصى الجنوب الغربي من قارة آسيا ، وهي التي تعرف بشبه الجزيرة العربية ، ويحدها من الشمال بلاد الشام ، ومن الشرق الخليج العربي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الغرب البحر الأحمر .

وكانوا قديماً يقسمون هذه البلاد أقساماً بحسب الارتفاع والانخفاض ، وأهم الظواهر الطبيعية البارزة في شبه الجزيرة العربية هي سلسلة جبال السراة ، وهي أعظم جبال العرب وأشهرها ، وتخترق شبه الجزيرة من الجنوب الى الشمال ، على محاذاة الساحل الغربي ، فتمتد من أقصى اليمن حتى تبلغ أطراف بوادى الشام ، وتقسم شبه الجزيرة العربية قسمين ؛ قسماً شرقياً وآخر غربياً ، ونظراً لقربها من الساحل الغربي فإن انحدارها إليه شديد وقليل ، وانحدارها إلى الجهة الشرقية خفيف وتدريجي . فما انحدر منها إلى جهة الغرب إلى شاطىء البحر الأحمر كان يسمى « الغور » أو « تهامة » ، وهذه هي المنطقة الساحلية الغربية ، « وتمتد من أقصى الجنوب إلى خليج العقبة ، وتقال أحياناً مضافة إلى القسم الذي تحاذيه ، فيقال : تهامة اليمن ، وتهامة عسير ، وتهامة الحجاز . وتضيق هذه المنطقة في بعض الأماكن وتتسع في أماكن أخرى ، وأقصى اتساعها أربعون ميلا . وأكثر هذه المنطقة شديد الحرارة ، قليل الإنبات ، وجميع المدن الساحلية تقع في هذه المنطقة [1] » .

---

(١) قلب جزيرة العرب ، ص ٩ .

وما ارتفع بعد هذه الجبال إلى جهة الشرق ، يسمى « نجدا » . ومن هنا كان قولهم : « أغار وأنجد » أي ذهب إلى الغور والنجد .

وسلاسل جبال السراة نفسها سميت : « حجازا » لأنها حجزت [1] بين تهامة ونجد ، ويتخلل أرض الحجاز كثبان رملية وآكام خصبة ، وهي مساكن القبائل ، وحولها قرى وضياع ، وبمنحدراتها توجد عيون مياه تنبت حولها بعض الحبوب ومراعي الماشية .

والجزء الذي ينتهي به نجد في الشرق حتى يصل إلى الخليج العربي ، كان يسمى « العروض » ، ويشمل البحرين واليمامة وعُمان .

وكان القسم الجنوبي يسمى « اليمن » – وقيل سمى بذلك لأنه عن يمين الكعبة وأحياناً يسمى اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وزروعها – وكان يشمل حضرموت والشحر .

« وطول بلاد العرب من الشمال إلى الجنوب ١٤٠٠ ميل وعرضها نحو ٨٠٠ ميل ، ومساحتها نحو ١٢٠٠،٠٠٠ ميل مربع ، وشواطئها قليلة بالنسبة إلى مساحتها لأنها منتظمة غالباً ، قليلة الخلجان والمواني الجيدة . وهي رملية منخفضة على سواحل الخليج العربي ، صخرية وعرة تجاورها الجزائر المرجانية والصخور الغائصة تحت الماء قليلا أو كثيراً على البحر الأحمر .

وشبه الجزيرة على العموم نـَجدٌ كبير واسع الأطراف ، يأخذ في الانخفاض التدريجي إلى الشرق ، حتى ينتهي إلى أرض العراق والجزيرة والخليج العربي ، وقلما تجد ناحية منها يقل ارتفاعها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر ، وفي اليمن والجهات الوسطى من نجد ما يصل ارتفاعه الى ٧٠٠٠ قدم ، وبها كثير من السلاسل الجبلية [2] » .

---

(١) تاريخ العرب القدامى : ص ٥ .

(٢) وقال الأصمعي : إنما سمي حجازاً لكثرة الحرار فيه لأن أهل الحرة يحتجزون بها من الخيل (مفضليات اوربا ٤١٥) .

وفي القسم الجنوبي الشرقي من داخلية بلاد العرب بادية منخفضة ، تعرف بالأحقاف أو الربع الخالي ، وهي صحراء رملية ، وفي الشمال توجد صحراء النفود وهي متصلة ببادية الشام وهي حصباوية صخرية .

وبلاد العرب قليلة المياه ، ليس بها أنهار عظيمة ، ويتخلل سلاسل الجبال الغربية بعض الجداول جارية إلى البحر الأحمر ، وأكثرها وديان تنضب أيام الجفاف ، بل وتذهب معالمها .

ومناخ البلاد قارى ، شديد الحرارة في أغلب فصول السنة لوقوع أكثر البلاد في المنطقة الحارة ، « ولأنها محرومة من الرياح البحرية التي تلطف من شدة الحر ، ولذلك فهي جافة ، لأن جزءاً كبيراً منها يقع في المنطقة ذات الضغط العالي والمطر القليل ، ومنها جزء يقع في حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية ، وهي جافة ، لأنها كلما تقدمت إلى الجنوب تزيد حرارتها ولا تنقص ثم إنها وهي تمر على بلاد العرب تجيء من الجهات القارية ، ولكن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية تهب صيفا عليها ، كما تهب على الحبشة ، وهي ممطرة ، غير أن أمطارها في بلاد العرب لا تكاد تذكر بجانب ما يسقط منها في بلاد الحبشة ، ولا يكون ذلك إلا على اليمن لارتفاع جبالها ، وأكثر أمطار اليمن تقع بين منتصفي يونية وسبتمبر ، وأمطار عمان تسقط عادة بين منتصفي نوفمبر وديسبر حيث تكون الرياح الموسمية شمالية شرقية ، وبلاد حضرموت توازي شواطئها هذه الرياح في رواحها وغدوها فلا تمطرها [١] . وجبال الحجاز تهطل فيها الأمطار في الخريف ، من أواخر أغسطس الى أواخر ديسمبر وفي نجد تهطل في ديسمبر ويناير وفبراير [٢] . والأمطار في بلاد العرب على العموم قليلة ، ولذلك قلت فيها الأنهار ، أو عدمت ، والسمة الظاهرة في شبه الجزيرة العربية الجفاف ، وقلة الزراعة والنباتات ؛ ولذلك يهتم الناس جداً

---

(١) تاريخ العرب القدامى . ص ٦ .

(٢) قلب جزيرة العرب ص . ٦ .

فيها بالأمطار ، وينتظرونها بفارغ الصبر ، ففيها الخير والحياة لهم ولأنعامهم، ومن ثم فهم يترقبون هطولها ، ويتناقلون أخبارها » ، فيتطلعون إلى حركات السحب ، والعواصف الجالبة لها ، فإذا هطل الغيث سُرى عنهم ، واطمأنوا على سنتهم أنها سنة خير وخصب . والبداة أكثر الناس اهتماماً بالأمطار ، يتوقعونها . ويستخبرون عن أماكن نزولها ، لكي ينتقلوا إليها بماشيتهم التي هي عماد حياتهم ، ونظراً لأنهم أكثر الناس اهتماماً بالأمطار تراهم يعلمون بالفصول ، ويقسمونها أقساماً ، لكل قسم اسمه الخاص به [١] .

وبطبيعة الحال توجد المراعي في الأماكن التي تسقط فيها الأمطار، ولكن الزراعة التي تستوجب استقرار السكان معها لا توجد إلا في البقاع التي تكثر فيها الأمطار أو ينابيع المياه ، كما في أغلب جهات اليمن ، وفي الواحات التي توجد في الأوديه والسهول فتبنى القرى حيث يسكنها أصحابها ، ويقيمون فيها ، ولا يظعنون عنها . وتوجد الأشجار في سفوح الجبال ، ولكن ليس في بلاد العرب غابات ، لأنها لا توجد إلا حيث تسقط الامطار بغزارة وعلى الدوام ، ويكثر النخيل في الحجاز ، ولا يزال شجر اللبان يزدهر على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي لا سيا في مهره، ويوجد في البادية : عدة أنواع من شجر السنط والأثل والغضا والطلح الذي يستخرج منه الصمغ العربي، كما توجد الكمأة ، وأما شجرة البن التي تشتهر بها اليمن اليوم فقد أدخلت إلى بلاد العرب الجنوبية من الحبشة في القرن الرابع عشر [٢] هذا إلى جانب أشجار الفواكه وغيرها التي تنبت في الأماكن الخصبة ، مثل البطيخ ، والعنب والتين والخوخ والسفرجل ، والزيتون ، والورود .

« ولقلة الغابات فيها قلت حيواناتها الوحشية ، وإن كان يوجد في جبالها النمر والضبع والذئب وابن آوى ، كما يوجد في صحاريها الحمار الوحشي والنعام والغزلان ، وبقر الوحش والظباء .

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) فيليب حتي ، ج ١ ص ٢٢ .

أما الحيونات الأهلية ، فهـي من أهم مصادر الثروة عند العرب ، ومن أهمها : الإبل والخيل والغنم والمعز والبقر . كما يوجد فيها الكلاب والقطط .

وفيها من الطيور : الحمـام ، واليمام ، والقطـا ، والغراب ، والحدأة ، والصقر ، والنسر ، والعقاب ، والجراد في بلاد العرب كثير .

ومن الزواحف : العقارب والثعابين والسلاحف .

ويصاد السمك من البحار ، وهو في شواطىء عمـان كثير جداً ، ومثله السلاحف البحرية ، ويستخرج اللؤلؤ من جهات عمان، والمرجان من سواحل البحر الأحمر .

« والواحات ، باستثناء مكة ، منتشرة شرقاً في اليمامة ومنطقة الخليـج العربي ، أو غربـاً في وادى القوى حتى تبلغ يثرب ، وتلك هي مراكز القوافل التي تعين مراحل الطرق الطبيعية الكبرى ونهايتها .

« وهذه الطرق قليلة وهي قسمان : - (ا) اثنتان: تبدأ الأولى من دمشق فتتجـه نحو وادي الفرات مارة بدمر ، وتتجه الثانيـة نحو وسط الجزيرة وشرقيها مارة بوادي السرحان .

(ب) وطريقان تبدآن من مكة والمدينة متجهتين نحو أسفل الفرات .

ولكن أهم من هـذا وذاك هو طريق التوابل المعروفة منذ القرون الوسطى ، والتي تبدأ من حضرموت مارة بمأرب ، وتقف عند نجران ، ثم تنشعب إلى طريقين ، طريق تتجه نحو اليمامة فتصل الحيرة والفرات، والثانية تتجه نحو الشمال مارة بمكة ويثرب وواحات وادي القرى منتهية عند البطرة، وهذه أيضاً تنشعب إلى طريقين ، تتجه الأولى إلى غزة ، والثانية إلى بصرى ودمشق [١] .

« وطرق القوافل معروفة من قديم بـين مكة والشام واليمن والعراق

---

(١) تاريخ الأدب العربي للدكتور بلاشير ، وتعريب الدكتور إبراهيم الكيلاني ص ٢١ .

ومصر ، وكان لتجارة الحبشة طريق مسلوك من جدة على البحر الأحمر إلى القطيف على الخليج العربي لجلب اللؤلؤ »[1] .

وكانت الرياح الموسمية سبباً في رواج الملاحة وتقدم التجارة منذ الأحقاب القديمة ، وكانوا أولاً يسيرون بالقرب من الشاطىء ، ثم تقدموا إلى جهة إفريقيا الشرقية ،وما زالوا يتوغلون حتى بلغوا الهند الشرقي والهند الأقصى.

وكانوا ينقلون من الجنوب (اليمن وحوض المحيط الهندي وإفريقية الشرقية) : اللبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق افريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف : الزبيب ، ومن مناجم بني سُليم : الذهب ، كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية »[2] .

وحيث كانت توجد أسباب الرزق الثابتة ، استقر القوم ، فبنوا المدن والقرى ، وأقاموا بها ، ومن أشهر هذه المدن :

صنعاء في اليمن وهي العاصمة ، وكان اسمها في الجاهلية : أزال . وصنعاء كانت تحاكي دمشق الشام لكثرة مياهها وأشجارها ، وكان فيها **قصر غُمْدان** وله غرف شهيرة يسمونها المحاريب وهو محكم البناء عجيب الارتفاع ، وفيه ما لا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة . وفي اليمن قصور أخرى كثيرة ،منها: **ناعظ** قصر ملوك همدان ؛ **وبينون** : قصر بناه تبع الذائد بأرض عنتر ، **وصرواخ** لسعد بن خولان ، وقصر **العشب**،وقصر **العنقاء** ، وقصر **موكل** في المشرق .

وفي اليمن **زبيد** ، وهي قصبة التهائم ، وموضعها في مستوى من الأرض

---

(١) تاريخ العرب القدامى ص ٨ .
(٢) تاريخ الأدب في العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٧٦ ،

والبحر عنها أقل من يوم،وفيها نخل، وكان عليها سور دائر فيه ثمانية أبواب، وهي إلى القرب من صنعاء ، ولها فرضة على البحر تسمى **علافقة** ، وبينهـــا وبـين البحر خمسة عشر ميلا . وإلى الجنوب منها على شط البحر أيضاً مدينة **المخا** التي يجلب منها البن [١] .

وكانت توجد مدينة سبا وهي **مدينة مأرب** ، وتقع إلى الشمال الشرقي من من صنعاء ، وبينهما ثلاث مراحل ، وكان بها سد مأرب ذو الشهرة التاريخية ، وكانت مدينة طيبة الهواء ، عذبة الماء ، موفورة المتنزهات ، كثيرة البساتين والخيرات ، وبقربها وجد الباحثون من الفرنسيين والانجليز سنة ١٨٧٥ الآثار المسطرة على الصخور بالخط المسند المعروف بالخط الحميري .

أما **عدن** فهي من مدن اليمن التهامية ، وهي أقدم أسواق العرب .

وكان باليمن **مدينة نجران** وفيها كعبة نجران ، وهي قبة عظيمة ، يقال إنها كانت تظلل ألف رجل ، وكان إذا نزل بهـا مستجير أجير ، أو خائف أمن ، أو جائع أشبع أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفد أعطي ما يريد.

« ونجران قطعة عظيمة من أرض اليمن ذات نخيل وأشجار على القرب من صنعاء ، ويقال : هي جبال من شمال اليمن إلى شمال صعدة ، تبعد من صنعاء نحو عشر مراحل،وكانت من بلادهمدان بين قرى ومدائن وعمائر ومياه» [٢].

« وقد كانت نجران من أهم المراكز التجارية في اليمن ، وسوقاً مهمة جداً، ومركزا لتوزيع المنتجات ، وتصدير التجارة إلى الخارج ، ومنهـــا تتفرع الطرق البرية التي يسلكها التجار في ذلـك العهد إلى بلاد الشام أو العراق ، ولمركزهـا الاقتصادي الخطير وفــد إليها الغرباء ، فجلبوا معهم اليهوديـة والنصرانية إلى اليمن . وفي هذا المكان اشتد التنافس بين الديانتين اليهوديـة

---

(١) بلوغ الأرب جـ ١ ص: ٢٠٦ .

(٢) بلوغ الأرب جـ ١ ص ٢٠٦ .

والنصرانية ، حتى تحول إلى مذابح سقط فيها صرعى من الجانبين . وكانت نجران أيضاً ذات شأن في الصناعة في اليمن [1] .

وفي اليمن **صعدة** ، وكانت تسمى في الجاهلية « جُماع » ، وتشتهر بالنصال الصاعدية .

وظفار من مشاهير بلاد اليمن، وبينها وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخاً وعلى شمالها رمال الأحقاف التي كان بها عاد ، وهي قاعده بلاد الشحر، ويوجد في أرضها كثير من النبات الهندي ، وفيها بساتين ، كما يوجد في سواحلها العنبر » [2] .

ومن مدن الحجاز [3] **مكة** ، وهي على بعد ثمانية وأربعين ميلا من البحر الأحمر ، وبها بيت الله الحرام ، وكان مقصد جميع القبائل في موسم الحج كل عام ، وتحيط بها الجبال ، فمن الشرق جبل أبي قبيس ، ومن الغرب الجبل الأحمر ، وكان يسمى الأعرف وفي شرقيه قيقعان، ومن الجنوب جبل أجياد، ويسلك الناس إليها ومنها شعاب هذه الجبال وهي في واد صخري وصفه القرآن بأنه واد غير ذي زرع ، فاعتمد أهلها على التجارة وقد كانت صلات تجار مكة بالروم والغساسنة والحبشة حسنة جداً [4] .

كما كان لموقع مكة، وظروفها الدينية، وعندماساءت الحالةالعامةفي اليمن أثر كبير في انتعاش التجارة في مكة ، وكانت قبيل الإسلام مسكناً لقريش ، فمنهم من نزل حول الكعبة ، « فسمّوا **بقريش البطاح** ، وهم : هاشم ، وأمية ، ومخزوم ، وتيم ، وعدي، وجمح ، وسهم وأسد ، ونوفل ، وزهرة، وكانوا أصحاب النفوذ فيها ، ومنهم من كانوا ينزلون وراءهم في ظاهر مكة

---

(١) جواد علي جـ ٨ ص ١٩٩ .

(٢) بلوغ الأرب جـ ١ ص ٢٠٦.

(٣) يعدها بعض الباحثين من تهامة .

(٤) تاريخ العرب لجواد علي جـ ٤ ص ١٩١ ،

فعرفوا **بقريش الظواهر** ، وهم : بنو محارب والحارث ابنا فهر ، وبنو الأردم بن غالب بن فهر ، وعامة بني عامر بن لؤي ، وغيره [١]. وكان معهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالي والعبيد ، وكان أكثرهم من الحبشة [٢] .

ومن مدن الحجاز **يثرب**، وكانت شمالي مكة على بعد ثلاثمائة ميل ، وهي من البلاد القديمة الوضع والتأسيس ففي كتاب نشر المحاسن اليمانية كانت مدينة يثرب للعرب ، فخرج إليها قوم من بني إسرائيل في زمن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ففتحوها من العرب العاربة ، وقتلوا ملكا لهم يسمى الأرقم وأقاموا فيها ما شاء الله ، حتى افترقت الأزد من مأرب في حادثة سيل العرم ، فنزل الأوس والخزرج يثرب على الإسرائيليين ولهم ملك يقال له القطيعون فقتلوه، وكان قاتله سيد الحيين أعني الأوس والخزرج واسمه مالك بن العجلان . وهو ابن عم سالم بن عوف الخزرجي ، فلما قتل الملك وقعت الصيحة باليهود ، فقتلوهم أبرح القتل ، وأبقوا منهم بعض القوم لعمارة الأراضي [٣] . ويرى الدكتور جواد علي أنه ليس هناك سند على ما يرويه الأخباريون عن مجيء اليهود إلى يثرب في أيام موسى ، ويقول : «أما مايرويه بعض يهود الحجاز عن مجيء اليهود إلى المدينة عند ظهور ملك الروم على إسرائيل ففيه شيء من الحق» [٤] . ويثرب تقع في واد خصب تكتنفه المرتفعات ، وتكثر فيه الآبار والعيون ، فكان جوها معتدلاً ، وكثرت فيها الزروع والأشجار والنخيل ، والثمار والخيرات ، فكانت من أمهات المراكز الزراعية ببلاد العرب .

وفي الحجاز كذلك **الطائف**، وهي على بعد خمسة وسبعين ميلا من الجنوب

---

(١) العمدة : ٢ / ١٩٤ .

(٢) الاغاني « دار الكتب » ج ١ ص ٦٥ .

(٣) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٨٩ .

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٤ ص ١٨٢ .

الشرقي لمكة على ارتفاع ستة آلاف قدم ، وتعتبر بستان مكة ، ولفواكهها شهرة عظيمة ، وكانت تنزلها قبيلة ثقيف ، وكانت مصيفاً طيباً للقرشيين ، وقد عد الهمذاني في كتابه « صفة جزيرة العرب » الطائف من تهامة اليمن ، وقال إنها كانت مشهورة بالدِّباغ . وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والعنب والتين والزيتون والخوخ والسفرجل واشتهرت ورودها بالعطر الذي كان يمد أهل مكة بما يحتاجون إليه من الطيب [1] .

«ومن بلاد الطائف **عكاظ**، وهي نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة زادها الله تعالى شرفاً ثلاث ليال ، وبه كانت تقوم سوق العرب بالابتداء ، وبه كانت أيام الفجار ، وكانوا يطوفون بصخرة هناك ويحجون إليها . **وذو المجاز** : مـــاء من أصل كبكب وهو لهذيل . وقال أبو عبيدة الواقدي ، عــكاظ بين نخلة والطائف **وذو المجاز** خلف عرفه ، **ومجنة** بمر الظهران ..... وفي الحجاز أيضاً من البلاد **خيبر** ، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهـــة الشام ، وذكر أبو عبيد البكري : أنها سميت باسم رجل من العماليق نزلها ..... وكان فيها قبائل من اليهود المتعربة ، وكانوا يوصفون بالمكر والخبث ، وقيل كانت للعمالقـة ، ثم صارت لبني عنترة بن أسد بن ربيعة . وكانت رديئة الهواء ، كثيرة الوخامة دائمة الوباء .... وخيبر هذه كانت كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى الجهات القصوى [2] ... والى شرقي المدينة **جبلاطيء** وهما أجأ وسلمى ، وذكروا أنهما اسما شخصين من العرب وكان أحدهما وهو أجأ يعشق سلمى » .

«ومن مدن **تهامة** : **ينبع** وهـــي مدينة قريبة من البحر **كانت** منزلا لبني الحسن بن علي أبي طالب .... ويقربها جبل **رَضْوَى** الذي يحمل منه حجر المسن إلى الآفاق . وأما **جُدّة** فهي على البحر الأحمر ، وهي ُفرضة (ميناء)

---

(١) تاريخ العرب لفيليب حتي ، ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٩١ - ١٩٢ .

مكة ، **والحديبية** ، قيل بعضها في الحل ، وبعضها في الحرم . **وتبوك** على نصف المسافة بين المدينة ودمشق » [١] .

وفي **العروض** : **اليامة** ، وهي مدينه أقـل من مدينة الرسول ﷺ في المقدار .... وهي أكثر نخلا من بلاد الحجاز ، وفيها مياه كثيرة ومنهـا كان **مسيلمة الكذاب** ، ومنهـا أيضاً **زرقاء اليامة** ، وكانت مشهورة بحدة البصر ومزيد الفطنة والذكاء .

أما **بلاد البحرين** : فقطر متسع كثير النخل والثمار ، والمشهور فيها من البلاد **هَجَر** ، وكانت هـذه البلدة قاعدة البحرين ، وخربها القرامطة عند استيلائهم على البحرين ، وبنوا مدينة **الاحساء** ، وهـي مدينة كثيرة المياه والنخيل والفواكه [٢] . وعلى ساحل الخليج العربي كانت توجد **الخط** [٣] المشهورة واليها تنسب الرماح الخطية .

وفي نجد بـلاد كثيرة ، وفيها أرض العالية التي كان يحميها كليب ابن وائل . قال ابن الأعرابي : نَجْد اسمان : السافلة والعالية ، فالسافلة ما ولي العراق ، والعالية ما ولي الحجاز وتهامة . وقال الأصمعي : اذا جُزّت **ذات عرق** إلى البحر فأنت في تهامة ، وإذا جُزْت **وجرة وغمرة** فأنت في نجد إلى أن تبلغ العُذيب . وغمرة في طريق الكوفة ، ووجرة في طريق البصرة [٤] .

---

(١) بلوغ الأرب جـ ١ ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٦ .

(٣) قيل الخط : جزيرة بالبحرين ، وقيل غير ذلك (راجع شعر الحروب للمؤلف) .

(٤) بلوغ الأرب جـ ١ ص ٢٠٠ .

الفصل الثالث

العرب القدامى

العرب أحد الشعوب السامية ، نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام [1] ،إلا أنه لا يعلم حتى الآن ما إذا كان أصل هذا الشعب السامي من هـذه البلاد أم أتاها من جهة الشمال المجاورة لوطن الجنس الآري . وقـد تحدث علماء اللغة والأدب والتاريخ عن وجه تسمية العرب بهذا الاسم [2] . ويقول الألوسي : إنهم سمّوا بالعرب لاشتهارهم بالفصاحـة والبيان من قولهم : أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه [3] ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي : « إن اللفظة قديمة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو والبادية ، وكانت هـذه خاصيه العرب في التاريخ القديم ، ولكن لما تحضّر بعضهم وسكنوا المدن وأقاموا فيها خصّوا لفظة « العرب » بهؤلاء الذين يعيشون في المدن ، وأطلق على سكان البادية « الأعراب » . ولما جاء الإسلام أصبح لفظ الأعرابي يـدل على الجفاء وغلظ الطبع ، وبذلك خرجت الكلمة عن معنى البادية . ولكن الأعراب كانوا دائماً معروفين بأنهم أهل الفصاحـة ، فكان الرواة يلتمسونهم

---

(١) ويري بعض الباحثين أن التفسير التقليدي المألوف الذي يذهب الى أن الساميين قد انحدروا من كبير أبناء نوح لا تؤيده الأبحاث الحديثة - (فيليب حتي ﺟ ١ ص ٩) .

(٢) راجع القاموس ، وشرح القاموس ، ولسان العرب .

(٣) بلوغ الأرب ﺟ ١ ص ٧ .

ويحملون عنهم ، ويرون فيهم أنهم أهـل اللغة العربية الفصحى »[1] . وعلى كل فنحن نقصد هنا في دراستنا هذه بلفظة « العرب » جميع السكان الذين كانوا يعيشون في شبـــه الجزيزة العربية ، سواء كانوا حضريين أم بدويين ، وإن كان من الجائز أن لكل من النوعين سمات خاصة تميزه عن النوع الآخر .

وقد اعتاد المؤرخون بوجه عام أن يقسّموا العرب القدامى ثلاثـــة أقسام[2] ، ولكنهم يختلفون في تسمية كل قسم ، فمنهم من يقول ، بائدة أو عاربة ، ومستعربة ، وتابعة للعرب ، ومنهم من يسميها بائدة وعاربـــة ومستعربة . ومنهم من يطلق عليها : عاربة وقحطانية وعدنانية ، ومنهم من يجعلها : عاربة ومتعربة ومستعربة . والحقيقـة أن الخلاف لفظي إذ أن المقصود بكل واحد من الأقسام الثلاثة واحد بين الجميع ، فلا خلاف بينهم إلا في التسمية اللفظية فقط . ولنأخذ الآن في بيان هذه الاقسام من وجهة نظر التقسيم الأخيرة ، وهو عاربة ومتعربة ومستعربة :[3] لخفته وسولته .

العرب العاربة :

هذا لفظ مشتق من العرب ، ربما يقصد بـه التأكيد للمبالغة ، فالعاربة هنا إما بمعنى الراسخة في العروبة ، كما يقال : « ليل لائل ، وصوم صائم » ؛ وإما بمعنى الفاعلة للعروبية أو المبتدعة لها ، لكونها أول أجيالها[4] .

وهذا القسم يسمى ايضاً « العرب البائدة » بمعنى الهالكة ، لأنهم بادوا ودرست آثارهم ، ولم يبـــق على وجه الأرض أحد من نسلهم . ويذكر

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٤٣ .

(٢) جعلهم ابن خلدون أربعة أقسام : عاربـــة ، ومستعربة ، وتابعة للعرب ، وعرب مستعجمة ، ويقصد بالقسم الرابع من له ملك بدوي بالمغرب والمشرق ، وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المضري الذي نزل به القرآن الكريم .

(٣) وقد سار عليه السيوطي : المزهر جـ ١ ص ٣١ .

(٤) بلوغ الأرب جـ ١ ص ٩ .

المؤرخون أن هذا القسم كان يتكون من شعوب كثيرة ، منها :

١ – **عاد** : وكانت مساكنهم بالأحقاف (بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر) ، ويقال إنهم كان لهم دولتان عظيمتان : عاد الأولى ، وعاد الآخرة ، ويقولون إن عاداً الأولى كانوا أيام تحتمس الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة المصرية ، ولما عظم أمرهم طغوا وبغوا ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر ، فأرسل الله على الكافرين ريحاً عاتية أهلكتهم ودمرت ملكهم ، ونجّى الله هودا ومعه من آمن به وهم عاد الآخرة فلبثوا في اليمن إلى أن غلب على المُلك يعرب بن قحطان ، فاعتصموا بجبال حضرموت حتى انقرضوا .

ومن أعظم ملوك عاد : شداد الذي تنسب اليه أعمال عظيمة ، وفتوح واسعة ، منها بناء مدينة إرم في صحارى بلاد عاد ، ويقال إنه كان تشييدها بالحجارة الكريمة ، وتزيينها بالجواهر واللآلىء . ويقول ابن خلدون : « ليست هناك مدينة اسمها إرم وإنما هي خرافة ، وإرم قبيلة لا مدينة » [١] .

٢ – **ثمود** : وهؤلاء كانت ديارهم في الحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام ، وكان لهم في العلا ومدائن صالح منشآت عظيمة ، وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال الصخرية وأرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام ، فكفروا به ، وعقروا الناقة ، فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

٣ – **العمالقة** : وكان يضرب بهم المثل في ضخامة الأجسام ، وكان موطنهم عامة أرض تهامة الحجاز . « وهناك روايات تذكر أنهم كانوا منتشرين في بقاع كثيرة ، وتحدث عنهم كثير من المؤرخين ، وورد ذكرهم في التوراة في سِفْر التكوين » [٢] . ويقال إنه كان منهم فراعنة مصر ، وجبابرة الشام . الكنعانيون [٣] .

---

(١) قلب الجزيرة العربية ص ٢١١ .

(٢) قلب الجزيرة العربية ص ٢١٦ .

(٣) تاريخ العرب القدامى ص ١١ .

٤ – **مدين**: هم القوم الذين أرسل الله إليهم شعيباً عليه السلام، ومدين أيضاً اسم البلاد التي كان يسكنها قوم مدين ، وموطنهم إلى الشرق والجنوب الشرقي من مدينة العقبة ، من حد وادي عرابة إلى منطقة جبال الحسمة من الشرق وإلى الجنوب حتى بلدة ضبا . وكانوا يعبدون الأوثان ، ويقطعون الطرق ، ويبخسون المكيال ، فأرسل الله اليهم شعيباً عليه السلام ، فكفروا به ، فأخذتهم الرجفة ، فهلكوا .

٥ – **طسم وجديس** : كانت ديارهم في اليمامة ، ويروي ابن هشام أن طسما نزلوا في اليمامة قبل جديس ، وذكر ابن خلدون أن ملك طسم كان غشوماً لا ينهاه شيء عن هواه ، وكان مضراً لجديس ومستذلا لهم ، وبلغ من عسفه أنه أمر ألا تزف بكر من جديس إلى بعلها قبل أن تبدأ به هو أولاً ، فأثار ذلك حفيظتهم ، فقتلوه .

٦ – **عبد ضخم** : كانت هذه القبيلة تسكن الطائف ، ويقول ابن خلدون إنها أول القبائل العربية التي كتبت بالخط العربي .

٧ – **أميم** : اختلف المؤرخون في هذه القبيلة ، فمنهم من يعدها من العرب البائدة ، ومنهم من يعدها من العرب الباقية وأنها هاجرت من البلاد العربية إلى بلاد فارس ويقول الطبري : « ولحقت أميم بأرض وبار ، فهلكوا بها ، وهي بين اليمامة والشحر . ويقول عنهم ابن خلدون : إنهم أول من بنى البنيان، واتخذوا البيوت والآطام من الحجارة وسقفوا بالخشب [١] .

٨ – **حضورا** : يقال إن بلادهم كانت بالرس وجهات القصيم ، وقيل إنهم كانوا بأرض السماوة وأنها كانت عمائر متصلة ذات جنان ومياه متدفقة [٢] .

٩ – **حضرموت** : كانت بالقسم المعروف باسمها من بلاد العرب .

---

(١) قلب الجزيرة العربية ص ٢٢٤ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ح ٢ ص ١٥١ .

١٠ - **جرهم الأولى** : كانوا على عهد عاد فبادوا ، وكانت ديارهم باليمن.

العرب المتعربة :

هم والقسم الثالث العرب المستعربة يكونون العرب الباقيـة ، أي الذين عاشوا ، وبقي نسلهم حياً . والعرب المتعربة يعرفون بعرب الجنوب ، أو الجنوبيين ، أو عرب اليمن ، أو اليمنيين ، لأنهم كانوا يسكنون اليمن وهي في جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما يعرفون بالعرب القحطانية ، أو القحطانيين ، نسبة إلى أبيهم قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام . ويقال إن قحطان هذا أول جد معروف للعرب ، ورئيس ملوك اليمن الذي يروى عنه أنه أول من تكلم بالعربية (١) من العرب الباقية ، فيقال إنه تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصراً لهم ، « فالمتواتر أن أوائل قحطان أدركت أواخر عاد وثمود (٢) » . كما يقال إن قحطان أول من اتخذ صنعاء اليمن داراً للملك ، وكان ملكه حوالي سنة ١٨٤٥ ق.م. وأنه أول من قيل له : أبيت اللعن ، وعِمْ صباحاً .

وقام بالملك بعده بنوه وأبناؤهم ، فملك بعده ابنه يعرب ، ثم ابنه يشجب ثم ابنه عبد شمس الملقب بسبأ وإليه تنسب الدولة السبئية ويمتد عصرهـا بين ٧٥٠ ، ١١٥ ق.م على وجه التقريب وفي الحقبة الثانية من هـذه الدولة أصبحت **مأرب** عاصمـة المملكة وهي على ارتفـاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر (٣) . وكان بها السد (٤) المشهور ، وكان « بين ثلاثة جبال ، يصب

---

(١) راجع كتاب العرب لابن قتيبة .

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٢٨ .

(٣) تاريخ العرب. لفيليب حتي ج ١ ص ٧٠ .

(٤) يرى « كلاسر » أن عهده يرجع إلى سنة سبعمائة قبل الميلاد ، ومن الكتابات الباقية على جدرانه يبدو أنه أدخلت عليه تحسينات وترميمات عدة في أوقات مختلفة . (جواد علي ج ٨ ص ٣٣٦ عن دائرة المعارف الإسلامية) .

ماء السيل الى موضع واحد منها ، وليس لذلك الماء مخرج الا من جهة واحدة فسدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص ، فكانت تتجمع هناك مياه العيون والسيول ، ثم إذا أرادوا سقي زرعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة [1] » . وظل السد يؤدي مهمته ، حتى كانت اليمن بفضله وغيره من مصادر المياه،جنة وارفة الظلال [2] : أرض خصبة ، وهواء طيب ، وزروع وبساتين كثيرة الخيرات والثمار ، ولكن القوم انغمسوا في ملذاتهم ولهوا بدنياهم ، وتنازع الأقيال بعضهم مع بعض ، ولم يولوا النواحي الداخلية ما تستحق من العناية والاهتمام ، ومن هذه النواحي شؤون المياه وري الأراضي الزراعية ، فأغفلوا ترميم السدود على مر الزمن ، حتى تسرب إليها الفساد ، فكان سيل العرم الذي خرب البلاد ، وهاجر القوم ، فتفرقوا في مواطن أخرى .

وكان لسبأ أولاد كثيرون، أشهرهم حمير وكهلان،ومن أولاد حمير التتابعة، وهؤلاء ، كانوا ملوكاً في عصور متعاقبة ، ولم يكن الملك منهم يسمى تبعا إلا إذا ملك اليمن والشحر وحضرموت وإلا سمي ملكا .

وكان منهم بلقيس صاحبة الصرح التي وردت قصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام في القرآن الكريم . ومنهم ذو نواس الذي تسمى يوسف وتعصب لليهودية ، وأراد إرغام أهل نجران عليها ، وقد كانوا – من بين العرب – يدينون بالنصرانية التي جاءتهم على يد أحد أتباع الحواريين،فامتنع أهل نجران عن اعتناق اليهودية ، فأضرم لهم النار وحرق كثيراً منهم ، وكان ذلك سبباً لاحتلال الحبشة أرض اليمن ، ثم احتلها الفرس بعدهم ، إلى أن ظهر الاسلام وافتتحها المسلمون .

---

(١) تاريخ العرب القدامى ص ٢٠ ، وراجع تفصيل ذلك في الجزء الثامن لجواد علي ص ٣٣٧ وما بعدها .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٨٢.

العرب المستعربة :

وهؤلاء هم عرب الشمال ، أو العرب الشماليون ، لأنهم كانوا يسكنون شمالي بلاد اليمن، في تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك إلى مشارف الشام والعراق. ويسمون كذلك بالعرب الإسماعيليين لأنهم ينسبون إلى إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، ويقال إن أصل إبراهيم من بلاد ما بين النهرين ، هاجر منها إلى فلسطين ومصر ، ثم قدم في وقت من الأوقات إلى الحجاز ، وترك فيه ابنه اسماعيل من جاريته هاجر المصرية ، فنشأ اسماعيل وتربى بمكة بين قبيلة جرهم الثانية وتزوج منهم ، وكان له أولاد كثيرون ، ويذكر النسابون أنهم كانوا اثني عشر ولداً ذكراً وكان من ذريته عدنان ، ولذلك يسمى هذا القسم كذلك بالعرب العدنانية ، « وقد نشأ أولاد اسماعيل بين العرب فاستعربوا ، ولذلك سموا بالمستعربة [١] » .

وقد ورثنا من تاريخ هذه الحقب البعيدة آثاراً مهمة جداً ، هي : « البيت وبئر زمزم ، ومقام اسماعيل ، والمناسك والمشاعر التي قبلها الدين الاسلامي الحنيف » [٢] .

وقد تناسل من عدنان شعوب كثيرة انتشروا في الحجاز وتهامة والعراق والجزيرة ، ومن أولاد عدنان وقحطان كان العرب الشماليون والجنوبيون ، الذين تفرعوا فروعاً كثيرة في شبه الجزيرة العربية .

---

(١) تاريخ العرب القدامى، ص ٢٥ .

(٢) قلب جزيرة العرب، ص ٢٣٧ .

الفصل الرابع

أنساب العرب

يتضح مما كتبه المؤرخون عن العرب الجاهليين ، أنهم كانوا يهتمون اهتماماً عظيماً بأنسابهم ، ويقولون إن ذلك راجع لحاجتهم إلى التناصر بالعصبية ، فكانوا يحفظون أنسابهم ، ويروونها أبناءهم ، ويحافظون عليها جهدهم ، وكانت لهم في ذلك اصطلاحات خاصة ، فيروي النويري [1] : « إن جميع ما بنت عليه العرب في نسبها أركانها ، وأسست عليه كيانها عشر طبقات :

١ – الجذم : وهو في الأصل ، إما إلى عدنان ، وإما إلى قحطان .

٢ – الجماهير : أي الجماعات .

٣ – الشعوب : وهي التي تجمع القبائل .

٤ – القبيلة : وهي التي دون الشعب ، وتجمع العمائر ، وإنما سميت قبيلة، لتقابل بعضها ببعض ، واستوائها في العدد .

٥ – العمائر : وهي دون القبائل ، واحدتها عمارة ، وتجمع البطون .

٦ – البطون : وهي التي تجمع الأفخاذ .

٧ – الأفخاذ : واحدها فخذ ، وتجمع العشائر .

---

(١) نهاية الأرب (دار الكتب) جـ ٢ ص ٢٧٦ .

٨ – العشائر : وهي التي تتعاقل إلى اربعة آباء .

٩ – الفصائل : واحدتها فصيلة وهي أهل بيت الرجل .

١٠ – الرهط : وهو أُسرة الرجل .

ثم ضرب مثلا لتطبيق ذلك ، فقال : « وتمثيل التفصيل : عدنان جذم ، وقبائل معد جمهور ، ونزار بن معد شعب ، ومضر قبيلة ، وخندف عمارة ، وكنانة بطن ، وقريش فخذ ، وقصي عشيرة ، وعبد مناف فصيلة ، وبنو هاشم رهط » .

ولـكن القلقشندي في صبح الأعشى اقتصر على ست طبقات مجـاراة للماوردي وغيره من النسابين ، وهكذا قال الزبير بن بكار [١] ، وهي : – الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة .

وقد عني المؤرخون والباحثون في اللغة والأدب بدراسة هذه الأنساب ، وألفوا فيها كتباً كثيرة ، والجميع يحاولون أن يذكروا أنساب القبائل ، ويُرجعوا كلا منها الى جدّها الأول ، وأصلها الأصيل الذي تفرعت منه. ولكن هذه الأنساب يشوبهـا كثير من الخلط والتداخل نظراً لتشابه الأسماء والأمكنة ، ولذلك اعتقد بعض الباحثين أن هـذه الانساب لا زالت موضع الشك والارتياب في نظرهم ، فمن هؤلاء مرجليوث إذ يقول [٢] : « إن الابحاث الحديثة أظهرت أن أنساب كل من القبائل العربية يشوبها شيء من الشك». ويقول نيكلسون [٣] نقلا عن جولدزيهر : « مما لا شك فيه أن هذه الأنساب خيالية الى حدّ ما ،

---

(١) العمدة ٢/١٩٠ والزبير بن بكار من نسل الزبير بن العوام ، ويقول عنه ابن النديم : « من أهل المدينة ، أخباري ، أحد النسابين ، وكان شاعراً صدوقاً راوية نبيل القدر ، وولي قضاء مكة .... وتوفي بمكة وهو قـاض عليها ، في ٢١ من ذي القعدة سنة ٢٥٦ هـ وكانت سنه ٨٤ سنة .

(٢) Mohamad and the rise of Islam

(٣) Literary history of the Arabs

لأنه لم يكن هناك قبل الاسلام علم دقيق مضبوط لتسجيل هذه الأنساب ، ولذلك لم يرث الباحثون المسلمون الأوائل في هذه الناحية إلا أحاديث مبعثرة ومضطربة ، فبنوا عليها أبحاثهم ، وكانوا فوق ذلك ، متأثرين بالسياسة والدين وعوامل أخرى » .

ويبدو أن المحاولات التي يقصد بها إثبات النسب الى الأصول الأولى شيء عسير ، بل يكاد يكون مستحيلاً ، فقد روي أن مالكاً رضي الله عنه ، «سئل عن رجل يرفع نسبه الى آدم ، فكَرِهَ ذلك ، وقال : من يعلم ذلك؟! فقيل له : فإلى اسماعيل ، فأنكر ذلك ، وقال : ومن يخبره به ؟ [١] » .

ثم إن من يرجع إلى كتب الأدب والتاريخ والنقد يجد أن هناك أسباباً كثيرة لحدوث الخلط والاضطراب في الأنساب ، فمرة ينسب الشخص أو القبيلة إلى أصل ومرة أخرى ينسب إلى أصل آخر، ويرجع أهم هذه الأسباب إلى التبني والجوار والزواج ، والحلف ، والولاء ، ومضيّ الزمن . وقد ينضم الرجل الى غير قبيلته فيدخل في قبيلة أخرى ، وفي تلك الحالة يجوز أن ينسب إلى قبيلته الأولى ، وإلى قبيلته الثانية وأن ينسب إليهما جميعاً، فيقال التميمي ثم الوائلي [٢] .

وحتى بعد تدوين الأنساب : « أحدث عدم ضبط قواعد الخط في صدر الإسلام ، وعدم استعمال النقط في أول العهد بالتدوين ، بعض المشكلات للمتأخرين في ضبط الأعلام ، فاختلاف النقط يحدث كما هو معروف اختلافاً في ضبط الأسماء ، وهذا ما حدث فعلا ، وإنك لتجد في كتب الأنساب المطبوعة والمحفوظة أمثلة عديدة من هذا القبيل ؛ كذلك أدى إهمال بعض النسابين ذكر الآباء أو الأجداد إلى حدوث شيء من الارتباك في ضبط الأنساب ؛ يضاف إلى هذا تشابه بعض القبائل والبطون في قحطان وعدنان».

---

(١) فجر الاسلام جـ ١ ص ٥ .

(٢) الشهاب الراصد ص ١١٢ .

وقد أشار الهمداني في كتاب الإكليل إلى « العصبية التي كان لها أثر خطير في وضع الأنساب في عهد معاوية وغيره في الشام والعراق ، وإلى تقصير نسّابي العراق والشام في عدة آباء كهلان وحمير ليضاهوا بذلك على حد تعبير الهمداني عدة الآباء من إسماعيل ... ولا يخلو بعض هذه الأنساب من تحامل العصبية والأحقاد التي كانت في نفوس القبائل والبطون [1] » .

ولكن كثيراً من الباحثين أجهدوا أنفسهم ، وحاولوا تقصّي الحقائق وأثبتوا في دراستهم آخر ما استطاعوا أن يصلوا اليه . معتمدين على ما ثبت في أذهان العلماء والرواة ، ومقارنة الأخبار بعضها ببعض لمحاولة استخلاص الحقائق من ذلك . وأصبحت هذه الدراسات أساساً للبحوث التي تتصل بالعرب القدامى . ومن ثم يقول الاستاذ الدكتور أحمد أمين : «وسواء صحت أم لم تصح ، فقد اعتنقها العرب ، ولا سيما متأخروهم ، وبنوا عليها عصبيتهم ، وانقسموا في كل مملكة حلّوها إلى فرق وطوائف حسب ما اعتقدوا في نسبهم ، وأصبحت هذه العصبية مفتاحاً نصل به إلى معرفة كثير من أسباب الحوادث التاريخية ، وفهم كثير من الشعر والأدب ، ولا سيما الفخر والهجاء. والأسلام جاء وكان قد تم اعتناق العرب بأنهم في أنسابهم يرجعون الى أُصول ثلاثة : ربيعة ومضر واليمن . وأخذ الشعراء يتهاجون ويتفاخرون طبقاً لهذه العقيدة ، واستغلها خلفاء بني أُمية ومن بعدهم ، فكانوا يضربون بعضاً ببعض » [2] .

والحق أن معرفة الأنساب العربية القديمة ضرورية لفهم الأدب العربي القديم ، بل أن معرفة الأماكن والمواضع التي كان يرتادها القوم في حياتهم مهمة كذلك للوقوف على المقصود من كثير من النصوص الأدبية القديمة فقلما تخلو قصيدة أو قصة أو رواية من ذكر كثير من الأسماء والاماكن ومن ثم

---

(١) جواد علي ج ٤ ص ٣٤٢ .
(٢) فجر الإسلام ص ٩ .

أرى أنه من اللازم أن نعرف أهم مافي هذه الانساب مما أصبح معتمداً ومقرراً لدى الباحثين والمؤرخين .

وقد مر بنا أن العرب الجاهليين الذين ظل نسلهم حياً حتى ظهور الإسلام ، كانوا قسمين ، الجنوبيين أو اليمنيين أو القحطانيين ، والشماليين أو الإسماعيليين ، أو العدنانيين . وسنحاول ان نبين فيما يلي أهم ما في أنساب كل من هذين القسمين : مما كان له صلة وثيقة بأدباء العرب ، وبخاصة في العصور القديمة .

أنساب القحطانيين :

القحطانيون هم اليمنيون أو الجنوبيون ، وقد حاول بعض المؤرخين أن يرجع بنسبهم إلى سام بن نوح عليه ذاكراً أنهم أولاد قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ، ولكن ابن حزم يقول : « اليانية كلها راجعة إلى ولد قحطان ، ولا يصح ما بعد قحطان [1] » . ومن القحطانيين بنو الرّس ، والرسّ : ما بين نجران إلى اليمن ، ومن حضرموت إلى اليمامة .

وكان موطن القحطانيين الأصلي اليمن أي في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ، ولذلك سمو باليمنيين أو الجنوبيين ، وكان كثير من الأماكن والمدن يحمل اسم شخص عظيم منهم ، كمدينة نجران التي سميت باسم نجران بن زيدان ابن سبأ . ولأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية هاجر كثير من قبائل الجنوبيين ، إلى الشمال ، واستقروا هناك ، ولكن مع هذا ظلوا يعرفون باليمنيين ، وعلى هذا الاعتبار سوف يسير البحث في هذه الدراسة . ومن كتب التاريخ والانساب يتبين أن من أولاد قحطان هذا يعرب الذي كان من ولده يشجب الذي كان من نسله سبأ ، ومن أولاد سبأ : حمير وكهلان ،

---

(١) أنساب العرب لابن حزم ، نشر برفنسال ، طبع دار المعارف سنة ١٩٤٨. ص ٣١٠ وقد اعتمدت في أنساب العرب في هذا البحث على كتاب ابن حزم هذا . ولزيادة الإيضاح وضعت جداول أنساب العرب في آخر هذا الجزء .

ويقول عنهما ابن حزم: « وفيهما العدد والجمهرة »، أما حمير، فهم المشهورون في اليمن وكان منهم التتابعة وملوك حمير. ومن الحميريين سلامة بن يزيد بن.... ابن غريب الذي مدحه الأعشى، ومنهم يزيد بن مفرّغ الحميري الشاعر. ومن قبائل حمير الأوزاع [1]. ومن التتابعة ذو نواس الذي تهوّد وقتل أهل نجران النصارى، ومنهم كذلك بِلقيس بنت أيلي.

ويقول ابن حزم: « وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة، ولا يصح من كتب أخبار التتابعة وأنسابهم إلا طرف يسير لاضطراب رواتهم وبعد العهد [2] ».

بنو كهلان

أما كهلان بن سبأ، فقد تفرعت منه القبائل الآتية:

١ - **الأزد**: وهو أُدَد، وكان منهم فروع كثيرة، تفرقوا في أماكن متفرقة، فمنهم:

ا - **غسان**: وهم ذرية الحارث وجفنة ومالك وكعب من أولاد عمرو مزيقياء، وسموا كذلك لأنهم شربوا كلهم من ماء غسان. وموطنهم معروف في شمال شبه الجزيرة العربية، مما يلي أرض الروم في الشام.

ب - **الأوس**: هم والخزرج من أولاد ثعلبة العنقاء؛ ويسمون الأنصار وأمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة ابن عمرو مزيقياء، وكانوا بيثرب. ومن الأوس: بنو عوف بن مالك بن الأوس، وهم **أهل قُباء**. وبنو عمرو بن مالك، وهو **النَّبيت**.

---

(١) انساب العرب لابن حزم، ص ٤١٠.
(٢) المرجع السابق ص ٤١١.

وبنو مرة بن مالك ، وهم **الجعادرة** ومنهم **أبو قيس ابن الأسلت الشاعر** .

وبنو امرىء القيس بن مالك .

وأم هؤلاء جميعاً: هند بنت الخزرج أخي الأوس[1].
ومن الأوس **الشاعر الاحوص** عبد الله بن محمد بن عبدالله حَمِّي الدَّبْر .

ومنهم بنو جَحْجَبَى ، ومنهم الشاعر **أحَيْحَة ابن الجُلاَح** .

وبنو ظَفَر ، ومنهم الشاعر **قيس بن الخطيم** ، وأخته ليلى بنت الخطيم ، ويقال هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ [2] .

ج - **الخزرج** : ومن بطونهم :

بنو النجار ، وهو تيم الله ، ومنهم شاعر رسول الله ﷺ **حسان بن ثابت**، وابنه **عبد الرحمن** ، وهو ابن خالة ابراهيم بن رسول ﷺ ، واسمها سيرين أخت مارية [3] .

وبنو مالك الأغر ، ومنهم الشاعر **عبدالله بن رواحة** [4] .

وبنو عدي بن غَنم ،ومنهم الشاعر **كعب بن مالك**[5].

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٢٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٤٤ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٤١ .

ويصنف النسابون قبائل الأزد جميعها في أربعة أصناف من الأزد، هي : **أزد عُمَان** ، **وأزد السراة** وهم الذين أقاموا في سراة اليمن، **وأزد شنوءة** أبناء كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله ابن مالك بن نصر بن الأزد وهم من سكنة السراة كذلك ، **وأزد غسان** ، وهم من شرب من ماء غسان ، ويلاحظ أن هذا التصنيف مبني على أسماء مواضع نزلت فيها قبائل الأزد . وكانت مواطن الأزد القديمة - مثل مواطن بقية القحطانيين - في اليمن وقد تركتها على أثر حادث سيل العرم ، فتفرقت مع من تفرق من القحطانيين إلى الأماكن المذكورة [1] .

ومن الأزد : جبلة بن الأيهم ؛ والسموأل بن عاديا ، صاحب تيماء ، وكان يهودياً، ويضرب به المثل في الوفاء؛ وسطيح الكاهن ؛ وماسخة، وهو الذي تنسب إليه القسي الماسخية ؛ والشنفري الفاتك .

٢ - **هَمْدان** : ومنهم **أعشى همدان** الشاعر المعروف . ومنازلها في الأرض التي عرفت ببلد همدان ومن همدان بطون كثيرة كان لها شأن في الجاهلية والإسلام .

٣ - **طيىء** : واسمه جُلْهُمة ؛ ولطيىء فروع كثيرة ، منها :

بنو الحارث بن طيىء ، ومنهم الشاعر **حبيب بن أوس** ، واسم ابنه تمام .

وبنو ثُعَل ، ومن هؤلاء بُحْتر ومَعْن، ومنهم **الشاعر البحتري**، **والطرماح الأكبر** ، وهو ابن عدي ، **والطرماح الأصغر** ، وهو ابن حكيم ، وكلاهما كان خارجياً ؛ ومن طيىء جَرْم .

وبنو نَبْهان ، ومنهم **زيد الخيل** ، وقد سماه الرسول ﷺ : زيد الخير ؛ وطيىء كانوا في جبلي أجأ وسلمى .

---

(١) جواد علي ج ٤ ص ٢٦٠ .

ومن طيىء : **إياس بن قبيصة** الذي ولي ملك الحيرة بأمر كسرى ، ومنهم **حاتم الطائي** المعروف بجوده، **وعمرو بن المشيح** وكان من أرمى الناس في زمانه [1] .

٤ – **مَذحج** : ومن هؤلاء **بنو سعد العشيرة** ، ويقال إنما سمي سعد العشيرة بذلك لأنه كان يركب في ثلثمائة فارس من ولده لصلبه . ومنهم **مراد**، ومنهم **زُبَيْد**، ومن هؤلاء **عمرو بن معد يكرب الزبيدي**، وأخته **ريحانة بنت معديكرب** ، أم دُريد وعبدالله ابني **الصِّمَّة** الجشميين . ومنهم بنو يزيد بن حرب وهم سبعة : صُداء ، ومنَبِّه ، والحارث ، والعلاء ، وسَيْحان ، وهفـّان ، وشمران . وقد تحالف هؤلاء الستة على ولد أخيهم صُداء فسُموا **«جنب»** ، ومنهم كان معاوية بن عمرو الذي تزوج بنت المهلهل بن ربيعة التغلبي بنجران ، ومهرَها أدَما . فقال في ذلك ابوها [2] :

انكِحها فقدُها الأراقم في جَنْب وكان الحباء في أدَمِ
لو بأبانينَ جاء يخطبها ضُرّج ما أنفُ خاطب بدمِ

ومنهم بنو الحارث بن كعب الذين منهم الشاعر **عبد يغوث** الذي أسرته الرباب في يوم الكلاب وقتلته صبرا وكان أحد رؤساء اليمن .

ومن بني عَنس بن مذحج **عمار بن ياسر** الصحابي المعروف ، **والأسود العنسي المتنبيء** .

٥ – **عاملة** : ومنهم الشاعر **عدي بن الرقاع** ، وبنو عاملة هم نسل الحارث

---

(١) جواد علي ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٢) الاغاني جزء ٥ صفحة ٥٠ .

ابن عدي بن الحارث بن مرة بن أزد بن زيد بن يشجب. وكانت في بادية الشام .

٦ - **لخم** : وهؤلاء منهم جَزيلة ونُمَارة .

ومن نمارة : جِــذْمة ، وهم **العِباد** ؛ **وقصير** صاحب الزّبّاء ؛ **وتميم الداري** صاحب رسول الله ﷺ . وبنو نصر وهم **رهط آل المنذر ملوك الحيرة** .

٧ - **كندة** : ويقال إنه سمي كندة لأنه كند أباه أي عقـــه . ومنهم الملك **الحارث بن عمرو المقصور** ، وهو ابن **حُجْر آكل المرار** .

وحجرُ بن الحارث الملك المذكور **والد امرىء القيس** الشاعر وهو الذي كان ملكاً على بني كنانـــة وأسد ، فقتله بنو أسد .

ويروى أن إخوته كذلك كانوا ملوكاً (١) : شرحبيل بن الحارث ملك بني تميم والرباب (قتله اخوه سلمة يوم الكلاب) ، وسلمة بن الحارث ملك بني بكر وتغلب ابني وائل ، ومعد يكرب ملك قيس عيلان . وقيس بن الحارث كان سيّاراً ، فــأي قوم نزل بهم فهو ملكهم .

ومن كندة : **السكون** ، **والسكاسك** ، وكان للسكاسك ثروة عظيمة بالشام .

٨ - **الأشعر** : وهو نَبْت بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن زيد بن عَريب بن كهلان . وهم الأشعريون ، والأشعرون ، والأشاعرة ، وتقــع منازلهم في ناحية الشمال من زُبَيْد (٢) .

---

(١) انساب العرب صفحة ٤٠١

(٢) جواد علي جـ ٤ ص ٢٦٧ .

٩ - **خثعم:** عدهما ابن حزم من القحطانيين ، بعد أن ذكر في أول كتابه (ص٩) ،أن هناك رأياً يعدهما من أبناء أنمار من العرب الشماليين.

١٠ - **بجيلة:** ويقول ابن حزم في نسبهما إنهما من أولاد عمر بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان .

وكانت منازل خثعم في الهضبة الممتدة من الطائف إلى نجران عند طريق القوافل الممتد من اليمن إلى الحجاز أما بجيلة فهم بطون متعددة تفرقت في أحياء العرب منذ حربها مع كلب بن وبرة بالفجار . وقد أعاد شملها وجمعها **جرير بن عبدالله البجلي** الصحابي المشهور . ومن بجيلة **خالد بن عبدالله القسري** (١) .

١١ - **جُذَام :** وهم نسل عمرو بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب ودارهم حوالي أيلة من أول عمل الحجاز ، الى ينبع من أطراف يثرب .

١٢ - **بارق :** وهم بنو عدي بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء . وقد نزلت في أرض تسمى بارقا فنسبت اليها (٢) .

١٣ - **خولان :** وهو َفكَـْل بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد ابن زيد. وتقع أرض خولان في المكان الذي عرف بأرض خولان أو عرّ خولان (٣) .

قضاعة :

« يقول ابن حزم قال قوم : هو قضاعة بن عدنان ، وقال قوم : هو قضاعة بن مالك بن حمير وقال قوم منهم الكلبي : هو قضاعة بن مالك

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٢ .

(٢) جواد علي ، ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٣) جواد علي ، ج ٤ ص ٢٧٧ .

ابن عرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير . والله أعلم » .

« وبعض النسابين يجعلون قضاعة » جذماً مستقلاً مثل جذم قحطان وعدنان . ومرد هـــذا الاختلاف الى عوامل سياسية أثرت تأثيراً كبيراً في تصنيف الأنساب ، ولا سيما في أيام معاوية وابنه يزيد اللذين بـــذلا اموالاً جسيمة لرؤساء قضاعة في سبيل حملهم على الانتفاء من اليمن والانتساب إلى معد ، لكونها قوة كبيرة في بلاد الشام في ذلك العهد ، ولا سيما أن منهم بني كلب ، فذكر أن زعماءها وافقوا تجاه هذه المغريات على الانتساب إلى معد ، غير أن الأكثرية رفضت ذلك ، وأبت إلاّ الانتساب إلى قحطان [1] » .

ويقال إن « قضاعـة كانوا ملوكاً في بلاد الشحر ، ثم ملكوا نجران ، فغلبهم عليها بنو الحارث بن كعب بن الأزد ، فهاجروا إلى الحجاز من جراء ذلك ، ودخلوا في قبائل معد ، ومن أجل ذلك نسبوا إلى عدنان . والصحيح أن أم قضاعة مات عنها مالك بن حمير ، وهي حامل بقضاعة ، فتزوجها معد ، وولدت قضاعة في حجره [2] » .

وإذا كان الأمر كذلك فقضاعة من الجنوبيين من نسل حمير ، وتناسل من قضاعة الفروع الآتية :

١ – مَهْرَة : وموطنهم في ناحيـــة الشحر من اليمن ببلاد العنبر على ساحل البحر [3] .

٢ – بهراء : وهم حي لقاح ، لا يدينونَ لأحد ، وهم أهل سؤدد وعز ، ومن بينهم : بنو هِنْب ، وبنو قاسٍ ، وشبيب وهم الذين يقول فيهم الشاعر علقمة :

---

(١) جواد علي ، ج ٤ ص ٢٣٨ .
(٢) تاريخ العرب القدامى ص ٢٢٠ .
(٣) انساب العرب لابن حزم ص ٤١٢ .

وحارب من غسان أهل حفاظها : وهنبٌ وقاس جالدت وشبيبُ

٣ – **بَلِيّ** : ويقول عنها الهمداني إنها ممن تطرقت الى بلاد طيء [١] ، على مقربة من تيماء بين مواطن جهينة وجـــذام ، أي في المنطقة التي كانت لثمود . ومن بليّ بنو فران ، وبنو هِنْء .

٤ – **عُذرة** : ومنهم الشاعر جميل بن معمر صاحب بثينة ، ويقول الهمداني: «ومن عذرة من ينزل بجريرة بالصعيد من مصر» ويَعُدّ منهم بني أُبَيْر ، وبني حُنّ . وتقع منازل عذرة في أعالي الحجاز في جوار نهد وجهينة وكلب وبلي ، وفي جوار أرض غطفان ، ومن مواضعها وادي القرى وتبوك حتى أيلة .

٥ – **جهينة** : ويقول عنهم الهمداني ، إنهم كذلك ممن تطرقوا إلى بلد طيء ، وأرضهم ينْدد ومثغر ووادي غوَى ويقال له وادي رَشَد ، وفي وادي إضم ، وكانت ديارهم في الأصل في نجد ، ثم هاجروا ، فسكنوا قريباً من يثرب بين البحر الأحمر ووادي القرى .

٦ – **نَهْد** : وهم من أولاد أسلم بن الحـــافي بن قضاعة . وقد سكنت أكثر بطونها في منطقة نجران .

٧ – **الحارث بن سعد** : ومنهم **هُدْبة بن الخشْرَم** الشاعر ، ويقول عنـــه الهمداني إنه من بني أُبير من عذرة .

٨ – **حُلْوان بن عمران** : وأمه ضَرِيّة بنت ربيعة بن نزار بن معد، واليها ينسب « حِمَى ضَرِيّة » المذكور في الأشعار . ومن بني حـلوان حَماطة ، وهو **ضَجْعَم** ، كانوا ملوكاً بالشام قبل غسان [٢] .

---

(١) صفة جزيرة العرب ص ١٣٠ ، وجواد علي ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٢) أنساب العرب ص ٤٢١ .

٩ – جَرْم : ومن أولاده ، جُدّة الذي ولدته امه بجُدَّة فسمته جُدّة [١]، ويقول الهمداني إن ديار جرم متفرقة بين العرب ، منها باليمامة ومنها بالبصرة ومنها بحضرموت ، وصَعْدَة ، وما بين صنعاء ومأرب [٢] . ومن جرم كان **عصام** حاجب النعمان [٣] .

١٠ – **تَنُوخ** : وهم بنو فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة ، وكانوا عن يسار بهراء بديار الفُضَيض .

١١ – **بنو القَين بن جَسْر** : واسمه النعمان، حضَنَه عبدٌ له يقال له القين ، فغلب اسمُه عليه. وكان للقين جمع عظيم وثروة في أكناف الشام ، فكانوا يناهضون بطون كلب وبرة ، ثم ضعف أمرهم ووهن حتى ما يكاد أن يعرفوا .

١٢ – **كَلْب** : ويقول ابن حزم[٤] إن من « نسل كلب هؤلاء : امرؤ القيس ابن الحمد بن مالك بن عبيدة بن هُبَل وهو **ابن حُمَام** الشاعر القديم الذي يقول فيه بعض الناس : « **ابن خِذَام** » ، وقد قيل إنه من بكر بن وائل ، وهو الذي قال فيه فيه امرؤ القيس :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حُمَام[٥]

قال ابن هشام بن السائب، فأعراب كلب إذا سئلوا بماذا بكى ابن حمام الديار أنشدوا خمسة أبيات متصلة من أول :

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦٣ .
(٣) جواد علي ، ج ٤ ص ٢٤٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٢٥ .
(٥) رواه ابن سلام : « ابن خذام » ثم قال : « وهو رجل من طيء لم نسمع شعره الذي بكى فيه ، ولا شعراً غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس » . (طبقات الشعراء ص ١٣).

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل »

ويقول : إن بقيتها لامرىء القيس ، وقد أنشد له الحاتمي أبياتاً في « حلية المحاضرة » وهو شاعر قديم دَثَر شعره ؛ لأنه لم يكن للعرب كتاب، وإنما بقي من أشعارها شعرُ من أدرك رواته الإسلام فقط » .

ويستمر ابن حزم فيقول إن من بطون كلب : « بنو عامر بن بكر بن عوف ... وهو بطن عظيم ، وعامر هذا هو أخو عامر ابن صعصعة لأمه ؛ أمّهما عَمْرة بنت عامر بن الظرب العدواني ولدت عامر بن صعصعة على رمل ، وولدت عامر بن عَوف عند أصل جبل ، فأخبرها الكاهن أنه سيعظم أمرُهما وعددُهما [1] .

ومن كلب هذه دِحْية بن خليفه بن فضالة بن ... بن كلبٍ ، (صاحب رسول الله ﷺ الذي أتاه جبريل على صورته . ومنهم كذلك **هشام ابو المنذر محمد بن السائب** النسابة [2] . وكانت مساكن كلب بالسماوة لا يخالط بطونهم فيها أحد [3] . وكانت تتاخم ديار جذام من الشمال [4] .

أنساب العدنانين :

العدنانيون هم العرب الشماليون ، وهم من عدنان الذي هو « من ولد اسماعيل بلا شك في ذلك ، إلّا أن تسمية الآباء بينه وبين اسماعيل قد جهلت جملة. والذي يقطع به ويثبت أنه ليس على ظهر الأرض أحد يتصل نسبه بصلة قاطعة ونقل ثابت إلى إسماعيل ، ولا إلى إسحق عليهما السلام [5] » .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٠ .
(٤) جواد علي ج ٤ ص ١٦٨ .
(٥) أنساب العرب ، ص ٦ .

وتروي كتب الأنساب أن ولد عدنان : مَعَدّ ، وعَكّ ، وأن أولاد معد : نزار ، وإياد ، وقنص . وروى البكري[1] : عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس أنه سأله رجل عن ولد نزار بن معد ، فقال : هم أربعة : مضر وربيعة وإياد وأنمار ، وكان يكنّى بابنه ربيعة ، ومنازلهم مكة ، وأرض العرب يومئذ خاوية ، ليس بنجدها وتهامها وحجازها وعروضها كبير أحد لإخراب بختنصر إياها وإجلاء أهلها إلا من اعتصم منهم برؤوس الجبال وشعبها ، ولحق بالمواضع التي لا يقدر عليها أحد ، متنكباً لمسالك جنوده ، ومُسْتَنّ خيوله ، فارّاً إليها منهم » .

فكانوا في بدء الأمر ينزلون مكة وما والاها ، وكلما زاد عددهم اتسعت رقعة ديارهم حول موطنهم الأصلي ، إلى أن وقعت بينهم الفتن والحروب ، بسبب ما حدث بينهم « من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماس المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضعاف القوي الضعيف ، فانضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما بينهم[2] » . فتفرقت جماعتهم ، وتباينت مساكنهم ، وأصبح لكل قبيلة وطن خاص نزلت به .

وعلى رأي ابن عباس يرجع أولاد نزار إلى أصول أربعة ، هم : مضر ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار . وبعضهم ينسب أنمار لكهلان وولد له خثعم وبجيلة وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً حيث عدت هاتان القبيلتان (خثعم وبجيلة) من أولاد كهلان من العرب الجنوبيين . وهناك من يقول : « أنمار من عدنان ، وبعد أن ولد له خثعم وبجيلة صاروا إلى اليمن[4] » ، ويقال إنه « انتسب إلى اليمن لأنه فقأ عين أخيه مضر بن نزار ، فهرب وانتسب إليهم[2] » . ويقول ابن حزم : « الصحيح المحض الذي لا شك فيه أن قبائل مضر وقبائل

---

(١) معجم ما استعجم ، ص ٥ .

(٢) معجم ما استعجم ، ص ٥٣ .

(٣) أيام العرب ، ص ٤١٢ .

(٤) مفضليات اوربا ، ص ١١٣ .

ربيعة ابني نزار ، ومن تناسل من إياد ، ومن عك ، فإنهم صرحاء ولد إسماعيل عليه السلام ، ولا يصح ذلك لغيرهم البتة [1]» وعلى هذا سوف نتحدث فيما يلي عن مضر ، وربيعة ، وإياد .

مضر :

قد تفرع من مضر فرعان عظيمان هما : **إلياس** ، **وقيس عيلان** . **أما إلياس** فأولاده ثلاثة ، هم : عامر وهو مدركة ، وعمرو وهو طابخة ، وعُمير وهو قمعة ، وأم الثلاثة **خِندِف** ، من قضاعة فنسبوا إليها . وقد تفرع من خندف اولاد إلياس ، الفروع الآتية :

١ – **خزاعة** : من أولاد قمعة المذكور . ومن أولاد قمعة كثيّر بن عبد الرحمن الشاعر صاحب عزة ، «ويقال إنه من بني الصلت بن مالك أخي فهد بن مالك ، ولذلك كان كثير ينتمي إلى قريش [2]» . وكانوا بمكة نزلوا فيها على جرهم ، ثم استولوا على مكة وأجلوا جرهم عنها [3] ، فكانت منازلهم في أنحاء مكة في بر الظهران وما يليه .

٢ – **هذيل** بن مدركة ، وفيهم نيف وسبعون شاعراً كلهم مشاهير . وتعد هذيل من القبائل الكبيرة في القرن السادس الميلادي ومنازلهم سراة هذيل بين مكة والمدينة ، وفي جوار بني سليم وكنانة ، ومن هذيل : **عبد الله بن مسعود** ، **والمؤرخ المسعودي** .

٣ – **غِفَار** : من عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، ومنهم **أبو ذر** الغفاري ، **وعَزّة** صاحبة كثير .

---

(١) أنساب العرب ، ص ٩ .

(٢) أنساب العرب ، ص ٢٢٧ . ويذهب بعض النسابين الى أن خزاعة من القحطانيين ، وانها فرع من فروع الأزد ، وتنسب الى عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، وأنها سميت بخزاعة لأنها تخزعت عن بقية قومها وهم الأزد ، أي تخلفت عنهم ، فلم تذهب معهم ، ثم أقامت بمكة ، (جواد علي ج ٤ ص ٢٥٧) .

(٣) جواد علي ج ٤ ص ٢٥٨ ، ٢٣٥ .

٤ - **قُريش :** وهو فِهْر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، ومن قريش .

أ - **بيت هاشم** بن عبد مناف بن قصي الذي كان منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلي بن أبي طالب وبنوه ، وحمزة ، والعباس وبنوه ومن نسله العباسيون .

ب - **عبد شمس** بن عبد مناف : ومنه أمية الأصغر وأولاده يسمون **العَبَلات** وهم بمكة ، منهم أم الحكم **والثريا صاحبة عمر بن أبي** ربيعة المخزومي الشاعر ، وهي سيدة الغريض المغنّي ، تزوجها سهيل بن عبد الرحمن وفيها يقول عمر ابن أبي ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلا عَمْرك الله كيف يلتقيان
هي شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يمان(١)

ومن عبد شمس هذا : أمية الأكبر ، ومن ذرية أمية هذا أبو العاصي بن أمية ومنه **عثمان بن عفان** رضي الله عنه ، والعرجيّ الشاعر ، ومن ذريته كذلك الحكم بن أبي العاصي ، والد **مروان بن الحكم** والد عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان ، وبشر بن مروان .
ومن نسل أمية الأكبر هذا كذلك **حرب** الذي كان من ذريته **أبو سفيان** وابنه **معاوية** وابنه **يزيد** ، ومن هؤلاء **العُتْبى الشاعر .**

ج - **زهرة** بن كلاب بن مرة ، ومنهم أم الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) المرجع السابق ص ٦٨ .

آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومنهم كذلك سعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف .

د – **تميم** بن مرة ، ومنهم أم الخير وهي سلمى أم أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ومنهم أبو قحافة والد أبي بكر .

ﻫ – **مخزوم** : وهو من يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، ومنهم فاطمة أم عبدالله **والد رسول** الله صلى الله عليه وسلم .

و – **عدي بن كعب** بن لؤي ، ومنهم نُفَيل الذي كان من ذريته **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه .

٥ – **أسد** بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، ومن أسد الفروع الآتية :

أ – بنو **جَعْدة** بن صعب بن أسد .

ب – **عمرو** بن أسد ، ومنهم **أيمن بن خريم والاقيشر الشاعران .**

ج – **كاهل** بن أسد ، منهم **قاتل حجر** والد امرؤ القيس الشاعر وهو علباء بن حارثة وكان **شاعراً** .

د – **دودان** بن أسد ، ومنهم بنو سعد الذين كان من نسلهم **عبيد بن الابرص** الشاعر ، وبنو قعين ، وفيهم شعراء كثيرون ، ومنهم **بشر بن أبي خازم وعبدالله بن** الزبير بن الأشيم ، **ودِثار** الذي يقول فيه امرؤ القيس :

كأنّ دِثاراً حلقت بلبونة ... عُقابُ تَنُوفَى لا عقابُ القواعل

والطمّاح الذي يقول فيه امرؤ القيس كذلك :

« لقد طمح الطماح من بعد أرضه » ومنهم الشاعران :

الكميت الأول ، والكميت الثاني [١] .

ومن دودان بنو **قعين** الذين منهم : **عامر بن عبدالله** صاحب لواء بني أسد في الجاهلية **وطليحة بن خويلد** الذي ادعى النبوة [٢] .

٦ - **الرّباب** : أولاد عبد مناة بن أُدّ بن طابخة بن إلياس ، وهم خمسة : تيم ، وعدي ، وعوف ، وثور ، وأشيب ، وسموا بالرباب لأنهم تحالفوا مع بني عمهم ضَبَّة بن أد ، على بني عمهم تميم بن مُر ، فغمسوا أيديهم في رُبّ ، ثم خرجت عنهم ضبة ، واكتفت بعددها ، وبقي سائرهم [٣] وتقع ديار الرباب بالدهناء في جوار بني تميم . ومن ذرية الرباب :

عُكْل ، وهذا اسم حاضنة لهم فغلب على اسمهم ومنهم **الشاعر النمر بن تولب** .

ومن بني تيم بن عبد مناة بنو ذهل الذين منهم **عمر بن لجأ الشاعر** .

ومن بني عدي بن عبد مناة ؛ **ذو الرمة الشاعر** .

٧ - **ضبّة** : أولاد عم الرباب ، وتعد ضبة جمرة [٤] من جمرات العرب ، وتقع منازلها في اليمامة ، ومنهم **المفضل الضبي** ، وهو المفضل بن محمد بن يعلى صاحب المفضليات .

---

(١) أنساب العرب ص ١٧٩ - ١٨٤ .

(٢) جواد علي ، ج ٤ ص ٣٣٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٨٧ .

(٤) كانوا يصفون القبيلة بأنها جمرة إذا لم تتحالف مع غيرها ، واعتمدت على نفسها فقط ، فاذا تحالفت بعد ذلك قالوا : «طفئت الجمرة».

٨ – **مزينة** : وهم من بني عمرو بن أد بن طابخة بن الياس، ومزينة اسم أمهم، ومنهم الشعراء، **زهير بن أبي سلمى**، وابناه **بجير**، **وكعب**، **ومعن بن أوس** .

٩ – **تميم**: وهو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس، وهم من القبائل الكبيرة، وديارهم منتشرة في نجد والعراق ، وفي أنحاء مختلفة من جزيرة العرب ، وكانوا مجاورين لأسد وغطفان وبني عبدالقيس وتغلب ، وذرّيّة تميم : الحارث ، وعمرو، وزيد مناة .

فمن عمرو : الحكيم المشهور **أكثم بن صيفي**، والقاضي **يحيى بن أكثم**، **وأوس بن حجر** الشاعر، **وقطري بن الفجاءة**، **والمازني النحوي** ، **والمقرىء أبو عمر بن العلاء** .

ومن زيد مناة الفروع الآتية : –

أ – **سعد بن زيد مناة** ، ومنهم الراجز بن الراجز **رؤبة بن العجاج** . **وعبدة بن الطبيب** الشاعر ، **وقيس بن عاصم المنقري** ، **والسليك بن السلكة والزبرقان بن بدر** ، **وعوير بن شِجْنة** الذي يقول فيه امرؤ القيس:

عُوَيرٌ ومن مثل العوير ورهطه ... أبر بأيمان وأوفى بجيران

وبنو أنف الناقة الذين منهم **المخبل** الشاعر .

ب – **ربيعة بن مالك** : بن زيد مناة ، ومنهم **علقمة بن عبدة وأخوه** شأس **وحميد الأرقط الراجز** .

جـ – **يربوع** بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ، ومن يربوع الفروع الآتية:

ثعلبة بن يربوع : ومنهم **مالك ومتمم ابنا نويرة وداود ابن متمم** والشاعر **الكلحبة بن هبيرة** .

الحارث بن يربوع : ومنهم سَلِيط وضباب .

بنو كليب بن يربوع : ومنهم **جرير الشاعر** ومن ذريته شعراء ؛ العنبر بن يربوع : ومنهم **سجاح** المتنبئة .

رياح بن يربوع : ومنهم الشاعر **سُحَيْم بن وثيل** وهو القائل :

انا ابن جلا وطلاعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

و**الشاعر الأحوص** بن عمر بن عتاب الرِّدف بن هَرْمى بن رياح بن يربوع .

د مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ؛ ومن ذرية مالك هذا : نهشل ، ومجاشع ، وعبدالله .

ومن نهشل : **الاسود بن يَعْفُر** الشاعر .

ومن مجاشع : **الأقرع بن حابس** ، **والفرزدق الشاعر** ، **والبعيث الشاعر** .

ومن عبدالله : عُدَس ، ومن ذريته : زرارة وأولاده عشرة ، منهم **أبو عكرشة حاجب** ، **وأبو نهشل لقيط**.

قيس عيلان بن مضر :

وأما قيس عيلان بن مضر بن نزار فهو ثاني فرعي مضر العظيمين. ويقول ابن حزم عن عيلان إنه كان عبداً حضن قيساً (١) ، فنسب قيس إليه ، ويعرف نسل قيس عيلان **بالقيسيين** ، و**بالقيسية** كذلك وهم كتل ضخمة من القبائل . وأولاد قيس: خَصَفَة ، وسعد ، وعمرو.

---

(١) وقيل عن انه كان اسم فرس لقيس مشهور في خيل العرب ، وكان قيس يسابق عليه ، فعرف قيس به ، وقيل إنه كان اسم كلب كان يقال له عيلان ، وقيل غير ذلك (راجع كتاب الاشتقاق ، وجواد علي ج ٤ ص ٣١٢) .

ومن أولاد عمرو. فَهْم ، و**عَدْوان**. ومن فهم :**أبط شرأ** ومن عَدْوان: **عامر بن الظرب** ، **وذو الأصبع العدواني** .

ومن سعد بن قيس عيلان ؛ أعْصُر ، وغطفان ، ومن أعصر :

أ – **باهلة** : ومنهم الأصمعي.وكانت منازلهم في الأصل في اليمامة[1].

ب – **غنيّ** : وأُم غني وباهلة همدانية . وكانت ديار غني بنجد في جوار طيء وعند حمى ضريه [2] . ومنهم **طفيل الغنوي** الشاعر ، **وكعب بن سعد** الغنوي .

جـ – **الطفاوة** : وهم ثعلبة وعامر ومعاوية أولاد أعصر نسبوا إلى أمهم الطفاوة بنت جَرْم بن زبّان .

ومن **غطفان** : بنو بغيض بن ريث بن غطفان ، وهم أنمار ، وعبس ، وذبيان . ومن أنمار **فاطمة بنت الخرشب** الأنمارية التي ولدت الكملة .

ومن عبس : زهير بن جذيمة ، وأولاده قيس صاحب حرب داحس والغبراء ، والحارث بن زهير (قتلته كليب بن عراعر) ، وشأس بن زهير (قتله رياح بن الأشل من غني) ، ومالك بن زهير (قتلته فزارة) ، وعوف بن زهير (قتلته أيضاً فزارة) ، وورقاء بن زهير ، والحصين وحراش وجرير وكثير أمهم تماضر بنت الشريد السُّلَمية . ومنهم كذلك: الشاعر **المساور بن هند** بن قيس بن زهير . والشاعر الفارس **عنترة بن شداد** .

ومن ذبيان : **أ** – بنو مرة بن عوف، ومنهم الشاعر **أرطاة بن سهية**

(١) جواد علي ٤ ص ٣٢٠.

(٢) جواد علي ٤ ص٣٢٠ .

وهي أمُّهُ ، **وهرم بن سنان** الذي مدحه زهـير بن أبي سلمى ، ومنهم **شبيب بن البرصاء** الشاعر ، **والنـابغة الذبياني والحارث بن ظالم الفاتك** المشهور ، **وابن ميادة** الشاعر. **والحصين بن الُحمام** الشاعر، وحصين بن ضمضم.

ب - بنو فزارة ، ومنهم: **حذيفة وحمل** ابنا بدر . وتقـع منازل غطفان شرقي خيبر وتمتد إلى جبلي طيء ، وكانت منازل أشجع في جوار يثرب ، أما عبس وذبيان فتقع منازلهما عند شرية والرَّبَـذة [1] .

أما خصفة بن قيس عيلان فكان من أولاده بكر بن **هوازن** الذي كان منه الفروع الآتية :

١ - **سعد بن بكر** : بن هوازن ، ومنهـم **حليمة السعدية** مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ - **ثقيف** : ومنهـم **الحجاج بن يوسف** ، والشاعران . **أبو محجن وأميّة** بن أبي الصلت . وكانت ثقيف بالطائف .

٣ - **جُشَم** : بن معاويـة بن بكر بن هوازن ، ومنهم **دريد بن الصمّة** الشاعر وكانت مواطنهم بالسروات .

٤ - **عامر بن صعصعة** ، وتقع منازل بنيه بـين منازل قبائل هوازن وسليم وثقيف ، وقد تفرع منه الفروع الآتية :

أ - **هلال بن عامر** ، ومنهم الشاعر **حُميد بن ثور** الأرقط .

ب- **نُمَير** ، ومنهم **الراعي النميري** الشاعر .

---

(١) جواد علي ج ٤ ص ١٧٦ ، ٣١٤ .

ج – **كلاب** بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ومن هؤلاء : **القتال الكلابي** الشاعر ؛ وشُريح قاتل لقيط بن زرارة يوم جبلة ، **وعلقمة بن علاثة** الذي نافر عامر بن الطفيل ، **وأربد** بن قيس أخو لبيد الشاعر لأمه ، وهو الذي أراد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عامر بن الطفيل ، فدعا عليه فمات بصاعقة ؛ ومنهم عامر وهو **أبو براء ملاعب** الأسنة ؛ والطفيل ؛ وابنه **عامر بن الطفيل** ؛ وربيعة والد **لبيد الشاعر** ؛ **وربيعة الرحّال** الذي أجار لطيمة الحيرة فقتله البراض الكناني ففيه كانت حرب الفجار ؛ بنت عروة هذا **كبشة** أم عامر بن الطفيل ولدته يوم جبلة ومنهم كذلك **يزيد بن عمرو بن الصعق** الشاعر.

د – **كعب** بن ربيعة بن عامر ، ومنهم :

الشاعر **تميم بن مقبل** ؛ **وليلى** التي كان يشبب بها قيس المجنون ؛ **النابغة الجعدي**؛ **وقيس بن الملوح المجنون** ؛ **وعُوَيمر** بن أبي عدي فارس بني عُقيل بن كعب، ويقال أنه « دعا عنترة بن شداد العبسي إلى المبارزة ، وقال له: أبرز إليّ أيها العبد ، فان قتلتك فلأضيقن أصحابك بعدك ، وإن قتلتني رجعت بإبل قومي». «فلم يقدم عنترة على مبارزته [1] » .

ومن هؤلاء ايضاً: توبة بن الُحمَيِّر صاحب ليلى الأخيلية. ويروي ابن حزم أن منهم ثور بن أبي سمعان قاتل توبة بن الحميِّر ، ومن أجل قتله ُجلـِّي جميع بني عوف بن عقيل

---

(١) الأنساب ص ٢٧٢ .

عن بلادهم ، فتحمّلوا كلهم الى الجزيرة (١) .

٥ – **عمرو فارس الضّحياء** : ومنهم خِداش بن زهير الذي أجار قيس بن الخطيم حين قتل العَبْقَسيَّ قاتلَ أبيه .

ومن أولاد خصفة بن قيس عيلان : **سُليم بن منصور** بن عكرمة بن خصفة ، وتعد قبيلة سُليم من القبائل المهمة الساكنة في الحجاز في أرض اشتهرت بمعادنها وبخصبها ، وبها حرة بني سليم ، وحرة ليلى ، وبها مياه استفادت منها القبيلة في الزرع ، وتجاور قبائل غطفان وهوازن وهلال ، وكانوا على صلات حسنة باليهود كما كانوا على صلات وثيقة بقريش ، وتحالف معها أشراف مكة وكبارها لما لهم من علاقات اقتصادية بهذه القبيلة . ومن سليم : بنو ذكوان ،وبنو بهثة ، وبنو بهز ، وبنو الشريد ، وبنو ظفر . ومنهم: العباس بن مرداس الشاعر ، والعباس بن الأصم من فرسان الجاهلية(٢).

ربيعة

هذا هو القسم الثاني من أقسام العرب العدنانيين ، وقد كان منه الفروع الآتية :

١ – **ضبيعة** بن ربيعة بن نزار ، ومنهم **الشاعر المسيب** ، وهو خال أعشى بكر الشاعر . ومنهم **المتلمس الشاعر** .

٢ – **عبد القيس** : ومن هؤلاء :

---

(١) الأنساب صفحة ٢٧٥ .

(٢) جواد علي ج ٤ ص ١٧٦ ، ص ٣٥٣.

أ - شَنّ : ومنهم **يزيد** بن شَنّ ، وهو أول [١] من ثقف القنا بالخط ؛ ومنهم **الدّيل** ؛ ومنهم **الأعور الشنّي** الشاعر .

ب - **لُكَيز** : ومنهم **البَرَاجم** ، وهم عبد شمس وعمرو وحيّ : بنو معاوية بن ثعلبة ؛ ومن لكيز كذلك : **الُحطَم بن محارب** الذي تنسب إليه الدروع الحُطَمية ؛ **والمثقّب** الشاعر ؛ **والممزق** الشاعر ؛ ويقال إنه سمي كذلك لقوله :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلي   وإلا فأدركني ولمّا أمزّق

٣ - **النمر بن قاسط** : ومنهم **عامر الضّحْيان** ، ويقال عنه إنه ساد ربيعة أربعين [٢] عاماً ؛ وأبو حَوْط الحظائر ؛ وابنه جابر الخير ، أخو المنذر بن ماء السماء لأمه [٣] .

٤ - **تغلب بن وائل بن قاسط** ؛ ومنهم **الأراقم** ، وهم جُشَم ، ومالك ، والحارث ، وعمرو وثعلبة ، ومعاوية أولاد بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب .

ومن بني جشم : عمرو بن كلثوم ، وبنوه : **عبدالله والأسود** شاعران ، وعَبّاد ، ومن ولده العتّابي الشاعر [٤] . ومنهم كذلك **كليب ومهلهل** ، **وليلى بنت مهلهل** وهي أم عمرو بن كلثوم . ومن جشم كذلك : **القطامي** الشاعر ؛ **والأخطل** الشاعر ؛ ومن **بني عوف** بن بكر بن حبيب : الشاعر **كعب بن جُعَيل** . ومن **بني عمرو** بن بكر بن حبيب : **الوليد** بن **طريف** الخارجي

---

(١) المرجع السابق ص ، ٢٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(٤) الأغاني ، جـ ١٢ ص ٢ - ١٠ .

وأخته ليلى القائلة :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

ومنهم **الأخنس بن شهاب** الشاعر الفارس .

ومن **بني ثعلبة** بن بكر بن حبيب : **عميرة بن جُعَل** الشاعر . وقد سكنت تغلب في العراق وفي بادية الشام ، واتصلت بحكم منازلها بالغساسنة والمناذرة والروم والفرس ، وكانت غالبيتها على النصرانية عند ظهور الإسلام [1] .

٥ – **بكر بن وائل بن قاسط** ، وهؤلاء منهم الفروع الآتية :

أ – **يَشكُر** ، ومنهم **الحارث** بن **حلزة** ، وسُوَيد بن أبي كاهل .

ب – **مالك** بن **صعب** بن علي بن بكر ؛ ومنهم : شَهْل بن شيبان ابن زِمّان ، وهو المعروف **بالفِنْد الزمّاني** .

جـ – **حنيفة** بن **لجيم** : وهم أهل اليمامة ، أصحاب نخل وزرع [2] . ومن **حنيفة** : عديّ بن حنيفة ، ومن هؤلاء مسيلمة الكذاب ، والعباس بن الأحنف الشاعر .

ومن حنيفة كذلك الدُّول ، ومنهم **هَوْزة** بن **علي** الذي توجّه إلى كسرى ؛ ومنهم كذلك **عمرو** بن **عبد الله** قاتل المنذر ابن ماء السماء يوم أباغ ، وفيه يقول أوس بن حجر :

أُنبِئتُ أن دماً حراماً نلتَه وهُريق في بُرْدٍ عليك محبَّرِ [3]

---

(١) نهاية الأرب ، جـ ٢ ص ٣١٦ .

(٢) الانساب ، ص ٢٩١ .

(٣) الانساب ، ص ٢٩٢ .

د - **عجل** بن **لجيم**، ومنهم **ثعلبة** بن **حنظلة** صاحب القبة يوم ذي قار؛ **والأغلب** العجلي الراجز ، **وأبو النجم** الراجز ، **والعَديل** الفرْخ الشاعر .

ه **سعد** بن **ضُبيعة** : ومنهم **الأعشى** ، قيس بن ميمون .

و - **مالك** بن **ضبيعة** : ومنهم **المرقش** الأكبر ، **والمرقش** الأصغر ، وطرفة بن العبد ، **وعمرو** بن قميئة ، **وعمرو** بن مرثد .

ز - **عُباد** بن **ضبيعة** : منهم الحارث بن عُباد ، وابنه بجير .

ح - **مُحَلّم** بن **ذهل** بن شيبان : ومنهم **عوف** بن محلم الذي يقال له : لا حُرّ بوادي عوف .

ط - **أبو ربيعة** بن ذهل بن شيبان ، ومنهم **هانيء** بن **مسعود** الذي هاج القتال بين بكر وبين تميم وضبة والرباب يوم ذي قار .

ي - **مرة** بن **ذهل** بن شيبان : ومنهم **المثنى** بن **حارثة** الذي حارب الفرس أيام ابي بكر رضي الله عنه ؛ وجسّاس بن مرّة (**قاتل** كليب) ؛ وهمّام بن مرة . ومن نسل همّام هذا : بِسْطام ابن قيس بن مسعود ، وابنه زريق بن بسطام ، والدحدراء التي تزوجها الفرزدق [١] .

وبكر من القبائل التي تركت ديارها القديمة في تهامة إلى اليمامة ثم إلى البحرين والعراق .

---

(١) الاغاني ، ج ٧ ص ٧٥ .

إيـــاد

هم القسم الثالث من العرب العدنانيين ، « وكانت منازلهم عين أباغ وما والاها [١] » . ويقول عنهم ابن قتيبة [٢] : « وكانت إياد أكثر نزارٍ عدداً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأمدهم ، وأرشدهم ، وأمنعهم ، وكانوا لقاحاً، لا يؤدون خرجاً . (واللقاح : بفتح اللام ، يقال : قوم لقاح . وحيّ لقاح : لم يدينوا للملوك ، ولم يصبهم في الجاهلية سباء) . وهم أول معدي خرج من تهامة ، فنزلوا السواد ، وغلبوا على ما بين البحرين إلى سِنداد والخورنق، وسنداد نهر كان بين الحيرة إلى الأُبُلَّة . وكانوا أغاروا على أموال لأنوشروان، فأخذوها، فجهز إليهم الجيوش ، فهزموهم مرة بعد مرة . ثم إن إياد ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة فوجه إليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفاً في السلاح ، فنبههم لقيـــط الإيادي بقصيدة أرسلها إليهم [٣] ، فاستعدت إياد لمحاربة جنود كسرى ؛ ثم التقوا ، فاقتتلوا قتـــالاً شديداً ، أصيب فيه من الفريقين ، ورجعت عنهم الخيل ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فلحقت فرقة بالشام ، وفرقـــة رجعت إلى السواد ، وأقامت فرقة بالجزيرة » .

ومن إياد : **لقيط** بن يعمر الإيادي الشاعر ؛ **وقسّ** بن ساعدة الحكيم المشهور ؛ **وأبو دؤاد** الشاعر ، واسمه جاريـــة بن الحجاج ، **وكعب** بن مامة الجواد المشهور .

---

(١) صفة جزيرة العرب ، ص ١٧٨ .

(٢) الشعر والشعراء ، نشر أحمد شاكر ، ص ١٥٠ .

(٣) راجع الشعر والشعراء ، ص ١٥٢ ، ومختارات ابن الشجري .

الفصل الخامس

منازل القبائل العربية

كثيراً ما نجد في افتتاحيات القصائد الجاهلية الحديث عن رحلة قبائل الحبيبات ، وتركهم دياراً كانوا يحتلونها إلى ديار أخرى . ولكننا مع ذلك نجد كثيراً من كتب الأدب والتاريخ « والجغرافيا » تتحدث عن ديار القبائل ومنازلها مما يدل على توطنهم لهذه البقاع ، وقد أوردنا في الفصل السابق كثيراً من ديار القبائل عند الكلام على أنسابهم .

ولا شك أن شبه الجزيرة العربية كانت بها مدن وقرى ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ، فالقوم الذين كانوا يسكنون هذه المدن والقرى كانوا يعيشون فيها عيشة استقرار ، حيث كانت موارد الرزق فيها ثابتة ومنتظمة ، أما بقية الأماكن فكان يعيش فيها البدو ، وهم من القبائل الذين يتصلون بالبادية أشد اتصال ، يعتمدون في حياتهم على الحيوانات ، فكانوا مضطرين للبحث عن غذاء لما يملكون من ماشية ، ولهذا كانوا يتتبعون مواقع الغيث ومنابت الكلأ لينزلوا بها ، حيث يجدون هناك ما يفي بحاجتهم وحاجة حيواناتهم من غذاء وماء . ومن ثم شاع الاعتقاد بأن حياة هؤلاء البدو كانت موزعة بين الإقامة والظعن ، تبعاً لوجود الكلأ ونفاده ؛ لا يستقرون في مكان إلا ويظعنون عنه ، فإقامتهم في المكان كانت لفترة ، تنتهي بانتهاء ما فيه من عشب وماء ، فإذا نضب معينه حزموا أمتعتهم ، وشدوا رحالهم إلى

مكان آخر لفترة أخرى ، وهكذا باستمرار ؛ لا يقر لهم قرار ، ولا يهدأ لهم بال ، فهم على سفر دائم ، وارتحال مستمر ، وكأن افتتاحيات القصائد في الشعر الجاهلي توحي بذلك وتؤيده .

حقيقة إن البدو من طبيعتهم حب الانتقال ، ومن ثم قيل إنهم لم يقيموا لهم دوراً ثابتة ، وإنما جعلوها سهلة في البناء ، خفيفة في الارتحال ، لا تحتاج في إقامتها أو اقتلاعها إلى جهد أو عناء ، ولكننا لا نعتقد أن هذا الارتحال كان يحدث باستمرار ، في كل شهر أو كل عام ، ربما كان التنقل السريع في بادىء الأمر حينما كانت كل قبيلة تبحث عن مكان ملائم من شتى الوجوه . فاذا ما عثرت على ضالتها ، وتحققت أمنيتها - وربما كان ذلك بعد محاولات كثيرة من الحل والترحال - كانت تتخذ هذا المكان الملائم داراً لها . ولا نستطيع أن نتصور كل واحدة من هذه القبائل تنزل بالمكان شهراً أو شهرين ، ثم تقلع عنه بحثاً عن آخر لفترة قصيرة وهكذا، كأنما كانت كل البقاع خالية أمامها، تنزلها حيث شاءت ، وكأنما لم يكن في البادية قبيلة أخرى سواها تبحث عن مورد رزق لها . وهل يمكن أن تنزل القبيلة مكاناً خاصاً هذا العام فتقيم به ما دام فيه الكلأ والعشب ، ثم ترحل عنه وتتركه لمن شاء من غيرها أن يحتله كأنما تأكدت هذه القبيلة أن هذا المكان قد أقفر إلى الأبد ، وأنه لن ينبت أبداً بعد تركهم إياه . ولعل مما يؤيد اتخاذ القبائل أمكنة خاصة دياراً لها أن علماء اللغة والأدب حينما همّوا بجمع اللغة من مصادرها الصحيحة النقية اتجهوا إلى قبائل مخصوصين ينزلون في أماكن معينة ، وهم الذين كانت ديارهم وسط الجزيرة العربية غير متاخمة لبلاد الأعاجم ولم يختلطوا بهم .

ولا شك أن هناك ظروفاً مختلفة تضطر القوم إلى الهجرة والارتحال : فكثرة النسل تؤدي إلى ضيق المكان بأهله ، وذلك يجعل القوم يحاولون توسيع الرقعة التي ينزلونها ، إما حواليها وفيما يتصل بها إن كان هناك مايسمح لهم بذلك ، وإمّا بالبحث عن مكان أوسع في بقعة أخرى ، وقد يكون ذلك بارتحال الكل أو بعضهم تبعاً لمقتضيات الأحوال ، كما حدث في بادىء

الأمر عندما تكاثر أبناء القحطانيين والعدنانيين ، وسجلته كتب الأدب والتاريخ (١) .

كما أن الحروب والشقاق والتناحر والتنافس كثيراً ما ينجم عنها هجرات ، واحتلال وارتحال . من ذلك ما يحكيه أبو عبيدة في شرح النقائض (٢) عن عبس في حرب داحس والغبراء من أنهم بعد جفر الهباءة ظعنوا إلى كلب بعُراعر ، ثم حدثت موقعة عراعر ، فحلوا على بني سعد وهم بالفروق ، إلى أن حدثت موقعة الفروق فسار بنو عبس حتى وقعوا باليمامة حيث أرادوا محالفة بني حنيفة ، ثم لحقوا ببني عامر بن صعصعة وجاوروهم ، حتى غزتهم بنو ذبيان وبنو أسد ومن تبعهم من بني حنظلة يوم جبله ، فتوجهوا نحو تغلب وأخيراً أشار عليهم قيس بالذهاب إلى قومهم ومصالحتهم .

وقد تحدث الهجرة بسبب ظروف اقتصادية كما حدث للقبائل اليمنية بعد سيل العَرِم وانهيار سد مأرب .

وسكان البادية كانوا يعتمدون في حياتهم على الماشية ، ومن ثم كان أول ما يعنيهم هو البحث غن غذاء لهذه الماشية ، فكانوا يخرجون بها إلى الأمكنة التي توجد بها الأعشاب والنباتات التي تصلح غذاء لها ، وقد يمكثون في هذه الأماكن المعشبة بعض الوقت، ولكن مهما كان مكثهم فيها ، طال أم قصر، فإنهم لم يتخذوها مواطن إقامة ثابتة ، بل كانوا ، إذا انتهى الموسم عادوا إلى مواطنهم ينتظرون أن يحول الحول وينزل الغيث (٣) .

ولعل مسير القبائل إلى مواطن الكلأ في المرتبع ، وإقامتهم فيها ما دام

---

(١) راجع كتب : صفة جزيرة العرب للهمداني ، ومعجم ما استعجم للبكري ، وشرح النقائض لأبي عبيدة ومعجم البلدان لياقوت وصبح الأعشي للقلقشندي ، وتاريخ الطبري وابن الأثير والمسعودي .

(٢) نقائض جرير والفرزدق طبعة أوربا ص ٩٨ .

(٣) فجر الإسلام ص ٩ .

العشب هناك ، وارتحالهم عنها بعد انتهائه إلى منازلهم الأصلية، كانت السبب فيما تردد ذكره في افتتاحيات القصائد الجاهلية ، وقد ورد في الشعر الجاهلي، وتعليقات الباحثين عليها مايؤيد ذلك، من ذلك مثلا ما يقوله الأعلم الشنتمري في شرحه لبيتي امرىء القيس (١) :

فَلِلَّهِ عَيْنا مَنْ رأى من تَفَرُّقٍ   أَشَتَّ وأنأى من فراق المُحَصَّبِ

فريقان ، متهم جازعٌ بطنَ نخلةٍ   وآخر منهم قاطعٌ نجدَ كَبْكَبِ

إذ يقول : « تفرق القوم فرقتين ، فمنهم من أخذ سُفْلاً ، ومنهم من أخذ علواً ، وإنما يعنى افتراق الحيين بعد انقضاء المرتبع الذي كان يجمعهم ، فيلقى به كلٌّ من كان يُحبّ ، ورجوع كل حي إلى مائه وموضع إقامته » .

ولأنهم ما كانوا ينوون الإقامة في مثل هذه المواطن إقامة دائمة أو لمدة طويلة ، كانوا يصنعون بيوتهم فيها من خشب ضعيف ، ويظللونها بالثمام ، يقول الشنتمري في تعليقه على البيت (٢) :

أَمَرْخٌ خيامُهُمْ أم عُشَرْ   أم القلبُ في إثرهم مُنحدِرْ

« المرخ : شجر خوار ضعيف يتخذ منه الزناد والخيام ، وهو خشب ينصب بالمرتبع ويظلل بالثمام ، فيسكنونها ، فإذا رجعوا إلى المياه تركوها حتى يعودوا إليها ، وإنما يفعلون ذلك لأن ظل الثمام أبرد من ظل الأبنية . والعشر شجر ينبت بالغور ، ومعنى البيت : يتساءل الشاعر فيقول : أأنجدوا أم أغاروا ؟ أي أتوا نجدا أم الغور أم لم ينزلوهما » .

فديارهم كانت في أماكن معينة ، وإنما كانوا يتحركون في أوقات العشب

---

(١) ديوان امرىء القيس : دار المعارف ، ص ٤٣ ب : ١١ - ١٢ ، والمحصب : الحصباء الذي يرمى في الحج ، يشبههم به في التفرق والتشتت في اتجاهات مختلفة ومتباعدة .

(٢) ديوان امرىء القيس ، ص ١٥٤ ب ٦ .

بدوابهم إلى مواطنه ، ويتخذون لهم هناك مساكن مما تنبته الأرض هناك من شجر وحشائش ، ثم يعودون بعد انتهاء الكلأ إلى منازلهم الأصليـــة ، وكما رأينا في تعليق الأعلم يبدو أن القوم كانوا دائماً يعاودون الرجوع إلى هـــذه المواطن التي ينتجعونهـــا في مواسم العشب ، مما يؤيد أنهم كانوا يتمسكون بالمكان الذي ينزلونه في أي وقت ، وفي أي مكان .

ويبدو أن بعض القبائل كانوا يتخذون لهم دياراً مختلفة تبعاً لفصول السنة ففي الصيف ينزلون داراً ، وفي الشتاء أخرى ، وفي مثل هذا يقول طرفة[1] :

حيثما قاظوا بنجد وشتوا　　بين ذات الحاذِ من ثِنْيَي وقُرْ

ويقول بعض العرب : « من قـــاظ الشريف ، وتَربّع الحَزْن ، وشتّا الصمّان ، فقد أصاب المرعى » [2] . فاذا ما انتهى الموسم عادت القبيـــلة إلى منازلها .

فارتحال القبائل البدوية وتنقلها بين ربوع الصحراء ، بمعنى تركهم منازلهم إلى غير رجعة ، ما كان يحدث باستمرار على فترات قصيرة ، كل شهر أو كل عام ، انما كان يحدث بعـــد فترات طويلة وتحت ظروف كالـــتي أشرنا إليها ، أما ذهابهم المؤقت إلى بعض الأمكنة في موسم من المواسم ثم يعودون بعد انقضاء حاجاتهم هناك إلى منازلهم الأصلية ، فهذا لا شك كان يحدث بحكم الظروف التي كانوا يعيشون فيها ، ولعل افتتاحيات القصائد في الشعر الجاهلي كان الشاعر يعبر فيها حقيقة عما حدث فعلاً في رحلات الرعي ، أو لعله كان في بدء الأمر حقيقة واقعة تحدث عنها الشعراء الأوائل حينما كانت القبائل تبحث عن مكان ملائم تتخذه منزلاً دائماً لها ، فكانت تقضي في مكان أو أمكنة بعض الوقت ، ثم ترحل إلى أن وجدت كل منها مكانـــاً يحقق رغباتها ، فاتخذته لها منزلاً وداراً . ثم أصبح هذا الافتتاح الشعري تقليـــداً جرى عليه الشعراء

(١) ديوان طرفة للدكتور علي الجندي ، البيت ١٤١ .
(٢) صفة جزيرة العرب ص ١٧٣ .

اللاحقون تبعاً لأسلافهم السابقين .

ومع أننا ذكرنا ديار القبائل في أثناء الحديث عن أنسابها في السابق ، فسنورد فيما يلي مقتطفات مما جاء في كتب الأدب والتاريخ والشعر في هذا الشأن .

فمما تحدثت به كتب الأدب والتاريخ عن منازل القبائل العربية في الجاهلية ؛ ما يقوله البكري[1] عن سكان الحجاز .

« وجاء الله عز وجل بالإسلام ، وقد نزل الحجاز من العرب : أسد ، وعبس وغطفان وفزارة ومزينة وفَهْم وعَدْوان وهُذَيل وخثعم وسلول وهلال وكلاب بن ربيعة ، وطيىء - وأسد وطيىء حليفان - وجهينة نزلوا جبال الحجاز : الأشعرَ والأجردَ وقُدْساً ، وآرةَ ورَضْوى ،وأسهلوا إلى بطن إضَم . ونزلت قبائل بليّ شَغْباً وبَدَا ، بين تيماء والمدينة .ونزلت ثقيف وبجيلة حضرة الطائف ، ودارُ خثعمَ من هؤلاء : تُربةُ وبيشةُ وظهرُ تبالةَ على محجة اليمن من مكة إليها ، وهم مخالطون لهلال بن عمرو ، وبطن تبالة لبني مازن ، ودارُ سلول في عمل المدينة، ومنازلُ أزد شنوءة السراةُ ، وهي أودية مستقبلة مطلع الشمس بتثليث وتربة وبيشة ، وأوساط هذه الأودية لخثعم على ما تقدم وأحياءِ مذْحج . وهذه الأودية تدفع في أرض بني عامر بن صعصعة . ومن بقي بأرض الحجاز من أعجاز جشم ونصر بن معاوية ، ومن ولد خصفة بن قيس فَهُمْ بالحرة ، حرة بني سُليم ، وحرة بني هلال ، وحرة الربذة ، إلى قرن تربة ، وهم مخالطون لكلاب بن ربيعة. وهؤلاء كلهم من ساكني الحجاز » .

ويقول عن سكان نجد : « ونزل نجدا من العرب بنو كعب بن ربيعة بن عامر ، ودارُهم الفَلَجُ وما أحاط بها من البادية ، ونزل نُميرُ بن عامر ،

---

(١) معجم ما استعجم ص ٩٠ .

وباهلة بن يَعصُر وتميم كلها بأسرها باليمامة ، وبها دارهم إلا أن حاضرتها لربيعة بن نزار وإخوتهم » .

وتحدث عن انتشار ربيعة ومضر بني نزار ، فقال [١]: «وحدثت حروب بين بني ربيعة فتفرقت وتمايزت ؛ فارتحلت عبد القيس وشنّ بن أفصى فاختاروا البحرين وهجر ، واقتسموها فيما بينهم ، فنزلت جذيمة بن عوف بن عبد القيس الخَطّ وأعناءها ، ونزلت شَنّ طرفها وأدناها إلى العراق ، ونزلت نُكـرَة وسط القَطيف وما حوله . ونزلت عامر بن الحارث بن عبد القيس الجَوْفَ والعيونَ والأحساء حذاء طرف الدهناء » .

ويقول كذلك [٢]: «وظعنت بنو حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر ابن وائل يتبعون الكلأ والماء ، وينتجعون مواقع القطر والغيث على السمت الذي كانت عبد القيس سلكت . . . وسكنوا اليمامة » .

ويقول أيضاً [٣] : «وأقامت سائر قبائل ربيعة من بكر وتغلب وغُفَيلة وعَنَزَة وضُبَيعة في بلادهم من ظواهر نجد والحجاز وأطراف تهامة حتى وقعت الحرب بينهم ، فتفرقوا ؛ فتبددت تغلب في البلاد ، وانتشر بكر بن وائل وعنَزَة وضُبيعة باليمامة فيما بينها وبين البحرين إلى أطراف سواد العراق ومناظرها وناحية الأُبُلّة إلى هِيتَ وما والاها من البلاد . وانحازت النمرُ وغُفيلة إلى أطراف الجزيرة وعانات وما دونها إلى بكر بن وائل وما خلفها من بلاد قضاعة من مشارق الأرض » .

ومما قاله الشعراء عن منازل القبائل في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام . ما جاء في قصيدة للأخنس بن شهاب التغلبي في المفضليات ، إذ يقول [٤] :

---

(١) المرجع السابق ؛ ص ٧٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٥ .
(٤) مفضليات اوربا ص ٤١٤ .

لِكلّ إناسٍ من مَعَدٍّ عِمارةٌ عَرُوض إليها يَلْجئُون وجانبُ

(العروض : الناحية . العمارة : الحي العظيم يقوم بنفسه .)

لُكَيْز لها البحْران والسِّيفُ كلُّه وإنْ يأتها بأسٌ من الهند كارِبُ

(السيف : ضفة البحر . الكارب : فاعل من الكرب وهو شدة الأمر .)

تَطَايرُ عن أعجاز حُوشٍ كأنها جَهَام أراق ماءه فهو آئِبُ

(الحوش : إبل وحشية لم تُرض الجهام : السحاب الذي هراق ماءه . آئب : راجع .)

وبكْرٌ لها ظَهْرُ العراق وإن تشأ يَحُلْ دُونَها من اليمامةِ حاجبُ

(الحاجب : المانع . يعني بكر بن وائل ، يقصد أن لها هذا ، وإن أتاها خوف وشاءت أن يمنعها منه مانع من اليمامة قدرت على ذلك ، أي أن لها باليمامة من يمنع ضيمها ، يعني بني حنيفة بن لجيم ، أخو عجل ابن لجيم بن صعب بن علي بن بكر .)

وصارت تميمٌ بين قفّ ورَملةٍ لها من حِبال مُنْتأى ومذاهِبُ

(القف : ما خَشُن من الأرض واجتمع . والحبال : حبال الرمل وهي معاظمها . والمنتأي : مفتعل من النأى وهو البعد . أي لهـا بُعد ومذاهب عن عدوها فلا يصل إليها .)

وَكلْبٌ لها خَبْتٌ فرملةُ عالجٍ إلى الحَرَّة الرَّجْلاء حيث تُحارِبُ

(خبت : منازل كلب من نحو هيت . الحرة : الأرض تلبس الحجارة ، ويقال لها : اللابة واللوبة ، والجمع لابٌ ولوبٌ . وقال الأصمعي : إنما

سمي الحجاز حجازاً لكثرة الحرار فيه لأن أهل الحرة يحتجزون بها من الخيل . الحرة الرجلاء : الغليظة .)

وَغسانُ حيٌّ عزُّهم في سِواهُمُ يجالدُ عنهم مِقنَبٌ وكتائبُ

(يقول : هم ملوك ولم يكونوا كثيراً . وكانت الروم توليهم وتقاتل عنهم ، فعزهم في غيرهم ، وإنما كانوا نزولاً مع قوم العرب . وغسان ماء . المقنب : الجماعة .)

وبَهْراءُ حيٌّ قد علمنا مكانَهُمْ لَهُمْ شَرَكٌ حوْلَ الرصافةِ لاحِبُ

(الشرك : الموارد والآثار . الرصافة : ناحية حمص وهي لهشام بن عبد الملك . اللاحب : الطريق الماضي المنقاد .)

وغَارتْ إيادٌ في السّوادِ ودُونَها بَرَازِيقُ عُجْمٌ تَبْتَغي مَنْ تُضاربُ

(غارت : دخلت . برازيق جمع بَرْزَق وهو بالفارسية أراد كتائب ، تبتغي : تطلب . تضارب : تقاتل . وسمي السواد سواداً لكثرة نخله .)

ولَخْمٌ ملوكُ الناسِ يُجْبَى إليهمُ إذا قال منهم قائلٌ فهوَ واجِبُ

(أي قد وجب ما قال لأنهم ملوك .)

ونَحْنُ أُناسٌ لا حجازَ بأرضنا مع الغيثِ ما نُلقَى ومَنْ هوَ غالِبُ

(لا حجاز بأرضنا أي نحن مُصْحرون لا نخاف أحداً فنمتنع منه . وقوله مع الغيث ما نلقى : أي كلما وقع الغيث في بلد سرنا إليه وغلبنا عليه أهله . أراد مع الغيث نلقى ، وجعل « ما » زائدة . وقوله : من هو غالب : أي من هو غالب كذلك فأضمر الجواب .)

وقال الأسود بن يعفُر النهشلي [١] :

مَاذَا أُؤمّل بعــد آل مُحرِّق تركوا منــازلَهم وبَعد إيادِ

(قيل : عنى محرقاً الغساني [٢] ، وكأنما أغار هو وأخوه في إياد وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم على بني ضبة بن أد ، وهم ببزاحة ، فاستاقا النعم ، فأتى الصريخ بن ضبة ، فركبوا ، وأدركوه ، فاقتتلوا قتــالاً شديداً ، ثم ان زيد الفوارس حمل على محرق فأعتنقه فأسره ، وأسروا أخــاه ، أسره حبيش بن دُلف السِّيدي ، فقتلهما بنو ضبة . وكان يقال لأخي المحرق : « فارسُ مَرْدود » . وهُزم القوم ، وأصيب منهم أناس كثير [٣] .)

أَهْلِ الخورنق والسدير وبارقٍ والقَصْرِ ذي الشُّرُفات من سِنْداد

(سنداد [٤] : نهر الحيرة . والخورنق : موضع . السدير : النخل .)

أرضــاً تخيَّرها لدار أبيهم كعبُ بن مامة وابنَ أم دؤاد

جرَتِ الرياح على مكان ديارهم فكأنمــا كانوا على ميعاد

ولقد غَنوْا فيها بأنعَمِ عيشةٍ في ظــل مُلْك ثابت الأوتادِ

وقال بعض آل أسعد بن مَلِيكَيْكَرِب تُبّع ، وذكَر منــازل مَن

---

(١) مفضليات أوروبا ، ص ٤٤٦ ، أو الشعر والشعراء ص ٢١٠ .

(٢) المعروف ان الذي يلقب بالمحرق هو عمرو بن هند من المناذرة لأنه نذر أن يقتل من تميم مائة رجل حرقاً وبر بوعده في يوم أوارة .

(٣) راجع يوم بزاخة .

(٤) يقول جواد علي (ج ٤ ص ٢٩٠) يفهم من روايات الأخباريين عن سنداد أنه قصر ونهر ومنازل نزلت بها إياد حين مجيئها إلى العراق ، وأنه كان في الأصل اسم حاكم فارسي كان قد عين على هذه المنطقة ، فأقام بها مدة طويلة وبنى أبنية كثيرة من جملتها القصر الذي ذكر في شعر الأسود بن يعفر .

خرج من اليمن في سائر جزيرة العرب وغيرها[1] :

وقد فارقت منّا ملوكٌ بلادها فصاروا بأرضٍ ذاتَ مبدى ومَحضر

خزاعة :

وقد نَزَلتْ منا خُزاعة منزلا كريماً لدى البيت العتيق المُستَّر

وفي يثرب منا قبائلُ إن دُعوا أتوا سُرُباً من دارعينَ وحسَّر

همو طردوا منها اليهودَ فأصبحوا على معْزلٍ منها بساحة خيْبَر

غسان :

وغسَّانُ حيٌّ عِزُّهم في سيوفهم كرام المساعي قد حَوَوْا أرض قيصر

قضاعة :

وقد نزلت منا قضاعةُ منزلاً بعيداً فأمست في بلاد الصَّنوبر

كلب :

وكلبٌ لها ما بينَ رَمْلةِ عالجٍ إلى الحرَّة الرجلاء من أرْض تدمُر

لخم :

ولخمٌ فكانت بالعراق ملوكُها وقد طحرت عدنانَ في كل مَطْحَر

جذام :

وحَلَّتْ جُذامٌ حيث حلّت وشاركت هنالك لخماً في العُلا والتجبُّر

الأزد

وأزدٌ لها البحران والسّيفُ كله وأرضُ عمانٍ بعد أرض المشقَّر

---

(١) صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٦ .

ومنّا بأرض الغَرب جندٌ تعلّقوا | إلى بَرْبَرٍ حتى أتوا أرض بَربَر

وقال جماعة البارقي في الأزد[1] :

حلّت الأزدُ بعد مأربها الغوْ | رَ فأرضَ الحجاز فالسَّرَواتِ
ومضت منهم كتائبُ صدق | منجدات تخوض عرض الفلاة
فأتت ساحة اليمامة بالأظْعان | والخيل والقنا والرماة
فأنافت على سيوف بطسمٍ | وجديس لدى العظام الرفات
والتأبّت تؤم قافية البحْرَيْن | بالُخور بين أيدي الرُّعاة
فأقرّتْ قرارها بعُمانٍ | فعُمانٌ محلّ تلك الُحماة
وأتت منهم الخوَرْنق أُسْدٌ | فاحتتوا مُلكَها ومُلكَ الفرات
وسَمت منهمُ ملوكٌ إلى الشا | م على التبْنيَة المُضمَرات
فاحتَوَوها وشدّوا الملكَ فيها | فلهم مُلكُ باحة الشامات
تلكم الأكرمون من ولد الأزْ | دِ لغسّان سادة السادات
ملكوا الطود من سَرُوم إلى الطا | ئف بالبأس منهم والثبات
واحتوتْ منهم خُزاعتُها الكعْ | بةَ ذاتَ الرسوم والآيات
أخرجت جُرهُمَ بن يشجب منها | عنوة بالكتائب المعلمات
فولاة الحجيج منها ، ومنها | قدوة في منى وفي عرفات
وإليها رفادة البيت والمر | باعُ يجبى لها من الغارات

---

(١) صفة جزيرة العرب صفحة ٢٢٠ .

وبنو قَيْلَـــةَ الذين حووا يثْـ رِبَ بالقود والأسُود العتـــاة

رجفوا لليهـــود وهي ألوفٌ من دهاة اليهود أيّ دهـــاة

فأبادوا الطغـــاة منهـــا ولمّا يفشلوا في لقـاء تلك الطغاة

وأذلّوا اليهود فيهـــا وأجلَوْا منهم الحرَّتَين والـــلابات

ابح المـــاء والفَسيل لقومٍ تحت آطامهـــا مع الثمرات

ورعاة لهم تُسيمُ سروحـــاً وسُقاة قوارب وطهـــاة

أسروها من اليهـود لدى تشْـ تيتها في القُري وفي الفلوات

أيهـــذا الذي يسائل عنّـــا كيف يخفى عليك نور الهداة

نحن ولد الفخار من ولد الأزْ دِ وأهل الضيـــاء والظلمات

هل ترى اليوم في بلاد سوانا من ملوك وســـادة ووُلاة؟

وقد ذكر الحارث بن حلزة في معلقته كثـيراً من بلاد قومه ومجالسهم ، وكذلك في معلقة لبيد كثير من مواضع نجد والحجـاز . وجاء في شعر أبي داود كثير من بلاد إياد، كما ورد ذكر كثير من القوم وديارهم في شعر امرىء القيس وغيره من الشعراء .

الفصل السادس

حياتهم ومعيشتهم

هذه القبائل العربية بفرعيها العظيمين الجنوبي والشمالي ، كانت موزعة في شبه الجزيرة العربية بين ربوع صحاريها الواسعة ، ومدنها وقراها التي سبق أن أشرنا إلى بعضها . فمن كان يسكن المدن والقرى كانوا يسمون «الحضر» ومن كان ينزل في البادية كانوا يسمون « البدو » . وكان لكل من هذين النوعين أسلوب خاص في الحياة والمعيشة ، أوجدته ظروف البيئة التي كانت تحيط به .

فالحضر ، وهم سكان المدن والقرى كانوا يعيشون على موارد ثابتة من الرزق كالزراعة والتجارة ، والأولى تزدهر حيث الأرض الخصبة ، والمياه الغزيرة اللازمة للإنبات والزرع والسقي والإستثمار، وهذه توجد في الجهات التي تسقط فيها الأمطار بكثرة، أو تفيض فيها العيون والآبار بوفرة، وهذه الاماكن توجد في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب والطائف ووادي القرى ودومة الجندل وتبوك وخيبر وتيماء . وقد كانت اليمن جنة وارفة الظلال حتى أجمع المؤرخون على امتداح غنى اليمن ، وسموها بالأرض السعيدة ؛ ومما قاله المسعودي في ذلك[1] : « ذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٠ .

أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها وأكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مروجاً ، مع بنيان حسن ، وجسر مقيم ، وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار متفرقة ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجدّ على هذه الحال ، وفي العرض مثل ذلك؛ أن الراكب أو المار كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى آخرها لا يرى جهة الشمس ولا يفارقه الظل لاستتار الأرض بالعمارة والشجر ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، فكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه ، وأهنأ حال وأرغده ، وفي نهاية الخصب ، وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق المياه ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، فكانت بلادهم في الأرض مثلاً . وكانوا على طريق حسن من اتباع شريف الأخلاق ، وطلب الفضائل على القاعد والمسافر بحسب الإمكان ، وما توجده القدرة من الحال، فمضوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار ، لا يعاندهم ملك إلا قصموه ، ولا يوافيهم جبار في جيش إلا هزموه ، فذلت لهم البلاد، وأذعنت لطاعتهم العباد ، فصاروا تاج الأرض » . ولا شك في أن هذا القول صحيح ، فقد حكى الله عنهم ذلك بقوله تعالى: « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له ، بلدة طيبة، ورب غفور » .

وهكذا كان اليمن على وجه العموم أهل حضر ، وكانت لهم مدن وقصور وأثاث ورياش ، ولبسوا الخز ، وافترشوا الحرير ، واقتنوا آنية الذهب والفضة، وغرسوا الحدائق والبساتين، ويحكي المؤرخون عن حضارتهم وأبهتهم ما يفوق التصديق، فذكروا ما كان لهم من أسرة وموائد من الفضة ، ورياش من أفخر الثياب وأغلاها ، وقصور قائمة على أساطين محلاة بالذهب ومطعمة بالفضة، ويعلقون على أفاريز منازلهم وأبوابها صحائف الذهب مرصعة بالجوهر، ويبذلون في تزيين قصورهم أموالاً طائلة لكثرة مايدخلونه في زينتها من الذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة وغيرها من المواد الثمينة .

ويعزى رقي تلك الربوع الجنوبية السعيدة إلى عوامل عديدة منها نصيبها

الوافر من الأمطار ، وقربها من البحر ، ومركزهـا الجغرافي الخطير على خط الاتصال بالهند، وكان من حاصلاتها الطيوب والمر وسواهما من طرائف العطور والأفاوية التي تستعمل توابل للطعام ، أو تحرق في حفلات البـلاط والمراسيم الدينية ، وأجدرها بالذكر البخور ، وهو أثمن البضائع التي تداولتها التجارة القديمة . وإلى هذه البلاد ترد الحاصلات الغالية المرغوبة ، فكان يرد اللؤلؤ من خليج العجم ، والأنسجة والسيوف من الهند ، والحرير من الصين ، والأرقاء والقرود والعاج وريش النعام والذهب من الحبشة ، وكانت جميعها تجد طريقها إلى أسواق بلاد العرب [1] » .

فحيثما وجدت الزراعة كان الخير الكثير ، والحياة المستقرة ، فأقام الناس بين مزارعهم ، وجعلوا مساكنهم ثابتة في وسطها ، فنشأت هنـــاك القرى والمدن . أما التجارة ، فكان هناك من السكان من اشتغل بها ، وقد مر ذكر هذه الطرق التي كانت تسلكها القوافل التجاريـــة من أطراف شبه الجزيرة العربية وعبرها ، « وكان الجزء الجنوبي من بلاد العرب بلد الليان والطيب والبهار، وكان سكانه همزة الوصل بينهم وبين أسواق الهند وبلاد الصومال[2]» وقد تهيأت لمكة اسباب سياسية ودينيـة واقتصادية جعلتها مركزاً هامـــاً للتجارة في الجاهلية ، فكان يوجد في شبه الجزيرة العربية طريقان عظيمتان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي ، إحداهمـا تسير شمالاً من حضرموت إلى البحرين على الخليج العربي ، ومن ثم إلى صـور ؛ والثانية تبدأ من حضرموت أيضاً ، وتسير محاذية للبحر الأحمر ، متجنبة صحراء نجد وهجيرها، ومبتعدة عن هضاب الشاطيء ووعورتها ، وعلى هذه الطريق الأخـيرة تقع مكة في المنتصف تقريباً بين اليمن وبطرة . وكان اليمنيون ينقلون غـلات حضرموت وظفار ، وواردات الهند إلى الشام ومصر ، وبعد أن انحط اليمنيون حـــل محلهم عرب الحجاز حوالي القرن السادس الميلادي ، فكان الحجازيون يشترون

---

(١) فيليب حتي ، ج ١ ص ٦٣ .

(٢) تاريخ العرب لفيليب حتي ، ج ١ ص ٥ .

السلع من اليمنيين والحبشيين ، ويبيعونها على حسابهم في أسواق الشام ومصر. وكانت مكة قاعدة لعرب الحجاز، وعندما اشتدت العداوة بين الروم والفرس اعتمد الرومانيون إلى حد كبير على تجارة مكة .

وكانت السلع التي تتاجر فيها قريش : الأدم والزبيب والصمغ والطيب والتبر والحرير والبرد اليمانية والثياب العدنية والأسلحة ومصنوعات الحديد ، والذهب من معدن بني سليم ، والسلع المستوردة من افريقية والهند والشام وحوض البحر الأبيض المتوسط ؛ ومن المنسوجات النفيسة الغالية التي استوردها التجار لبلاد العرب : الديباج والاستبرق والسندس [1] التي كان يتنافس الأغنياء وذوي الثراء والجاه في اقتنائها .

وكان في مكة البيت الحرام الذي يقدسه جميع العرب ، وكانت قريش سدنة هذا البيت، يقومون بالعناية به والمحافظة عليه، فأكسبهم ذلك احتراماً عظيماً ، فكانت لهم منزلة سامية في نفوس العرب جميعاً ، مما كان له أثر كبير في تحسين مركزهم التجاري العظيم ، كما أن زمزم كانت تفيض ، بالقرب من مكة ، ماء سلسبيلا ، مما جعلها مركزاً هاماً للقوافل التجارية ، فكانت القوافل تستقي منها ، وتأخذ حاجتها من الماء ، فنشطت التجارة في مكة نشاطاً عظيماً ، واشتهرت قريش بها، وأثرت بسببها ثراء عظيماً ، حتى إن صاحب لسان العرب قال : إنها سميت بهذا الاسم ، لأنهم كانوا أهل تجارة ، من قولهم « فلان يتقرش المال » أي يجمعه ، وامتنّ الله عليهم بهذا الثراء وما كانوا فيه من أمن بقوله تعالى : « لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من

---

(١) الديباج : يعد من أثمن أقمشة الحرير ، ويظهر أنه دخل بلاد العرب عن بني إرم ، أو من الساسانية رأساً ، وقد ذكر علماء اللغة أن اللفظة أعجمية ، غير أن العرب تكلمت بها قديماً فصارت عربية . والديباج الخسرواني من أحسن أنواع الديباج . وأما الإستبرق فهو الديباج الغليظ ، وهو من الألفاظ الفارسية المعربة ، وكذلك السندس ؛ وهو رقيق الديباج ورفيعه (جواد علي ، ج ٤ ص ١٧٥) .

خوف » . فكان لهم رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام ، ولم تكن قريش تستورد التجارة لتخزنها في مكة وحدها ، فمكة وحدها بلد صغير ، لا تستوعب أسواقها هذه التجارات، بل كانت تستوردها من الشمال والجنوب لتصرف ما يمكن بيعه في أسواق مكة وهو القليل ، ولتصدر وهو الغالب ما استوردته من الجنوب إلى الشام ، ولتصدر ما استوردته من الشام إلى اليمن ، ومنها إلى بقية العربية الجنوبية والسواحل الافريقية المقابلة ، فتستفيد من هذه الصفقات ربحاً حسناً [١] .

فحيثما كانت توجد موارد الرزق الثابتة من الزراعة أو التجارة عاش القوم على ما ينتج لهم من ذلك ، واستقروا ، فأقاموا القرى والمدن .

أما الصناعة ، فكانت قليلة وعلى شيء يسير ، ولكن حيثما وجدت كانت تقام البيوت الثابتة وتنشأ القرى ، كما يحكي الهمداني عن « صَعْدة » مثلاً ، فيقول : « وقال بعض علماء العراق : إن النصال الصاعدية تنسب إلى صعدة ، وهي كورة بلاد خَوْلان ، وموضع الدباغ في الجاهلية الجهلاء ، وذلك أنها في موسط بلاد القرَظ [٢] » . ويقول عن الطائف : « وهي مدينة قديمة جاهلية ، وهي بلد الدِّباغ ، يدبغ بها الأهب الطائفية المعروفة [٣] » . كما اشتهرت اليمن بدباغة الجلود. ومن أهم المواد المصنوعة من الجلود الدلاء والقرب والنعال والخفاف والأنطعة ومواد أخرى تستعمل في البيت واشتهرت اليمن كذلك بالنسيج والحياكة ، ومن أشهر ثيابهم البرود : العصب والسحل والسيراء [٤] .

---

(١) جواد علي ، ج ٨ ص ١٤٦ .

(٢) صفة جزيرة العرب ، ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٤) جواد علي ج ٨ص١٦٩ ، والبرود : أنواع مختلفة منه الخال وهو ثوب ناعم، والعصب: ضرب من البرود اليمنية يدرج ثم يحاك . والسحل : ثوب لا يبرم غزله ، والسيراء : ثوب مخطط، وقيل هو ما فيه خطوط صفر ، أو يخالطه حرير والذهب الخالص .

وأما البدو ، فكانوا غالبية السكان ، قبائل متفرقة متناثرة في الصحراء التي تشتهر بالجدب والقحط ، ليس فيها من زرع إلا ما ينبت من العشب غب المطر ، فاعتمد أهلها على ما في هذه الصحراء من حيوان ، مستأنساً كان أم متوحشاً ، فكانوا يصطادون الوحش ؛ يقتلونه ، ويشوون لحمه ويتخذون منه غذاء شهياً ؛ وتعهدوا المستأنس بالتربية والرعاية والعناية ، وأهم هذه الحيوانات المستأنسة كانت الإبل والخيل والغنم والمعز ، فكانوا يتخذون من الإبل والغنم والمعز موارد رزقهم ، ووسائل حياتهم ؛ يأكلون لحمها ويشربون لبنها ، ويتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها لباساً ، يقيهم الحر والبرد، ومساكن يقيمون فيها ، وأثاث بيوتهم وأمتعتهم . واعتمدوا على الخيل في السلم وفي الحرب ، يصيدون بها الوحش من الحيوان للغذاء ، ويغيرون بها أو يقاتلون . وكانت الإبل كذلك عوناً لهم في الحرب كما كانت في السلم ، وكانت ثروة الواحد منهم تقدر بما لديه من هذه الحيوانات وبخاصة الإبل والخيل ، ولذلك كان لهذين النوعين من الحيوانات قيمة عظمى في نظرهم. ومن ثم كان العربي يميل إلى الإكثار من ماشيته سواء بالتربية والرعاية ، أو بالاستيلاء عليها عن طريق الإغارة والحرب . فموارد رزق البدوي ، ومصادر ثروته كانت هذه الحيوانات التي يملكها ، وما يغنمه من الغارات والحروب إن حالفه الحظ ، وما يتقاضاه من جعل يدفعه اصحاب القوافل التجارية التي تخترق الصحراء ، نظير حمايتها والمحافظة عليها . وما كان البدوي يفكر في الاشتغال بمورد ثابت، يربطه بمكان لا يبرحه طول حياته ، وتستره حيطانه عن نور الفضاء ، واتساعه الفسيح الأرجاء ، ومن ثم أنف من الاشتغال بالزراعة ، أو الصناعة ، فتركوا ذلك لغيرهم ممن كانوا يعتبرونهم أقل من البدو أنفة وكبرياء ، وكان مبدأ العربي : « الذل بالحراث ، والمهانة بالبقر ، والعز بالإبل ، والشجاعة بالخيل [1] » . ولهذا تمسكوا بالصحراء ، وعاشوا بين جنباتها الواسعة ، تحت سقوف خيامهم ، وبين حيواناتهم ، يتنفسون من

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير صفحة ٣٣ .

هوائها العذب ، ونسيمها العليل ، يحمل بين هبوبه وحركاته ، الحرية والسيادة المطلقة ، فكان يغذي روحهم المتعشقة الإنطلاق ، والمطبوعة على الأنفة من الحدود والقيود . ولكن بسبب الجدب الضارب أطنابه لم يكن هناك من الموارد ما يكفي لإنعاش هؤلاء البدو ، وتوفير عيشة هنيئة لهم جميعاً ؛لذلك انتشر الفقر والبؤس فيهم ، ولم يكن فيهم من الأغنياء إلا قلة ، وكانت الغالبية فقراء ، ومعظمهم فقراء مدقعين ،ومن هنا شاع السلب والنهب وقطع الطرق خصوصاً في متاهات هذه الصحراء الواسعة وبين مرتفعاتها ومنحدراتها ومنحنياتها ، حيث تضل الطريق وتعمى السبل حتى على كثير ممن لديهم خبرة بطرقاتها ودروبها . ومن ثم وجدت جماعة الصعاليك[1]وانتشر قطاع الطرق، وكثرت الغارات ، وكان الأمن معدوماً ، والقوة فقط هي صاحبة السيادة والسلطان .

ومما كان له أثر كبير في موارد الرزق ومعيشة العرب جميعاً ، الحضر منهم والبدو ، تبادل السلع ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، ولذلك كانت لهم أسواق كثيرة،منها ما كانت ثابتة مع أيام السنة ، ومنها ما كانت موسمية تعقد في مواسم معينة فإذا انتهى الموسم انفضت ، وهذه جعلوها في أماكن متفرقة في أنحاء شبه الجزيرة ، حتى تنال كل بقعة نصيبها منها ، ولا يحرم بعض السكان من وجود هذه الأسواق في ديارهم ، كما جعلوا لكل منها وقتاً خاصاً ، بحيث لا يتعارض بعضها مع بعض ليستطيع كل من شاء أن يحضر جميع هذه الأسواق دون أن تفوته واحدة منها.وقد ذكر الألوسي كثيراً من هذه الأسواق [2] ومواقيتها ، فمما ذكره من هذه الأسواق :

١ - دومة الجندل : كانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول ، وكانت تستمر نصف شهر أو شهراً . ورؤساؤها غسان او كلب ،

---

(١) الصعلوك هو الفقير ، وزاد ابن سيدة : الذي لا مال له . وزاد الأزهري : ولا اعتماد ؛ وتصعلك الرجل : افتقر .

(٢) بلوغ الأرب ج ١ ص ٢٦٥ ، وتاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٧٠ .

أي الحين غلب قام . ويقال أن المبايعة فيهـــا كانت ببيع الحصاة .

٢ – سوق هَـجَـر : (بالبحرين) كانوا ينتقلون إليها في شهر ربيع الآخر.

٣ – سوق عُمَـان : كانوا يرتحلون من سوق هجر إليها ، فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادي الأولى .

٤ – سوق المشقّر : (وهو حصن بالبحرين) تقوم من أول يوم من جمادي الآخرة . ورؤساؤها بنو تيم رهط المنذر بن ساوى .

٥ – سوق صُحَار : تقوم لعشرين يمضين من رجب لمدة خمسة أيام . وكانت لا يحتاج فيها الى خفارة .

٦ – سوق الشَّحْر : تقوم في النصف من شعبان ، وكانت مهرة تقوم بها .

٧ – سوق عدن أبين : تقوم الى أيام من رمضان ، ومنهـا كان يحمل الطيب إلى سائر الآفاق .

٨ – سوق صنعـاء : تقوم في النصف الثاني من رمضان .

٩ – سوق ذي المجاز : كانت بناحية عرفة إلى جانبها .

١٠ – سوق مجنـــة : موضع قرب مكة ، وتقوم سوقهـا قرب أيام الحج ، ويحضرها كثير من قبائل العرب .

١١ – سوق عـكاظ : كانت من أعظم أسواقهم ، وعكاظ وادٍ بين نخـلة والطائف وهو أقرب إلى الطائف . وكانت تقـام أيام موسم الحج ، وتحضرها كل القبـائل ، وبها كانت مفاخرة العرب ، وحمالاتهم ، ومهادناتهم .

ولا شك أن هذه الأسواق كان لها أثر كبير من الناحيـــة الاقتصادية فكانت بطبيعة الحال ذات تأثير فعّال في حياة القوم ومعيشتهم . كما كان لها تأثير في النواحي العامة الأخرى للعرب ، فإذا كانت القبائل تفد إليها للبيع والشراء ، فلا يستبعد بالطبع ورود تجار أجانب من غير العرب إليها ، فقد كان الروم مثلاً يتوغلون في هذه الأرضين إلى مسافات بعيدة للبيع والشراء، كما كان يقصدها أناس من أماكن بعيدة بحثاً عن طلب او ترويجاً لرأي [1] »

« وقد استعمل أهل العربية الجنوبية النقود في معاملاتهم ، استعملوا نقوداً سكت من الذهب ، ونقوداً سكت من الفضة ، وأخرى سكت من النحاس ومن معادن أخرى ، وقد عثر على نماذج من كل نوع من هذه الأنواع ، كما استعملوا نقوداً أجنبية أيضاً ، وصلت إليهم بتعاملهم مع الأسواق الأجنبية . وقد عثر على بعض منهـــا في مواضع من جزيرة العرب أكثرهـــا يوناني أو روماني [2] » .

« أما أهل الحجاز [3] فقد تعاملوا بالنقود الرومية والساسانية ، تعاملوا بالدراهم ، وتعـــاملوا بالدنانير [4] ، ولعلهم كانوا يتعاملون بنقود أهل اليمن كذلك ، وبنقود أهل الحبشة ، فقد كان أهل مكة تجاراً ، يتاجرون مع اليمن ، ويتاجرون مع العراق وبلاد الشام ، وتجارتهم هذه تجعلهم يستعملون

---

(١) تاريخ العرب لجواد علي ، حـ ٤ ص ٤١٣ .

(٢) جواد علي ، ج ٨ ص ٢٠٠.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

(٤) الدرهم ، قيل انه فارسي معرب . وهو نقـــد من الفضة ، وهو معروف في الفارسية والرومية ، والظاهر أن العرب أخذوا بالتسمية الفارسية ، على أن ذلك لا يعني أنهم لم يكونوا يستعملون دراهم الروم ، وقد أطلقوا الدراهم على النقود عمـــوماً في بعض الأحيان ، من باب إطلاق الجزء على الكل . والدينار من النقود اليونانية اللاتينية وهو مضروب من الذهب . وقد بقي العرب يتعاملون بالدنانير الرومية إلى أيام عبدالملك ، حيث أمر بضرب الدنانير . فضربت بدمشق . (جواد علي ، حـ ٨ ص ٢٠٧) .

مختلف النقود ، خاصة أنهم كانوا في مكان فقير لا يساعد على ضرب النقد فيه ... وقد ذكر أهل الأخبار أن أهل المدينة كانوا يتعاملون بالدراهم عند مقدم الرسول، ويتعاملون بالعدد ، فأرشدهم إلى الوزن كما يفعل أهل مكة، ودرهم أهل مكة ستة دوانيق ، وعدلت بعد الإسلام ، فكانت تعرف بالدراهم المعدلة وهي بوزن سبعة مثاقيل لكل عشرة دراهم .

الفصل السابع

حالتهم السياسية

يجمع المؤرخون على أن اليمن كان فيها نظام الملكية ، وقامت فيها دول مختلفة وكان لها حضارات ومدنيات أشرنا إلى بعض مما حكاه المؤرخون عن أوصافها . ولكن المدن والقرى الأخرى التي كانت في غيرها من شبه الجزيرة يبدو أن النظام السياسي في كل منها كان يختلف في بعضها عن بعض ، وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي (١) : « ويلاحظ أن بعض المدن والقرى ، ولا سيما في العربية الغربية مثل مكة لم يكن عليها ملك ، إنما يحكمها عدة رجال ، قسمت الأعمال بينهم ، ولا يلقب زعيمهم والمتنفذ فيهم بلقب ملك « وللملأ » وهم أصحاب الحل والعقد في البلد الحكم في الناس على وفق العادات والأعراف والقوانين الموروثة ، ويكون لهم في البلد مجتمع خاص يكون ناديهم ومقر حكمهم ، عرف بـ « دار الندوة » في مكة و ب « المزود » عند أهل اليمن . ويمكن أن نقول إنه مجلس ذلك الزمن « وبرلمان » ذلك العهد ، وإن نظام الحكم في أمثال هذه المدن هو ما يقال له « حكومات المدن » عند المؤرخين الغربيين » .

« أما يثرب حيث تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج ، فقد أراد كل فريق منهما أن يكون الحكم من رجاله ، وبعد جدل وحرب استقروا على أن

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام حـ ٣ ص ٢٣٠ .

يكون الحكم بينهما بالمناوبة ، فيحكم في كل عام زعيم من زعماء الحي الواحد ، يليه في العام الثاني زعيم من الحي الثاني ، وشاءوا أن يكون « ملك » لقب الحاكم عندهم ، وبذلك يكونون قد وضعوا لهم نظام التناوب في الحكم ، فيكون لهذه المدينة ملك كل عام » .

«وأما بقية المدن العربية فقد رأينا أن بعضها كان يحكمها عند ظهور الإسلام حكام يلقبون أنفسهم ملوكاً ، وهم في الواقع مشايخ مدن،أو مشايخ مقاطعات ، وكذلك كان يحكم العربية الجنوبية مثل حضرموت عدة مشايخ يلقبون بألقاب الملك» .

فكان هناك «ملوك في اليمن والعراق والشام حيث الخصب الطبيعي وموارد الرزق الواسعة واعتدال المناخ ، ولكن نوع تلك الحكومات في تلك الدول غير معروف ، ويبدو أنها كانت على وجه عام من الحكومات المطلقة الاستبدادية[1] » .

أما البدو ، فكان النظام القبلي هو السائد فيهم، ولم تكن هناك حكومة مركزية ترعى مصالح الشعب بأجمعه، وتنفذ القانون على الجميع ، وتنشر العدل والطمأنينة والأمن بين جميع الطبقات ، إنما كانت كل قبيلة بمثابة دولة مستقلة لها كيانها الذاتي الخاص ، شعبها يتكون من أفرادها فقط ، ولها وطنها وحرمها الذي تحافظ عليه، وتدافع عنه وتحميه ، ولذلك كان يسمّى«الحمى». وهذا الحمى كان حرماً للقبيلة لا ينبغي أن يمسّه أو يقترب منه أجنبي ، مثله مثل حدود الدولة في عصرنا الحاضر. وكان أفراد القبيلة يتعاونون ويتساندون في الحفاظ على شرف القبيلة وحماها ، وهم متساوون فيما بينهم ، ولا يعتبرون غيرهم أعلى منهم ، أو حتى مساوياً لهم ، ولا يدينون بالطاعة إلا لرئيس قبيلتهم ، فوطنيتهم كانت وطنية قبلية لا وطنية شعبية ، كما كانت الحرية التي يتغنون بها ويتمسكون بها حرية شخصية لا حرية اجتماعية ، وكان على القبيلة

---

(١) تاريخ العرب القدامى صفحة ٨٨ .

في مجموعها أن تحمي كل فرد من أفرادها وتهبّ كلها للدفاع عنه والأخذ له بحقه ، أو الانتصاف له إن أصابه ضيم ، أو مسَّت كرامته ، ومن هنا كان لهم القول المشهور : « في الجريرة تشترك العشيرة » ؛ فالقبيلة كانت تعتمد على أفراد في قوتها ومكانتها وحياتها وشرفها وهيبتها ، وكان الفرد يعتمد على القبيلة في كل ما له من حقوق ، نظير ما كان عليه من واجبات ، لذلك اشتد تعلق القبائل بأفرادها ، كما اشتد تعلق الفرد بقبيلته ، ومن هنا وجدت بينهم العصبية قوية ، فكان التعصب للدم شديداً ؛ ووقف الفرد بجانب أخيه من قبيلته في جميع الأحوال ظالماً كان أم مظلوماً .

ولشدة اهتمامهم بالقرابة والصلة العصبية ولحمة النسب الأبوية اهتموا بالأنساب اهتماماً عظيماً. فكان الواحد منهم يعرف نسبه ونسب قبيلته محدداً مضبوطاً ، ونرى أثر ذلك في أشعارهم التي تفيض بذكر الآباء والأجداد والبنين والأحفاد ؛ ولشدة اهتمامهم بالنسب عرف قوم منهم كانوا مشهورين بمعرفة أنساب العرب حتى سموا بالنسابين .

ولوجود النظام القبلي بين أهل البادية ، وانتشار الفوضى وتهديد الأمن والسلام في أية لحظة ، كان يهم القبيلة أن يكون أفرادها كثيرين ، فمن اقوالهم : «للكثرة الرعب» حتى يمكنها أن تواجه الأخطار بما يملأ قلوب الاعداء خوفاً ورهبة . وكثرة الافراد كانت إما عن طريق كثرة أفراد القبيلة نفسها ، أو عن طريق التحالف مع قبيلة أو قبائل أخرى ، فيكون أفراد هذا الحلف ، وإن اختلفت قبائلهم ، متضامنين متعاونين يشد كل منهم أزر الآخر ، فيكونون بمثابة قبيلة واحدة ، وأفرادها إخوة كأنهم من دم واحد لا يعتدي أحد منهم على الآخر ، ويقف بجانبه في الشدة ، ويشاركه في البأساء والضراء ، ويكون لكل فرد من أفراد هذا الحلف ما لزميله من الحقوق ، وعليه ما على صاحبه من واجبات [1] .

---

(١) ومن هذه الاحلاف :

أ ــ حلف المحاشّ : بين قبائل مرة بن عوف الذبيانيين ، تحالفوا عند نار ودنوا منها ←

والعربي في النظام القبلي «كان يتأرجح بين قطبين : فردية تدفعه الى رفع كل ضغط وتثبيت الحقوق الدائمة لنفسه تجاه الحقوق الجماعية ، وتعلق من ناحية اخرى بجماعته بصورة عميقة قد تصل إلى حد التضحية بالنفس»[1].

والقبيلة تظل متمسكة بكل فرد من أفرادها ، تحافظ عليه ، وترعاه ، وتنتصف له ، ما دام يسير وفق قانونها ، وحسب نصائحها ، ووفق رغبتها وإرادتها، فاذا ما بدر منه سلوك لا ترضاه ، أو اعتاد أموراً لا توافق عليها، خلعته من جماعتها ، ونفتــه من مجلسها ، وطردته من بينها . وفي ذلك يقول طرفة :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي　　وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتني القبيــلة كلها　　وأفردت إفراد البعير المعبد[2]

فتتنصل منه القبيلة على رؤوس الأشهاد ، وتعلن تبرؤها مما اقترفـه من أفعال ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك حيث الجميع حضور ، ليعرف الناس ذلك فلا يؤاخذوها على جرائم يقترفها، فصبح مخلوعاً[3] من القبيلة كأنما سحبت منه جنسيته وعليه حينئذ أن يبحث عن مكان يؤويه أو جماعة تنزله معها أو تساعده «والغالب أنه ينتقل من مكان إلى مكـان ، ومن قبيلة إلى أخرى لصعوبة حمايته إذا كان من المشاغبـين الأشرار ، الذين لا يستطيعون المعيشة بهدوء كسائر الناس».

← حتى محشتهم (أي أحرقتهم) .

ب - حلف المطيبين : بين بني عبدمناف وبني زهرة وبني تيم وبني أسد ضد بني عبدالدار وأحلافهم . ويقال إنهم سموا بذلك لأنهم غمسوا أيديهم في جفنة ملئت طيباً .

جـ - حلف الرباب ، وهم خمس قبائل : ضبة وثور وعكل وتيم وعدي .

(١) تاريخ الادب العربي لبلاشير صفحة ٣٥ .

(٢) انظر معلقة طرفة وديوانه للمؤلف ، البيتين : ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) الأغاني حـ ٩ ص ٥٦ ، ٨٧ ، ٩٥ .

« وقد يتكتل هؤلاء الخلعاء ويجتمعون مع الصعاليك ، فيؤلفون عصابات خطيرة ، تعيش على السلب والنهب وقطع الطرق لكسب الرزق ، فتلقي الرعب في النفوس ، وتنعم بما يقع في يديها من مال حرام تبدده وتبذره على عادة الشذاذ من الناس ، ومن يحصل على قوته بهذه الطرق . ولعدم مبالاة هؤلاء ، وشجاعتهم ، وعدم اهتمامهم بالحياة استخدم بعضهم في أعمال انتقامية مثل الفتك بالخصوم [١] . »

والحقيقة أن التشكيلات القبلية لم تكن محصورة في أهل البدو فقط ، بل كانت كذلك موجودة في المدن بين أهل الحضر . «فكان على رأس كل قبيلة أو رهط مجلس مؤلف من رؤساء الأسر أو رؤساء الرهط تبعاً لمقياس القبيلة ، وإلى هذا المجلس تعود مناقشة جميع القضايا التي تهم القبيلة» [٢] .

وكان لكل مجلس رئيس ، هو شيخ القبيلة ، وهو شخصية فذة يختارها الجميع ليكون المعبر بلسان جماعتهم ، والمنفذ لإرادتهم ، فكانت «أوامره مستمدة من مداولات المجلس ، وهو بعبارة أوضح منفذ ، مزود بسلطة إيحائية ، وعليه بعد استشارة القدماء والذوات أن يقود جماعته إلى المعارك ، وأن يستقبل الوفود ، وأن يشرف على مفاوضات الصلح والمحالفات وإشهار الحرب وإضافة الضيوف ، واتخاذ التدابير في سني القحط ، وتحديد حركات الظعون [٣] . »

وكان الرئيس يختار من ذوي الشخصيات القوية الممتازة ، وتتحقق فيه صفات خاصة ، أهمها الوقار ، والهيبة ، وسداد الرأي وبعد النظر ، والطموح والحزم والإيثار والتضحية ، والغنى ، والجود ، والسخاء ، والشجاعة والقوة ، والحلم ، والصبر ، والرزانة والثبات ، فلا يفرح للخير ، ولا يكبو للضر ،

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ج ٤ ص ٢٢٤ .
(٢) تاريخ الأدب العربي لبلاشير . ص ٣٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٦ .

ولا تبطره النعمة ، ولا تغمه الشدة، قد أحكمته التجارب، وله خبرة بطبائع النفوس ، وحسن معالجة الأمور ، ويتسم بالإخلاص ، والأمانة ، والوفاء ، والسهر للمصلحة العامة ، والعمل على إعلاء كلمة القبيلة ورفع شأنها، ومن خير ما قيل من شعر في أهم صفات الرئيس قول لقيط الإيادي(١) :

وقلّدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا

لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه همٌّ يكاد سناه يقصم الضلعا

مسهد النوم تعنيه أموركم يروم منها إلى الأعداء مطلعا

ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعاً طوراً ومتبعا

حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعا(٢)

وليس يشغله مالٌ يثمره عنكم ، ولا ولد يبغي له الرفعا

وكانوا إذا غنموا اموالاً أخذ الرئيس ما يعده لما قد يطرأ، ولما يتحمل من النفقات ، وذلك هو : المرباع والصفى والنشيطة والفضول (٣) .

ولشخصية رئيس القبيلة أثر كبير في مكانة القبيلة ، فالزعماء في المجتمعات القبلية رجال السياسة ، « وبحكمتهم وكفايتهم تقرر الأمور ، ورب كلمة من

---

(١) مختارات ابن الشجري ، ص ١ .

(٢) القحم : الشيخ الهرم . الضرع : الرجل الضعيف .

(٣) المرباع : ربع الغنيمة . والصفي : ما يصطفيه لنفسه قبل القسمة . والنشيطة: ما أصاب في طريقه إلى الغزو قبل أن يصل إلى من يريد غزوهم . والفضول : ما لا تصلح قسمته على عدد الغزاة من بواقي القسمة كالبعير والفرس .

زعيم أو هفوة تصدر منه تثير حربا أو تسبب كارثة له أو لقبيلته، أو للحلف الذي يتزعمه ، ذلك أن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تثيرها الكلمات، ولا سيما إذا كانت تتعلق بالشرف والجاه [1] » .

وكان الشعراء في قبائلهم لسان حالهم ، والمذيعين لأخبارهم ، والمسجلين لتراثهم وأمجادهم .

وقد تسبب عن هذه العصبيات القبلية الضيقة عدم وجود مجتمع واحد كبير ، كما أن المنافسات بين هذه العصبيات وزعمائها نشأ عنها تفكك اجتماعي، وعدم استقرار ، وحروب كثيرة . ومن ثم لم تتكون منهم دولة واحدة قوية وحكومة مركزية عامة تتولى نشر العدل والأمن والطمأنينة بين جميع المواطنين .

---

(٣) تاريخ العرب لجواد علي جـ ٤ ص ٢١٥.

الفصل الثامن

حالتهم الاجتماعية

لقد كان للبيئة والظروف التي أحاطت بالقبائل العربية قبل الإسلام أثر كبير في حالتهم الاجتماعية ؛ فالنظام القبلي ، وعدم وجود حكومة مركزية، وجدب الصحراء وضيق الأفق كان لها دخل كبير في وجود كثير من الصفات والعادات عند العرب الجاهليين .

فحبه لقبيلته ، وتفانيه في إخلاصه لها ، والعمل على رفع شأنها ، وإعلاء كلمتها ، وتعصبه لها وحدها ؛ كل ذلك جعله يتجاهل غيرها ، ولا يعترف بحق الحياة أو الملكية أو المتعة لأحد من سواها ، كأنما لم يخلق في الوجود غيره وغير قبيلته ، فدفعه هذا الاعتقاد إلى الاعتداء على حقوق الآخرين ، ما دام يملك القوة أو الفرصة المواتية ، فكانت الغارات والحروب التي ينجم عنها إزهاق الأرواح ، ونهب الأموال ، وأسر الرجال، وسبي النساء مما يشيع الرهبة في قلوب الآخرين ، ويعلي من شأن المنتصرين ، وينمي ثروتهم ؛ بما غنموه من مال ، أو كسبوه من فداء الاسرى والسبايا ، أو احتلال أرضهم ، ونزول ديارهم . وما كانوا يكفّون عن الغارات والحروب إلا في الأشهر الحرم. ولكن الحمية الجاهلية كانت تشتط بهم فيقاتلون فيها غير مبالين، كما كان في حرب الفجار بين قريش وكنانة ، أو يتخذون النسيء فيؤخرون الأشهر الحرام كما يشاءون . وإزهاق الأرواح ، وإنزال الخسائر، وإحداث الهزائم، ما كانت لتقف عند حد ، فالقبيلة المنهزمة ، ومن حاقت بهم الخسائر، ما كانوا

ليقفوا مكتوفي الأيدي،بل لا بد أن ينتقموا لكرامتهم،ويردوا شرفهم،فكان لا بد من **الأخذ بالثأر** ، وكان الاعتقاد السائد أن روح القتيل كانت تخرج من قبره كل يوم في صورة طائر يسمونه « **الهامة** » وتصيح قائلة : « اسقوني ، اسقوني » ولا تكف عن الصياح حتى يؤخـــذ بثأره . فكل معركة كانت تتبعها معركة بـــل معارك ، وقد ساعد على انتشار هذه الفوضى ، وشيوع الرعب وعدم الطمأنينة والأمن ، عدم وجود حكومة مركزية يدين لها جميع القبائل بالولاء والطاعة ، وتتولى نشر العدل بين الناس على السواء . وكان التعصب القبـلي الأعمى يقوي من نيران العداوة والحروب ؛ فالتزام الوقوف بجانب أي فرد من القبيلة في جميع الأحوال ؛ ظالماً كان أو مظلوماً ، بصرف النظر عن مدى الحق في موقفه ، وبدون تروّ أو تفكير فيما هو مقدم عليه ، زاد الطين بلة ، وأرث الأحقاد في القلوب وعمل على توسيع الهوة بين القبائل، فأصبحوا متفككي الأوصال **لا تجمعهم وحدة** ، ولم يكن لديهم شعور بفكرة نحو التجمع تحت لواء واحد .

وحبه لنفسه وعشيرته جعـــله يبالغ في فهم معنى الشرف ، فالعصبية الجنسية ، والأثرة الواضحـــة في حياتهم ، وحب الظهور ، والمبالغة في معنى الإباء والعزة والشرف ، أوجدت فيهم الحمية الجاهلية المشهورة عنهم ؛ فكانوا يثورون لأتفه الأسباب ، ويدخلون المعارك والحروب ، ويزهقون الأرواح في سرعة وتهور ، دون أدنى تفكير لمجرد فهم قد يكون خطأ . فرب كلمة لا يريد قائلها بها شراً ، أو نظرة عابرة غير مقصودة لإحدى فتيات العشيرة، تثير حرباً شعواء بين حين أو أحياء كثيرة لاعتقادهم أن شرف القبيلة قـــد مس ، أو أن كرامتهم قد أهينت، وكانت النساء النقطة الحساسة في شرفهم، ومن ثم أحاطوها بسياج متين من القيود والحدود حتى لا يقع لهن أدنى إساءة، وقـــد بلغ ببعضهم الخوف على شرف نسائهم إلى أن كانوا يقدمون على **وأد البنات** حتى لا يحدث لهن ما يجلب عليهم العار .

وربما كان من المبالغة في الأثرة والمحافظة على العرض أن يتزوج الرجـــل

زوجة أبيه بعد وفاته . وأن يجمع بين الأُختين أو يتزوج أُخت صديقه على أن يزوجه أخته ، ونحو ذلك من العادات التي كانت فيهم .

وتنافس القبائل في السيادة والعزة والطموح جعل الفرد منهم محباً للزهو ميالاً إلى المباهاة وحب الظهور فدفعهم ذلك إلى ارتكاب كثير من الحماقات التي نتج عنها كثير من المصائب والويلات ، ولكن من ناحية أخرى كان داعياً لتمجيد بعض المثُلِ العليا ؛ فشاع لديهم إكبار الجميل وصنع المعروف ومدّ يد العون والمساعدة للمحتاجين ، أقارب أم أباعد :

أجود على الأباعد باجتداء ولم أحرم ذوى قربي وإصر

فأكبروا الإسراع إلى إجابة المستغيث ، وحماية اللاجىء ، وإكرام النازل والدفاع عن الجار ، وكانت المبالغة في الإسراف إلى حد الإتلاف ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر ، من الامور التي كان يتباهى بها الجاهليون » .

وكان من أثر الحرب وانتشار الفقر والبؤس في البلاد ، أن قل الغذاء ، وعز الطعام ، فأحسوا الجوع ينشب أنيابه بين أحشائهم ، ويكاد يفتك بهم ، وبخاصة إذا كانوا مسافرين أو عابري سبيل ، فقدّرُوا معنى الانسانية الحقيقية بتقديم ما يحفظ على الانسان حياته أو يسد رمقه ، أو يروي غلّته ، لذلك عظموا الكرم وإطعام الطعام ، ووصفوا بالكرم عظماء القوم ، ومدحوا به ، وكان الكرم في مقدمة الفضائل التي يحب العربي أن يتحلى بها .

ومن أعظم المكرمات في تلك الصحراء المترامية الأطراف التي ليس فيها ما يرشد الضال ، أو يهدي عابر السبيل ، أن يوقدوا ناراً يهتدي بها الضيفان فيعرفون بها منازل القوم ، فيفدون إليهم حيث يجدون بينهم النزل السهل ، والترحيب الجميل ، والمقام الكريم ؛ كأنهم بين العشيرة والأهل .

وفي جنبات الصحراء الواسعة ، وبين مرتفعاتها ووديانها ، تجري الحيوانات

وتمرح ، بين المروج ، والأعشاب ، فتبدو عليها النضارة والنعمة ، مما يسيل لعاب القوم للحومها ، فأغراهم ذلك على مطاردتها وقنصها ، فكان هنـــاك الصيد والصيادون ، واشتهر أفراد كثيرون بالصيد ، واقتنوا الجوارح من الحيوانات والطيور كالكلاب والصقور ، ودربوها على الطرد والقنص ، وقـد تردد هذا في الشعر الجاهلي كثيراً ، من ذلك قول امريء القيس [1] :

فَصبَّحه عند الشروق غُديَّةً   كلابُ ابنِ مُرٍّ أو كلابُ ابنِ سِنْبِسِ
مُغَرَّثَةً ، زُرقا عيونُهـــا   من الذَّمْرِ والإيحاءِ نُوَّارِ عِضْرِسِ

وابن مروان وابن سنبس صائدان من طيىءَ معروفان بالصيد .

وكان من أثر العصبية القبليـــة أن وجدت الحرية الشخصية ، ولم يكن للحرية الاجتماعية وجود ، فشاعت الفوضى ، وكانت الغلبة للقوة والبطش ، والسيادة للظلم والطغيان ، فالضعيف مأكول ومهان ، والقوي ظالم ومهاب :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقي صولة المستأسد الحامي

ولم تكن القوة في حد ذاتها كافية ، بل كان لا بد من ممارستها ، حتى تملأ القلوب رهبة ، وتمنع كيد الطامعين :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ، ومن لا يَظلِم الناس يُظلم

وكان من أثر الحياة القاسية التي كان يحياهـا الجاهليون ، وعدم استعمال العقل والحكمة في كثير من مظاهر الحياة، أن كانوا لا يحسنون ربط الأسباب بمسبباتها ، فوجدت لديهم عادات واعتقادات عجيبة بعيدة عن مجـال العقل

---

(١) ديوان امريء القيس ص ١٠٣ ب : ٨ - ٩ . صبحه : أتاه صباحاً عند الشروق . مغرثة : مجوعة ، يعني الكلاب لتحرص على الصيد وتضرى عليه . الذمر : زجرها وإغراؤها بالصيد . الإيحاء : أن يشار لها إلى الشيء . العضرس : شجر أحمر النَّوْر . وعيون الكلاب تضرب إلى الحمرة ، يريد إذا أغريت بالصيد فتحت عيونها وقلبتها فتبينت عند ذلك حمرتها .

والمنطق الصحيح ، من ذلك مثلاً :

١ - **الكهانة والعرافة :** ويقصدون بالكهانة ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع ، وقال الأصفهاني في كتاب الذريعة : الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ، والعرافة بالأمور الماضية . وذلك بالاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة ، أو المشابهة الخفية التي تكون بينهما ، أو الاختلاط ، أو الارتباط أو غير ذلك ، واشتهر بالكهانة : عزى سلمة ، وشق أنمار ، وسطيح بن مازن ، وخنافر بن التوأم الحميري ، وسواد بن قارب الدوسي ، وطريفة الكاهنة ، وزبراء ، وسلمى الهمدانية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة بنت مر الخثعمية ، ومن العرّافين : رباح بن عجلة عراف اليمامة ، والأبلق الأسدي عراف نجد[1].

٢ - **زجر الطير وضرب الحصى وخط الرمل:** وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير ، فإن طار يميناً كان له حكم ، وإن طار شمالاً كان له حكم ، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم ، ومن ثم سميت الطيرة ، أخذا من الطير . فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه **سانحاً** ، وما تياسر منها سموه **بارحاً** ، وما استقبلهم منها فهو الناطح ، وما جاءهم من خلفهم فهو القعيد . ومن العرب من يتشاءم بالبارح لأنه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه ، ويتبرك بالسانح . ومن تبرّك بشيء مدحه ، ومن تشاءم بشيء ذمه[2] .

وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب ، ثم تعدوه إلى غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع ، وما يقع من ظواهر الطبيعة المختلفة كالريح والسحاب والرعد

---

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٧٥ وما بعدها .

(٢) قال ابن دريد : السانح يتيمن به أهل نجد ويتشاءمون بالبارح ، ويخالفهم أهل العالية ، فيتشاءمون بالسانح ، ويتيمنون بالبارح . (العمدة : ٢ - ١٦٣).

والبرق والمطر ، وغير ذلك .

كما شاع فيهم طرق الحصى بعضها ببعض عند السؤال، فيدعي الطارق بذلك معرفة الجواب ، وكذلك خط الرمل . وكثيراً ما كان يتخصص في زجر الطير وطرق الحصى وخط الرمل أفراد معينون فاشتهروا بذلك . وقد قيل في الزجر والطرق شعر كثير . من ذلك قول حسل ابن عامر الهمداني :

تخبرني بالنجاة القطاة وقول الغراب بها شاهد
يقول : ألا قد دنا نازح فداء له الطرف والتالد .

ولكن كثيراً من الشعراء أنكروا الزجر وعارضوا فكرته ، من ذلك قول ضابىء بن الحارث البرجمي :

وما أنا ممن يزجر الطير همه أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب

وقال لبيد :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

٣ - **الاستقسام بالأزلام**: وهي نوع من الطيرة، كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الشأن فيه أخذوا قداحاً مكتوباً على بعضها « افعل » وعلى بعضها « لا تفعل » ، وعلى بعضها « نعم » وعلى بعضها « لا » إلى غير ذلك ، فإذا أراد أحدهم سفراً مثلاً أتى سادن الأوثان ، فيضرب له بتلك القداح، ويقول: « اللهم إن كان خيراً له فاخرجه »، فما خرج له عمل به. وإذا شكّوا في نسب رجل أجالوا القداح، وفي بعضها مكتوب

«صريح» وفي بعضها « ملحق » فإن خرج الصريح أثبتوا له نسبه، وإن خرج الملحق نفوه . حكى أبو الفرج الأصبهاني ، أنهم كانوا يستقسمون عند ذي الخلصة وهو صنم مشهور ، وإن امرأ القيس لما قتل أبوه وخرج امرؤ القيس يطلب بثأره استقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة الآمر والناهي والمتربص ، فأجالها ، فخرج الناهي ، ثم أجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي ، فجمعها وكسرها ، وضرب بها وجه الصنم ، وسبه ثم قال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي ، وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا [1]

٤ — **الميسر** : وهو ضرب من القمار ، كانوا يقتسمون لحم الجزور التي يذبحونها بحسب قداح يضربونها ، لكل قدح منها نصيب معلوم ، والميسر : مصدر ميمي من يسر ييسر ، واشتقاقه إما من اليسر أي أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب ، أو من اليسار لأنه سلب يساره . وكان الميسر من مفاخر العرب لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة والقحط والجوع . وكل قصيدة يفخر فيها الشاعر كان الميسر يحتل جزءاً بارزاً فيها .

وقيل : كانت صفة الميسر أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار منهم ويشترون جزورا وينحرها الجزار ويقسمها عشرة أجزاء ، ثم يحضر الأيسار وهم القوم المجتمعون على الميسر ، ويؤتى بالقداح ، وهي عيدان متساويه الطول ، وهي عشرة : القد والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلي .وهذه لها أنصباء ، للأول سهم ، وللثاني اثنان ، وللثالث ثلاثة ، وهكذا إلى المعلي له سبعة أسهم . والثلاثة الباقية لا نصيب لها وهي المنيح والسفيح والوغد، فهذه

---

(١) الأغاني (دار الكتب) جـ ٩ ص ٩٢ - ٩٣ .

أغفال ليس فيها حزوز ولا علامات لها ، وهي للتكثير ، ولنفي التهمة وإبعاد المحاباة .

فاذا حضرت القداح وحضر الأيسار أخذ كل منهم من القداح على قدره وطاقته ورياسته، ثم يدفعون القداح إلى رجل كانوا يسمونه «الحُرُضة» وهو الذي يضرب للأيسار بالقداح – وأكثر ما كانوا يجتمعون للميسر بالليل ويوقدون ناراً لذلك – ثم يؤخذ ثوب شديد البياض فيلف على يد الحرضة ليغشى بصره،فلا يعرف قدح فلان منقدح فلان منعاً للمحاباة ، فاذا أخذ القداح لم ينظر إليها ، ويجلس خلفه شخص آخر كان يطلق عليه اسم **الرقيب** ، ليعرف ما يخرج من القداح فيخبرهم به ويعتمدون على قوله فيه ، ثم يجلس الأيسار حوله دائرين به ، ثم يفيض بالقداح ، فاذا نشز أي ارتفع منها قدح استسله الحرضة من غير أن ينظر إليه ثم ناوله الرقيب ، فينظر الرقيب لمن هو فيدفعه إلى صاحبه ، فيأخذ من الجزور على قدر نصيب القدح منها وذلك هو الفوز وعند انتهاءتوزيع أقسام الجزور على أصحاب القداح الفائزة ، يعرفون القداح التي لم تفز، ويغرم أصحابها ، كلٌ بقدر نصيب قدحه [1] .

٥ – **عبادة الاصنام** والأوثان والمخلوقات التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً . وسنتحدث عنها إن شاء الله في الحالة الدينية .

٦ – **البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي** [2] : وهي أمور خاصة بالحيوانات وخصوصاً الإبل اذا تم لها أمر معين مثل ولادة بطون معينة أو بلوغ سنّ مخصوصة :

---

(١) تاريخ اليعقوبي : دار صادر بيروت سنة ١٩٦٠ ، جـ ١ ص ٢٥٩ .

(٢) يقول ابن الكلبي في كتاب الأصنام إن أول من سيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامي عمر بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو ابو خزاعة (بلوغ الأرب : جـ ٢ ص ٢٠٠ ، جواد علي جـ ٤ ص ٢٥٧)

فكانت الناقة : إذا نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر **بحَرُوا** أذنها أي شقوها وخلوا سبيلها ، فلا تركب ولا تحلب .

وكان الرجل منهم إذا مرض يقول : إذا شفيت ، فناقتي **سائبة** ، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها . وقيل هي التي تسيب للأصنام فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم . وقيل غير ذلك (١) .

واذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، وإن ولدتهما معاً ، قالوا : **وصلت** الأنثى أخاها . وقيل هي الشاة تنتج سبعة أبطن فإن كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشيء إلا أن تموت فيأكلها الرجال دون النساء . وكذا إن كان ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فتترك معه ولا ينتفع بها إلا الرجال دون النساء . فاذا ماتت اشتركوا فيها .

وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره ، ولم يمنعوه ماء ولا مرعى وقالوا : لقد **حمى** ظهره .

وكانت بينهم عادة حمل **التمائم والتعاويذ** ، للمداواة ، أو خوفاً من الموت أو البلاء (٢) .

كما كان من عاداتهم **ضرب** الثور إذا عافت البقر ورود الماء ، فهو يضرب ليقتحم الماء ، فتقتحم البقر بعده ، قال نهشل بن جري :

كذاك الثور يُضرَب بالهراوى ... اذا ما عافت البقر الظماء

ومثل ذلك ما يفعلونه في العَرّ (٣) عندما يصيب الإبل ، **فيكوي** الصحيح

---

(١) راجع بلوغ الأرب : ج ٣ ص ٣٧ .

(٢) ديوان امريء القيس ص ١٢٨ ، ب : ١ — ٣ .

(٣) العر : العر (بفتح العين) : الجرب ، وبضمها : قرح يأخذ الإبل في مشافرها وأطرافها شبيه بالقرع ، وربما تفرق في مشافرها مثل القوباء يسيل منه ماء أصفر .

ليبرأ السقيم [١] . قال النابغة :

وكلفتني ذنب امرىء وتركته كذي العُرّ يُكوَى غيرُه وهو راتع

وتعليق الحلى والجلاجل على اللديغ ليُشفَى ، ويعللون ذلك بأن اللديغ إن نام فيسري السم فيه فيهلك فشغلوه بالحلي والجلاجل وأصواتها عن النوم . وقيل لبعض الأعراب : أتريدون سهره ؟ فقال : إن الحلى لا تسهر ، ولكنها سنة ورثناها ، وإلى ذلك يشير النابغة بقوله :

فبتّ كأني ساورتني ضئيلة من الرّقش في أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمُها بحلى النساء في لديه قعاقع

وكأن يقولون عن اللديغ : السليم ؛ تفاؤلاً بسلامته وشفائه . كما سموا البادية وهي المهلكة بالمفازة تفاؤلاً بالفوز والنجاة .

---

(١) قيل في تعليل ذلك إنهم كانوا يكوون الصحيح لئلا يتعلق الداء به لا ليبرأ السقيم . وقال أبو عبيدة : لم يكن هذا حقيقة وإنما هو مثل يضرب لأخذ البريء وترك المذنب .

الفصل التاسع

حالتهم الدينية

كان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام أديان ومعتقدات مختلفة ، تبعاً لمقدرتهم على التفكير الديني ، أو تأثرهم بالأديان السابقة ، أو اختلاطهم بأهل الأديان التي لها أصل سماوي . فكان فيهم الموحدون ، والوثنيون ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والزنادقة ، والصابئة .

أما الموحدون : من العرب قبل الإسلام فكانوا قليلين ، عبدوا الله وحده ولم يشركوا معه في عبادته شيئاً آخر ، ويقولون إنه كان منهم : ورقة بن نوفل ، وخالد بن سنان العبسي ، وحنظلة بن صفوان ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة الإيادي ، وعامر بن الظرب العدواني ، وزهير بن أبي سلمى ، وعبيد بن الأبرص ، وأمية بن أبي الصلت ، ومنهم كذلك النابغة الجعدي الذي يقال عنه إنه أنكر في الجاهلية الخمر ، وهجر الأوثان ، والأزلام ، وقال في الجاهلية :

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما (١)

وأما الصابئة : فهم الذين كانوا يعبدون الكواكب ، وهم يعتقدون في الأنواء ، ويقولون إن أول من دان بذلك من العرب قبائل سبأ الحميرية ، إذ كانوا

---

(١) أديان العرب ، ص ١٩٣ .

يعبدون الشمس ، وقد ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم [١] . كما يقولون إن كنانة كانت تعبد القمر ، وكان بنو جرهم ولخم يسجدون للمشتري ، وقريش عبدوا الشعري العبور ، وهي الشعري اليمانية . ويقال إن من آثار عبادة الكواكب ما جاء من أسمائهم مثل عبد شمس . كما يقولون إن من بقايا آثار عبادة الشمس ما يفعله الغلام إذا سقطت سنه .

وأما **المجوسية** ، فهي عبادة النار ، وكانت المجوسية في العرب في تميم ومن آثار هذه الديانة نار الحلف ، وحلفهم بالرماد والنار . ومن مذاهبهم زواج البنات .

و**الزندقة** : يقول عنها صاحب القاموس : « الزنديق : من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة ، أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية ، أو من يبطن الكفر ويظهر الاسلام » . وفي اللسان : الزنديق : القائل ببقاء الدهر ، فارسيّ معرب ، وهو بالفارسية زندكراي ، يقول بدوام الدهر . وقال ابن قتيبة في كتب المعارف عند الكلام على أديان العرب في الجاهلية : كانت الزندقة في قريش ، أخذوها عن الحيرة . وقال البلخي في كتاب البدء والتاريخ . كانت الزندقة والتعطيل في قريش . والثنوية يعتقدون أن الصانع اثنان ففاعل الخيرنور وفاعل الشر ظلمة ، وهما قديمان ، لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين.. وهما مختلفان في النفس والصورة متضادان في العقل والتدبير فالنور فاضل حسن نقي طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نفاعة ، منها الخيرات والمسرات والصلاح ، وليس فيها شيء من الضرر. والظلمة على ضد ذلك [٢] .

أما **اليهودية** ، فهي دين موسى عليه السلام ، نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل الذي تناسل منه أكثر الملوك .

---

(١) سورة النمل : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » .

(٢) بلوغ الأرب ، ج ٢ ص ٢٢٩ .

والذي أدخل اليهودية إلى اليمن تبع الأصغر ، ومن اليهود الذين نزلوا المدينة بنو قريظة وبنو النضير ، وأشهر من دان باليهودية من قبائل العرب : بنو نمير ، وبنو كنانة ، وبنو الحارث بن كعب ، ولعلها سرت إليهم من مجاورة اليهود لهم في تيماء ويثرب وخيبر .

وأما **النصرانية** ؛ فهي دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، نسبة إلى الناصرة أول قرية بث عيسى فيها دعوته ، فقال العرب : « ناصري ونصراني » .

ودخلت النصرانية بلاد العرب زمن الحواريين ، فنقل أن القديس لوقا أول من دعا إليها في بلاد اليمن أثناء مسيره إلى الهند ، وبولس دعا اليها في الشام .

وفي تاريخ العصور الوسطى أن عرب غسان تنصروا في ايام القيصر ، وقال ابن خلدون : كان أهل نجران (وهم بنو الحرث بن كعب بن مذحج) من بين العرب يدينون بالنصرانية .

وأشهر من تدين بالنصرانية من العرب : قضاعة كأنهم تلقوها عن الروم ، فقد كانوا يكثرون من التردد إلى بلادهم للتجارة ؛ والغساسنة بالشام لمجاورتهم نصارى الروم ، وكثير من تنوخ وتغلب وطيء وحمير ، وشاعت النصرانية في قبائل شتى بالحيرة ، يقال لهم « العباد » ومنهم عدي بن زيد العبادي .

وأما **الوثنيون** ، فكانوا أكثرية العرب الجاهليين ، وهم عبدة الأصنام والأوثان ، والصنم يكون غالباً تمثالاً ، أما الوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم بالوثن . يقول ابن الكلبي : المعمول من خشب أو ذهب أو فضة صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن . وقال السهيلي : يقال لكل ما كان من حجر أو غيره صنم ، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير الصخر كالنحاس وغيره .

وكانوا في عبادتهم للأوثان يؤمنون بالله ، زاعمين أنها تشفع لهم عند الله

ويقولون : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . و «لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولون الله » .

ويروي ابن الكلبي في كتاب الأصنام : « إن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله تعالى عليهما وسلم لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان فيها من العماليق فضاقت عليهم مكة ، وقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد والتماس المعاش ، وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بها وحباً ، وهم على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار ، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم كقوم نوح ، وفيهم بقايا على دين أبيهم إسماعيل ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه [1] .

وكان لكل قبيلة صنم أو أكثر، وكان منها عند الكعبة كثير ، حتى قال الزمخشري إنه كان حولها ثلثمائة وستون صنماً .

ومن هذه الأصنام : أساف ونائلة : وهما صنمان عبدتهما العرب وكانوا ينحرون ويذبحون عندهما ، ويقال انهما كانا في الأصل رجلا وامرأة فجرا في الحرم فمسخا «فوجدوهما مسيخين فوضعوهما بوضعهما فعبدتهما خزاعة وقريش ، ومن حج البيت من العرب [2] » وقيل هما حجران نحتا ومُثّلا على هيئة أساف ونائلة وسميا بإسميهما [3] . ومنها ذو الخلصة لخثعم ، والشارق ؛ وهبل (كان أعظم الأصنام عند قريش ، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان) . ؛ ووُدّ (عبدته كلب بدومة الجندل) ؛ ونسر (لحمير

---

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠١ .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٥٠ .

وهمـــدان منصوب بصنعاء) ؛ وسواع (لكنانة) ؛ والعُزّى لغطفان ؛ واللات لثقيف وكان بالطائف ؛ ومناة للأوس والخزرج ؛ ويغوث لمذحج [1].

---

(١) ومما قيل في أصنام الجاهلية أن :

اللات : « كان بالطائف وقيل بنخلة ، كانت قريش تعبده وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اللاتّ : رجل يلتّ السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه » .

والعزى : قيل هي شجرة لغطفان كانوا يعبدونها ... وقيل هي صنم لغطفان، وضعها لهم سعد ابن سالم الغطفاني ، وقيل إنه قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهـل مكة يطوفون بينهما ، فرجع إلى بطن نخلة ، فقال لقومه : إن لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ، ولهم إله يعبدونه وليس لكم ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أنا أصنع لكم كذلك ، فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، ونقلها إلى نخلة ، فوضع الذي أخذ من الصفا وقال : هـــذا الصفا ، ثم وضع الذي أخـذ من المروة ، وقال : هذه المروة ، ثم أخذ ثلاثة أحجار وأسندهـــا إلى شجرة ، وقال : هذا ربكم، فجعلوا يطوفون بين الحجرين ، ويعبدون الثلاث ، حتى فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وأمر برفع الحجارة، وأمر خالد بن الوليد بالعزى فقطعها . وقيل:هي بيت بالطائف كانت تعبده ثقيف .

ومناة : قيل : هي لخزاعة ، كانت بقديد . وقالت عائشة رضي الله عنها في الأنصار : كانوا يهلون لمناة ، وكانت حذو قديد . وقيل : هي بيت بالمشلل وكانت تعبــده بنو كعب . وقيل : مناة صنم لهذيل وخزاعة ، وكانت تعبدها أهل مكة .

وقيل : اللات والعزى ومناة : أصنام من الحجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها . راجع الخازن والبغوي والزمخشري في تفسيره سورة الانفال . على أن فكرة الاصنام كانت قديمة ، ففي تفسير قوله تعالى : حكاية عن قدم نوح : « وقالوا لا تذرن آلهتكم،ولا تذرن ودّا ولاسواعا، ولا يغـُوث وَيعُوقَ ونَسْرا (سورة نوح آية ٢٣) : إن هـذه أسماء آلهتهم ، قال محمد بن كعب: هذه اسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم ويأخذون مآخذهم في العبادة ، فجاءهم إبليس ، وقـــال : لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ، ففعلوا ، ثم نشأ قوم بعدهم فقـــال لهم إبليس : إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم . فعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك. وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم الصالحين من المسلمين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : صارت الأوثان التي كانت تعبد قوم نوح من العرب بعد : أما وُدّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم صارت لبني غطيف عنـــد سبأ . وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع . وقيل كان ودّ على صورة رجـــل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ؛ ونسر على صورة نسر . (راجع تفسير البغوي والخازن والكشاف للزمخشري) في سورة نوح .

ويحلل بلاشير العاطفة الدينية عند الجاهليين فيقول [1] : « إن العاطفة التي كانت تسيطر على النفوس في المحيط العربي قبل ظهور الإسلام ، شبيهة بالعاطفة التي كانت تسيطر على النفوس عند العبرانيين في مرحلة البداوة ، وهي الاعتقاد بتعدد الشياطين ، وهذا نوع من المذهب النفسي ، ومن صفاته شعور الرجل بأنه محاط بقوى خفية يصعب عليه تحديد ماهيتها ، وتسميتها بأسماء خاصة ، لأنه يعجز دوماً عن تشخيصها ، فإن عبادة الأوثان ، والايمان بالجن والأغوال (وهي نفوس شريرة تهاجم الإنسان في الوحدة) ، كل هذا يشكل أساس الدين » . ويقول : « إن تعدد الآلهة في صلته الضيقة مع تعدد الشياطين يدل على استعداد العرب القدماء على تشخيص القوة الكافية في الأشجار وينابيع المياه ، وتسميتها بأسماء ، وربطها مع بقية الإلهيات . ومهما يكن منشأ تعدد الآلهة فلا نرى أبداً أنه قاد العربي - باستثناء بعض النفوس المترمتة في بعض المراكز الحضرية - إلى جعل الدين مصدر تأملات أو أبحاث نظرية . على أن حوادث الحياة والتجارب - مع العلم بأن قوى الطبيعة هي الغالبة في الصحراء - قد نمت في العربي قدَرية عميقة ، لا لأن العربي يشبه « أيوب » الصابر على الأذى ، بل لأن العربي المحارب ، بالإضافة إلى المتناقضات في خلقه ، لا يحتمل أحداث الحياة بصورة سلبية ، فإن موقفه منها في بادىء الأمر هو موقف المناضل ، غير انه إذا وجد أمام المقدور انحنى خاضعاً ، شاعراً بعقم الجهد أمام هذه القوى الهائلة المنطوية تحت كلمة « الدهر » . ويملي هذا الاستسلام النهائي عليه حكماً ذا بساطة لا تخلو من سمو ، موحية إليه بتصرفات مسرحية ، ولكنها مؤثرة جداً في بعض الأحيان ، وهكذا فإن العربي بارتفاعه فوق نظراته التافهة للوجود ، قد عوض الى حد ما عن فقر فكره الديني » .

ولكن يبدو أن عبادة الأصنام عند العرب الجاهليين ، وممارسة بعض الطقوس الدينية ، واعتناق بعض الأفكار ، نمت فيهم وشاعت تقليداً للآباء ،

---

(١) تاريخ الأدب العربي ص ٤٦ .

وسيراً على ما ورثوه عن أجدادهم السابقين وامتثالاً للعرف والعادة ، فقد ورد في القرآن الكريم أنهم كانوا دائماً يقولون : إننا نتبع ما كان عليه آباؤنا الاقدمون ، فعاب عليهم القرآن هذا التقليد الاعمى ، وطالبهم باستعمال العقل والتفكير في العقيدة وصفة الإله الذي يستحق العبادة والتقديس ، واستهزأ بسلوكهم هذا في قوله تعالى: «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » [1]. ويبدو كذلك أن فكرة الأصنام وتقديسها انتقلت إليهم من خارج بلادهم، فقد ورد أن قريشاً في الأصل كانت على دين إبرهيم يحجون البيت ويقيمون المناسك « وخرج عمرو بن لحى إلى أرض الشام فوجدهم يعبدون الأصنام ويتقربون إليها ، فأحب أن يفعل قومه مثل ذلك ، فجاءهم بصنم ، ودانت العرب للأصنام ثم وضعوا إساًفا ونائلة ، كل واحد منهما على ركن من أركان البيت وكانت العرب إذا حجت ورأت الأصنام سألت قريشاً وخزاعة ، فيقولون إنما نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى، فلما رأت العرب ذلك اتخذت أصناماً كثيرة فجعلت كل قبيلة لها صنماً» [2].ويقال إن عمرو بن لحي هذا – وكان رئيساً – هو الذي أمرهم بعبادة الصخرة التي يلت عليها السويق للحُجاج ، فاستجابوا لأمره ، وبنوا عليها بيتاً هو « الـلات » . والدلائل تشير إلى أن الوثني في الجاهلية على العموم ، لم يكن يتمسك في دينه بعقيدة نابعة من شعور ديني عميق ، أو عاطفة روحية شديدة ، قائمة على عقل سديد ، أو تفكير سليم ، إنما هي عادت تأصلت في نفوسهم ، تقليداً لغيرهم ، أو تمسكاً بسلوك آبائهم أو أجدادهم السابقين .

---

(١) سورة البقرة ١٧٠ .

(٢) تاريخ العرب القدامى ص ٩٨ . ومروج الذهب للمسعودي جـ٢ ، ص ٥٦ . وتاريـخ اليعقوبي جـ ١ ، ص ٢٥٤ ،

الفصل العاشر

اتصالاتهم

كان العرب الجاهليون على اتصال داخلي بعضهم ببعض ، واتصال خارجي بغيرهم ممن جاورهم ، أو بعد عنهم ، ممن كانت تربطهم بهم روابط تستدعي هذا الاتصال . فبجانب المجالس الخاصة التي كانت تعقدها القبيلة للبحث في أمورها ، وتبادل الآراء في كل ما يتصل بها وبخاصة ما كان يتطلب بحثاً عميقاً ، ورأياً جماعياً ، كانت هناك مجالس اللهو والسمر ، التي يعقدونها حينما ينفضون من مشاكلهم الحيوية ، وحاجاتهم اليومية ، ترويحاً عن النفس ، ورغبة في الإحساس بالهدوء ونعيم الحياة ، حيث تكون فيها الطرائف الأدبية ، والأحاديث المسلية ، والأخبار ، والقصص ، مع الموسيقى والطرب والرقص والغناء ، إلى غير ذلك من وسائل التسلية والترفيه .

كما كانت هناك اتصالات أوسع مدى تجمع بين عدة قبائل بحكم صلات ودية وروابط اجتماعية أو سياسية كالنسب والجوار والتحالف والعداوة المشتركة ، أو مفاوضات المصاهرة والمصالحة بعد الحروب والمشاحنات والمنازعات . ثم هناك الاتصالات الداخلية الكبرى التي تضم عدداً كبيراً من القبائل العربية شماليها وجنوبيها ، كلها أو معظمها ، في مناسبات عامة أو على نطاق واسع ، كالأسواق ومواسم الحج ، وفي هذه المناسبات تعقد المجالس والندوات ، وتوجد الفرص لفهم كلٍّ صاحبَه عن كثب ، والوقوف على كل ما يمكن ، مما له صلة وثيقة بحياتهم ومستقبلهم ، وقضاء كثير من حاجاتهم

ومصالحم ؛ فتتبادل السلع ، وتتناقش المشكلات وتعرف الميول والرغبات ، ويتحقق كثير من الأمنيات .

ولم يكن الجاهلي ليستطيع أن يعيش بمعزل عن العالم الخارجي ، كما أن العالم الخارجي كذلك كان يهمه أن يكون على صلة به ، فضرورات الحياة دائماً تقتضي ذلك في جميع العصور والأحوال ، فلدى كل من الجانبين ما يحتاج إليه الآخر ، ومن ثم كان لا بد من الاتصال الخارجي تبعاً لاحتكاك المصالح ، وتبادل المنافع .

وقد كان في شبه الجزيرة العربية منتجات وبخاصة في الجنوب وعلى الشواطىء ، وهذه لا بد من تصريف ما يفيض منها عن حاجة السكان في مناطق الإنتاج ، كما كان العرب محتاجين إلى كثير من منتجات البلادالخارجية، هذا إلى أن البلاد العربية كانت بحكم موقعها الجغرافي عامل اتصال بين بعض الأمم الذين لا يمكن اتصالهم إلا عن طريق بلاد العرب . ومن ثم نشطت التجارة في شبه الجزيرة منذ القدم ، ووجدت مراكز تجارية هامة في الشمال والجنوب والوسط ومن الشاطىء ، وعبرتها القوافل التجارية طولاً وعرضاً، صيفاً وشتاء ، تنقل حاصلات اليمن ، وغيرها من البلاد العربية ، وتجارات الهند والحبشة والشام إلى شبه الجزيرة وخارجها ، وبالعكس ، فكانوا ينقلون من اليمن وحوض المحيط الهندي وأفريقية الشرقية اللبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق افريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب . . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية [1] ، وقد سبق أن ذكرنا السلع التي كانوا يتاجرون فيها .

ثم هذه القوافل التجارية كانت في حاجة إلى من يحافظ عليها ويحميها من

---

(١) راجع : مكة في دائرة المعارف الاسلامية .

غارات الأعداء واللصوص وقطـاع الطرق ، فاشتدت صلة العرب بغيرهم من الأمم وبخاصة الفرس والروم والحبشة والهند ، «وقوّى هذا الاتصال وبخاصة بينهم وبين الأولين ، وجود إمارات عربيـة في الحيرة وغسان ونجد ، فكان ملوك المناذرة والغسانيين وكندة بحكم عربيتهم ، وحكم اتصال الأولين بالفرس، والغسانيين بالروم ، وتأرجح كندة بين هؤلاء وأولئك تبعاً لمصالحهم ، خير صلة بين العرب الجاهليين ومملكتي الأكاسرة والقياصرة .

واحتلت الحبشة اليمن فترة من الزمن ، وحاولت اقتحام الحجاز ، ولا شك أن هذه الاتصالات كان لهـا أثر كبير في حياة العرب الجاهليين ولغتهم وأدبهم فقد أدخل الحجاج وسائقو القوافل والتجـار والأحباش واليمنيون والسوريون والفلسطينيون وأهل ما وراء النهر والإيرانيون أشياء غريبة كما تدل عليها أسماؤها ، ونستطيع الاعتماد على القرآن في استعراض بعض الأسماء لمعرفة ما إذا كانت من أصل عبراني أو آرامي أو حبشي ، أو استعيرت بصفة مباشرة أو غير مباشرة من الإيراني أو اليوناني أو اللاتيني، مثل كلمة فردوس (محرفة من اليونانية أو الفهلوية ، ومعناها : الحديقة) و دين (من الفهلوية). وسجل (من اليونانية) والصراط (من اللاتينية) ، ومن الحبشة : (الرجيم والانجيل والمنبر والحواري) .

وهكذا نرى أن تجار الحيرة واليمن لم يجلبوا معهم السلع الغريبة فحسب بل طائفة من الأفكار والعادات التي من شأنها توسيع مدارك المحيط العربي»[1].

وقد حمل التجار معهم « شيئاً أهم وأعظم قيمة من التجارة هـو حروف الهجاء ، الحروف التي أخذ منها الخط الذي كتب به القرآن الكريم ، فصار الخط الرسمي للمسلمين ، الخط الذي لم يقتصر استعماله على العرب ، بل صار خطاً لملايين المسلمين الذين تربطهم بالعرب رابطة الدين » [2].

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ٦٢ .

(٢) جواد علي ج ٨ ص ١٤٧ .

ثم إن إرتحال بعض هؤلاء العرب إلى ديار القوم في أعمالهم واتصالاتهم بهم جعل عيونهم تقع على أشياء كثيرة من ظواهر الحضارة والمدنية التي كان يعيش فيهـا أهل هذه الأمم ، وهذا بالطبع يؤثر في حياتهم وتفكيرهم . وقد ظهر أثر ذلك في الإمارات العربية التي كانت شديدة الصلة بالأمم الأخرى كالحيرة وغسان ، اللتين تحدث التاريخ كثيراً عن مظاهر الترف والنعيم التي كان يعيش فيها ملوكهما وأمراؤهما لصلتهما الوثيقة بالفرس والروم وسنرى فيما بعد إن شاءالله أن هذا كان له أثر كبير في الأدب العربي،وبخاصة في الشعر والشعراء.

هذا إلى جانب الرقيق الذي كان في ذلك الوقت « بضاعة ضرورية لا بد منها لأهل المال تدر عليهم أرباحاً عظيمة ، إنهم آلات ذلك الزمن ، ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول على الثروة ، كما أنهم سلاح يستخدم للدفاع عن السادة الأثرياء في أيام السلم وفي أيام الحرب » . فكان هنـاك رقيق أسود ، ورقيق أبيض ، قوم من أصـل افريقي اشتراهم أثرياء مكة للعمل في مختلف الأعمـال ولخدمتهم ، « والأسرى البيض الذين كانوا يقعون في أيدي الفرس والروم أو القبائل المغيرة على الحدود ، فيباعون في أسواق النخاسة ، ومنهـا ينقلون إلى مختلف أنحـاء الجزيرة للقيام بمختلف الأعمال . يضاف إلى هؤلاء الرقيق المستورد من أسواق أوربة لبيعه في أسواق الشرق . » ومثل هـذه البضاعة « لا بد أن تترك أثراً في البيئة التي استوردت اليها . » (١)

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ج ٤ ص ١٩٨ – ١٩٩ .

الفصل الحادي عشر

معارفهم

لقد هيأت الظروف التي كان يعيش فيها الجاهليون الفرص لتكوين بعض المعارف لديهم تبعاً لأنواع النشاط الذي كانوا يمارسونه في حياتهم .

وقد سبق أن ذكرنا أن اليمن وبعض واحات الحجاز مثل يثرب وخيبر والطائف ووادي القرى كانوا يعيشون على الزراعة ، لوفرة المياه اللازمة لها ، ومن ثم فإننا نتوقع أن يكون لمن يتخذونها مهنة لهم خبرة بنواحيها المختلفة مثل البذر والحصاد والري ، وإقامة السدود والقناطر ، وشق الترع والقنوات والمحافظة على منابع المياه ومصادرها ، كذلك لا شك كانت لديهم خبرة بإقامة البيوت والمنازل التي يستلزمها استقرار الناس حول مزارعهم ؛ وقد أوردنا سابقاً بعض ما ذكره المؤرخون القدامى عن مظاهر الترف والنعيم التي كان يعيش فيها أهل اليمن ، منذ القدم .

وأما مراكز التجارة ، فلا شك في أنه كان لدى أصحابها خبرة عن طرق تثمير الأموال ، وتصريف البضائع ، وترويج سوقها .

ولا شك أن اتصالاتهم التي تحدثنا عنها آنفاً كانت سبباً في معرفة كثير من أخبار الأمم السابقين من العرب وغيرهم بما كانوا يروون من القصص ، وما يتناقلون من أحاديث . ومن ذلك يقول الهمداني : [1] « ليس يوصل إلى خبر

---

(١) تاريخ العرب القدامى . ص ١٠٨ عن كتاب الوشي المرقوم للهمداني ، وراجع بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢١٣ .

من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب وبينهم ، وذلك أن من سكن من العمالقة وجرهم وخزاعة بمكة أحاطوا بأخبار أمم مختلفة من العرب البائدة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب .

وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس .

وكذلك من سكن الحيرة وجاور العجم قد حووا علم الأعاجم وأخبارهم وعنهم صار أكثر ما رواه محمد بن السائب الكلبي والهيثم بن عدي من رواة الأخبار . وكذلك من وقع بالشام من مشايخ غسان خبير بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونان.

ومن وقع بالبحرين من تنوخ وغيرهم ، فعنهم أتت أخبار طسم وجديس. ومن وقع بعمان من ولد نصر بن الأزد فعنه أتى كثير من أخبار السند والهند ، وشيء من أخبار فارس .

ومن وقع باليمن أتته أخبار الأمم جميعاً ، لأنه كان في ظل الملوك السيارة » .

ولشدة اتصالهم بالصحراء الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف، ومظاهرها الطبيعية المختلفة وسمائها الصافية ، وشمسها الساطعة ، وقمرها الناصع ، ونجومها المتلألئة ، عرفوا كثيراً عن صفات الأرض الصلدة والصلبة والحجرية والصخرية ، والسهل والجبل ، والقمة ، والمنحدر ، والوهاد والوديان ، ومواقع القطر ، ومواطن الغيث ، ومواسم المطر ، ومسيل الماء ، ومنابع العيون ؛ وخصائص الحيوان والحشرات والهوام التي في بلادهم ، وأنواع الأشجار والنباتات التي تنمو في أرضهم ، وعرفوا شيئاً عن النجوم وأبراجها ، والكواكب ومسيرها ، والرياح وأنواعها ، والأعاصير والزوابع ومهابها ، وأحوال السحب وأنواع الأمطار والأنواء ، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة وأحوالها .

ولاعتمادهم على حيواناتهم في حياتهم ، عرفوا ما يتصل بها ، وبخاصة الإبل والخيل ، فعرفوا أعضاءها ، كبيرها وصغيرها ، وتركيب أجسامها ، وخصائصها ، وعرفوا الكثير من أمراضها وعللها ، وتحايلوا بتجاربهم الكثيرة المختلفة على شفائها فتكون لديهم شيء من علم البيطرة .

كذلك دفعتهم ظروف الحياة إلى إجراء تجارب على أجسامهم حينما كانت تلم بهم العلل والأسقام ، فعرفوا شيئاً من الطب ، ولكنها كانت خبرات بسيطة وصلت إليهم عن طريق تجارب قاموا هم بها ، أو وصلَتْهم عن طريق التوارث ، فكانوا يعالجون بالأشربة المتخذة من العسل والمركبات المصنوعة من بعض الأخلاط ، وكان لهم عناية خاصة باستعمال الكي بالنار في كثير من الأمراض ، وكذلك الحجامة . وقد اشتهر منهم أطباء مثل الحرث ابن كلدة الثقفي ، وأصله من ثقيف من أهل الطائف ، رحل إلى فارس وتعلم الطب فيها ومارسه وأجاد هذه الصناعة حتى زاولها في بلاد فارس نفسها . واشتهر بعده ابنه النضر بن الحرث ، ثم ابن رومية التميمي ، وكان جراحاً ماهراً ، وابن حذيم وهو من تيم الرباب ، وكان يضرب به المثل في الطب .

ولما كانت القبيلة تعتبر وحدة سياسية واجتماعية كاملة ، كأنها دولة مستقلة عما عداها ؛ تعتمد على أفرادها الحقيقيين ؛ فقد اهتموا بحفظ الأنساب وكان اعتمادهم في ذلك على ذواكرهم لعدم شيوع الكتابة والتدوين عندهم ، وشاع فيهم القول المأثور : « من لم يعرف النسب لم يعرف الناس ، ومن لم يعرف الناس لم يعد من الناس » . واشتهر منهم كثير بحفظ أنسابهم وأنساب القبائل الأخرى حتى عرفوا بالنسابين ؛ منهم : —

١ — دغفل بن حنظلة السدوسي من شيبان ، وتحكى عنه منافسته لأبي بكر رضي الله عنه في معرفة الأنساب ، فقد كان كل منهما مشهوراً بالإحاطة بأنساب العرب وأحوالها وصفاتها .

روى الهيثم بن عدي عن عوانة ، قال : سأل زياد دغفلا عن العرب

فقال : الجاهلية ليمن ، والإسلام لمضر ، والفتنة لربيعة . قال : فأخبرني عن مضر . قال : فاخر بكنانة ، وكابر بتميم ، وحارب بقيس ، ففيها الفرسان والنجوم ، وأما أسد ففيها ذل وكيد . وقيل له : ما تقول في بني عامر بن صعصعة ؟ قال : أعناق ظباء ، وأعجاز نساء .... فما تقول في أسد ؟ قال: عافة قافة ، فصحاء كافّة .. فما تقول في خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث... فما تقول في اليمن ؟ قال : سيود أيوك .

٢ – **ابن لسان الحمرة** ، وهو خطيب بليغ نسابة ، اسمه عبد الله بن حصين أو ورقاء بن الأشقر .

٣ – **زيد بن الكيس النمري** : وكان ممن يقارب دغفلا في العلم بالأنساب.

٤ – **والنخار بن أوس** بن الحارث بن هذيم القضاعي .

٥ – **صعصعة بن صوحان بن العبدي** : كان من المشاهير بمعرفة أنساب العرب ، ومن المقدمين بعلم أحوال قومه في الجاهلية وقد أدرك الإسلام [١].

وأحاديثهم في مجالسهم ، وتنافسهم في مجتمعاتهم ، وبخاصة في الأسواق ومواسم الحج ، وحاجتهم إلى التأثير في القلوب ، وامتلاك الأفئدة كي يصلوا إلى ما يريدون من قضاء الحاجات أو حل المشكلات ، أو الزهو والتعالي على سواهم أوجد عندهم نهضة بلاغية ممتازة ، حتى اشتهروا بالفصاحة والبيان وما أثر عنهم من أدب وبخاصة الشعر يدل على بلوغهم درجة عليا في حسن التصوير وجودة التعبير ، والذوق الأدبي الرفيع .

وما أثر عنهم من حكم وأمثال يبين ما كان لديهم من خبرة قوية بالحياة وأحوال النفس البشرية مما يدل على شدة اليقظة ، وحدة الفطنة ، وحسن الاستفادة من نواميس الطبيعة ، وطبائع المخلوقات، ومن أشهر حكمائهم حاجب بن زرارة ، والأقرع بن حابس ، ومجاشع بن دارم، وسليط بن كعب بن يربوع،

---

(١) بلوغ الأرب ، ج ٣ ص ١٩٨ – ٢٠٦ .

ولؤى بن غالب ، وقس بن ساعدة ، وقصى بن كلاب ، وعامر بن الظرب العدواني ، وأكثم بن صيفي .

وقد عودتهم ظروف الحياة الاعتماد على قوة الملاحظة ، ودقة التمييز بين كثير من الاشياء المتشابهة فتكونت لديهم ، الفراسة أو القيافة ، وهي الاستدلال بأشياء ظاهرة على أمور خفية كالاهتداء بآثار الأقدام على أربابها ، وكانوا يميزون بين آثار كل من الرجل والمرأة ، والشيخ والشاب ، والبصير والأعمى ، والأحمق والكيس ، وكذلك كانوا يفعلون في الحيوان ، وتوسعوا في هذه المعرفة فكانوا يستدلون بهيئته وأعضائه على نسبه ، وكانوا ينظرون إلى أشخاص مجهولي النسب ، فيلحقون كلاً منهم بعشيرته . وتروى لهم في ذلك حكايات عجيبة أقرب ما تكون إلى الخيال [١] . ويقال إن عرب اليمن كانوا أوفر حظاً في الفراسة .

وساعدت الظروف التي عاشوا فيها على كثرة الغارات والحروب ، فتكونت لديهم خبرات عملية عن القتال وأدواته وبخاصة الرماح والسيوف والقسى والسهام ، والدرع والترس والبيضة ، وحركات الكر والفر ، والطعن والضرب والرمي ، وغير ذلك من فنون القتال . وشعر الحرب خير شاهد على ما بلغوه في هذه الناحية مما يدل على حسن التفكير ، وروعة التدبير في الظروف الحرجة والأوقات العصيبة [٢] .

وقد كانت بلاد العرب محاطة بالبحار كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، ومن ثم كان منهم من يسكن على سواحل : بحر القلزم في الغرب ، وبحر الهند في الجنوب ، وبحر العرب في الشرق ، ولا شك أن سكان هذه السواحل من العرب كانت لهم صلة وثيقة بالبحر فاشتغلوا بالصيد ، والتجارة مع الهند

(١) راجع بلوغ الأرب ، ج ٣ ص ٢٦١ وما بعدها ، نقلاً عن كتاب الذريعة لأبي القاسم الأصفهاني ، وكتاب أعلام النبوة للماوردي ، وكتاب مفتاح السعادة لابن القيم .

(٢) راجع شعر الحرب للمؤلف .

والحبشة والروم وغيرهم ، فكانت الحاجة ماسة إلى ركوب البحر ، ولهذا لا بد أنهم كانوا على شيء من علم الملاحة ، وصناعة السفن ، ومن ثم ورد ذكرها في الشعر الجاهلي كثيراً ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنـــا ... وماء البحر نملؤه سفينا

وقال طرفة بن العبد :

كأن حدوج المالكيـة غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد

عَدَوْلية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

ولا بد أن الملاحة اضطرتهم إلى معرفة كثير من النجوم والكواكب للاهتداء بها في سيرهم عند ركوب البحر .

«ولا شك أن صناعة السفن الكبيرة تحتاج إلى أخشاب وإلى مسامير من حديد تستعمل في ربط الألواح والأخشاب بعضها ببعض ، وإلى أيد فنية عاملة ، ولم تتيسر هذه الأشياء في جزيرة العرب ، ولهذا اقتصرت صناعة السفن على السفن الصغيرة في الغالب»[1] هذا إلى جانب الصناعات المختلفة التي أشرنا إليها فيما سبق : ولا بد أنهم كانوا على الأقل ذوي خبرة بهذه الصناعات .

ولا شك أن هذه الخبرات العملية التي أشرنا إليها هنا كانت وليدة الحاجة جاءتهم عن طريق التجارب العديدة التي قاموا هم أو أسلافهم بها ، وهي وإن كانت بسيطة أو تعتبر خطوات أولى في ميادينها ، فإنها تدل على ما كان لديهم من كمال العقل ونضج التفكير ، وقوة الملاحظة ، وحب الاستطلاع ، ويقظة ووعي لما يقع تحت أعينهم ومحاولة للاستفادة منه بقدر ما يستطيعون.

وأما علم الخط والكتابة ، فلم يكن ينتشر بينهم ، وانما كان موجوداً فيهم ، وقد ورد في كثير من أشعارهم وأخبارهم ما يؤيد ذلك . ويقول ابن

---

(١) جواد علي ج ٨ ص ٧٣ .

خلدون : «كان الخط العربي بالغاً مبلغه من الإحكام والإتقان في دولة التتابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميري ، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها دولة آل المنذر نسباء التتابعة في العصبية والمجددين لملك العرب في العراق . » ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش[١] .

ويقول علماء المسلمين في القرن السابع : « إن مرامر بن مرة الأنباري أول من اخترع الخط العربي» ، ويروى عن الأصمعي المتوفى سنة ٨٢٨ م أن الكتابة انتقلت من الأنبار إلى الحيرة ومنها إلى الحجاز[٢]» .

قال المدائني : أول من كتب بالعربية مرامر بن مرة من أهل الأنبار ، ويقال من أهل الحيرة . قال : وقال سمرة بن جندب : نظرت في كتاب العربية، فإذا هو قد مر بالأنبار قبل أن يمر بالحيرة،ويقال إنه سئل المهاجرون: من أين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الحيرة . وسئل أهل الحيرة : من أين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الأنبار[٣] .

وبلاشير بعد بحث طويل ، يرجع أصل الكتابة العربية إلى الخط النبطي المتفرع من الآرامي الذي تفرع من الفينيقي[٤] . ويوافقه على ذلك رينان الذي يقول إن الفضل يرجع إلى المعنيين في إقتباس الأبجدية من الفينيقيين الذين هم أيضاً أمة سامية عريقة ، واستعمل المعنيون هذه الأبجدية الفينيقية في الكتابة على طرق مختلفة حتى تطورت وتنوعت وانتهت في آخر الأمر إلى الخط المسند المشهور أو القلم الحميري[٥] .

---

(١) تاريخ العرب القدامى ص ١١٠ .
(٢) تاريخ الادب العربي لبلاشير، ص ٧٠ .
(٣) بلوغ الأرب جـ ١ ص ١٧٩ بالهامش .
(٤) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ، ص ٧٣ .
(٥) الشهاب الراصد ص ١٢٤ .

البَابُ الثَّاني

حول الأدب الجاهلي

الفصل الاول

حقائق عامة

الأدب الجاهلي هو ذلك الأدب الذي ينسب إلى العرب الذين كانوا قبل الإسلام . وليس المقصود بالأدب هنا الأدب بمعناه العام الذي يشمل جميع نتاج القرائح العربية في أي نوع من أنواع النتاج العقلي ، فذلك ليس من شأننا الآن ، إنما المقصود هنا الأدب بمعناه الخاص ، وهو النتاج العاطفي الذي يعبر فيه صاحبه بالألفاظ عن شعور عاطفي ، وفيه إثارة للقارىء والسامع ، أي ذلك التعبير اللفظي العاطفي المثير ، وهذا يكون عادة في الشعر الرائع والنثر البليغ .

ومن يرجع إلى كتب الأدب والقصص والتاريخ والأخبار والسير يجد أن الأدباء في العصر الجاهلي كانوا أكثر من أن يحيط بهم حصر ، فكل قبيلة كان بها عدد كبير من الأدباء الذين روى لهم نتاج أدبي ، وبطبيعة الحال كان فيهم المقل والمكثر ، وهم يتفاوتون في نتاجهم كماً وكيفاً ، وإذا تذكرنا أن عدد القبائل العربية شماليها وجنوبيها كان كثيراً ، توقعنا أن نجد لهم نتاجاً أدبياً ضخماً .

وقد كانت ظروف الجاهليين تساعد على إبداع النصوص الأدبية في جودة وإتقان ؛ فالأحداث التي كانت تقع بينهم ، والصلات الاجتماعية التي كانت تربط بعضهم ببعض ، والمجالس التي كانت تعقد إما بين أفراد القبيلة الواحدة أو القبائل المتحالفة للتشاور وحل المشكلات ، وإما بينهم وبين خصومهم

لإنهاء نزاع أو فض خلاف ، والمناسبات المختلفة التي كانت تستدعي بعث الرسل والوفود ، والمجتمعات العامة التي كانت تضم أكبر عدد من القبائل ، فتعرض فيها الأمور على نطاق واسع – كل هذه الظروف – كان الاعتماد فيها على فصيح القول وبليغ العبارات ، ثم إن مجالس السمر التي كانت تعقد ليلاً حينما ينتهون من مشكلاتهم اليومية ، فيلتفون حول المواقد ، أو في رحاب النسيم العليل ، كانت تهيء فرصة ذهبية لأصحاب المواهب الفنية ليمارسوا نشاطهم الأدبي ، في كل ما يروقهم من قصص أو أخبار ، أو تصوير أدبي ، نثراً كان أم شعراً ، كل حسب ميوله واستعداده ، يشجعه على القول والإجادة فيه إرهاف الجميع أسماعهم إليه من صغيرهم إلى كبيرهم، رجالاً كانوا أم نساء.

ولا شك أن مما ساعد على كثرة النصوص الأدبية ، والحرص على جودتها، ما كان من تنافس طبيعي بين أصحاب المواهب الأدبية في القبائل المختلفة التي كان يسود بينها النظام القبلي ، وكل منها تعمل على أن تحتل الذروة العليا في جميع الميادين ، وفي مقدمتها ميدان الفصاحة والبيان الذي يجعل ذكرها على كل لسان ، في كل زمان ومكان .

كل هذا يجعلنا نعتقد أن نتاج الجاهليين الأدبي كان وفيراً غزيراً ، ولكن للأسف لم يحفظ لنا من هذا التراث إلا شيء قليل جداً ، يدل على ذلك قول أبي عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[1] . ويستدل ابن سلام على ذهاب هذا العلم وسقوطه ، بقلّة ما بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وصفا من الشهرة والتقدمة » ، ويقول : « وإن كان ما يروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة ، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر ، وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك

(١) المزهر ج ٢ ص ٢٣٧ .

لذلك . فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير »[١] .

كما أننا كثيراً ما نجد في كتب الأدب والتاريخ شعراء يذكرون في بعض الأخبار والحوادث ، ولهم بيت أو أبيات معدودة ، ومن المستبعد أن يكون ذلك كل ما قالوه في حياتهم . حقيقة قد يكون هؤلاء أو بعضهم غير مشهورين، ولكن من المحتمل جداً أن يكونوا قد قالوا أكثر من ذلك،ولكنه ضاع أو أهمله الرواة .

والحق أن كثيراً من نتاج الجاهليين الأدبي قد ضاع ، ولعل من أهم الأسباب في ذلك بُعد الزمن بين وقت إنشائه ووقت تدوينه وحدوث أحداث جسام في هذه الفترة جعلت رواته وحفظته يتشاغلون عنه أو يقلـّون . ويؤيد ذلك ما رواه ابن عوف عن ابن سيرين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه قال: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام،فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيتْ عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم منه أكثره[٢] » .

على أن ما تحدث عنه عمر رضي الله عنه من أدب الجاهليين الباقي ووصفه بالقلـّة ، لم يصل إلينا كله ، إذ جاءنا منه جزء قليل بسبب ما حدث من عوادي الزمن ، والاضطرابات السياسية المختلفة ، ونهب المراكز الحضرية على يد المغول ، فكل ذلك كان له أثر كبير في ضياع جزء كبير مما كان له حظ التدوين من هذا التراث .

ومع قـلة التراث الجاهلي ، فإننا نجد أن النثر فيه أقل بكثير جداً من

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ، ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .

الشعر فيه ، فالغالبية العظمى من هذا التراث شعر ، مع أن العكس كان ينبغي أن يكون ، فالعادة والواقع يؤيدان أن النثر أكثر من الشعر ، وذلك لسهولة الأول وخلوه من الحدود والقيود ، والشعر يحتاج إلى موهبة خاصة ، ومقدرة لغويـة ظاهرة ، ومن ثم فالنثر أكثر دوراناً على الألسنة ، وأسهل تأليفاً من الشعر ، ولعل السبب في قلة الموروث من النثر الجاهلي أن أدب هذه الفترة كان يحفظ ويتناقل بطريق الحفظ والسماع والرواية ، ولم يدوّن إلا بعد مرور العصر الجاهلي بفترة طويلة ، كما سنرى فيما بعد إن شاء الله . والنثر عادة ممـا يصعب حفظه ، كما أنه لا يبقى في الذاكرة طويلاً ، في حين أن الشعر يعلق بالذهن بسهولة ، لمـا فيه من النغمات الموسيقية المنتظمة ، وهذه تحبب كلاً من القارىء والسامع فيه، وتستهويه لترديده ، فيعلق بالذهن أسرع وأسهل ، ويظل في الذاكرة زمناً أطول من النثر .

والأدب الجاهلي بالصورة التي وصل بها إلينا ، يدل دلالة قاطعة على أن العرب في جاهليتهم كانوا قد قطعوا أشواطاً كثيرة متباعدة في سبيل التطور الأدبي ، فهو أدب ممتاز ، في درجة عالية من التقدم والكمال ، ولا يستطيع الإنسان معه أن يتصور أن هذا كان أول ما قاله العرب ، أو أول محاولة أدبية لهم ، حقيقة هو أقدم ما وصل إلينا من تراث أدبي للعرب ، ولكن ليس أول ما قالوه في هذا المجال ، بـل لا بد أنهم كانوا قد حاولوا محاولات شتى في التعبير الأدبي ، وصوره الفنية حتى وصلوا بأدبهم إلى هذه الدرجة العليا من الكمال . ولو حفظ لنا التاريخ جميع الخطوات التي سارها العرب في سلّم التدرج نحو الـكمال بأدبهم لاستطعنا أن نقف من وراء ذلك على ناحية هامة جداً من نواحي التطور العقلي والنفسي والعاطفي لدى الإنسان بوجه عام ، والعربي بوجه خاص .

ولا شك أن الأدب الجـاهلي كامل من ناحية اللغة والموسيقى والمعنى ، ويدل دلالة قاطعة على تطور ناضج عند العرب في مجال التعبير والتصوير الأدبي الممتاز . ومما يدل على روعته وعظم شأنه بقاؤه حياً خالداً إلى اليوم ، بعد

مرور هذا الزمن الطويل منذ نشأته إلى عصرنا الحاضر ، كما أن الأدباء ، كانوا وما زالوا ، قديماً وحديثاً ، ينسجون على منواله ، ويتخذونه المثل الأعلى ، ويتمنون أن يجيء نتاجهم مثله ، أو قريباً منه ، قوة ، وروعة ، وجمالاً ، وصدقاً في التعبير والتصوير .

وفي خلال عمره الطويل ، قامت عدة محاولات للخروج على تقاليده ، أو منهجه، ومن ذلك ما حاوله بعض الأدباء في عصرنا الحاضر من التخلص بعض الشيء من قيوده التقليدية ، مقلداً بعض الآداب الأجنبية ، ولكن معظم هذه المحاولات لم يكتب لهـا من التوفيق ما كتب للأدب الجاهلي ، ولم تجد من المتشيعين أو المشجعين ما يمكنها من الذيوع والانتشار ، وما زال الأدب القديم صاحب السيادة والسلطان ، ويحظى بالاحترام والإكبار من الجميع ، مما يدل على أنه يتجاوب تجاوباً تاماً مع الذوق العربي العام في كل عصر منذ وجوده إلى اليوم ، وهذا معناه أن العرب القدماء ، كانوا قد وصلوا بحسهم الفـني الصادق إلى خبرة عميقة دقيقة بالنفس الإنسانية ومشاعرها المختلفة وعواطفها الحقيقية ، فأحسنوا تصويرها ، وأجادوا التعبير عنها . والحق أن الإعجاب بالأدب الجاهلي وكماله الفني ليس مقصوراً على العرب والذوق العربي فقط ، بل وصل إلى الأمم الأجنبية ، فقد قرأ أبناء هذه الأمم الأدب الجاهلي، فوجدوا فيه النضـج والكمال ، ولمسوا مواطن الحسن والجمال فيه ، فترجم كثير منه إلى لغات الأمم الأخرى ، وهكذا عرف العرب وغير العرب مـكانة الأدب الجاهلي الفنية الممتازة .

والتراث الذي بين أيدينا من الأدب المنسوب إلى الجاهليين ليس إلا تراث فترة قصيرة لا تتعدى قرنين من الزمـام ، قبل ظهور الإسلام ، فأقدم نص فيه يرجع تاريخه إلى أوائل القرن الخامس الميلادي .

الفصل الثاني

لغة الأدب الجاهلي

جاء الأدب الجاهليّ كله بلغة عربية واحدة ، وصاغه بهذه اللغة الواحدة جميع الذين نسب إليهم أنهم قالوا من العرب شماليّهم وجنوبهم لا فرق بين من أصله قحطاني ومن أصله عدناني . وهنا نحب أن نشير إلى ملاحظة هامة جداً ، ينبغي ألا تغيب عن البال ، هي أن الأدباء الجنوبيين الذين جاءت لهم نصوص أدبية في تراث الجاهليين كانوا قد استقروا في الشمال ، أو قريباً منه في أطراف اليمن المتاخمة للعدنانيين ولم يكن منهم من يسكن في أقاصي اليمن أو أطرافها البعيدة عن الشماليين . وإن ظلت نسبة من استقر منهم بالشمال إلى اليمن ، فإنما هي نسبة قبيلة الشاعر منهم إلى أصلها الأول ، وهذا بالطبع لا يؤثر على اللغة الأدبية السائدة التي أصبحت لغة الشعر والأدب قبل ذلك بزمن ؛ فهذا مثل ما يقال عن أبي الحسن علي بن العباس بأنه الرومي ، وعن مهيار بن مرزويه بأنه الديلمي ، فكلاهما من أصل غير عربي ، وكل منهما شاعر عربي فصيح .

وهذا معناه أن الأدب قبل الإسلام بفترة من الزمن قد أصبحت له لغة خاصة ، يستعملها الأدباء في إنشائهم ، بصرف النظر عمّا قد يكون للأديب من لهجة خاصة يستعملها هو وقبيلته في تفاهمهم اليومي العادي ؛ والدليل على سيادة هذه اللغة الأدبية قبل ظهور الإسلام بين العرب ، نزول القرآن الكريم بها ، وكان القرآن الكريم خطاباً عاماً لجميع العرب على الخصوص ، ففهموه

وناقشوه ، وجادلوه ، وحاول بعضهم تقليده ، ولكن الفشل حالفهم في هذه المحاولات . ففهم العرب للقرآن الكريم ومجادلاتهم للنبي ﷺ دليل على شيوع لغته بينهم قبل نزوله بزمن . ولكن هذه النقطة بالذات دفعت بعض الباحثين إلى الطعن في أصالة الأدب الجاهلي ، ورميه بالصنعة والانتحال ، كما سيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل إن شاء الله .

وقد اختلف الباحثون في أمر هذه اللغة التي جاء بها الأدب الجاهلي ؛ تلك اللهجة التي كان لها الحظ ، فأصبحت لغة الأدب من بين اللهجات العربية المختلفة في الشمال والجنوب ، فالمعروف أن العرب كانوا قسمين : القحطاني والعدناني . والجميع وإن كانوا عرباً من أصل واحد ، ولغتهم في الأصل كانت واحدة ، فإن النظام الخاص الذي سار عليه كل منهم في الحياة والمعيشة ، كفيل بأن يجعل كلاً منهم يتخذ لنفسه أُسلوباً خاصاً في التعبير ، وكيفية النطق بالألفاظ وأصواتها المختلفة ، فلا شك حينئذ في أن عربية كل من القسمين دخلها بمرور الزمن وظروف الحياة بعض التغييرات ، فكان هناك بعض الاختلاف بين عربية الجنوب وعربية الشمال ، وقد عَبَّر عن ذلك أبو عمرو بن العلاء بقوله : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا (١) » . وكل من هذين القسمين الكبيرين قد تكاثر فتعدّدت قبائله ، وتبع ذلك أن صار لكل قبيلة لهجة خاصة ، بينها وبين غيرها من أخواتها اللهجات الأخرى ، بعض الاختلاف في دلالات الألفاظ ، ومدلولات المعاني ، والأصوات ، والنطق بها ، كما هو المشاهد في جميع الأقطار في شتى العصور ، حتى في أرقى الأمم وأعظمها تقدماً ، ففي كل قسم أو محافظة ، أو حيّ تشيع بينهم لهجة محلية خاصة ؛ فمرور الزمن ، مع اختلاف الظروف والمعيشة ، مع ما في الإنسانية من ميل غرزي إلى أن تكون له شخصية مميزة عن غيره ، كل ذلك يستلزم حدوث بعض الاختلافات بين اللهجات المحلية ، وإن اتحدت جميعها في الأصل الذي نبعت كلها منه . فالعرب قبل الإسلام

---

(١) المزهر ، جـ ١ ص ١٧٤ .

كانت لهم لهجات كثيرة بسبب تعدد القبائل وانتشارها في بيئات متعددة مختلفة ، وكان بين هذه اللهجات المتعددة اختلاف في الحركات أو الإعراب أو الحروف أو الكلمات أو نحو ذلك ، وقد حاول ابن فارس في كتابه « الصاحبي » أن يضبط اختلاف لهجات العرب ، فقال : « اختلاف لغات العرب من وجوه :

أحدها : الاختلاف في الحركات، كقولنا نستعين بفتح النون وكسرها، قال الفراء : هي مفتوحة في لغة قريش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون .

ووجه آخر: الاختلاف في الحركة والسكون ، مثل قولهم معَكم ومعْكم ، بفتح العين وتسكينها .

ووجه آخر: هو الاختلاف في إبدال الحروف ، نحو أولئك وأولالك ، ومنها قولهم أنّ زيداً وعَنّ زيداً ، ومن ذلك الاختلاف في الهمز والتليين نحو مستهزئون ومستهزون .

ومنها : الاختلاف في التقديم والتأخير ، نحو صاعقة (في لغة الحجازيين) وصاقعة (في لغة التميميين) .

ومنها : الاختلاف في الحذف والإثبات ، نحو استحييت واستحيت ، وصددت وأصددت .

ومنها : الاختلاف في الحرف الصحيح يبدل حرفاً معتلاً نحو أمّا زيد وأيْما زيد .

ومنها : الاختلاف في الإمالة والتفخيم ، مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل .

ومنهـــا : الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله ، فمنهم من يكسر الأول ، ومنهم من يضم ، فيقولون : « اشترُوا الضــلالة » و « اشترِوا الضلالة » .

ومنهـــا : الاختلاف في التذكير والتأنيث ، فإن من العرب من يقول : هذه البقر وهذه النخيل ، ومنهم من يقول : هــذا البقر وهذا النخيل .

ومنهـــا : الاختلاف في الإدغام ، نحو مهتدون ومهدّون .

ومنهـــا : الاختلاف في الإعراب نحو : ما زيد قائماً وما زيد قائم ، وإن هذين وإن هذان . (وهذان بالألف دائماً لغة لبني الحرث ابن كعب) .

ومنهـــا : الاختلاف في صورة الجمع ، نحو أسرى وأسارى .

ومنهـــا : الاختلاف في التحقيق والاختلاس نحو « يأمركم » بضم الراء وتسكينها ، ونحو « عُفي له » بتسكين الفاء وكسرها .

ومنهـــا : الاختلاف في الزيادة نحو « انظُر وانظور » .

وقال ابن فارس [1] : « يقـع في الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الِحصاد والَحصاد بكسر الحاء وفتحها .

ويقع في الكلمة ثلاث لغـات ، نحو الزُّجاج والزَّجاج والزِّجاج ، بضم الزاي وفتحها وكسرها .

ويقع في الكلمة أربـع لغات ، ويكون فيها خمس لغات ، مثل الشّمال والشَّمَل والشمْل والشّمْأل والشّمِل .

---

(١) المزهر ، ج ١ ص ٢٦٠ .

ويكون فيها ست لغات ، نحو قُسْطاس بضم القاف وكسرها، وبإبدال السين صاداً مع ضم القاف ، وقُسْتاط ، وقِسّاط ، وقُسّاط . »

ومن أثر اختلاف اللهجات العربية وجود الترادف في اللغة العربية مثل القمح والحنطة والبُرّ . قال الجاحظ في البيان والتبيين : « القمح لغة شامية، والحنطة لغة كوفية ، والبُرّ لغة حجازية » . ومثل مجيء عدة أسماء لكل من السيف والأسد والفرس والبعير .

وكذلك كان من أثر الاختلاف بين القبائل في اللهجات كلمات الأضداد فقد نجد كلمة تستعمل بمعنى عند قبيلة ، ولكنها تستعمل في معنى مضاد لهذا المعنى عند قبيلة أخرى ، مثل « جلل » تستعمل في معنى « عظيم » وفي معنى « حقير » ، وكلمة « جَوْن » يوصف بها الأبيض والأسود ، ومثل « شرى » بمعنى « اشترى » وبمعنى « باع » . وروى أن أبا زيد الأنصاري قال : « السُّدْفة في لغة تميم الظلمة ، والسدفة في لغة قيس الضوء ... ولمقت الشيء ألمقه لمقاً إذا كتبته في لغة بني عقيل ، وسائر قيس يقولون لمقته بمعنى محوته . وكلمة « الوثب » ، فإن معناها في الحجاز « قفزَ » ومعناها في اليمن « قعَدَ » . يروى عن ابن دريد : « خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني صعصعة إلى ذي جدن (من أقيال حمير) ، فأطلع إلى سطح والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : « ثبْ » أي اقعد ، فقال : ليعلم الملك أني سامع مطيع . ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ؛ إن الوثب في كلام نزار الطفر (القفز) . فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم [٢] » .

ولكن مهما تعددت اللهجات في لغة من اللغات ، ومهما ضعفت الصلة بين هذه اللهجات بمرور الزمن واختلاف الظروف ، فإن ذلك لا يمكن أن يلغي أن الأصل بينها جميعاً واحد ، ولا يمكن أن يمنع أن تقوم بين أصحاب هذه

---

(١) المزهر ج ١ ص ٣٨٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٦ .

اللهجات المختلفة لغة خاصة تكون لغة الأدب والحديث الممتاز ، مع عدم اختفاء هذه اللهجات المتعددة من الوجود ، بل تظل مستعملة، ويصبح استعمالها مقصوراً على أغراض الحياة العادية العاجلة . وإذا كان الأمر كذلك فما هذه اللغة التي كانت لغة الأدب بين العرب قبل الإسلام ؟ لقد كان البحث عن إجابة لهذا السؤال سبباً في وجود كثير من الآراء : فتشارلز لايل [1] ، يقول إن لغة معدّ وهم العرب الإسماعيليون ، كانت لسان وسط شبه الجزيرة ، وقد سيطرت في ذلك الوقت على كل اليمن ما عدا شواطىء المحيط الهندي ، حينما انتهت سيادة ملوك تبّع على بقية شبه الجزيرة العربية ، واختفت إلى الأبد ، وفي القرن السادس الميلادي زالت جميع آثارها من الوجود ، حينما رجع ملوك كندة بقومهم من اليمامة وهجر إلى ديارهم الأصلية في حضرموت » . ويستمر لايل في الحديث عن سيادة اللغة الأدبية الواحدة، فيقول « إن الاتحاد اللغوي العظيم قد انتشر في جميع أنحاء البلاد ، وإن لم يكن من المحقق إن كان السبب في ذلك يرجع – كما يظن عادة – إلى اجتماع الحجاج العامّ في مكة ، واجتماع القبائل في عكاظ ، أو إلى عوامل أخرى » .

وفي بيانه لسيادة اللغة الواحدة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، يقول لايل : « فنفس التعبير اللغوي كان يُسمَع من الحيرة على الفرات تحت ظلال فارس ، ومن غسان في سوريا تحت سيطرة الكنيسة الرومانية بدمشق ، إلى صنعاء وعدن في أقصى الجنوب حيث كان الحاكم الفارسي يحكم باسم شاهنشاه ، وفي ربوع هذه البلاد ، كان عمل الشاعر يحظى بالشرف والمكافأة في كل مكان» . وبهذا نرى إن سير لايل يرى هنا أن اللغة الشمالية هي التي سادت في أنحاء شبه الجزيرة ، ولكنه لم يخصّص لهجة من بين اللهجات الشمالية .

أما نولدكه ، فيقول : إن الاختلافات في الحجاز ونجد وإقليم الفرات كانت قليلة وإن اللغة الفصحى قد تركبت منها جميعاً ، فهو كذلك لا يخصص

Charles James Lyall : ancient Arabian Poetry P. XV. (١)

لهجة معينة من بين لهجات هذه الأقاليم .

وجويدي يرى أن اللغة الفصحى ليست لهجة معينة لقبيلة معينة وانما هي مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم .

وأما فيشر فيقول إنها لهجة معينة، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل.

ويرى فولرز وهارتمان أنها لهجة أعراب نجد واليمامة وقد أدخل فيها الشعر تغييرات كثيرة (١) .

أما نالينو فيقول إنها لغة القبائل التي اشتهرت بنظم الشعر والتي جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم ، وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادي. وفي رأيه أن هذه اللغة الفصحى تولدت من إحدى اللهجات النجدية وتهذبت في زمن مملكة كندة ، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب .

ويأتي بلاشير فيراجع القبائل التي أخذ منها اللغويون مادتهم ، وهم تميم وقيس وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض طيىء، ثم يحاول أن يضع حدوداً لمحيط هذه القبائل، فيقول: « حتى إذا عمدنا – كما فعل فولرز – إلى تضييق حدود هذا المحيط، ظهر لنا أنه محصور بين خطين يمتد أحدهما من مسافة عدة كيلومترات جنوبي مكة حتى خليج البحرين على الخليج الفارسي، ويمتد الثاني شمالاً من ضواحي المدينة حتى شمالي الحيرة » . ثم إنه يذكر الفرق بين هذه القبائل التي أخذت عنهم الفصحى فيورد رأي الفارابي إذ يقول : « إن قيساً وتميماً وأسداً هم الذين أكثر ما أخذ عنهم ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين » . ثم يقول :

---

(١) راجع في هذه الآراء السابقة : مقالة لجواد علي عن لهجات العرب قبل الإسلام في كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة : نشر مكتبة النهضة بالقاهرة . وقد لخصها الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ العصر الجاهلي ، ص ١٣١ .

« ومن الواضح كما نرى أن قريشاً في نطاق ذلك المحيط [1] » .

ويقول بلاشير في موضع آخر ، في معرض الحديث عن نشوء العربية الفصحى [2] : « إن اللغة المذكورة لهجة شعرية تمتد على مساحة جغرافية واسعة جداً ، تجاوز حدود المحيط العربي ، ولا يزال مصدرها مجهولاً ، فهل عمد الشعراء قبل القرن السادس ، حباً في رواج آثارهم ، إلى لغة دارجة مركبة تولدت بتأثير التجارة واتحاد اللهجات ، مع اكتفائهم برفع شأنها ، أم يجب الاعتقاد بأن لهجة قبلية خاصة قد أصبحت في عصور ما قبل التاريخ وبتأثير ظروف سياسية لغة الشعر العامة ؟ » وهنا يقول : « ليس من الصعب الإجابة على تلك الأسئلة » . ثم يستمر فيقول : « إن فرضية خلق لغة إصطناعية عن سابق تصميم غير مقبولة ، في حين أن وجود لهجة محلية رفعت إلى منزلة لغة أدبية مؤيد بوقائع مماثلة في اللغتين الفرنسية والإيطالية . ففي الحالة التي لها مساس بلهجة خاصة في الأصل فإن هذه ترد إلى مجموعة اللهجات في وسط الجزيرة وشرقيها . فهذة اللهجة كما تراها في النصوص الشعرية التي نقلها الرواة المسلمون في القرنين الثامن والتاسع هي لغة وسطى ، لها خصائص اللهجات في وسط الجزيزة وشرقيها ولكنها مجردة عن القلقلة . فهذه اللهجة الشعرية تنطبق على اللهجات المحلية ، بل هي امتداد لها ، وهي في الجملة موضوعة للأغراض النبيلة والتعبير الفني عن بعض أنواع التفكير » .

ثم يقول : « إن وجود لهجات ولغة عليا ليس فيه شيء مخالف للعادة ، كما أن نمو لهجة شعرية ليس فيه أيضاً شيء خارق . ولنا في الشعراء المتشددين البرابرة في إفريقيا الشمالية الذين يعتمدون في النظم على لغة مخالفة للغة الدارجة مثال واضح . كما هي الحال عند عرب إفريقيا الشمالية وهو نوع من اللهجة الشعرية مبدؤها لهجة عربية ، يظهر فيها بوضوح تأثير الفصحى واللهجات البدوية معاً » .

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ، ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٩١ .

ويستمر فيقول عن عالم هذه اللغة الفصحى : « إن الصفة الخارقة للعادة الغالبة على اللهجة الشعرية القديمة عند العرب سواء أكان مصدرها اللهجة المحلية أم تركيب بطيء صناعي ، هي في أن هذه اللهجة شائعة ومسموعة ليس في المنطقة العربية المحدودة فحسب بل في سوريا وفلسطين وبلاد ما وراء النهرين وبلاد الغسانيين في جلق وبلاط اللخميين في الحيرة ، وهي مستعملة أيضاً عند شعراء الحجاز» ويستطرد فيقول عنها : « وليس لدينا أسباب قوية تجعلنا نبعد أن تكون لغة الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . كما أن المقطوعات الشعرية التي ينظمها شعراء أواسط الجزيرة في الوقت الحاضر يفهمها أهل نجد حتى تخوم سوريا والسهول الواقعة في غربي الفرات ، كما أن منظومات وأناشيد شعراء « أم ديازن » في بني حديد في الصحراء الوسطى في مراكش تسمع على مسافة تمتد من جنوبي فاس حتى الصحراء الكبرى » .

وينتهي به الكلام إلى أن يقول : « فالقرآن والشعر الجاهلي لا يمثلان إذن اللهجة الشعرية في شكلها القديم الحي ذي الشيات ، ولكن لغة مجردة على قدر الإمكان من البقايا اللهجية » . ثم يقول بعد ذلك : « ماذا أضاعت اللهجة الشعرية أثناء الغربلة الدقيقة ؟ أشياء قليلة دون ريب ، هذا إذا اعتمدنا على الفوارق اللهجية التي احتفظ بها القرآن . ولما بدأ النحاة واللغويون أعمالهم اكتفوا بتطبيق حدود المحيط العربي الصرف تخلصاً من اللهجات التي تبعد بشكل واضح عن لغة القرآن والشعر الجاهلي . وليس المهم في أنهم أهملوا البحث عن مصادر تلك اللهجة الشعرية ، وأنهم اعتبروا اللغة المستعملة من الحجاز حتى الفرات ، ومن نجد حتى السهول السورية الفلسطينية كلغة حجازية بحتة ، بل المهم أنهم استخدموا علمهم للاحتفاظ بآثار لغة رفعت إلى مرتبة اللغة الأدبية من جهة ، وفي استخدام نزعة التصفية في الاتجاهات العامة للهجة الشعرية الشبيهة بلغة القرآن من جهة أخرى » .

وأما بروكلمان ، فيعتقد أن لغة الأدب الجاهلي لغة فنية قائمة فوق اللهجات

وإن غذتها جميعاً [١] ؛ وهو يعتقد أن الفصحى تألفت تدريجياً بفضل الصلات التجارية التي أوجدها الظعن والحج إلى المراكز الدينية كمكة واستمدت غناها في المفردات من عدد كبير من اللهجات [٢] .

وقد قال كثير من الباحثين العرب أن اللغة الفصحى هي لغة قريش لأنها كانت أفصح اللهجات العربية وأصفاها [٣] ومن أشهر هؤلاء الباحثين: الفارابي وابن فارس وابن خلدون ، ويؤيدهم من المحدثين الاستاذ لطفي جمعة [٤] والدكتور شوقي ضيف [٥] فهم يرون أنها اللغة الفصحى من بين لهجات القبائل العربية ، وأنها هي التي سادت في المجال الأدبي فأصبحت لغة الأدب والفصاحة قبل ظهور الإسلام بزمن ، ويقولون إن القرآن الكريم نزل بها ، ذلك لأنه هو – أي القرآن الكريم – يمثل العمود اللغوي ، وبما أن القرآن قد أوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم سليل قريش المكية فالقرآن إذن نزل بلغة قريش ، ولهذا كان العمود اللغوي الذى يجب أن يحتذى هو في لهجة القبيلة المذكورة [٦] » . وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس [٧] ». ويقول ابن فارس في أسباب تفوق لغة قريش على ما عداها : « ذلك لأن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قُطّانَ حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان . دار المعارف ، ج ١ ص ٤٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ٨٧ .

(٣) راجع في ذلك معجم ما استعجم للبكري ص ٦٦٠ . والأغاني والمزهر وأخبار اسواق العرب .

(٤) كتابه الشهاب الراصد .

(٥) تاريخ العصر الجاهلي ، ص ١٣٢ .

(٦) درة الغواص للحريري س ١٣٧ ، والمزهر للسيوطي ج ١ ص ١٣٦ .

(٧) المزهر ، ج ١ ص ٢١١ .

حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش في دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب .

فهم يرون أن لهجة قريش تجمّع لها من الأسباب ما جعلها تسير بخطوات حثيثة نحو الرقي والكمال ، فتم لها ذلك ، فاتخذها العرب لغة رسمية لهم ، يتحدثون بها في مجتمعاتهم الكبيرة ، ويقولون بها أدبهم ، وينطقون بها في تفاهمهم وأحاديثهم العامة ورسائلهم ، وهذه الأسباب تتلخص فيما يلي :

أولاً – من الناحية الدينية : كانت قريش تنزل بمكة ، وكانت مكة قبلة العرب الدينية جميعاً ، أقاموا فيها أصنامهم ، فكان بها – على ما يروى – ثلاثمائة وستون صنماً ، يحجون إليها في كل عام ، وكانت قريش تتولى خدمة البيت الحرام الذي تعظمه العرب وتقدسه ، فقريش كانوا سدنته ، يحافظون عليه ، ويتعهدونه بالعناية والرعاية ، وهذا يجعلها موضع الاحترام من العرب جميعاً ، ولا شك أن اختلاطها بهم جعلها تسمع لغات القبائل كلها كل عام فكانت تنتقي أحسن الألفاظ وأعذب الكلمات من كل هذه اللهجات ، وتضمها إلى لغتها ، ويقولون : إن مما ساعد قريشاً على تقبل ألفاظ غيرها بسهولة كونهم حضريين ، وتعوّد أسماعهم على كثير من الألسنة المختلفة التي كانت تفد إليهم ، فطوع ذلك لسان قريش ، وجعله مرناً ، يتقبل ألفاظاً غير ألفاظه في غير مشقة ولا عسر ، بعكس البدوي الذي يقيم في الصحراء منعزلاً ، لم يمرن لسانه على النطق بألفاظ غيره في سهولة ويسر ، فاكتسبت لغة قريش بذلك ثروة من اللهجات الأخرى ، وصار لسانها سهلاً سلساً ، بجانب ما خلع مركزهم الديني عليهم وعلى لغتهم من سمات الهيبة والاحترام .

ثانياً – من الناحية الاقتصادية : كانت مكة موطن قريش ، تقع في وسط شبه الجزيرة العربية تقريباً ، وكانت زمزم تفيض بالقرب منها ،

فكانت مركزاً تجارياً هاماً ، تمر بها القوافل التجارية ذهاباً وإياباً ، حيث يجدون فيها مكاناً طيباً للراحة بعد مرحلة طويلة من السفر الشاق بين ربوع الصحراء بمرتفعاتها ومنخفضاتها ، وطرقها الملتوية ، وسبلهـا غير الممهدة ، فيستريحون من عناء السفر ، ووعثاء الطريق ، ويتزودون بما يجدون فيها من زاد وماء ؛ فهذه الحركة التجارية أثرت ولا شك في مركز قريش المـالي ، مما جعلها غنية ثرية ؛ ثم حببها ذلك أيضاً في الاشتغال بالتجارة [1] فكانوا يقومون برحلات تجارية خارج مكة بجانب تجارتها الداخلية بها ، مما زادهم غنى وثراء ، حتى منّ الله عليهم بذلـك في قوله تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . ولا شك أن الثروة تخلع على صاحبها مهـابة وجلالاً ، وتجعله موضع الاحترام والإكبار من الجميع ؛ فاختلاط قريش بغيرها في تجاراتهم الخارجية والداخلية لا بد أن يكون قد أكسبها ثروة لغوية ممـا تسمع من غيرها ، سواء عند حلولهم في ديارها ، أو عند ذهاب قريش إليهم في مواطنهم ، فأخذ القرشيون كثيراً من ألفاظهم ، وعربوا مـا ليس عربياً مما اقتبسوه من لغات غير العرب ، وهذبوا كذلك من ألفاظهم بمـا يتناسب مع السهولة والرقة . وبذلك جمعوا بين الثروتين المادية واللغوية ، فوق مـا نالوه من زيادة في المهابة والإجلال .

ثالثاً – من الناحية الاجتماعية : فقد كان للعرب في جاهليتهم أسواق يجتمعون فيهـا لتبادل السلع والآراء ، وكانوا يقيمونها على مدار السنة في أماكن مختلفة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولكن قريشاً كانت أكثر القبائل حظاً في ذلك إذ كان يقام حولهـا ثلاث أسواق تمكث مدة طويلة فكانت ذو المجاز تستمر ثلاثة أيام ، وسوق مجنة سبعة أيام ، وسوق عكاظ ثلاثين يومـاً ؛ وكانت كل القبائل تحضر هذه السوق لأنها متوجههم إلى الحج

---

(١) سبق أن ذكرنا الظروف الجغرافية والداخلية والخارجية التي ساعدت على انتعاش الحركة التجارية في مكة ، واشتغال اهلها بالتجارة ، في الفصلين الثاني والسادس من الباب الأول .

الأكبر . وهذه الأسواق بجانب أهميتها التجارية ، كانت لها أهمية اجتماعية ، وأهمية أدبية ، وكان لقريش في ذلك رأي لا يمكن تجاهله ، ونصيب لا يستهان به في هذه الميادين ، فكانت هذه الأسواق تعرض فيها المشكلات ، وتتبادل الآراء لفض المنازعات ، وتسوية الخلافات ؛ كالصلح بين المتخاصمين، وتهدئة الثائرين ، وإطلاق سراح الأسرى ، والحكم بين المتخالفين ، كما كانت هذه الأسواق ميداناً للخطابة والشعر ، وفصيح القول ؛ يخطب فيها الخطباء وينشد الشعراء ، ويتبارى المتكلمون بما دبجته قرائحهم من بليغ الكلام ، وهناك تعقد مجالس النقد ، للتفاضل بين المتكلمين في ميادين البلاغة والبيان .

ومن الطبيعي أن تطرق هذه السيول من البلاغة أبواب سامعيها من العرب جميعاً ، وبخاصة قريش الذين كانوا أهل البلد الذي تنزله هذه الأفواج ، ولا شك أن ذلك يستتبع تأثيراً في لغتهم ولسانهم،مما يزيدهم فصاحة في الأسلوب وثروة في الألفاظ والعبارات .

ومن ثم يعتقد هؤلاء الباحثون أن لغة قريش قد تهيأ لها – دون غيرها من اللهجات العربية الأخرى – من الأسباب والعوامل ، ما جعلها تبلغ درجة عليا من التهذيب الكامل والنضج التام ، فاتخذها العرب جميعاً قبل الإسلام ، لغة الأدب ، وحديث المجتمعات ، ولغة الوفود ، كاللغة الرسمية في عصرنا الحديث .

ويستدلون على أن لهجة قريش أصبحت بذلك أفصح اللغات بخلوها من العيوب التي توجد في كثير من غيرها من اللهجات العربية ، وهي باختصار :

١ – **عنعنة تميم** : وهي إبدال الهمزة عيناً ، نحو « عَنّتَ وعَنْك» ، في أنت وأنك .

٢ – **قلقلة بهراء** : وهي كسر أول المضارع نحو يِلعب ويِلهو .

٣ – **كسكسة تميم** : وهي إلحاق سين بعد كاف المخاطبة نحو رأيتكِس .

٤ – **كشكشة أسد أو ربيعة**: وهي إبدال شين من كاف المخاطبة نحو رأيتشِ

٥ – **فحفحة هذيل** : وهي قلب الحاء عيناً مثل : عتى أي حتى .

٦ – **وكم ربيعة** : وهي كسر كاف الخطاب بعد اليـاء الساكنة أو الكسرة نحو عليكِم ، وبكِم .

٧ – **وهم بني كلب** : وهي كسر هاء الغيبة إذا لم يكن قبلهـا ياء ساكنة ولا كسرة نحو بينهِم ، وعنهِم .

٨ – **جعجعة قضاعة**: وهي قلب الياء الأخيرة جيماً نحو الساعج بدل الساعي.

٩ – **وتم أهل اليمن** : وهو قلب السين المتطرفة تاء نحو النات أي الناس .

١٠– **الاستنطاء** : في لغة سعد والأزد وقيس ، وهو قلب العين الساكنة نوناً قبل الطاء نحو أنطى في أعطى .

١١ – **شنشنة اليمن** : وهي قلب الكاف شيناً نحو لبيش اللهم لبيش .

١٢ – **لخلخانية الشحر** : وهي حذف الألف نحو مشاء الله أي ما شاء الله .

١٣ – **طمطمانية حمير** : وهي جعل أل « أم » نحو « امهواء » في « الهواء » .

١٤ – **غمغمة قضاعة** : وهي إخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر .

ويتحدث الأستاذ لطفي جمعة عن سيادة لهجة قريش على غيرها من اللهجات العربية الأخرى قبل الإسلام ، فيعقد مقارنة بينهـا وبين اللهجات في اللغة اليونانية القديمة واللهجات في اللغة الفرنسية ، فيقول [١] : « إن اليونانية القديمة كانت فروعاً كثيرة مرجعها إلى فرعين كبيرين هما : الدوري واليوني، ويلحق بهما فرع ثالث هو الأيولي ومؤلفات بنداروس وتيوقريط باللغة الدورية وشعر هوميروس وهزيود باليونية ، وكان بين اللغتين على تقاربهما فرق يضاهي

---

(١) الشهاب الراصد ، ص ١٥٢ .

نظيره بين بعض اللهجات العربية ، وكان للدوريين شعر وأوزان دورية ، ولليونيين شعر وأوزان يونية ، واللغة اليونية هي التي نظم بها هومير في القرن التاسع قبل الميلاد ، وكتب بها هيرودوت في القرن الخامس ، وديموستين في الرابع ، وهذه اليونية عند اليونان أشبه بلغة قريش عند العرب ، فكانت تهذب وتصقل على أفواه الشعراء ، والكتاب والخطباء ، وكانت أثينا تشبه مكة من حيث الحضارة والتمدين والاستعداد الفطري ، فلما ظهرت المدينة الفتية على سائر المدن اليونانية تبعها الشعر اليوني بأوزانه وتغلب على غيره من أنواع الشعر ، واضطر أهل اللغة الدورية إلى أن ينظموا وينثروا على أسلوب أهل أثينا ، فكان الدوريون يعدلون عن لغتهم ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم إلى لغة الآثينيين ولهجتهم وأوزانهم وأساليبهم ، وهكذا فعل العرب في نهضتهم الأدبية قبل الإسلام ، فعدلوا في لغتهم الأدبية عن كل ما تمتاز به لغتهم ولهجتهم الخاصتان بهم إلى لغة قريش ولهجتها » .

ويقول عن اللهجات الفرنسية[1] : « واذا انتقلنا إلى لغة أوروبية حديثة ، فلنضرب مثل فرنسا ، فإن فيها إلى جانب اللغة الفرنسية المختصة (لغة أهل باريس ولغة قاموس الأكاديمية) لغات إقليمية ، لها نحو وقوام خاص بها ، ولها شعر نثر أيضاً (راجع صحف ٧٩ - ١١٩ ج ١ من تاريخ آداب جنوب اوروبا تأليف سيموند دي سيموندي في أربعة أجزاء ، طبع باريس سنة ١٨١٩) . ومع ذلك فأهل الأقاليم إذا أرادوا أن يظهروا آثاراً ادبية أو علمية ذات قيمة ، يعدلون عن لغتهم الإقليمية إلى اللغة الفرنسية المحضة » .

ثم يضرب مثلاً باختلاف اللهجات في الأقطار العربية ، واختلاف اللهجات في كل قطر منها ، مع اتحاد الجميع في اللغة الأدبية . وينتهي إلى قوله : « فلا غرابة إذن بعد هذا البيان إذا اتفقت اللغة واللهجة في الشعر الجاهلي ، لأن قريشاً كانت سائدة في الجاهلية على العرب بتجارتها وحضارتها ولغتها ولهجتها » .

---

(١) المرجع السابق .

ولكن لين Lane في مقدمة معجمه ، يرفض مع بعض الباحثين أن تكون اللغة الأدبية العامة قبل الإسلام هي لغة قريش ، معللين ذلك بأن قريشاً كانت تسكن مكة وما حولها ، وهم من أهل المدر ، وقريش تجار ، والتجارة تفسد اللغة ، وبأن الرسول صلى الله عليه وسلم نشأ في بني سعد بن بكر بن هوازن ، واسترضع فيهم فتعلم الفصاحة منهم . ومن أجل هذا ظنوا أن هذا الرأي موضوع لإعلاء شأن قريش في اللغة لأن رسول الله منهم .

ويرد على ذلك الاستاذ الدكتور أحمد أمين ، فيقول [1] : « حقيقة قريش كانت أهل مدر ، وأهلها تجار ، يرحلون إلى أماكن كثيرة ، ويختلطون بغيرهم ، فهي من ناحية سلامة اللغة ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم ممن خالط الأمم الأخرى ، ولكنهم من ناحية الفصاحة فصحاء ، وأعني بالفصاحة قوة التعبير عما في نفوسهم ، وقد اشتهروا بذلك أيضاً في الإسلام ، يضاف إلى هذه الفصاحة ما حكي عنهم من رقة ألسنتهم ، وحسن اختيارهم الألفاظ ، فكانوا إذا أتتهم الوفود للأسواق أو للحج تخيروا من كلامهم وأشعارهم ولغاتهم ، وعبر عن ذلك الفارابي في كتابه : الألفاظ والحروف ، فقال : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس » . ويستمر الأستاذ أحمد أمين ، فيقول : « فإذا امتازت قريش بالفصاحة ، فقد امتازت بنو سعد بسلامة اللغة فجمع النبي صلى الله عليه وسلم الأمرين ، ففي الحديث : أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر » .

ويلخص بلاشير الاعتراضات على أن اللهجة القرشية كانت اللغة الأدبية ، فيقول [2] : « تعترض النظرية الإسلامية القائلة بتولد العربية الفصحى من اللهجة المكية باعتبارها عموداً لغوياً عقبات .... وفي الحق فإنه غير معقول

---

(١) ضحى الإسلام ، ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ٨٥ - ٨٦ .

أن تظل لغة مدينة تجارية كمكة ، والتي هي إلى جانب هـــذا مركز الحج السنوي ، في معزل عن التأثيرات الخارجية ، وفي القرآن ألفاظ أجنبيةعديدة تدل على أن المجلوبات لم تقف عند هذا الحد ، فإن العناصر التي شـكلت قوام سكان مكة كانت على غاية من المزج والاختلاط . وبقيت هناك فرضية، وهي سلامة اللهجة المكية الناتجة عن سيطرة مكة الدينية والفكرية على قبــائل المحيط العربي ولكن ليس لدينـا مثال على نقاوة لغـة من اللغات . ثم ما هو البرهانالذي نملكه على تفوق اللغة القرشية في شبه الجزيرة قبل ظهور القرآن؟ لا شيء يثبت أمام النقد ، ولا ريب أنه يجب قبول فكرة وجود مستعمرات مكية في الطائف وتبالة ونجران . ومع أنه من المستحيل تحديد أهميتهـــا وتركيبها ، فهي لا تعطي قريشاً سوى إشعاع لغوي محدود لا يتعدى بعض المراكز الحضرية، فإن الكثرة الغالبة من البدو الرحل في أواسط شبه الجزيرة وشرقيها كانت في معزل عن هذا التأثير – إذا كان ثمة تأثير – وظلت لغة قريش اللغة المتفوقة في المحيط العربي وبخاصة بين الحضر في الحجاز » .

ثم يستمر بلاشير ، فيقول : ولكن هل يجب متابعة المؤرخين المسلمين في أن ظهور القرآن قد قلب الحالة ؟ إن الذوق السليم لا يقر ذلك ، فإن لم يكن الوحي عند بداية الدعوة الإسلامية كونياً شاملاً ، فهو على الأقل عربي موجه إلى الشعوب العربية ، فماذا عساه يكون نصيب الدعوة من الانتشار بين جميع سكان الجزيرة إذا جاءت بلغة محلية خاصة بقبيلة واحدة ؟ وماذا تكون مكافحة هذه اللهجة الحضرية التي يحتقر البدو أهلهـا لتحضرهم ، ويبغضونهم لنزعتهم التجارية ؟ ويروي التاريخ خبر وفد ربيعة من قبائل ما وراء النهرين الذي ترجمت خطبه للمكيين . وهناك أمر محتمل الوقوع ، ولـكن بصورة عكسية ؛ فلو ظهر القرآن بلهجة قريش خارج الحجاز لما أحدث التأثير الذي أحدثه » .

ويستطرد بلاشير ، فيقول : « لم تدر هذه الاعتراضات بخلد الغربيين فقد كانوا يشايعون برجيه Berger في رأيه القـائل : كأن العربية لهجة محدودة

جداً ، بل لغة قبيلة صغيرة ، وصلت في وقت من الأوقات بفضل ظروف محلية إلى درجة من الكمال خارقة للعادة ، فهي مدينة بانتشارها للإسلام .

ويعود الفضل في الإشارة إلى صعوبة قبول الفكرة القائلة بأن القرآن يمثل لهجة قريش إلى المستشرق فولرز Vollers في مقال نشره سنة ١٨٩٤ ، ويشايعه في الرأي المستشرق نولدكه ، وهو القائل : « في رأيي أنه من الصعب تصديق القائلين بأن الرسول ﷺ قد استعمل في القرآن لغة تختلف في إعرابها وتصريفها لو لم يستعملها مواطنوه . على أنه يشير بعد ذلك الى استعداده للموافقة على أن الشعر الجاهلي «يمثل لغة البدو يومئذ وبعد ذلك بزمن طويل ».

هذه جملة من آراء الباحثين حول لغة الأدب الجاهلي ومحاولة تعيينها ، وتتلخص هذه الآراء في أن منهم من يقول إن هذه اللغة كانت لغة الشماليين عامة ، ومنهم من يقصرها على مجموعة معينة من لهجات مجموعة معينة ، ومنهم من يحصرها في لغة قريش ، ومنهم من يعترض على أنها كانت لغة قريش .

أما كونها لغة الشماليين ، فهذا رأي عام ، ليس فيه تخصيص ، ولا يفيد إلا السيطرة اللغوية للشماليين على الجنوبيين بوجه عام . وأما الذين يقصرونها على بعض اللهجات دون غيرها ، فلا شك أنهم متأثرون في ذلك بالأسلوب الذي نهجه اللغويون في عصر التدوين حين هموا بجمع اللغة ، والذي حكاه أبو نصر الفارابي بقوله [1] : « والذين عنهم نُقلت العربيةُ ، وبهم اقتُدي ، وعنهم أُخذ اللسانُ العربي من بين قبائل العرب هم : **قيس وتميم وأسد** ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليه اتكل في الغريب وفي الإعراب وفي التصريف ، ثم **هذيل** ، وبعض **كنانة** ، وبعض **الطائيين** ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ؛ وبالجملة لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كانوا يسكنون أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه :

---

(١) المزهر ج ١ ص ٢١١ - ٢١٢ .

لم يؤخذ من لخم ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ؛ ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام والروم وأكثرهم نصارى ، يقرءون بالعبرانية ؛

ولا من تغلب فإنهم كانوا مجاورين لليونان ؛

ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ؛

ولا من عبد القيس وأزد عُمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ؛

ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ؛

ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ؛

ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم ، حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب ، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم » .

ولعل أصحاب هذا الرأي - الذي يقول بأن اللغة الفصحى كانت لغة من لهجات قبائل معينة ، معتمدين في ذلك على منهج اللغويين السابق ذكره - فاتهم أن ذلك كان في عصر متأخر عن العصر الجاهلي بنحو قرنين حينما اتسعت رقعة العالم العربي بفضل انتشار الإسلامِ واللغةِ العربية في كثير من الأقطار الأخرى غيرِ العربية ، واختلاط العرب بأهل هذه البلاد كان مما أشاع كثيراً من الألفاظ غير العربية بين العرب ، فأراد اللغويون بمنهجهم هذا أن يتيقنوا من نقاء ما يثبتون أنه عربي ، وأنه بعيد بعداً تاماً عن أي تأثير أعجمي ، بدليل إخراجهم حاضرة الحجاز ، مع أنها هي التي كان مشهوداً لها بأنها أفصح اللهجات العربية ، وذلك لاعتقادهم أنهم « قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم » ، فحصر اللغويون بحثهم في دائرة تتوسط شبه الجزيرة وتبعد عن تأثير التيارات اللغوية الأجنبية . وهذا منهج سليم في ذلك الوقت ، ومع دلالته على نقاء هذه اللهجات التي حصروا بحثهم فيها ، فإنه لا

ينهض دليلاً على عدم فصاحة غيرها في العصر الجاهلي إذ ربما يكون اختلاط بعض أصحاب اللهجات التي أخرجوها من دائرة بحثهم ، كان معدوماً قبل الإسلام ؛ على أن اختلاط قوم بغيرهم واقتباسهم بعض ألفاظ منهم لا ينبغي أن يكون سبباً للطعن في فصاحة لهجات المقتبسين ، بل إن ذلك مما يزيدها ثراء وغنى ، وقد يكون في ذلك ما يساعد على الفصاحة ، ولكن أسلوب اللغويين كان صحيحاً في التوصل إلى معرفة الألفاظ العربية النقية الخالصة . ونحن نبحث الآن في أفصح اللهجات بين العرب في العصر الجاهلي ، بصرف النظر عما يكون قد خالطها من دخيل . وبالفعل قد دخل العربية كثير من الألفاظ الأعجميه كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وورد بعضها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم .

وأما الذين يقولون بأن اللغة الفصحى كانت لهجة قريش ، فلا شك في أن الأسباب التي ذكروها ، وما أوردوه من وجوه جمالها يدل على فصاحة لغة قريش ، ورقة ألفاظها ، وثرائها اللغوي ، وجمالها في الأسلوب والمعنى ، ولكن لا ينهض دليلا على أن اللغة التي ورد بها الأدب الجاهلي ونزل بها القرآن الكريم كانت لهجة قريش التي بها يتفاهمون ، وبها يتحادثون فيما بينهم في قضاء أعمالهم وحوائجهم اليومية العادية العاجلة كما كانوا – هم وغيرهم من عامة العرب – يكتبون بها أدبهم الراقي ، وحديثهم المؤثر البليغ ، فالمعروف أن الكلام العادي يحتاج إلى سرعة في الإفهام وبخاصة في قضاء مطالب الحياة العادية العاجلة ، أما الأدب ، وهو الكلام البليغ ، فأهم صفاته التأثر والتأثير ، وذلك يستدعى أناة وروية ، وانتقاء الألفاظ ، واختيار العبارات ، ومفاضلة في الأساليب ، حتى يصل الأديب إلى التأثير المطلوب . فطبيعة الحديث العادي لا ترقى به إلى درجة الحديث الأدبي . حقيقة قد يجوز عقلاً أن يحدث اتفاق بين النوعين ، ولكن ذلك لم يحدث على الدوام في جميع الأمم وعلى مر العصور قديماً وحديثاً ، وإن حدث ففي النادر القليل الذي قد يكون في حكم المعدوم . فالنادر – في العادة كما هو معروف – لا حكم له.

وأما الاعتراضات التي وجهت إلى كون لغة قريش لغة الأدب الجاهلي من حيث أنها تأثرت بغيرها من جراء اختلاط أهلها في العصر الجاهلي بغيرهم من الأمم الأخرى داخلياً وخارجياً ، فذلك أيضاً لا ينبغي ان يطعن في فصاحتها ، بل إنه يثبت ثراءها ، وليس هناك من الآراء اللغوية القديمة والحديثة ما يقول إن مما يطعن في فصاحة لغة ان تستقي من غيرها ألفاظاً ، لا تجد من بين ألفاظها ما يغني عنها ، بل إن جميع الآراء تقول ان ذلك مما يدل على مرونة هذه اللغة ، ومسايرتها للتطور الزمني الدائم ، كما يدل على سعة عقول أصحابها ، وطواعية لسانهم ، وهذا يزيد اللغة ثراء وسعة ، ولا شك أن ذلك يزيد فصاحة اللغة وبيانها ، بدليل استعمال ألفاظ غير عربية في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفاً ، والمعروف أن القرآن الكريم نزل بأفصح لغة وأبلغها ، ولم تؤثر هذه الألفاظ في كونه عربياً ، فهو منزل بلسان عربي مبين ، والكلمة حينما تستعار وتعرب وتستعمل ، تصبح عربية ، ويصير مدلولها مفهوماً ومعروفاً بين جميع العرب ، وكأنها ملك لهم يستعملونها في معناها كما يشاؤون ، وقد يكون لها أثر عظيم في فصاحة الكلام وبلاغته .

ومن ثم فإني أرى أن لغة الأدب الجاهلي كانت لغة فصيحة ، ألفاظها منتقاة ، وعباراتها مختارة ، وأساليبها منمقة ، مجودة ، ترتفع بدرجتها العالية عن مستوى اللهجات العامة الشائعة التي تستعملها القبائل في قضاء حاجاتها العامة ومطالب الحياة العاجلة ، لغة يتأنى مستعملوها في رصف ألفاظها المختارة ، وتنميق أساليبها لتتوافر فيها صفات النص الأدبي البليغ ، ولايطعن في ذلك ما جاءت به الأخبار من أن معظم نصوص هذا الأدب كانت تقال ارتجالاً وعفو الخاطر ، فالأديب — شأنه شأن غيره من أرباب المهن ، حينما يمرنون على شيء في مهنتهم ، يصبح سهلاً لهم مرناً في أيديهم ، فهو حينما تثور عاطفته تنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، وتتوارد على لسانه العبارات والأساليب توارد الأفكار على خاطره من تسلسل وتتابع ، ولديه من الموهبة الممتازة ،

القدرة التي وهبه الله إياها ، على اختيار أنسبها ، وأحسنها في سرعة لا تتسنى لغير الادباء من الاشخاص العاديين . ولكن على كل حال لن يتساوى الأديب في حديثه العادي اليومي العاجل مع نفسه في حديثه الأدبي البليغ المؤثر، وذلك معناه أن هناك فرقاً - كبيراً أو صغيراً - بين لغة الحديث العادي الذي يتخاطب به جميع الناس ، ومن بينهم الأدباء ، لقضاء مطالب الحياة العاجلة ، ولغة الحديث الأدبي الممتاز الذي يقصد به مطالب أخرى فوق ما تتطلبه ضرورات الحياة العادية .

وهذه اللغة لم تصطنع اصطناعاً ، أي لم تعقد لها المجتمعات اللغوية لوضع ألفاظ معينة لمعانٍ محددة كما يحدث في شأن الاصطلاحات العلمية ، أو المخترعات والاستكشافات الحديثة، إنما هي لغة يخلقها ويصنعها أصحابها الذين يستعملونها وهؤلاء المستعملون لها ، وهم الأدباء ، لهم أذواق خاصة ، ليست لدى جميع الناس العاديين، فهم قد وهبوا موهبة خاصة ، هي حاسة سادسة لا توجد عند غيرهم ، يستطيعون بها أن يختاروا اللفظ المناسب للمعنى المقصود ، ويضعوه في المكان اللائق ، ثم يضموه مع غيره في عبارات ممتازة ، ويخرجوها في بناء محكم ، ورصف دقيق ، وبقدر التوفيق في اختيار الألفاظ وحسن استعمالها ، وجودة صوغ العبارات ، وجمال تنسيقها ، وكثرة دورانها على الألسنة ، وترديدها ، يكون مقدار حظها من البقاء والخلود ، فاللغة : ألفاظها وعباراتها وأساليبها ، إنما تحيا بحسن اختيارها ، ودوام استعمالها . والأدباء بالنسبة للغة الأدبية هم صانعوها ، ومتعهدوها، وبيدهم زمام حياتها ، وسر خلودها .

فلغة الأدب لغة اتفق عليها لتكون اللغة الأدبية الفصحى ، يستعملها الخطباء والكتاب والشعراء في نتاجهم الفكري البليغ ، وفي ميادين الفصاحة والبيان ، والمقصود « بالاتفاق عليها » هنا ، ليس معاهدة تدوّن ، إنما هو اتفاق أذواق الأدباء عليها ، فأذواقهم وحدها هي التي تصنعها ، وهي التي تستحسنها أو ترفضها ، وهي التي تحكم عليها بالبقاء أو بالفناء ، وهذا ما تفعله مباريات الفصاحة ، وحلقات النقد . وجميع أفراد الأمة يفهمون هذه

اللغة ويدركون مغزاها ، وإن اختلفت درجاتهم في الفهم والإدراك تبعاً لاختلاف مستويات العقول والمدارك والأذواق . فإن الجميع يفهمونها ولو على وجه العموم حتى ولو اختلفت اللهجة الأصلية لكل منهم عن هذه اللغة ، والواقع يؤيد ذلك في جميع العصور ، فالأمم مهما اختلفت درجاتها في الرقي والتقدم نجد لكل منها لغة خاصة ، هي لغة الأدب والحديث الرائع البليغ بجانب اللهجات المحلية الأخرى التي تستعملها مناطق الأمة المختلفة في بيئاتها الخاصة لقضاء مطالب حياتهم اليومية العادية .

ولا مانع مطلقاً من أن تتعدد مصادر ألفاظ اللغة الأدبية، فتختار ألفاظها من لهجات متعددة ، فيؤخذ من كل لهجة الخير والأجود فيها ، ولا مانع كذلك من أن تتعدد الألفاظ وتترادف في معنى واحد ، فيجوز أن يعبر عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ لوروده في عدة لهجات، كل منها لطيف وجميل، ولعل هذا هو السبب في كثرة المترادفات وتنوع الأساليب للمعنى الواحد في اللغة العربية الفصحى ، وهذا ولا شك يدل على غنى اللغة وثرائها ، ويسلس قيادها فيجعلها سهلة مرنة أمام الفصحاء والبلغاء .

فلغة الأدب الجاهلي ، لغة ارتفعت – في بنائها وتكوينها وهيكلها العام التام – عن مستوى اللهجات المحلية الخاصة ، وكانت مفهومة في جميع أنحاء شبه الجزيرة على العموم ، بدليل نزول القرآن الكريم بها ، فقد ورد في كثير من آياته أنه نزل بلسان عربي مبين ، وليس في هذا تخصيص للهجة دون سواها ، بل بلسان عربي عام يفهمه جميع العرب ، وقد تحدث التاريخ عن فهم العرب جميعاً له ، وكانت لهم حوله مناقشات وجدل ، وجاءت الوفود إلى النبي ﷺ من شتى البقاع ، وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام رسله مبشرين وهادين بهدي الإسلام ، ولسانهم العربي ، لغة القرآن ، فكان الجميع يتحدثون ويتفاهمون بهذه اللغة ، ولم ينقل التاريخ لنا أي خبر يناقض ذلك .

حقيقة قد يكون هناك اختلاف بين أصحاب اللهجات المحلية في كيفية

النطق لبعض الأصوات والحروف تبعاً لتكوين حناجرهم وتعودها على وضع خاص منذ نعومة أظفارهم ، وبخاصة بين كبار السن . ولكن هذا لا يعني الاختلاف في فهم المدلول أو المقصود ، كما يحدث بين ظهرانينا في عصرنا الحديث ، بل هو ما يحدث في كل عصر ، بين كل أمة ، فاللغة الأدبية في أي عصر غير اللهجات المحلية التي يتحدث بها مواطنو أية أمة في أي قطر، وهي في ذلك ليست لهجة خاصة بأحد ، إنما هي ملك عام مشاع بينهم جميعاً . ثم إن كثيراً ما نجد اختلافاً في نطق بعض الحروف، ونبرات بعض الأصوات في الأمة الواحدة ، كما هو حادث بين الناطقين في عالم العربية ، وعالم الانجليزية وغيرهما من اللغات الأخرى . فهناك بعض الأصوات ينطقها المصري بطريقة قد تخالف نطق أخيه السوري أو اللبناني أو السعودي أو اليمني أو العراقي أو المغربي ، كما أن الإسكتلندي قد ينطق بعض الأصوات بطريقة تخالف نطق من يسكن في جنوب انجلترا أو إيرلندا لها .

ومن هنا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة الإسلامية أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وأجاز لهم أن يقرءوا منها ما تيسر لهم فقد ورد في كتب الصحيح الحديث الشريف : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه » . وقد أفاض العلماء المسلمون في بيان الحكمة في ذلك فقالوا : « كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ، ولا بالتعليم والعلاج ، لا سيما الشيخ والمرأة ، ومن لم يقرأ كتاباً ، كما أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم ، حيث أتاه جبريل ، فقال له : «إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف»، فقال صلى الله عليه وسلم : « أسأل معافاته ومعونته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك » ، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف [1] » . وقال ابن قتيبة

---

(١) النووي علي مسلم ج ٣ ص ١٠٦ ، وفضائل القرآن ، ص ٥٧ ، وفتح الباري ج ٩ ص ١٩ .

في كتابه « مشكل القرآن » : « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقرىء كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلي يقرأ : « عتى عين » يريد « حتى حين » ، والأسدي يقرأ : « تِعْلمون وتِعلم » بكسر التاء ، والتميمي يهمز ، والقرشي لا يهمز. ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه لسانه طفلاً وناشئاً وكهلاً ، لشق ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة وتذليل لسان ، وقطع للعادة ، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ، وتصرفاً في الحركات ، كتيسيره عليهم في الدين [1] » .

وليس هناك ما يمنع من أن تكون اللغة الفصحى قد أخذت معظم كلماتها من لهجة واحدة لكثرة ما فيها من ألفاظ جميلة منتقاة ، كلهجة قريش التي شهد لها بأن كانت أرقّ اللهجات ، وأحسنها ألفاظاً ، وأخفها وقعاً على السمع ، ولكن ذلك لا يعني أنها كانت اللغة الأدبية كلها ، بمعنى أن لهجة قريش العادية التي يستعملونها في حاجاتهم اليومية العاجلة ، كانت هي هي لغة الأدب بعينها ، لما سبق أن وضحناه، ولورود بعض ألفاظ في القرآن الكريم لم يفهمها بعض القرشيين ، مثل « الأبّ » في قوله تعالى : « وفاكهة وأبّا [2] » حيث سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن معناها ، وقال : وما عليك يا ابن أم عمر أن لاتدري ما الأبّ . وقد يرد على ذلك بأنه ليس بلازم أن يكون أفراد القبيلة كلهم يعرفون جميع ألفاظ اللهجة كلها ، فكثير منا لا يعرفون معنى كثير من الألفاظ الأدبية في عصرنا الحاضر إلا بالرجوع إلى المعاجم . ذلك حق وصحيح ، ولكن عمر رضي الله عنه لم يكن شخصاً عادياً بين أفراد قريش ، ولكنه من القادة الممتازين الذين يتوقع منهم الإلمام بألفاظ لهجتهم ، وقد كان رضي الله عنه مشهوراً كذلك بالذوق الأدبي الممتاز. وربما

---

(١) فتح الباري ج ٩ ص ٢٣ .

(٢) سورة عبس : الآية ٣١ . وقال ابن عباس إن الأبّ نبت الأرض مما تأكله الدواب والأنعام ، ولا يأكله الناس . (راجع تفسير الكشاف) .

كان مما يؤيد وجهة نظرنا في أن لغة الأدب ولغة القرآن الكريم ليستا لغة قريش فقط ، ورود بعض الألفاظ الأعجمية فيهما ، كما هو معروف . وقد يقال في ذلك إن الكلمة إذا عرّبت أصبحت ملكاً للعربية ، وتفقد صفتها الأعجمية . هذا حق ، ولكن من الذي يستطيع أن يثبت أن جميع الألفاظ الأعجمية التي وردت في الأدب الجاهلي والقرآن الكريم ، كان تعريبها على يد القرشيين وحدهم، ولم يشترك غير القرشيين في تعريب هذه الألفاظ أو بعضها؟

فلغة الأدب في العصر الجاهلي ، في نظري ، لم تكن لهجة قبيلة خاصة بذاتها ، بمعنى أنها كانت تستعمل لغة الأدب بين الأدباء جميعاً في جميع أنحاء شبه الجزيرة ، وهي في الوقت ذاته تستعمل في تخاطب هذه القبيلة الخاصة بالذات ، يتفاهمون بها فيما بينهم وبين أنفسهم وحدهم لقضاء حاجاتهم اليومية العادية ، كأن حديثهم كان أدباً باستمرار ، ألفاظاً منتقاة ، وعبارات منمقة وأساليب جيدة ممتازة على الدوام . إنما كانت لغة خاصة ، فوق مستوى اللهجات القبلية ، وضعت ونمت وترعرعت بالذوق الأدبي ، وثبّت أقدامَها استعمالُ الأدباء لها ، وضمن لها الخلودَ والبقاءَ نزولُ القرآن الكريم بها ، وكذلك ورود الحديث الشريف بها الذي جاء عن أفصح العرب والخلق جميعاً محمد صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم . وبفضل هذين المصدرين المقدسين العظيمين ، اتسعت رقعة عالم العربية الفصحى وكتب لها البقاء مدى الحياة .

الفصل الثالث

رواية الأدب الجاهلي

سبق أن أشرنا إلى أن العرب الجاهليين أتيحت لهم فرص كثيرة للقول والاحتفال به ، والإنصات إليه في وعي وانتباه ، والاستمتاع به في شغف واهتمام ؛ فكانت هناك مجالس العشيرة ومجتمعات القبائل على نطاق خاص وعلى نطاق عام ، وحلقات المباريات الأدبية ، وندوات الأدباء والنقاد ؛ يضاف إلى ذلك خطرات الأديب ، وسبحات خياله ، وفيض مشاعره حول حياته وأحاسيسه الخاصة ، وما هذه الأحوال إلا مصادر الإلهام الأدبي ، وروافد سيله وفيضانه ، إذ تسبح الخواطر ، وتحلق الخيالات ، وتتوالى المشاعر ، فتفيض المعاني ، وتتوارد الصور ، ويعمل الحس والذوق ، فإذا ما اكتمل الإطار، وتم الإبداع النفسي ، انطلقت الألسنة ، لتضيف إلى الوجود آثاراً جديدة في عالم الأدب .

ولا نريد أن نبالغ هنا ، فندعي — كما قال الكثير عن العرب الجاهليين — أنهم كانوا جميعاً مطبوعين على البلاغة ، وكلهم أرباب فصاحة وبيان ، فكأنهم كانوا جميعاً شعراء وأدباء، فذلك مما يأباه الواقع ، فلم يحدث في أمة من الأمم، أن كان أفرادها كلهم كذلك ، كأن حديثهم العادي كان أدباً ، وحاجاتهم اليومية لا تقضى إلا بشعر رائع أو نثر بليغ ، إنما نعتقد أنهم كانت فيهم ميول ظاهرة إلى تذوق الأدب والاستمتاع به ، كان منهم أفراد منحوا موهبة الأدب ، فوجدت منهم طبقة الأدباء الممتازين ، شعراء فحول، وناثرون

بلغـــاء ، ومحدثون فصحاء ، وكان منهم ذواقون للأدب ، خبيرون بمواطن حسنه ، وأسرار بلاغته ، وسماعون للقول الممتـاز ، يتعشقون سحره ، ويطربون اسماعه ، ويحلو لهم ترديده وتكراره .

وكان النص الأدبي يلقى شفهياً، وربما كان هناك من الأدباء من يدوّن أثره الأدبي ، ولكن يبدو أن ذلك كان قليلاً ونادراً ، نظراً لشيوع الأميّة وعدم معرفة الكتابة بين كثير منهم ، وسنشير إلى ذلك فيما بعد إن شاء الله . ومن ثم كان الجميع تقريباً يعتمدون على ذاكراتهم في تأليف النص الأدبي وإلقائه ، وسماعه وترداده .

فكان الأديب يلقي ما دبجته قريحته معتمداً على ذاكرته ، وجمهوره يتلقى عنه معتمداً على الحافظة ، فيسمعونه ، ويرددونه بحكم شغفهم بالأدب، وميلهم الغرزي لحفظه وصيانته ، معتمدين كذلك ، لا على قلم يدوّن ، وقرطاس يحفظ ، بـل على قواهم العقلية الطبيعية ؛ الذاكرة الحافظة ، أقلامهم الوعي والانتباه ودقة السماع والإنصات ، وقراطيسهم صفحات الأفئدة والقلوب . ولكن هل كانوا يحفظونه بمجرد سماعه لأول مرة ، كأنهم آلات تسجيل ؟ ربمـا كان الأديب يكرره أكثر من مرة ، وربما كان السامعون يعاودون تـكراره ، بعضهم مع بعض ، فيكمل كل منهم لزميله ما قد يكون ندّ عن ذاكرته ، أو غاب عنه وعيه ، وهكذا حتى يثبت النص ، طبق الأصل . كما ورد عن صاحبه ، ويصبح كأنما هو مسطر في كتاب . ومن المعروف أن الموهبة تقوى بالممارسة والتدريب، والعادة تصبح طبيعة بالتكرار والاستمرار. ومن ثم نعتقد أن كان بين الجاهليين قوة في الذاكرة ، وحدّة في الحافظة ، بسبب اعتمادهم الكلي عليهـا ، والمداومة على ممارستها لأداء هذه الوظيفة ، مدفوعين إلى ذلك بحكم شغفهم الطبعي لحفظ هذه الآثار وصيانتها ، وأرهفَ قوةَ الذاكرة عندهم عدمُ شيوع الكتابة بينهم ، لندرة من يعرفها ، ولأن ظروف الحيـاة عندهم ما كانت تهييء لهم أوقاتاً يجلسون فيها لتعليم القراءة

والكتابة ، فالسعي إلى لقمة العيش التي تقيم أودهم ، كان يشغلهم عن هذا وأمثاله مما لا يتصل بصميم الحياة في بيئتهم وظروفهم ، كما أن أدوات الكتابة كانت الحجارة والجلود والسعف ، وأمثالها مما لا يحبب الكثير في مزاولتها . ومن ثم كان الاعتماد الأساسي في حفظ الآثار وتسجيلها يقوم على الذاكرة والترديد الشفهي .

وكان أكثر الناس اهتماماً بنصوص الأديب أهله وعشيرته ؛ ذلك لأنهم كانوا يعتبرون الأديب لسان حالهم ، فهو المعبر عما في نفوسهم ، والمذيع لأخبارهم ، والمسجل لمآثرهم وأمجادهم ، تنطلق منه الكلمات فتدوي في الآفاق ، وتخترق الفضاء كالسهام ، فتنفذ في الأسماع ، وتستقر في القلوب . وتتناقلها الأجيال ؛ الخلف عن السلف ، فتظل عالقة بالأذهان ، خالدة خلود الإنسان ؛ فالعشيرة ومعهم الأصدقاء[1] ، كانوا السجل الأصلي لآثار أدبائهم ، يحفظونها عن ظهر قلب ، ويذيعونها في الآفاق ، ويرددونها في كل مكان ، ويتلقاها الأبناء عن الآباء في زهو وافتخار ، ويتغنون بها في كل زمان ، وقد يبلغ بهم عشق النص الأدبي والإعجاب به إلى درجة تلهيهم عن بعض الأعمال ، وفي مثل ذلك يقول بعض بني بكر في بني تغلب لكثرة تردادهم قصيدة عمرو بن كلثوم :[2]

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مشئوم

فالرواية الشفهية كانت سبيل النشر والحفظ والبقاء للآثار الأدبية وبخاصة بين البدو ، أما في الحضر فيجوز أن كان من بينهم من دوّن آثاره . والرواية الشفهية — مع أن فيها ما فيها من صعوبة واحتمال للخلط أحياناً — تعتبر

---

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٣٥ .

وسيلة مضبوطة للنقـل الصحيح ، فهي ليست إلا النطق والسماع والمشافهة ، وفيها تُلقَى العبارات مضبوطة ، وتُتَلقى صحيحة ، وذلك يجعلها بعيدة كل البعد عن التصحيف الذي هو أظهر عيوب الكتابة والنقل عن الكتب ، مما دعا اللغويين وثقات الرواة إلى أن يتحاشوا النقل عن صحيفة [1] مهما كانت، وبخاصة قبل النقط والشكل .

وكان أشد العشيرة تعلقاً بأديبهم من كان يحس في نفسه أن لديـه الموهبة الأدبية ، فكان الناشىء الموهوب ، يتعلق بالأديب أشد تعلق ، حتى إنه لا يكاد يفارقه ليتلقى منه كل ما ينتج ، وهذا الناشىء بعمله ذلك إنمـا يغذي موهبته الأدبية ، وينمي مقدرتها ، حتى يتكامل نموها ويتم نضجها، وبجانب هذه الفائدة الشخصية التي يحققها لنفسه ، كان يحفظ هذه الآثار ، ويصونهـا من الضياع ، ويعمل على نشرها وإذاعتها بمداومة مدارستها وتكرارها . ومن ثم نشأت السلاسل الشعرية في كثير من القبائل ، مثل :

سلسلة أوس بن حجر الذي كان زوجاً لأم زهير بن أبي سلمى ، فنشأ هذا راوية لأوس ، وعن زهير أخذ ابنه كعب [2] .

وسلسلة المسيب بن علس خال الأعشي ، راويته [3] .

وسلسلة المهلهل خال امرىء القيس .

وسلسلة المرقش الأكبر عم المرقش الأصغر عم طرفة بن العبد .

وسلسلة الهذليين [4] .

وبجانب اهتمام أفراد العشيرة بأدبائهم كان يهتم بهم كذلك كثير ممن لا

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ص ٦ .
(٢) الأغاني ج ٨ ص ٩١ .
(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٢٧ .
(٤) الشعر والشعراء ، ص ٦٣٥ .

يمتّون إليهم بصلة القرابة أو العصبية ، حبّـــاً في الأدب ، ورغبة في تثقيف عقولهم ، وتغذيـة مواهبهم ، وتنمية قدراتهم الأدبية ، كما حـدث في سلسلة أوس بن حجر السالفة الذكر ، إذ أخذ عن كعب بن زهير وروى له الحطيئة وعن هذا أخذ هدبة بن خشرم ، وعن هدبة أخذ جميل ، وعن جميل أخـذ كثيّر وروى له. وقد تغنّى كثير من الشعراء الأفذاذ بتثقيف عقولهم ، وتكوين شخصياتهم الأدبية ، بآثار السابقــين الفحول ، من ذلك ما يقوله الفرزدق :

وهب القصائدَ لي النوابغُ إذ مضوا ... وأبو يزيدَ وذو القروح وجَرْوَلُ
والفحل علقمة الذي كانت له ... حُلل الملوك كلامه لا يُنحَل
وأخو بني قيس، [1] وهن قتلنه [2] ... ومهلهل الشعراء ذاك الأول
والأعشيان كلاهما ومرقش ... وأخو قضاعة [3] قولُه يُتَنَخَّل
وابنا أبي سلمى زهير وابنـــه ... وابن الفُريعة حين جَدَّ المقول
والجعفري [4] وكان بشر [5] قبله ... لي من قصائده الكتابُ المُجمل
ولقد ورثت لآل أوس [6] منطقاً ... كالسمّ خالط جانبيه الحنظل
والحارثي [7] أخو الحِماس ورثته ... صَدْعاً كما صدَعَ الصَّفاةَ المِعْول

(١) هو طرفة بن العبد .
(٢) أي القصائد .
(٣) أبو الطمحان القينى .
(٤) لبيد بن ربيعة .
(٥) بشر بن أبي خازم .
(٦) أوس بن حجر .
(٧) النجاشي الحارثي .

وبلغ من اهتمام العرب بالأدب أن تخصص قوم في حفظه وروايته ووجدت في تاريخ العرب طبقات من الرواة منذ العصر الجاهلي ، واشتهر في الجاهلية من العلماء الذين كان علمهم الأنساب والأخبار: دغفل بن حنظلة، وابن الكيس النمري [1] .

وقد وردت الأخبار بما يفيد قوة الذاكرة وسعة المحفوظ لدى كثير من الرواة،فقد روي عن الأصمعي أنه قال:«أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة[2]»، وجاء في كتاب الأغاني [3] : «إن حماد الراوية روى عن نفسه فقال : « قال لي الوليد بن يزيد : أنت حماد الراوية ؟ فقلت له : إن الناس ليقولون ذلك ؛ قال : فما بلغ من روايتك ؟ قلت : أروي سبعمائة قصيدة أول كل واحدة منها : « بانت سعاد » فقال : « انها لرواية » .

وفي موضع آخر يقول صاحب الأغاني [4] :

« إن الوليد بن يزيد قال لحماد الراوية : بم استحققت هذا اللقب ، فقيل لك الراوية ؟ فقال : بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثيراً ، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة ، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ؛ قال : سأمتحنك في هذا ، وأمره بالإنشاد ؛ فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكّل به من استحلفه أن يصدُقه عنه ويستوفي عليه ؛ فأنشدَه ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين » .

---

(١) الشهاب الراصد ص ٢٥٨ .
(٢) انباه الرواة للقطفي : دار الكتب .
(٣) ج ٦ ص ٩٢ .
(٤) ج ٦ ، ص ٧١ .

ربما كان في بعض هذه الأخبار شيء من المبالغة ، ولكنها على كل حال تـــدل على قوة الذاكرة ، وسعة الأفق ، لدى هؤلاء الذين خصصوا أنفسهم لهذه المهمة .

كانت المجالس الأدبية كثيرة في العصر الجاهـــلي ، لكثرة المناسبات التي تستدعي هذه المجالس ، وكان الأدب قوامها ، فحبَّب الكثيرَ من الناس في حضورها ، والمداومة عليها ، لشغفهم بالأدب وحبهم له ، إما إلقاءً ونشيداً وإما سماعاً ومتعة ، وإما رغبة في حفظه وهضمه ، لتغذية مواهب أدبيـة ناشئة وتنميتها ، أو لصيانته ونشره في الآ فاق بين مختلف الأجيال . فكان الأدب يحظى بالاهتمام والعناية والرعاية والنشر عن طريق السماع والمشافهـة والرواية .

واستمر اهتمام العرب بالأدب كذلك في صدر الإسلام ، فكما كان الأدب موضع الاهتمام في العصر الجاهلي ، احتل كذلك مكانة عالية بين العرب بعد ظهور الدعوة الإسلامية الجديدة ، بل كان الأدب عماداً هاماً للدعوة منذ جاء بها النبي ﷺ ، وخير شاهد على ذلك القرآن الكريم والحديث الشريف، وهما من الفصاحة في الذروة العليا ، فأولهما كلام الله تعالى جلّ شأنه خالق البلاغة والبلغاء ، وثانيهما كلام الرسول عليه الصلاة والسلام أفصح البلغاء أجمعين .

وظلت المجالس والمحافل تعقد في كل مناسبة، وكان الأدب حليتها وبهجتها؛ يترنم الأديب بإلقاء أثره الأدبي، ويتغنى الراوي بترديده، ويستمتع الحاضرون بسحره وجماله ، ويكفي شاهداً على استمرار المجـالس الأدبية وترديد الآثار الأدبية عن طريق الرواية والمشافهة وورود الأخبار الصحيحة عن حضور النبي ﷺ هذه المجالس ، وطلبه أن يسمع شيئاً من القطع الأدبية الممتـازة ؛ من ذلك ما يرويه صاحب الأغاني [1] عن أنس بن مالك قال : «جلس رسول الله

(١) الاغاني ج ٣ ص ٧ .

ﷺ في مجلس ليس فيه إلا خزرجي ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم ، يعني قوله :

أتعرف رسماً كاطراد[1] المذاهب   لِعَمْرَةَ وَحشاً غير موقف راكب

فأنشده بعضهم إياها ، حتى بلغ إلى قوله :

أجالدهم يوم الحديقــة حاسراً   كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ ، فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له ثابت ابن قيس بن شمَّاس ، وقال له : والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج إلينا يوم سابع عُرْسه وعليه غِلالة ومِلحفة مُوَرَّسة[2] فجالدنا كما ذكر».

وكذلك كان الخلفاء الراشدون محبين للأدب ، يروونه ، وينشدون كثيراً منه ؛ قال ابن سلام : «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر[3]» . ويروى كذلك أن «عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبعض ولد هرم : أنشدني بعض مدح زهير أباك . فأنشده، فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم المدح . قال : ونحن إن كنا لنحسن له العطية . قال : قد ذهب ما أعطيتموه ، وبقي ما أعطاكم . وفي رواية عمر ابن شبة : قال عمر لابن زهير : ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك ؟ قال: أبلاها الدهر . قال : لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر[4] .

وفي عصر الأمويين ، اشتد شغفهم بالأدب ، ومما يروى في ذلك أن

---

(١) الاطراد : التتابع . والمذاهب واحدها مذهب ، وهو جلد تجعل فيه خطوط مذهبة بعضها في أثر بعض . عمرة : هي عمرة بنت رواحة ، أخت عبدالله بن رواحة ، وهي أم النعمان ابن بشير (طبقات الشعراء ص ٥٦) .

(٢) مورسة : مصبوغة بالورس ، وهو نبات أصفر تصبغ به الثياب ويتخذ منه طلاءللوجه.

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢٤١ .

(٤) خزانة الأدب للبغدادي ج ٢ ص ٢٩٢ .

« الأصمعي ذكر يوماً بني أميّة وشغفهم بالعلم ، فقال : كانوا ربما اختلفوا ، وهم بالشام ، في بيت من الشعر ، أو خبر ، أو يوم من أيام العرب ، فيبردون فيه بريداً إلى العراق [1] » . وكان خلفاء بني أمية وحكامهم يشتهرون بحب الأدب وعقد المجالس الأدبية المنافسة في صنع الأدب وروايته ، فمعاوية وهو أولهم كان مولعاً بمعرفة أخبار الماضين فاستدعى عُبيد بن شريَّة الجرهمي من صنعاء اليمن ، وأخذ يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وغير ذلك، فأعجب معاوية ، وأمر أن يدوّن وينسب إلى عبيد بن شرية [2] . وأشرنا آنفاً إلى موقف من مواقف الوليد بن يزيد مع حماد الراوية . ويقال إن زيادَ بن أبيه بعث بولده إلى معاوية ، فكاشفه عن فنون من العلم ، فوجده عالماً بكل ما سأله عنه ، ثم استنشده الشعر ، فقال : لم أرو منه شيئاً ، فكتب معاوية إلى زياد : ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل [3] » .

ولم يكن حال المجالس الأدبية في العصر العباسي أقل شأناً مما كانت عليه أيام الأمويين ، وليس هذا مكان الحديث عن الأدب في العصور التالية للعصر الجاهلي ، ولكن لا ينبغي لنا أن نغفل في حديثنا عن رواية الأدب الجاهلي الإشارة إلى أن الاهتمام بالأدب وسماعه رواية ومشافهة كان من أهم مظاهر المجالس والمحافل في العصر الإسلامي وزمن الأمويين والعباسيين ، وتزخر كتب الأدب والتاريخ بالكلام المستفيض عن مظاهر الاهتمام بالأدب وروايته في هذه العصور .

فبجانب اهتمام عشائر الأدباء وأصدقائهم بالآثار الأدبية التي ينتجونها ،

---

(١) العسكري التصحيف والتحريف ص ٤ .

(٢) الفهرست ص ١٣٨ .

(٣) العقد الفريد ج ٦ ص ١٢٥ .

والعمل على نشرها وحفظها ، وجدت في هـذه العصور طبقات من الرواة لم يكن لديهم الموهبة على صنع النصوص الأدبية ، ولكن خصصوا أنفسهم لحفظ الأدب ، فلم يكونوا منقطعين لأديب خاص أو أدباء معينين ، كما سبق أن رأينا في بعض السلاسل الأدبية التي أشرنا اليها آنفـاً ، ولكنهم ، عملوا على أن يحفظوا أكبر قدر مستطاع من الأدب من غير تحديد لأشخاص أو قبائل ، فكانت مهنتهم الرواية ، وذلك لما رأوا من اهتمام عظـيم بالأدب وروايته ، وبخاصة من الخلفـاء والأمراء والولاة والحكام . وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بالكتابة عن عشرات من هؤلاء الرواة، ومما ورد إلينا يتبين أنه كان من هؤلاء الرواة ، الأمين الثقة ، والمتهم المشكوك في نزاهته . وفيما يلي نبذة عن أشهر هؤلاء الرواة ومن بينهم من قام بتدوين الأدب بجانب روايتـه ، ونذكرهم هنا مرتبين ترتيباً زمنياً بحسب وفاتهم :

١ – **محمد بن السائب الكلبي** : من علماء الكوفة بالتفسير والأخبـار وأيام الناس ، ومقدم الناس بعلم الانساب: توفي بالكوفة سنة ١٤٦هـ[١] – ٧٦٣ م وكان مصدراً يعتمد عليه الاخباريون المتأخرون ، وهو من أصل عربي قضى حياته بين البصرة والكوفة .

٢ – **عوانة بن الحكم** بن عياض من بني كلب، كان عالماً بالشعر والأنساب، والأخبار ، توفي سنة ١٤٧هـ – ٧٦٤م وهو من علماء الكوفيين[٢].

٣ – **محمد بن إسحق** : صاحب السيرة ، مطعون فيه ، غـير مرضي الطريقة ، يقال : كان يُعمَل له الأشعار ، ويؤتى بهـا ، ويسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ، ويسميهم في كتبه

(١) الفهرست ص ١٤٥ وبروكلمان جـ ١ ص ١٣٨ .
(٢) الفهرست ص ١٤٠ ، ياقوت ٦ ص ٩٣ .

أهل العلم ، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه ، مات سنة ١٥٠ هـ [١] ، ويقول عنه ابن سلام [٢] : وكان ممّن هجّن الشعر وأفسده ، وحمل كل غُثاء محمد بن اسحق ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف وكان من علماء الناس بالسير ، فنقل الناسُ عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر، أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف ، معقود بقواف . أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ، ومن أداه منذ ألوف السنين . والله تبارك وتعالى يقول : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا » أي لا بقية لهم . وقال أيضاً : « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى » . وقال في عاد : « فهل ترى لهم من باقية » وقال : « وقرونا بين ذلك كثيراً » وقال : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله » .

وقال ابن سلام في موضع آخر : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت إليه حاجه ولا فيه دليل على علم » .

٤ – **أبو عمرو بن العلاء** : ولد سنة ٧٠ = ٦٨٩ ومات سنة ١٥٤ = ٧٧٠ ، أحد القراء السبعة ، وهو رئيس مدرسة البصرة ، أمين، ثقة ، عالم بالقرآن والعربية والشعر وأيام العرب ، وقد وجه

(١) الفهرست لابن النديم ، ص ١٤٢ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٤ .

عناية كبيرة إلى تدوين كميات هائلة من الشعر الجاهلي والأخبار المتعلقة به ويقال إنه أحرقها فيما بعد تحت تأثير ديني (١) .

وقد قال عنه الأصمعي : جلست إليه ثماني حجج ، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي (٢) . وقال عنه ابن سلام : « وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها (٣) » . وقال ابن سلام كذلك : « سمعت يونس يقول : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله (٤) !» .

٥ – **حماد الراوية :** هو ابن أحد الموالي ، من سبي الديلم ، سباه عروة ابن زيد الخيل ، ووهبه لابنته ليلى يخدمها خمسين سنة ، ثم ماتت فبيع بمائتي درهم ، فاشتراه عامر بن مطر الشيباني وأعتقه (٥) . ولد سنة ٧٥ هـ ٦٩٤ م ولم ينعم في طفولته وحداثته بالاستقرار ، حتى عد من الصبيان الأشرار ، يروى أنه كان في أول أمره يتشطر ، ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ؛ فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه فبلغ في العلم ما بلغ (٦) وطارت شهرته فيما بعد بالكوفة كراوية ، وكان رئيس مدرسة

---

(١) ابن خلكان ، جـ ١ ص ٣٨٦ . وبغية الوعاة للسيوطي ص ٢٦٧ ، والفهرست ص ٤٨ .

(٢) العمدة : ١ / ٩٠ .

(٣) طبقات الشعراء ، ص ٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٧ .

(٥) الفهرست ، ص ١٤٠ .

(٦) الأغاني جـ ٦ ص ٨٧ ، وراجع عن حماد كذلك : ابن سلام ص ١٤ – ١٥ ، كتاب المعارف لابن قتيبة ص ٢٦٨ ، وياقوت جـ ١ ص ٢٦٥ ، و المزهر جـ ٢ ص ١٥٣ ، جـ ٣ ص ٤٠٦ .

الكوفة ، وقد نال حظوة عند الخليفة الوليد بن يزيد ، وكان أحد الثلاثة الذين يقال لهم « الحمادون » بالكوفة : حماد عجرد، وحماد بن الزبرقان ، وحماد الراوية. وكانوا يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ، وكانوا يرمون بالزندقة ، وكان هؤلاء مع يحيى بن زياد ومطيع بن إياس يعيشون عيشة عبث ومجون يثير نقمة الطبقة المحافظة .

وقد مرت الإشارة إلى ما روي عن قوة حافظته حتى سمي بالراوية ، ولكنه كان متهماً في روايته ، غير موثوق به ويرمى بأنه كان يزيد في أشعار الشعراء ويدس عليهم ما ليس لهم ، قال ابن سلام : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به ؛ كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار [1] . » وروى صاحب الأغاني عن جماعة : أنهم كانوا في دار أمير المؤمنين بعيسا باذ [2] ، وقد اجتمع فيه عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب فدعا بالمفضل الضبي الراوية فدخل ، فمكث ملياً ، ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما ، فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حمادا بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً ، فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب فأخبرنا أن المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده : إني رأيت زهير بن أبي سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

---

(١) طبقات الشعراء ، ص ١٤ .

(٢) عيسا باذ : أي عمارة عيسى بالفارسية ، وكانت محلة شرقي بغداد ، ومنسوبة إلى عيسى ابن المهدي ، وكانت إقطاعاً له .

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل ما سمعت يا أمير المؤمنين في هـذا شيئاً إلا أني توهمته أنه كان يفكر في قول يقوله ، أو يروي في أن يقول شعراً ، فعدل عنه إلى مدح هرم ، وقال دع ذا ؛ أو كان مفكراً في شيء من شأنه ، فتركه ، وقال دع ذا ؛ أي دع ما أنت فيه من الفكر ، وَعدِّ القول في هرم . فأمسك عنـه ، ثم دعا بحماد ، فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ؛ قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لِمَنَ الديارُ بقُنّـــة[1] الحِجْر ... أقوين مُذْ حِجَـــج ومُذدهر

قفر بمندَفع النحائب[2] من ... ضَفْوى[3] أولات الضَّالِ والسِّدر

دع ذا وعــدّ القولَ في هرم ... خير الكهول وسيد الحَضْر

قال . فأطرق المهدي ساعة ، ثم أقبل على حماد ، فقال له : قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه . ثم استحلفه بأيمان البيعة ،وكل يمين محرجة ليصَدقنـه عن كل ما يسأله عنه ، فحلف له بكل ما توثق منه . قال له : اصدُقني عن حال هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير ، فأقر له أنه قائلها ، فأمر فيه ، وفي المفضل بما أمر به من ُشهرة أمرهما وكَشفه[4] . ويروى عن صالح بن سليمان[5] ، قال : «قدم حماد الراوية على بلال بن أبي

(١) القنة : أعلى الجبل ، وأراد هنا مـــا أشرف على الأرض . والحجر : موضع بعينه ، هو حجر اليمامة .

(٢) النحائب : آبار من موضع معروف .

(٣) ضفوى : مكان دون المدينة .

(٤) أغاني ج ٦ ص ٩٠ .

(٥) أغاني ج ٦ ص ٨٨.

بردة البصرة ، وعند بلال ذو الرمة ، فأنشده حماد شعراً مدحه به . فقال بلال لذي الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال جيداً ، وليس له . قال : فمن يقوله ؟ قال : لا أدري إلا انه لم يقله . فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه ، قال له : إن لي اليك حاجة ، قال : هي مقضية . قال : أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا . قال : فمن يقوله ؟ قال بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما يرويه غيري . قال : فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام اهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام » .

قال صالح : « وأنشد حماد الراوية بلال بن أبي بردة ذات يوم قصيدة قالها ونحلها الحطيئة يمدح أبا موسى الأشعري ، يقول فيها :

جَمعَتَ من عامر فيها ومن جُشَم ومن تميم ومن حاء ومن حامِ
مستحقبات روايها جحافلها يسمو بها أشعريٌّ طرفه سامي

فقال له بلال : قد علمتُ أن هذا شيء قلته أنت ، ونسبته إلى الحطيئة ، وإلا فهل كان يجوز أن يمدح الحطيئة أبا موسى بشيء لا أعرفه أنا ولا أرويه ! ولكن دعها تذهب في الناس وسيِّرها حتى تشتهر ، ووصله » .

ولذلك روي عن ابن الأعرابي ، أنه قال(١) : سمعت المفضل الضبي يقول : « قد سلّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر ، يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ! » .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٩ .

وروي عن الطرماح أنه قال [1] : أنشدت حماداً الراوية في مسجد الكوفة – وكان أذكى الناس وأحفظهم – قولي :

بان الخليط بسُمرَة فتبددوا

وهي ستون بيتاً ، فسكت ساعة ولا أدري ما يريد ، ثم أقبل عليّ ، فقال : أهذه لك ؟ قلت : نعم . قال : ليس الأمر كما تقول ، ثم ردّها عليّ وزيادة عشرين بيتاً زادها فيها في وقته ، فقلت : ويحك ! إن هذا الشعر قلتُه منذ أيام ما اطلع عليه أحد . قال : قد قلت أنا هذا الشعر منذ عشرين سنة ، وإلا فعليّ وعليّ . فقلت : لله عليّ حِجَّة حافياً راجلاً إن جالستك بعد هذا أبداً . فأخذ قبضة من حصى المسجد وقال : لله عليّ بكل حصاة من هذا الحصى مائة حجة إن كنت أبالي. فقلت : أنت رجل ماجن والكلام معك ضائع. ثم انصرفت » . قال دَماذ :« وكان أبو عبيدة والأصمعي ينشدان بيتي الطرماح في هذه القصيدة ، وهما :

مُجتاب حُلَّة بُرْجُـد لِسَراته ... قِدَداً وأخلفَ ما سواه البرجُدُ
يبدو وتضمره البلاد كأنه ... سيف على شرف يسلّ ويُغمد [2]

وكانا يقولان : هذا أشعر الناس في هذين البيتين » .

من ذلك يبدو أن سيرته ما كانت توحي بالثقة به، وأنه كان كثير الخلط، ولذلك قال فيه الأصمعي : « كان حماد أعلم الناس اذا نصح » . وقال خلف: « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب ، وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك مني ويدخله في أشعارها ، وكان فيه حمق [3] » . ومع أنه كان

(١) الأغاني ج ٦ ص ٩٤ .
(٢) هذان البيتان في وصف ثور ـ مجتاب : لابس ـ البرجد : كساء من صوف أحمر : وقيل هو كساء مخطط ضخم يصلح للخباء ـ سراته : ظهره .
(٣) المصدر السابق ص ٧٠ .

واسع العلم غزير المادة ، حاد الذاكرة ، فياضاً في الرواية، فقد كان لا يتورع عن الزور والادّعاء ، كما يتبين من الحوادث التي ذكرناها آنفاً عنه ، ويظهر أنه كان « من الذين يعدّون من المهانة ألا يجيبوا على كل سؤال يطرح عليهم ، وقد أخذت عليه أبيات مخترعة ، وتفسيرات للألفاظ مستغربة . ومن كان مثل حماد عديم التشدد أمام نفسه وأمام غيره ، فهو يقبل كل شيء من كل الناس دون رادع ، فتعجبه الأسطورة ، ويهوى النادرة التي يبدع خلقها ، ويظهر حماد على مر العصور كآفة للرواية الشعرية ، ونادى زعماء المدرسة البصرية بعدم الثقة به ، وكان أكثر ما أخذ عليه إجمالاً وضع الشعر الجاهلي ونسبته إلى غير أهله [١] ومات حماد سنة ١٥٦ هـ – ٧٧٢ م .

٦ – **المفضل الضبي** : هو أبو عبدالرحمن المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، من أصل عربي، ولد في فارس حيث كان أبوه من موظفي الديوان وكان شيعياً ، وهو الذي أجار الإمام إبراهيم المسمى بالنفس الزكية ، وكان المفضل من الرواة المشهورين ، ويعد من فحول الكوفة في الرواية ، فكان من تلاميذه ابن العربي والفراء وخلف الأحمر وأبو زيد الأنصاري، مات في الكوفة سنة ١٧٠هـ=٧٨٦م في بدء خلافة الرشيد وهو الذي عمل الأشعار المختارة للمهدي المسماة بالمفضليات،وكان راوية للأدب والأخبار، موثقاً في روايته قال ابن سلام : « أعلم من ورد علينا بالشعر وأصدقه من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي [٢] وعرف بصدقه فيما يروي واشتهر بمعرفة الأنساب والأيام ورواية الشعر .

٧ – **خلف الأحمر** : ولد سنة ١١٥ هـ – ٧٣٣ م وهو خلف بن حيان ويكنى بأبي محرز ، مولى أبي موسى الأشعري ، وقيل مولى بني أميّة ، وأصل أهله من فرغانة ، جيء بهم أسرى إلى البصرة ،

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ١١٢ .
(٢) ابناء الرواة للقفطي ، والفهرست ص ١٠٨ .

وقيل أصله من خراسان من سبي قتيبة بن مسلم ، وذاق طعم الشقاء في طفولته [1] . وظل بعد عتقه منتسباً بالولاء لأبي بردة ابن أبي موسى الأشعري ، وقضى أيام حداثته كلها في أوساط البصرة العلمية ، وعرف من أساتذته : عيسى بن عمر النحوي المتوفي حوالي سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م وأبو عمرو بن العلاء ، وقد كان خلف من مريدي حماد الراوية ، فهو الذي تولى نقل محفوظاته . وقد أجمع الناس ، سواء في الكوفة والبصرة ، على الإقرار بمعرفته الصحيحة بالشعر الجاهلي القديم، وحدسه الصحيح الذي يميز به بين الصحيح والموضوع،قال عنه أبو زيد الأنصاري: « لم أر رجلاً أفرس ببيت شعر من خلف »[2] ، ويطيب للكثيرين الاعتراف بموهبته الشعرية . وكان من أعلم الناس بالشعر ، ويقال إنه وضع فيه كثيراً ، فينسب إليه أنه هو الذي وضع لامية الشنفري التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل [3]

وكذلك اللامية المنسوبة إلى تأبط شراً ، أو ابن أخته :

إن بالشعب الذي دون سَلْع لقتيلا دمه ما يُطَلّ

ويقال إنه أيضاً وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، وأخذ عنه أهل البصرة والكوفة ، قال فيه المبرد [4] : « لم يُر أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان يضرب به المثل في عمل الشعر ، وكان

---

(١) راجع الفهرست ص ٨٠ ، ١٦٢ والأغاني جـ ٣ ص ١٩٠ وياقوت جـ ١ ص ١٧٩ ، وبغية الوعاق للسيوطي ٢٤٢ والمزهر جـ ١ ص ١٠٧ ، جـ ٢ ص ٢٥٠ .

(٢) الفهرست ، ص ٨٧ .

(٣) المزهر ج ١ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) مراتب النحويين ، ص ٤٧ ، والمزهر : ج ١ ص ١٧٧ .

يعمل على ألسنة الناس ، فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، ثم نسك ، فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالاً عظيماً خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك وقال : قد مضى لي في هذا ما لا أحتاج أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد ، لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد فلما تقرأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس . فقالوا له . أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة . فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم » فاعترافه لم ينفعه شيئاً ، بل إنه أساء إليه ، وجعله موضع التهمة والشك وعدم الثقة به . وهكذا كان مطعوناً في روايته ، لكذبه وافترائه ، مثل حماد الراوية ، «ولكن يظهر أن خلفاً كان أقل جرأة من حماد على الكذب [1]» . ومات خلف حوالي سنة ١٨٠ هـ .

وهكذا يُرمَى حماد وخلف بالاختلاق والكذب والانتحال ، ويُدَّعَى أنهما كانا شاعرين ماهرين في عمل الشعر ، وأنه بلغ من حذقهما واقتدارهما على الشعر أن كان كل منهما يقول شعراً يشبه شعر القدماء ، حتى إنه ليشتبه على كبار العلماء والنقاد ، ولا يفرقون بينه وبين الشعر القديم .

وأعتقد أن كلا منهما يستحق أن يطعن في صدقه ونزاهته لما شاع عنهما من الكذب وعدم الدقة فيما يرويانه ، فيبدو أن أفق محفوظاتهما كان واسعاً جداً وتعددت في ذاكرتيهما الأمثلة المتشابهة من القطع الأدبية ، مما أوجد عندهما اضطراباً في الدقة المطلوبة ، فكانا يخلطان بين هذه القطع ، وينسبان بعض القطع لمن ليست لهم ، أو يدعيانها لنفسيهما .

ولا شك أن لمرور الزمن ، وكثرة المحفوظ في الذاكرة ، وتزاحمه فيها ، وتشابه كثير منه في كل شيء تقريباً - كما تدل على ذلك الحوادث التي سقناها

---

(١) ضحى الإسلام ، ج ٢ ص ٢٩٣ .

عند الحديث عن حماد آنفاً – أثراً كبيراً في عدم الدقة في روايتي حماد وخلف وشيوع الكذب فيما يدعيان ، وربما كان مما ساعدهما على المضي في ذلك ما كان فيهما من التبجح ، والمجون وعدم المبالاة ، كما شاهدنا في حادثة حماد مع الطرماح التي أشرنا إليها من قبل . ولكني لا أعتقد أن كلاً منهما كان شاعراً موهوباً لديه القدرة على قول الشعر الجيد الرصين . إذ لو كانا كذلك ، فما الذي منعهما أن يقولا ولو مرة واحدة ، بادىء ذي بدء ، أن هذا الأثر أو ذاك من صنعهما ، وأنهما أصحابه ؟ حقيقة كان للرواة والرواية الواسعة تقدير عظيم بين الناس وبخاصة من الخلفاء والولاة والحكام وكان أصحاب الرواية الواسعة المدى يتلقون جوائز مالية ومادية ضخمة ، ولكن الشعراء الفحول أصحاب الشعر الرائع الرصين كانوا يجازون الجزاء الأوفى ، فكانت أعطياتهم كثيرة جزيلة ، وسير الأمويين والعباسيين في هذه الناحية تفوق الوصف في السخاء الذي يعتبر في كثير من الأحوال إسرافاً كبيراً. فلو كان كل من هؤلاء الرواة الذين اشتهروا بالكذب في الرواية والاختلاق والانتحال شاعراً موهوباً، لنال حظوة عظيمة، وانهالت عليه الأموال من كل جانب كما حدث مع الشعراء في ذلك الوقت أمثال جرير والفرزدق. ومما يقوي اعتقادي في عدم وجود الموهبة الشعرية عند حماد وخلف أنهما كانا يختاران أروع القصائد ويدعيانها لهما ، كما رأينا مع حماد في قصيدة الطرماح التي كانت موضع إعجاب كل من أبي عبيدة والأصمعي ، وكما في لامية العرب التي يدعيها خلف ، وهي التي لها ما لها من الشهرة والإعجاب بين جميع الأدباء . ولعل مما يؤيد شبهتي في ادعائهما الشعر قول ابن سلام : « سمعت يونس يقول : العجب لمن يأخذ حماد وكان يكذب ويلحن ويكسر [1]». ويستبعد جداً ، بل يستحيل ، أن يحدث لحن أو كسر من شاعر موهوب .

٨ – **هشام بن الكلبي** : هو ابن محمد بن السائب الكلبي ، من علماء الكوفة ، عالم بالنسب وأخبار العرب ومثاليها ووقائعها ، أخذ عن أبيه

(١) طبقات الشعراء ص ١٥.

وعن جماعة من الرواة ، ومات سنة ٢٠٦ هـ[1] وقيل سنة ٢٠٤ . قال إسحق الموصلي : «رأيت ثلاثة كانوا إذا رأوا ثلاثة يذوبون : علويه إذا رأى مخارقا ، وأبا نواس إذا رأى أبا العتاهية ، والزهري إذا رأى هشاماً» . وقد ذكر له ابن النديم كتباً كثيرة جداً .

٩ - **الهيثم بن عدي** : عالم[2] بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب وكان يطعن في نسبه ؛ فهو أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي الطائي ، ويقال إنه من أولاد الموالي ، ولد بالكوفة حوالي سنة ١٣٠ = ٧٤٧ م ، وتوفي ببغداد سنة ٢٠٧ = ٨٢٢ ، ويستشهد به صاحب الأغاني على اعتبار أنه حجة ومؤلفاته فيها معلومات ثمينة عن العصر الجاهلي الأدبي . وذكر له ابن النديم كتباً كثيرة .

١٠ - **أبو عبيدة** : معمر بن المثنى، ولد حوالي سنة ١١٠ = ٧٢٥ وتوفي سنة ٢١١=٨٢٥ ، وهو من أصل أعجمي ، من الموالي، وينتسب إلى تيم قريش لا تيم الرباب ، واشتهر بشعوبيته ، وكان له علم بأخبار الجاهلية والإسلام،وقد حصر اهتمامه في الأنساب والأخبار ولذا كان محصوله جوهرياً بالنسبة لمعرفة الأجواء التاريخية[3] ، ومن ثم فهو ثقة يعتمد عليه في هذه الناحية ، وكانت بينه وبين الأصمعي عداوة شخصية ، مع أنهما كانا من علماء البصرة . وشرحه لنقائض جرير والفرزدق يدل على غزارة علمه وسعة أفقه في ميادين الأدب والأنساب والأخبار . وكان هو واثقاً من نفسه في

---

(١) الفهرست لابن النديم ، ص ١٤٦ .

(٢) بروكلمان ١ - ١٤٠ ، والأغاني ١ - ١٢ ، والفهرست ص ١٥١ .

(٣) راجع الفهرست ٨٥ وبروكلمان ١ - ١٠٣ ودائرة المعارف الاسلامية ١ - ١١٥ .

هذه الناحية ، حتى إنه قال : « ما التقى فرسان في جاهلية ولا إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسيهما » . وقد ظهر علمه واضحاً في أدب الأيام ، فقد جاء في كشف الظنون لحاجي خليفة أن أبا عبيدة كتب كتابين عن الأيام ؛ أحدهما يسمى « كتاب الأيام الصغير » وتحدث فيه عن خمسة وسبعين يوماً ، وثانيهما يسمى « كتاب الأيام الكبير » وتحدث فيه عن ألف ومائتي يوم . وفي «معجم الأدباء»[1] يقول ياقوت إن أبا عبيدة بالاضافة إلى كتابيه السابقين عن أيام العرب كتب كتباً أخرى عن أيام بني مازن وأخبارهم ، ومقاتل الفرسان ، والغارات . ويقول عنه السيوطي في معرض حديثه عنه وعن الأصمعي وأبي زيد: «وأما أبو عبيدة فإنه كان أعلم الثلاثة بأيام العرب وأخبارهم ، وأجمعهم لعلومهم ، وكان أكمل القوم ؛ وجميع الكتب التي ألفت في أيام العرب بعده كانت تتخذ أبا عبيدة مصدراً لها . وقال أبو العباس عن أبي عبيدة : «له علم الإسلام والجاهلية ، وكان ديوان العرب في بيته». وذكر له ابن النديم عدداً كبيراً من المؤلفات .

١١ **أبو عمرو الشيباني** : كوفي واسع العلم في اللغة ، ثقة في الحديث[2] أصله من الموالي ، وكان يؤدب في أحياء بني شيبان فنسب إليهم بالولاء وقيل بالمجاورة[3] وبالتعليم لأولادهم ، وأخذ عنه دواوين أشعار القبائل كلها، وكان يلزم مجلسه أحمد بن حنبل ، وكتب عنه حديثاً كثيراً ، رُوي عن ابنه عمرو بن أبي عمرو أنه قال : لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل فيها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً ، وجعله في مسجد

---

(١) ج ٧ ص ١٦٩ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥ .

(٣) الفهرست لابن النديم ، ص ١٠٧ .

الكوفة حيث كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه، وكان يكتب بيده إلى أن مات، وبلغ ١٢٠ سنة ومات سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢٠٦، وأخذ عنه يعقوب بن السكيت، واسم أبي عمرو: إسحق بن مرار ويقال إنه ولد حوالي سنة ١٠٠هـ - ٧١٩م وهو أحد رؤساء مدرسة الكوفة. وقال ابن السكيت: «مات أبو عمرو الشيباني وله مائة وثماني عشرة سنة وكان يكتب بيده إلى أن مات، وكان ربما استعار مني الكتاب وأنا إذ ذاك صبي، وكنت آخذ منه وأكتب من كتبه».

١٢ - **أبو زيد الأنصاري**: هو سعيد بن أوس الأنصاري من الخزرج، وكان أعلم من أبي عبيدة والأصمعي بالنحو، ويقول ابن النديم: «ولا أعلم أحداً من علماء البصريين في النحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد فإنه روى عن المفضل الضبي». وقد حدّث عن عمرو بن عبيد، وأبي عمرو بن العلاء، وروى عنه: أبو عبيد القاسم بن سلام، ومحمد بن سعد الكاتب، وأبو حاتم السجستاني، وأبو زيد عمرو بن شبة، وكان ثقة؛ ثبتا، من أهل البصرة وكان أبو زيد أعلم من الأصمعي وأبي عبيدة بالنحو، وكان كثير السماع من العرب [(١)]. وكان سيبويه إذا قال: «سمعت الثقة» فإنه يريد أبا زيد الأنصاري، وكان من أوثق الرواة، مات بالبصرة سنة ٢١٤ هـ وله ٩٣ سنة. وله كتب كثيرة أثبتها ابن النديم في كتابه الفهرست.

١٣ - **الأصمعي**: هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، ولد حوالي سنة ١٢٢ = ٧٣٩ وتوفي سنة ٢١٥ = ٨٣٠، ينسب إلى باهلة الضاربة في الجنوب الشرقي من البصرة، مكث في الحجاز وبغداد

---

(١) انباء الرواة جـ ٢ ص ٣٠، والفهرست، ص ٨٧.

كثيراً، وقضى معظم حياته في البصرة[1]. وكان مدققاً في مسائل النحو والألفاظ معتمداً أحياناً على الشواهد الشعرية، وقد جمع الشعر الجاهلي المبعثر في دواوين ومجموعات، وله كتاب الأصمعيات المشهور. قال المبرد: «كان الأصمعي أنشد للشعر والمعاني، وكان أبو عبيدة كذلك، ويفضل على الأصمعي بعلم النسب، وكان الأصمعي أعلم منه بالنحو[2]. وقال السيوطي[3] عنه وعن زميليه أبي عبيدة وأبي زيد: «وكان في العصر ثلاثة، هم أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم، عنهم أخذ جل ما في أيدي الناس من هذا العلم، بل كله، وهم أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي». وهو صاحب اللغة والأخبار والنحو والغريب والملح، وكان مشهوراً بالحفظ. قال عمر بن شبة: «سمعت الأصمعي يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة». وقال عنه القفطي[4] «كان الأصمعي بحراً في اللغة لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية، وكان دون أبي زيد في النحو». ويقول عنه كذلك: «وعمل الأصمعي قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها». وقال عنه ابن جنّي: «وهذا الأصمعي هو صنّاجة الرواة والنقلة وإليه محط الأعباء والثقلة. كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو حدث، لأخذ قراءة نافع عنه. ومعلوم كم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته، لأنه لم يقو عنده إذ لم يسمعه. وأما إسفاف من لا علم له، وقول من لامسكه به إن الأصمعي كان يزيد في كلام العرب، ويفعل كذا ويقول كذا، فكلام

(١) بروكلمان ١ - ١٠٤، والفهرست ص ٨٨.

(٢) الفهرست لابن النديم، ص ٨٨.

(٣) المزهر ص ٤٠١.

(٤) الخصائص جـ ٣ ص ٣١١.

معفو عنه غير معبوء به » ويقول عنه أبو الطيب اللغوي: « فأما ما يحكيه العوام وسُقّاط النـاس من نوادر الأعراب ، ويقولون هذا مما افتعله الأصمعي ... وأنـّى يكون الأصمعي كما زعموا وهو لا يفتي إلا فيما أجمع عليه العلماء ، ويقف عما ينفردون به عنه ، ولا يجوّز إلا أفصح اللغات ويلجّ في دفع ما سواه »[1]. من هذا نجد أن الأصمعي كان من أئمة الرواة المشهود لهم بالأمانة والصدق وكان ثقـة مصـّدقاً لدى جميع العلماء والنقاد والباحثين النزيهين . وله مؤلفات كثيرة العدد .

١٤ - **ابن الأعرابي :** هو أبو عبدالله محمد بن زياد الملقب بابن الأعرابي ، ولد سنة ١٤٥ = ٧٦٢ وتوفي بسامرا سنة ٢٢٥ = ٨٣٩ وقيل سنة ٢٣١ ، وكان عمره إحدى وثمانين سنة ، وهو عالم كوفي ، قـال عنه أبو العباس : « قد أملى على الناس ما يحمل على أجمال ، لم ير أحد في الشعر أغزر منه [2] ». وقال ثعلب: « شاهدت مجلس ابن الأعرابي ، وكان يحضره زهاء مائة إنسان ، وكان يسأل ويقرأ عليه ، فيجيب من غير كتاب ، قال : ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط ... قرأ على القاسم بن معن ، وسمع من المفضل بن محمد ، وكان يذكر أنه ربيب المفضل ، كانت أمه تحته ».

١٥ - **ابن سلام الجمحي :** أبو عبدالله محمد بن سلام [3] ، وهو مولى قدامة ابن مظعون الجمحي ، كان من أهل اللغة والأدب ، وكان له ذوق أدبي ممتاز ، روى عنه مشايخ الأدب : ثعلب وغيره ، وكان ثقة ، صدوقاً ، وتتلمذ عليه كثير ، منهم يحيى بن معين . ومات سنة ٢٣٢ هـ .

---

(١) مراتب النحويين ص ٤٩ .

(٢) الفهرست ، ص ١٠٨ ، وبروكلمان جـ ١ ص ١١٦ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

١٦ – **ابن حبيب** : وهو أبو جعفر محمد بن حبيب ، وحبيب أمه لا أبوه ، مات حوالي ٢٤٥ = ٨٥٩ من الموالي عاش في بغداد . روى عن ابن الاعرابي وأبي عبيدة . وكان عالماً باللغة والأنساب والأخبار والشعر والقبائل . وقال عنه ابن النديم : « وكان مؤدباً ، وكتبه صحيحة » . وذكرته مؤلفات كثيرة [١] .

١٧ – **ابن السكيت** : هو أبو يوسف ، يعقوب بن السكيت ، ولد حوالي سنة ١٧٨=٨٠٢ م ، وتوفي حوالي ٢٤٥=٨٥٩م من أصل فارسي ، شديد التشيع لعلي وآله ، عاش في بغداد ، وكان مؤدباً لأولاد الأمراء ، فكان من علماء بغداد ، وأخذ من الكوفيين . وكان أبوه السكيت عالماً ، وكان الابن يعقوب متصرفاً في أنواع العلم ، وكان يقول : « أنا أعلم من أبي بالنحو ، وأبي أعلم مني بالشعر واللغة » ، وكان يعقوب عالماً بنحو الكوفيين وعلم القرآن والشعر ، لقي فصحاء العرب وأخذ عنهم ، وحكى في كتبه ما سمعه منهم وله حظ من الستر والدين [٢] . وقام بعمل دواوين كثير من الشعراء ، منهم : امرؤ القيس ، والحطيئة ، ولبيد ، والأعشى الكبير ، وبشر بن أبي خازم ، ومهلهل ، وعدي بن زيد ، والخنساء .

١٨ – **بزرج العروضي** : من الكوفيين ، وكان حافظاً راوية ، ولكن كان كذاباً ، كثيراً ما يحدث بالشيء عن الرجل ، ثم عن غيره ، وكان يونس النحوي يقول : إن لم يكن بزرج أروى الناس فهو أكذب الناس [٣] . ومات سنة ٢٤٦ هـ .

---

(١) الفهرست ص ١٦١ .
(٢) الفهرست ص ١١٣ – ١١٤ .
(٣) راجع أنباء الرواة للقفطي ، والفهرست ص ١١٣ .

١٩ - **أبو حاتم السجستاني** : هو سهل بن محمد ، كان كثير الرواية عن أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي ، وكان عالماً باللغة والشعر ، حسن المعرفة ، بالعروض ، كثير التأليف للكتب في اللغة ، يقول الشعر ، صادق الرواية ، وعليه اعتمد أبو بكر بن دريد في اللغة. توفي سنة ٢٥٥ هـ . قال عنه ابن دريد : « كان يتجر في الكتب ، ويخرج المعمى ، حاذق بذلك ، دقيق النظر في ذلك . » وله كتب كثيرة [١] .

٢٠ - **ابن قتيبة** ، روى عن العلماء ، أمثال أبي حاتم السجستاني ، وكان ثقة ، ديناً ، فاضلاً ، توفي سنة ٢٧٠ وقيل سنة ٢٧٦ هـ . وهو قاضي دينور ، ولذلك نسب إليها فقيل الدينوري ، وكان يغلو في البصريين إلا أنه خلط المذهبين وحكي عن الكوفيين ، وكان صادقاً فيما يرويه ، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه [٢] . وله مؤلفات كثيرة مشهورة .

٢١ - **السكري** : هو أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، ولد سنة ٢١٢= ٨٢٧ ، وتوفي حوالي سنة ٢٧٥=٨٨٨ ، وهو تلميذ ابن حبيب ، وهو بصري [٣] . عمل أشعار امريء القيس والنابغتين ، وقيس ابن الخطيم ، وتميم بن أبي مقبل ، وأشعار اللصوص ، وأشعار هذيل ، وهدبة بن خشرم ، والأعشى ومزاحم العقيلي ، والأخطل، وزهير، وغيرهم. وكان حسن المعرفة باللغة والأنساب والأيام ، مرغوب في خطه لصحته .

٢٢ - **المبرد** : محمد بن يزيد ، من الأزد ، ولد سنة ٢١٠ ، ومات سنة

---

(١) الفهرست ، ص ٩٣ .

(٢) الفهرست ، ص ١٢١ .

(٣) بروكلمان : ١٠٨/١ ، والفهرست ، ص ١٢٣ ، ٢٣٠ .

٢٨٥ هـ . [١] وقد ذكرنا آنفاً شيئاً من آرائه في بعض الرواة ، وكان ثقة ، ثبتا ، ومن أشهر كتبه : الكامل والفاضل . وهو من أعلام البصرة ، وأحد رؤساء مدرستها .

٢٣ – **ثعلب** : وهو من العلماء المشهورين ، توفى سنة ٢٩١ ، وقال عن نفسه: « ابتدأت بالنظر في العربية والشعر واللغة في سن ست عشرة ، وحذقت العربية ، وحفظت كتب الفراء حتى لم يشذ عني حرف منها ، ولي خمس وعشرون سنة [٢] » . وكان رئيس مدرسة الكوفة ، وكان بينه وبين المبرد عداوة شخصية . وقد عمل دواوين كثير من الشعراء [٣] .

٢٤ – **الطبري** : هو محمد بن جرير الطبري ، وكنيته أبو جعفر ، ولد في سنة ٢٢٤ هـ بآمل عاصمة إقليم طبرستان ، وهو العالم الفقيه ، المقرىء ، النحوي ، اللغوي ، الحافظ ، الإخباري ، له مؤلفات كثيرة ، أهمها : تفسير القرآن ، وكتاب التاريخ ، وقد جمع في الأخير كثيراً من الشعر والأخبار الأدبية . ومات سنة ٣١٠هـ . ويجمع الكل على أنه كان علاّمة وقته ، وكان متفنناً في جميع العلوم: علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه ، كثير الحفظ[٤] .

٢٥ – **أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري** : قال عنه ابن النديم : « كان ورعاً من الصالحين ، وكان يضرب به المثل في حضور البديهة وسرعة الخاطر ، وأكثر ما كان يمليه من غير دفتر ولا كتاب [٥] . مات عن دون الخمسين ، سنة ٣٢٨ هـ ، قال أبو علي القالي : « كان أبو

---

(١) الفهرست ، ص ٩٣ .
(٢) الفهرست ، ص ١١٦ .
(٣) الفهرست ، ص ٢٣٠ .
(٤) الفهرست ، ص ٣٤٠ ، ٣٦٥ .
(٥) الفهرست ، ص ١١٨ .

بكر بن الأنباري يحفظ فيما ذكر ثلاثمائة ألف بيت شاهدة في القرآن » . وكان ممن يقدم من الكوفيين ، ثقة صدوقاً ، ديّناً . وله كتب كثيرة في القرآن والحديث والنحو والشعر والشعراء ، منها شرح القصائد الطوال السبع ، وشرح المفضليات ، كما صنع طائفة من دواوين شعراء الجاهلية والإسلام .

٢٦ – **الأصبهاني** : أبو الفرج ، علي بن الحسين بن محمد الأصبهاني ، ويتصل نسبه بعبد مناف ، فهو من بني أمية . ولد بأصبهان سنة ٢٨٤ هـ وتوفي سنة ٣٥٧ هـ ، وهو الكاتب المعروف ، النحوي ، اللغوي ، الشاعر . تلقى العلم عن أبي بكر بن الأنباري ، والأخفش الصغير ، وأبي بكر بن دريد ، ومحمد بن جرير الطبري ، وجعفر بن قدامة ، وغيرهم من أساطين العلم والأدب واللغة والتاريخ ، فكان عالماً بأيام الناس والأنساب وكان شاعراً محسناً. قال التنوخي : « كان أبو الفرج يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المستندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله » . وكان أبو الحسن البستي يقول : « لم يكن أحد أوثق من أبي الفرج . ومات ببغداد ، وله من المؤلفات عشرات الكتب ، أهمها كتاب الأغاني المعروف [1] .

٢٧ – **المرزباني** : أصله من خراسان ، ويقول عنه ابن النديم : « آخر من رأينا من الأخباريين المصنفين ، راوية صادق اللهجة ، واسع المعرفة بالروايات ، كثير السماع . ولد سنة ٢٩٧ هـ ، ومات سنة ٣٧٨ هـ [2] » . وذكر له ابن النديم كتباً كثيرة ، منها الموشح ، ومعجم الشعراء .

---

(١) الفهرست ، ص ١٧٢ .

(٢) الفهرست ، ص ١٩٦ . وقال الخطيب إن المرزباني مات سنة ٣٨٤ هـ . (الموشح ، ص ١ م من المقدمة) .

هذه نبذة قصيرة عن أشهر الرواة الذين حملوا لواء الأدب ، وحفظوه من الضياع حتى سلموه بقدر ما استطاعوا إلى الأجيال التي أعقبتهم وقد أوردنا عن كل منهم ، خلاصة آراء النقاد والمؤرخين فيه ، بعدما قاموا به من الفحص والتحري والدراسة الشاملة لهم وبخاصة فيما يتصل بالأمانة فيما يؤدون ومبلغ الثقة التي نالها كل منهم بقدر ما أثر عن أخلاقه ونزاهته وسيرته وسلوكه وقد رأينا فيهم الكثير الذي قام بتدوين بعض الآثار الأدبية ، لأن الرواية متصلة بالتدوين ، فالذين قاموا بتدوين الأدب أو إملائه إنما هم في الأصل رواة ولن نكرر ذكرهم عند الكلام على التدوين إن شاء الله . على أن ذكرهم هنا ، سلفاً ، قبل الكلام على تدوين الأدب يلقي ضوءاً على هذه النقطة ، مما يجعلها أكثر وضوحاً .

ومما ذكرناه عن هؤلاء الرواة يتبين أن أقدمهم مات حوالي منتصف القرن الثاني ، أي أن طائفة الرواة المحترفين في الإسلام ظهرت في اواخر القرن الاول عندما استتب أمر الدولة وهدأ روع المسلمين بعد الحركات الأولى ، واتسعت رقعة العالم الإسلامي وقد ساعد على رواج الرواية الأدبية حينئذ محافظة الأمويين على النزعة العربية ، وحبهم الظاهر للآثار الأدبية وتشجيعهم روايتها ، ومكافأتهم الأدباء والرواة بسخاء ، مع ما في نفس الأديب – راوية كان أو منتجاً للأدب ، بحكم أنه إنسان – من ميل إلى الشهرة وحب الظهور. ثم كان مما شجع على ظهور هؤلاء الرجال وتخصصهم في رواية الأدب أن المسلمين احتاجوا إلى النصوص الأدبية القديمة لمّا اشتغل علماؤهم بالتفسير ، فاهتم الأدباء بجمع النصوص الأدبية لكي يستعينوا بها على فهم ما استغلق عليهم من ألفاظ القرآن وعباراته ، لذلك قالوا : « إن علوم الأدب كلها وسيلة لفهم كتاب الله تعالى ، وإن حكم البلاغة ومعرفة العلوم الأدبية حكم الوجوب الكفائي ، وشرفها بشرف ما يتوصل إليه ، فكلها علوم آلية [1] » وورد عن ابن عباس أنه قال : « إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا

---

(١) الشهاب الراصد ، ص ٢٥٩ .

فيه إلى الشعر فإنه ديوان العرب [1] » . فاهتمام المسلمين بفهم مفردات الكتب والسنة كان مما شجع على الإشتغال بعلوم الأدب وروايته ، ولذلك يقال إن الإمام الشافعي قال إنه طلب اللغة والأدب عشرين سنة ليستعين بهما على الفقه ومن هنا لما أرادوا أن يطرد علمهم في الدين والأدب من ينبوع واحد أوجبوا الإسناد في الأدب أيضاً .

« وكان الإسناد في الحديث ينتهي إلى الصحابة ثم إلى رسول الله ﷺ ، أما في الأدب ، فكانت أسانيد الأدباء على اختلاف عصورهم تنتهي إلى الطبقة الأولى كأبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية . ولا نجد في كتب الأدب رواية واحدة يتصل سندها بالجاهلية ، لأن هؤلاء الرواة (يعني رواة الطبقة الأولى) أكدوا أنهم أخذوا أكثر ما يروونه عن قوم أدركوا عرب الجاهلية ؛ أو نقلوا عمن أدركهم . والحقيقة أن أبا عمرو بن العلاء روى عن عرب أدركوا عرب الجاهلية لأنه ولد سنة ٧٠ وتوفي سنة ١٥٩ هـ . وكان لا يأخذ إلا عن العرب في البادية حتى إن الأصمعي جلس إليه عشر حجج ما سمعه يحتج ببيت إسلامي [2] » .

فالطبقة الأولى وهم كبار الرواة : أبو عمرو بن العلاء ، والكلبي ، وعوانة ، وحماد الراوية كانوا يستقون معلوماتهم ممن أدركوا عرب الجاهلية رأساً ، أو مما وثقوا به من كتب مدوّنة . لكن حماد الراوية أثار الشكوك وسوء الظن ؛ كما أثارها غيره مثل الراوية المدني عيسى بن دأب الذي كان يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكلاماً ينسبه إلى العرب [3] . وأما من جاء بعد هذه الطبقة فكانوا تلاميذهم ، وكانوا يروون عن أساتذتهم من رجال الطبقة الأولى . إلا أنه لكثرة المآخذ التي وجهت ضد حماد وخلف رأى جماعة من

---

(١) الفاضل للمبرد ، ص ١٠ .

(٢) الشهاب الراصد ، ص ٩ ، ٢ .

(٣) راجع المزهر ٢ - ٤١٤ ، والمعارف لابن قتيبة ٢٦٧ والمسعودي : مروج الذهب ١ - ١٣٨ ، والأغاني ٤ - ١٢٩ .

العلماء وبخاصة جيل الأصمعي أن يقوموا بتصفية الروايات بالاعتماد على التحقيقات الشخصية لدى الأعراب، فكانوا على اتصال وثيق بالصحراء وأطلقوا على سكانها اسم « فصحاء العرب ». وكان الإسناد بعد الطبقة الأولى يتسلسل حتى يصل إلى أحد رجالها. ولكن كل طبقة كانت أوسع معرفة عمن قبلها بما تضيفه من جديدعن سابقها.

ولما اتسعت الدولة الإسلامية، واختلط العرب بغيرهم من أهل الأمم الأخرى بسبب الفتوح الإسلامية، شاع اللحن والخطأ، فوجدت الحاجة إلى وضع علوم النحو واللغة، فكان ذلك مما ساعد على ازدهار الرواية الأدبية، وجمع النصوص للشواهد التي تستنبط منها القاعدة أو تؤيدها.

وبهذا ازدهرت سوق الرواية الأدبية، فاشتغل بها كثير من العلماء، حتى كان بينهم تنافس، وصل إلى عداء شخصي في بعض الأحيان، وأدى هذا التنافس إلى وجود مدرسة بالبصرة، ومدرسة بالكوفة، وكان على رأس رواة الأولى أبو عمرو بن العلاء، ورئيس الثانية حماد الراوية، وكان التعاون بين هاتين المدرستين ظاهراً في القرن الثاني، حيث كان بينهما تبادل علمي؛ تلاميذ الكوفة يتلقون عن أساتذة البصرة وبالعكس؛ فالكوفيون أمثال الكسائي، وتلميذه اللحياني، وابن السكيت كانوا تلاميذ أساتذة البصرة[١]؛ والبصريون أمثال أبي زيد التوزي والسكري درسوا على أساتذة الكوفة[٢]، وكثير من الرواة الذين تحدثنا عنهم فيما سبق جمع بين الروايتين البصرية والكوفية. وأما الخلاف الواقع بين هاتين المدرستين، فإنه لا يعود إلى زمن تأسيسهما، بل إلى أواخر القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادي) وهو ناشىء عن العداوات الشخصية بين رئيسي المدرستين حينئذ، وهما: المبرد في البصرة، وثعلب في الكوفة[٣]. ولكن الخلاف كان واضحاً بين المدرستين في المنهج،

---

(١) راجع السيرافي ٥٦، والمزهر ٢/٢٥٣.

(٢) المزهر ٢/٢٥١، ٢٥٣ : ٢٥٧.

(٣) تاريخ الأدب العربي لبلاشير صفحة ١١٩.

فالبصريون كانوا يتجهون إلى إدخال كل شيء ضمن قواعد ثابتة ، وهم كالفقهاء يلتزمون القياس ، ويجعلون ما سواه خطأ ، وإذا كان مسموعاً قالوا : شاذ لا يقاس عليه ؛ أما الكوفيون فيفسحون المجال للاستعمال ، ورأوا أن يحترموا ما جاء عن العرب، وأجازوا استعماله ، ولو كان لا ينطبق على القواعد العامة. ومن ثم كان (١) البصريون أكثر اعتداداً بأنفسهم ، وأكثر ثقة بما يروون ، وأشدّ ارتياباً بما يرويه الكوفيون . لذلك كان الكوفي يأخذ عن البصري ، ولكن البصري يتحرّج عن أن يأخذ من الكوفي ... وظل الحال كذلك حتى تأسست مدنية بغداد (في أواخر القرن الثالث) وهدأت الأمور السياسية ، وأخذ الخلفاء والأمراء يشجعون العلماء ، ويدعونهم لتربية أولادهم فتسابق العلماء إلى بغداد ... وكان التقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سبباً في عرض المذهبين ونقدهما والانتخاب منهما ، ووجود مذهب منتخب كان من ممثليه ابن قتيبة » .

ومع أن الرواة ، كانوا يهتمون بالنصوص الأدبية على وجه العموم ، فقد كان لكل منهم تخصص معين في دراسته ، فأبو عبيدة مثلاً اهتم باللغة والأخبار ، في حين ألف الأصمعي في القواعد واللغة ، وعكف عمرو بن شبة والهيثم بن عدي ، والزبير بن بكار ، على التاريخ والتراجم . وفي مثل ذلك يقول الجاحظ (٢) : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب » .

وقد أدى التنافس والعداء الشخصي الذي كان بين الرواة كالذي كان بين أبي عبيدة والأصمعي ، وهما بصريان ، والذي كان بين المبرد البصري وثعلب الكوفي ، إلى تدقيق الرواة فيما يأخذون ، وتمحيصهم لكل ما يسمعون .

---

(١) ضحى الإسلام ج ٢ صفحة ٢٦٠ .
(٢) العمدة لابن رشيق ١٠٥/٢ .

فكانوا على حذر دائم تجاه ما ينقل إليهم ، يحصرون أذهانهم ، ويوجهون كل وعيهم لكل ما يسمعون سواء من الأعراب أو الرواة ، فيمحصون ويقابلون بين مختلف الروايات ، ولا يقبلون شيئاً إلا بعد التحقق والتثبت من صدقه وحقيقته ، خوفاً من نقد الزملاء ، أو تشنيع الأعداء ، وحباً في الشهرة بالأمانة والنزاهة والدقة ، بل كان كثير من جمهور السامعين لديه من الفطنة وسعة الاطلاع ، وقوة الذوق الأدبي ما يمكنه من معرفة الصحة والزيف في كل ما يلقى أمامهم من نصوص . فكان العلماء رقباء على الرواة ، كما كان الرواة رقباء على الأعراب الذين ينقلون عنهم ، وكتب الأدب فيها كثير من الحوادث التي تؤيد ذلك ، منها ، ما سقناه قبل عما كان من حماد مع بلال بن أبي بردة وذي الرمة ، ومنها ما أورده ابن سلام ، إذ يقول : « أخبرني أبو عبيدة أن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجَلَب والميرة ، فنزل النُّحَيت ، فأتيته أنا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته ، وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا . وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله [1] » . فلم يكن الرواة على العموم ، يقبلون كل ما يلقى اليهم ، دون فحص وتمحيص ، ولم يكن كل ما يقوله الرواة ليُسمَع منهم ويُقبل دون حجة أو برهان . فالتنافس وما جره في بعض الأحيان من خصومات ، أفاد النصوص الأدبية ، إذ حمل الرواة على الاستزادة منها بقدر ما يستطيعون ، مع التثبت والتحري الدقيق في كل ما ينقلون .

ومما ذكرناه عن الرواة ، يتبين أنه كان فيهم بصريون وفيهم كوفيون ، وفي كل من الفريقين أمين ثقة ، ومتهم مطعون في أمانته ، فكما كان في البصريين ثقات عدول ، كان كذلك في الكوفيين أمناء مصدقون ، وكما كان

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، ص ١٤ .

في الكوفيين من ليس أهلاً للثقة ، كذلك كان في البصريين من أثر عنهم الخلط والإدعاء ، فمسألة الثقة وعدمها ليست متصلة ببلد ، ولا بمدرسة معينة ، إنما هي تتعلق بطبيعة الشخص وأخلاقه ، وميوله ونزعته . ومن ثم فلا ينبغي أن يرمى الرواة كلهم بالطعن والاتهام ، لوجود من يطعن في نزاهته من بينهم ، كما لا يصح أن نشك في رواة بلد معين أو مدرسة ، لأن من بين رجالها من كان موضع الشك والاتهام . فالكل لا يؤخذ بجريرة بعضه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . ولكل إنسان مـــا سعى . فمن كان ثقة أميناً ، فهو عدل ، مصدق ، يُقبل منه ما يقول ، ما دام لا يوجد ضده دليل قوي ولا برهـان ثابت محقق .

وواضح أن هؤلاء الرواة الذين ذكرناهم كانوا يعيشون في المدن فهم من أهل الحضر ، وليس معنى هذا أن البدو لم يكن منهم رواة ، بل كان منهم رواة كثيرون ، وقد ذكر منهم صاحب الفهرست عشرات ، من بينهم :

أبو البيداء الرياحي [١] : أعرابي نزل البصرة ، وكان يعلم الصبيان بأجرة ؛

وأبو مالك عمرو بن أبي كِركِرَة [٢] : وهو أعرابي كان يعلم في البادية ، وهو بصري المذهب ؛

وأبو سوار الغنوي [٣] : وعنه أخذ أبو عبيدة ؛

وأبو الجاموس [٤] **ثور بن زيد** : أعرابي كان يفد البصرة على آل سليمان وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة .

وأبو ملحم الشيباني : أعرابي كان أعلم النـــاس بالشعر واللغة توفي سنة

---

(١) الفهرست ، ص ٧٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

٢٤٨ ، وقيل أصله فارسي ومولده بفارس ، لكنه انتسب إلى بني سعد ، ويقال أنه كان أحفظ الناس [١] .

وأبو شبلي العقيلي [٢] : وقد وفد على الرشيد واتصل بالبرامكة ؛

والبهدلي : وعنه أخذ الأصمعي .

وفي بدء الرواية العلمية لم يكن الرواة في القرن الأول بحاجة الى الارتحال إلى البادية إذ كانت الصلة ما زالت شديدة بعرب الجاهلية وأعرابها ، لأن عرب الجاهلية أو من أخذوا عنهم كانوا لا يزالون أحياء ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام عن الطبقة الأولى من الرواة ، لكن لما اتسعت الدولة ، واستقر الناس في المدن ، واختلط العرب بغيرهم من الأعاجم ، أراد الرواة والعلماء استقاء اللغة والأدب من مصادرهما الأصيلة النقية ، ولذلك رحلت الطبقة الثالثة من الرواة إلى البادية ، وقد سبق أن ذكرنا الاحتياطات الشديدة التي أخذ العلماء أنفسهم بها في جمع اللغة ليكون ما يأخذونه عربياً حقاً وأصيلاً ، فحصروا ميدانهم في نطاق معين من القبائل التي تسكن منطقة بعيدة كل البعد عن تأثير الاختلاط الأجنبي ، ومن أقدم من رحل إلى البادية يونس بن حبيب الضبي المتوفي سنة ١٨٣ ، وخلف الأحمر المتوفي سنة ١٨٠ هـ ، والأصمعي . وظل شأن العلماء والرواة في الذهاب إلى البادية والأخذ عن أهلها إلى أواخر القرن الرابع [٣] ، وقد أشرنا آنفاً إلى أن بعض الأعراب كانوا هم أنفسهم يفدون إلى الحواضر والمدن ، يقيمون فيها ، أو يملون على الرواة ما يعرفون من اللغة والأدب .

فالطبقات المتأخرة من الرواة كانوا يأخذون عمن سبقهم من الرواة ، ومن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(٢) الفهرست ، ص ٧٤ .

(٣) الشهاب الراصد ، ص ٢٦٥ .

كان في عصرهم من أعراب البادية الفصحاء الذين يحفظون الأدب . ولم يكن المتأخرون من الرواة ليقبلوا كل ما يلقى عليهم أو يصل إليهم ، دون بحث أو تمحيص ، بل كانوا يتحرون الحقيقة بالدرس والمقارنة والاستنباط ، كما حدث من أبي عبيدة مع ابن متمم بن نويرة ، حين قدم البصرة .

وأمثال هؤلاء العلماء والرواة الباحثين المدققين ، قد بذلوا مجهوداً ضخماً ، يستحقون عليه كل ثناء وإكبار .

الفصل الرابع

تدوين الأدب الجاهلي

قبل الكلام عن هذا الموضوع أحب أن يكون معلوماً أن التدوين مرتبط أشد الارتباط بالرواية ، فهي مصدره الأساسي ، ولذلك قد نجد في فصلي الرواية والتدوين حديثاً في أحدهما ولكنه يتصل بالآخر اتصالاً وثيقاً ؛ وذلك مثلاً كما رأينا في الفصل السابق ، فالكلام عن الرواة يقتضي ذكر أعمالهم الأدبية ، وكثير منها يتصل بالتدوين ، واضطررنا لذكره هناك لأنه من تتمة الحديث عنهم .

ويقصد بالتدوين الكتابة ، وقد كانت الكتابة معروفة للعرب في العصر الجاهلي ، بدليل وجود إشارات إليها في الأدب الجاهلي ، كقول طرفة [1] :

كسطور الرق رقّشه بالضحى مرقش يشمه

وقول المرقش الأكبر :

الدار وحشٌ والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم [2]

(١) ديوان طرفة نشر الدكتور علي الجندي ، بيت رقم ٤٠٧ . والرق : الصحيفة، رقشة: زينه وحسنه ، شبه رسوم الدار بسطور الكتاب . بالضحى : أي رقشه وقت الضحى ، وذلك أحكم لصنعة الترقيش : يشمه : ينقشه ويزينه ويجعله كالوشم في المعصم .

(٢) الأغاني : دار الكتب ج ٦ ص ١٢٧ .

وقول امرىء القيس [1] :

لِمن طللٌ أبصرتُه فشجاني كخط زَبور في عسيبٍ يمان

وقوله [2] :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحتْ كخط زبور في مصاحف رُهْبان

وفي هـــذه الأمثلة نجد الإشارة إلى الأقلام وبعض ما كان يكتب عليه كالأديم ، والعسيب ، والصحف .

« وقد وجدت نقوش للعرب الجنوبيين تدل على وجود الكتابة عند أهل اليمن منذ ألف عام على الأقل قبل الميلاد . كما عثر من آثار الشماليين على نقش النمارة الذي يرجع تاريخـــه إلى سنة ٣٢٨ م ، وهو مكتوب بخط مشتق من الآرامي [3] » .

وكانت العهود والمواثيق في غالب الأحيان تدوّن ، تسجيلاً لها ، لتكون أقوى ارتباطاً ، وأشد إلزاماً ، ومن ذلك صحيفة قريش التي علقوهـــا في جوف الكعبة [4] .

كما كانت الرسائل ، على وجه العموم ، تبعث مكتوبة ، كالصحيفة الـتي وجهها عمرو بن هند ملك الحيرة إلى عامله بالبحرين في شأن طرفة والمتلمس [5] ومن ذلك ما يرويه ابن الأعرابي ، إذ يقول : بلغ عمرو بن كلثوم أن النعمان

---

(١) ديوان امرىء القيس ، ص ٨٥ ، ب ١.

(٢) ديوان امرىء القيس ، ص ٨٩ ، ب ٢.

(٣) بروكلمان ، جـ ١ ، ص ٦٣ .

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ص ٣٧٥ .

(٥) ديوان طرفة ، ص ١٣ .

ابن المنذر يتوعده ، فدعا كاتباً من العرب ، فكتب اليه : [1] .

ألا أبلغ النعمان عني رسالة فمدُحك حَوْليّ وذمك قارح

متى تلقني في تغلب ابنةوائل وأشياعها ترقى إليك المسالح

ومنه أيضاً القصيدة التي أرسلها لقيط بن يعمر الإيادي [2] الذي كان كاتباً في ديوان كسرى ، حين علم أن كسرى مجمع على غزو إياد ، فكتب إليهم هذه القصيدة ينذرهم بما يتهددهم من خطر ، وهي قصيدة طويلة ، وفي آخرها يقول :

هذا كتابي إليكم والنذير لكم لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

وأكبر دليل على وجودها في الجاهلية بين العرب ، هذه الكتب التي أرسلها النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ثم كتّاب الوحي الذين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأمرهم بكتابة آي القرآن الكريم كما نزل عليه الوحي . كل هذه الأمثلة تدل دلالة قاطعة على أنه كان بين العرب الجاهليين من يعرفون القراءة والكتابة بالعربية .

ولكن وجود الكتابة في زمان أو مكان ، ليس معناه شيوعها ، وانتشارها شأنها شأن كل شيء في الوجود ، فقد تكون موجودة ، ولكنها قليلة أو نادرة وذلك هو ما كان في العصر الجاهلي ؛ كانت الكتابة موجودة ومعروفة لديهم ولكنها كانت بنسبة قليلة قد تصل إلى حد الندرة أحياناً ، فكانت غالبية الشعب لا تعرف القراءة والكتابة وبخاصة بين البدو سكان الصحراء ، ذلك لأن ضرورات الحياة ، ومشاغلها ، والسعي لطلب الرزق والقوت كانت

(١) الأغاني جـ ١١ ص ٥٨ . والحولي ما أتى عليه حول . والقارح من ذي الحافر الذي شق نابه . وهو في السنة الأولى حولي ، وفي الثانية ثني ثم رباع ثم قارح ، والمسالح : القوم ذو السلاح .

(٢) شعر الحروب ، ص ٢٨٥ .

تستغرق كل أوقاتهم أو جلها، فلم يكن لديهم فراغ يجلسون فيه منذ الطفولة ليتعلموا القراءة والكتابة، ثم إن وسائلها من الجلود والعظام وسعف النخل، وقطع الخشب وأمثالها كانت غير ميسرة، ولا تحبب في استعمالها والاهتمام بها لكي يسجلوا بها كل آثارهم. ومن ثم كان هناك نفر يسير من بينهم يعرفون القراءة والكتابة، وكان السواد الأعظم من السكان يجهلها، بدليل أن النبي ﷺ جعل فداء كل أسير يعرف القراءة والكتابة من أسرى بدر أن يعلّم عشرة من الصبيان. وطبيعي أن تكون الحال كذلك بين الأدباء: كثرة منهم أميّون، وقلة منهم يقرءون ويكتبون، ومن هؤلاء: عدي بن زيد العبادي ولقيط بن يعمر الإيادي، وسويد بن صامت الأوسيّ، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، والربيع بن زياد، ولبيد بن ربيعه. وقد وردت الأخبار القاطعة بأن كثيراً منهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة، وأظهر مثل لذلك طرفة والمتلمس اللذين حمل كل منهما صحيفة فيها الأمر بإعدامه، وقد لقي طرفة حتفه بسبب ذلك. وربما كان بعض الأدباء – وبخاصة الشعراء الذين اشتهروا بالحوليات، وأخذهم وقتاً طويلاً في إعداد آثارهم الأدبية، وتحويرها، وتنميقها لتكون في أروع ما يستطيعون، ربما كان هؤلاء – ممن يعرفون القراءة والكتابة، على أنه ليس هناك ما يمنع من أن يقوم الأميّ بالتنميق والتحسين في إطار ذاكرته، أو حيز حافظته، لا على قرطاس أو صحيفة. فذلك يحدث كثيراً، حتى بين الذين يحسنون القراءة والكتابة. ولكن على العموم لم نسمع أن وجد بين الأدباء في الجاهلية من كان يلقي نصه الأدبي من صحيفة، بل كان الجميع، حتى من يعرفون القراءة والكتابة يلقون نتاجهم مشافهة، ومن الذاكرة. ولا شك أن ذلك أدعى للإعجاب والإكبار، فهو يوحي بأن كلامه من فيض الخاطر حين إلقائه، وذلك مشاهد بين ظهرانينا اليوم، فكثير من الخطباء والأدباء يعدون كلماتهم قبل إلقائها، ومعظمهم يسجلها، ويعيد تهذيبها، ويكرر إلقاءها، لتثبت في ذاكرته، فإذا ما وقف بين الناس، خطيباً، أو متحدثاً، أو منشداً، تتابعت العبارات على لسانه في دقة وإحكام، كأنما تنهال عليه البلاغة انهيالاً بالطبيعة والسليقة.

هؤلاء الأدباء الذين كانوا يقرءون ويكتبون يحتمل جداً أنهم قد قاموا بتدوين آثارهم الأدبية أو بعضها على الأقل . لكن مما لا شك فيه أن بعض القبائل قد قامت بجمع آثار أدبائهم وتدوينها ، بدليل ذكر كتب يحمل كل منها اسم قبيلة معينة يضم أخبارها وآثارها ، مثل كتاب قريش وكتاب ثقيف [١] وكتاب تميم ، وغير أولئك ، جاء في المفضليات :

وَجدْنَا في كِتاب بَني تميمٍ «أَحقُّ الخَيلِ بالرَّكْضِ المُعَار»[٢]

ويبدو أن فكرة تدوين الآثار الأدبية قديمة عند العرب ؛ يقول حماد الراوية : « إن ملك الحيرة النعمان بن المنذر المتوفي سنة ٦٠٢ أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنّوج - وهي الكراريس - ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة [٣] .

وبعض الباحثين يشك في هذه الدعوى ، بسبب أن راويها حماد ، وأنه ربما افتعلها ليفضل أهل الكوفة على أهل البصرة في الخلافات التي نشبت بين البلدين [٤] . ولكني أعتقد أن مضمون هذه القصة يغلب عليه أن يكون صحيحاً ، فمن المعقول الذي يكاد يصل إلى حد الواقع المؤكد أن يعتز الملوك والسادة الكبار بما قيل فيهم من مدائح ، وما لهم من آثار ، فيعملوا على تسجيلها وتدوينها لتظل خالدة . وفي ذلك يقول ابن سلام عن كلامه عن الشعر العربي القديم : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مُدِح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان » [٥] . وقد ورد أنه في زمن الوليد بن عبد الملك تولى الخطاط خالد بن أبي الهياج

(١) الأغاني ج ٦ ص ٩٤ .

(٢) المفضليات ، ص ٣٤٤ ، والبيت ينسب إلى بشر بن أبي حازم .

(٣) المزهر ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٤) راجع الأدب العربي لبلاشير ص ١٠٥ .

(٥) طبقات الشعراء ، ص ١٠ .

كتابة المصاحف والشعر والأخبار للخليفة المذكور ، كما أن الخليفة الوليد بن يزيد المولود سنة ٩٠ – ٧٠٨ والمتوفي سنة ١٢٧ – ٧٤٤ أمر بجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها ، وأنسابها ولغاتها . »(١)

وكما كان في الأدباء من يقرأ ويكتب ، كان من الرواة من يعرفون القراءة والكتابة ، فيروى عن أبي عمرو بن العلاء أن كتبه « ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه (٢) » .

وجاء في الأغاني (٣) أن حماداً الراوية قال : « أرسل الوليد بن يزيد إليّ بمائتي دينار ، وأمر يوسف بن عمر بحملي إليه على البريد » . قال : « فقلت : لا يسألني إلا عن طرفيه : قريش وثقيف، فنظرت في كتابي قريش وثقيف» . ويقول صاحب الأغـاني في موضع آخر : « كان حماد الراوية في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه » (٤) .

ويروى أنه في أيام معاوية ألـّف صُحار بن عباس العبدي (من عبدالقيس) كتاباً في الأمثال ، كما ألـّف في زمانه أيضاً عبيد بن شَريـّة كتاباً آخر في الأمثال (٥) ، عدا ما أمر معاوية أن يدوّن ، وينسب إلى عبيد ، من أخبار الماضين ، عندما استحضره معاوية وسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة وافتراق الناس .

كما يروى أن ابن الأعرابي لما بعث إليه أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع غلاماً من غلمانه يسأله المجيء إليه ، عاد إليه الغلام ، فقال : قد سألته ذلك،

---

(١) الفهرست ، ص ٩١ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٢١ .
(٣) أغاني : دار الكتب ٦ - ٩٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٨٧ .
(٥) الفهرست ص ١٣٨ .

فقال لي : عندي قوم من الأعراب فإذا قضيت أربي معهم أتيت . قال الغلام: وما رأيت عنده أحداً إلا أني رأيت بين يديه كتباً ينظر فيهـا ، فينظر في هذا مرة ، وفي هذا مرة [١] .

وقال ابن السكيت عن أبي عمرو الشيباني : مات أبو عمرو الشيباني وله مائة وثماني عشرة سنة ، وكان يكتب بيده إلى أن مات ، وكان ربما استعار مني الكتاب وأنا إذ ذاك صبي آخذ عنه وأكتب من كتبه [٢] .

ويقولون عن اختيـار أبي تمام لديوان الحماسة « إن الثلج عاقه عن السفر وكان في العراق ، فاستضافه أبو الوفاء بن سلمة ، وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بهـا ، وصنف خمسة كتب في الشعر ، منها كتاب الحماسة ، والوحشيات [٣] .

كما يقولون عن اختيار المفضليات أن العباس بن بكار قال للمفضل الضبي[٤] « ما أحسن اختيارك للشعر ! فقال المفضل : والله ما هذا الاختيار لي ، ولكن ابراهيم بن عبدالله استتر عندي (في نحو سنة ١٤٥) فكنت أطوف ، وأعود إليه بالأخبار ، فيأنس ويحدثني ، ثم عرض لي الخروج إلى ضيعتي أياماً فقال لي : اجعل كتبك عندي لأستريح إلى النظر فيها ، فتركت عنده قمطرين فيهما أشعار وأخبار . فلما عدت وجدته قد علّم على هذه الأشعار ، وكان أحفظ الناس للشعر ، فجمعته وأخرجته ، فقال الناس : اختيار المفضل » .

ثم إن التصحيف نفسه يدل على وجود الكتب المؤلفة في الأدب ، كما أن الأخبار قـد وردت بوقوع بعض أئمة الرواة في التصحيف ، وهذا معناه أنهم كانوا بجانب الأخذ مشافهة كانوا يأخذون كذلك من الكتب ، رغبة في ازدياد المعرفة ، وسعة أفق الرواية ، ومما يروى في هذا الشأن ما حدث من الأصمعي

---

(١) المزهر جـ ١ ص ١٦٠ .
(٢) الفهرست ص ١٠٧ .
(٣) التبريزي : شرح الحماسة ص ٤ .
(٤) المزهر ٢ - ٣١٩ .

إذ يقول أبو حاتم السجتاني : « قرأ الأصمعي على أبي عمرو بن العـلاء شعر الحطيئة ، فقرأ قوله :

وغررتني وزعمت أنـ ـك لابن بالصيف تامر

أي كثير اللبن والتمر ، فقرأها : « لاتني بالضيف تأمر » أي لا تتوانى عن ضيفك تأمر بتعجيل القرى له. فقال له أبو عمرو : أنت والله في تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة [١] »

ومن التصحيف الذي وقع فيه ابن الأعرابي أنه قرأ « نخط» بالخاء المعجمة نحط بالحاء المهملة في البيت :

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر كرام وانا لانخط على النمل

إذ كانوا يزعمون أن ابن المجوسي إذا كان من أخته وخط على النملة تبرأ وتنصلح . والنملة : قرحة أو شق في حافر الدابة وقروح في الجنب كالنمل ، وبثرة تخرج في الجسد بالتهاب واحتراق ، ويرم مكانها يسيراً ، ويدب إلى موضع آخر كالنملة .

والشاعر يقصد : أننا لسنا بمجوس ننكح الأخوات . وكانوا يكنون عن المجوسي بقولهم : فلان يخط على النمل . وقد صحف ابن الأعرابي في هذا البيت ، فقال : « وأنا لا نحط على النمل » . وفسره بقوله : نحن قوم أعزاء كرام ننزل أعالي الأمكنة فلا يجرفنا السيل ، ولا نحـط على قرى النمل إذا كانت في البطون . فرد عليه أبو عمرو ذلك .

ومن ذلك ما أخذه الأحمر على المفضل في روايته لقول امريء القيس :

نَمَسُّ بأعراف الجياد اكفَّنا

فقال : « ومـا هو إلا « نَمشّ » أي نمسح ، والمشوش : المنديل .

---

(١) المزهر ٢/٣٥٥ .

وكذلك قول المفضل :

وإذا أَلَمّ خيالها طرقتْ　　　عيني فماء شجونها سَجِم

وإنما هو « طرفت » بالفاء .

وأخذ عليه الأصمعي في قول أوس :

تصمت بالماء تَوْلباً جَذَعا

وإنما هو « جدعا » بدال مكسورة غير معجمة [١] .

وأخبار التصحيف كثيرة ، وقد أُلفت فيه كتب ، منها : التصحيف والتحريف للعسكري ؛ والتنبيه على أغاليط الرواة للبصري .

ولعل الخوف من الوقوع في التصحيف هو الذي جعل الرواة يعتمدون اعتماداً كلياً على الأخذ مشافهة ، ويتحاشون الأخذ مباشرة من الكتب لأنه عرضة للتحريف خصوصاً قبل حدوث النقط والشكل . ومن ثم نجد الرواة – حتى من كانوا ينقلون عن كتب – يذكرون روايتهم بسند يوحي بأنهم أخذوها مشافهة وسماعاً ، وعدّوا النقل من الكتب عيباً ؛ قال ابن سلام في معرض حديثه عن الشعر القديم : « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن ينقل من صحيفة ولا يروي عن صحفي [٢] . »

هذا طرف من الأخبار التي تؤيد وجود الكتب التي دوّن فيها الأدب الجاهلي، وكثير من هذه الأخبار التي سقناها يدل على أن تدوين الآثار الأدبية كان موجوداً قبل الإسلام ، إذ أن بعضها يشير إلى حدوثه في الجاهلية كتلك الروايات التي تحكى : أمر النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ بنسخ أشعار

---

(١) العمدة ؛ ٢/٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٥ .

العرب في الطنوج ؛ ورسالة عمرو بن كلثوم إلى النعمان بن المنـــذر ، ورسالة لقيط الإيادي إلى قومه . ولا شك أن الأدباء الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة قد دونوا – بحكم الطبيعة – آثارهم الأدبية أو بعضها .

ومن ثم فتدوين الآثار الأدبية الجاهلية قديم ، وحدث قبل ظهور الإسلام ولكننا لا نعرف بالضبط متى بدأ ، ولا أي الآثار الأدبية كان أسبق في التدوين . ولكن مما لا شك فيه أن حركة التدوين كانت تتقدم مع الزمن شيئاً فشيئاً ، فبعد أن كانت قليلة أو في حدود ضيقة في العصر الجاهـــلي ، أخذت تنمو وتطرد في الإزدياد بعد ظهور الإسلام، واتساع الدولة الإسلامية، واختلاط العرب بغيرهم ، ووقوفهم على مـــا لدى غيرهم من علوم ومعارف ومدنية وتقدم ، فهذه الظروف كلها أوجدت ميادين فسيحة للمجال الفكري والعلمي عند العرب، فاستحدثت علوم كثيرة كالتفسير والحديث والفقه واللغة والنحو ، والبلاغة . وهذه كلها تحتاج إلى الأدب ، ولهذا لا يخلو كتاب ألف في أحد هذه العلوم من آثار أدبية جاهلية ، إذ أن جميع هذه العلوم تعتمد في تقرير أسسها ومبادئها على كلام العرب القدامى الفصيح ، ولا شك أنه بسبب ذلك دوّن كثير من الأدب الجاهلي في ثنايا هذه العلوم ، وكلما تقدم الزمن ، اتسعت آفاق الباحثين ، فزاد تبعاً لذلك التأليف في هـــذه النواحي ، ثم إنه مما لا شك فيه كذلك ، أن الأدب القديم ، وقد احتل هذه المكانة من الاهتمام العظيم بين الباحثين المسلمين ، فوق مـــا كان له من الأهمية العظمى في نفوس العرب جميعاً قبل الإسلام ، لا شك أنه في هذه الظروف التي أشرنا إليها بعد ظهور الإسلام ، قد لقى من التتبع والتسجيل مع تقدم الزمن الشيء الكثير، فرأينا بعض العلماء والباحثين يتخصصون في جمعه وتدوينه ، وقد أشرنا إلى كثير من ذلك في حديثنا عن الرواة الذين ذكرنا نبذاً يسيرة عن بعضهم فيما سبق . وممـــا بيناه هناك يتبين أن حركة التدوين كانت في نشاط متزايد خلال القرنين الثاني والثالث وتدل الأخبار الموثوق بها على أن كثيراً من هؤلاء الرواة قد عنوا بجمع الأدب الجاهلي وتدوينه ، كل منهم بقدر ما استطاع ،

وأن اللاحق منهم كان يحاول أن يزيد عن السابق في هذا الميدان . وبعضهم كانت له تعقيبات وآراء في السابقين وأعمالهم الأدبية ، كأنما كانوا يتبارون في الجمع والتدوين والدراسة . ونظرة إلى ما ذكرناه عن الرواة ومجهود كل منهم العلمي يتبين ذلك بوضوح ، فهناك مثلاً أبو عمر الشيباني المتوفي سنة ٢١٣ يروى عنه أنه جمع أشعار القبائل ، وكانت نيفاً وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل قبيلة كتب مصحفاً ، هذا بالإضافة إلى الدواوين التي عملها مثل دواوين : امرىء القيس ، والحطيئة ، ولبيد ، ودريد بن الصمة ، والأعشى ؛ وهذا الأصمعي المتوفي سنة ٢١٥ ، يقال عنه إنه جمع الشعر المبعثر في دواوين ومجموعات ، منها الأصمعيات المشهورة ، كما عمل دواوين امريء القيس ، والنابغة ، والحطيئة ولبيد ، والأعشى ، وبشر بن أبي خازم ، والمهلهل ، والمسيب بن علس ، والمتلمس ، وهناك ابن الأعرابي المتوفي سنة ٢٢٥ ، وقد قال عنه أبو العباس : قد أملى على الناس ما يحمل على أجمال ، ثم ابن السكيت المتوفي سنة ٢٤٥ الذي يقال عنه إنه جمع دواوين امريء القيس ، والحطيئة ، ولبيد ، والأعشى ، وبشر بن أبي خازم ، والمهلهل ، والخنساء ؛ وهناك السكري المتوفي سنة ٢٧٥ وقد قام بعمل دواوين امريء القيس ، وزهير ، والنابغتين ، والحطيئة ، ولبيد ، ودريد بن الصمة ، والأعشى . وبشر بن أبي خازم ، والمهلهل ، والمتلمس ، والمسيب ، وعدي بن زيد ، والخنساء ، وقيس بن الخطيم ، وتميم بن مقبل ، وأشعار اللصوص ، وأشعار هذيل ، وهدبة بن خشرم ، ومزاحم العقيلي ، والأخطل ، وغيرهم ؛ ثم أبو الفرج الأصبهاني ، المتوفي سنة ٣٥٧ قد كتب عشرات الكتب ، منها كتاب التعديل والانتصاف في أخبار القبائل وأنسابها ، وكتاب الأخبار والنوادر ، وكتاب مجموع الآثار والأخبار ، وكتاب أيام العرب ، وكتاب الأغاني الذي طبقت شهرته الآفاق ، وهو كتاب يعتبر موسوعة عربية ضخمة ، وحكي عن الصاحب بن عباد أنه كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب ثلاثين جملاً ، من الكتب ، فلما وصل إليه كتاب الأغاني استغنى به عنها ، وقال عنه الصاحب بن عباد إنه « للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة وزيادة ، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة ، وللبطل

رجلة وشجاعة ، وللمتظرف رياضة وصناعة ، وللملك طيبة ولذاذة ، ولقد اشتملت خزانتي على مائة ألف وسبعة عشر ألف مجلد ما فيها سميري غيره ، ولا راقني منها سواه » .

ومما سبق يتبين أن التدوين كان : إما إملاء من الأستاذ على التلاميذ أو الكتبة ، كما حدث من ابن الأعرابي الذي قيل عنه إنه أملى ما يحمل على أجمال؛ وإما كتابة بخط التلميذ بعد السماع من الأستاذ ، أو النقل من الكتب، كما قال ابن السكيت عن نفسه إنه كان يأخذ من أبي عمرو الشيباني ويكتب من كتبه ؛ وإما كتابة بخط الأستاذ نفسه ، كما كان من أبي عمرو الشيباني .

ويتضح كذلك أنه منذ القرن الثاني الهجري وجدت نهضة عظيمة في الجمع والتدوين للنصوص الأدبية الجاهلية ، « ولم يبدأ جمع الشعر العربي إلا في عصر الأمويين ، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا في عصر العباسيين » [1] .

ولا شك أن مما ساعد على وجود هذه النهضة العظيمة في التدوين شيوع عادة الكتابة العربية وسهولتها في أواخر القرن الأول للهجرة [2] ، حوالي سنة ٧٠٠ م بعد أن كانت نادرة، وأدواتها صعبة غيرة ميسرة .

وقد كانت هناك عوامل كثيرة دفعت القوم إلى جمع الأدب الجاهلي وتدوينه ، فقد كانت العصبية في الجاهلية هي التي تدفع الناس الى حفظ آثارهم الأدبية، كل قبيلة تعنى بجمع نصوص أدبائها وتعمل على نشره وإذاعته، لأنه سجل مفاخرهم وأمجادهم ، وضياعه فيه انهيار لمكانة القبيلة ، وضياع لشرفها ؛ وهذه الناحية وإن اختفت في عصر صدر الإسلام، إبان ظهور الدعوة الجديدة التي حرمت التباهي بالأحساب والأنساب والتحيز للأقارب والأصحاب ، بسبب العصبية الجاهلية ، فإنها قد عادت بوضوح في أيام الدولة الأموية ، بل إن الأمويين أنفسهم كثيراً ما كانوا يعملون على إثارتها ، وإلهاب

---

(١) بروكلمان ، ج ١ ص ٦٣

(٢) الشهاب الراصد ص ٣٠٢ .

ثار العصبية بين القبائل، لكي يلهو الناس بها عن التفكير في الحكم والسياسة ، فعادت نارها وقد تأججت بشكل ظاهر ، وكان لهذا أثره في إنشاء الأدب إذ ذاك وفي جمع الشعر القبلي القديم وتدوينه ، لتتباهى كل قبيلة بما كان لها في الماضي من عوامل الزهو والافتخار التي كان الأدب أهم أسسها وأركانها .

ثم إن إنشاء الدولة ، وما يتبعه من تنظيمات سياسية وإدارية واجتماعية وتخصيص رواتب وأعطيات معينة لكل فئة ممن يقومون بالأعمال ، أو يتولون مناصب خاصة ، كل ذلك ، جعل العرب يهتمون بالأنساب ، ومعرفة الأصول والفروع من الآباء والجدود ، والأبناء والحفدة ، ومن ثم رجعوا إلى الشعر القديم الذي قلما تخلو قصيدة منه من ذكر الأنساب ، ومن هنا حوت الكتب التي ألفت في الأنساب كثيراً من القصائد والمقطوعات الشعرية والقطع الأدبية ، وأشهر من فعل ذلك في زمن معاوية دَغْفَل وصُحَار العبدي ، ومن تحقيقات النسابين جمعت مقطوعات شعرية كثيرة تحوي إشارات إلى منشأ محالفات القبائل والأرهاط [1] .

والخلافات السياسية التي حدثت في الدولة الإسلامية منذ نشب النزاع بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان ، كانت سبباً في حدوث انقسام بين المسلمين ، فكانوا شيعاً وأحزاباً ، كل يناصر فريقاً معيناً، وحدثت من جراء ذلك معارك دامية ؛ كل هذا دعا كل فريق إلى الحديث عن نفسه في الماضي والحاضر ، مما كان له كذلك أثر في جمع الأدب القديم وتدوينه .

واتساع الدولة الإسلامية ، وامتداد حكم العرب إلى أقاليم كثيرة خارج شبه الجزيرة العربية في مصر وسورية والعراق وفارس ، واختلاطهم بسكان هذه البلاد ، كل هذا كان له أثر في الاهتمام بالأدب القديم ، ذلك أن العرب الغالبين ، كانوا بحكم عربيتهم الخالصة ، يعدونه سجل مفاخرهم وأمجادهم ،

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ، ص ١٠٢ .

يتغنون بها أمام هـذه الشعوب المختلفة ، كأنما كانوا يريدون أن تعلم هذه الشعوب ما كان لأسلاف حاكميهم من أمجاد خالدة في شتى الميادين ، بجـانب ما يجدون في إنشاده وترديده من متعة ولذة. ولما رأى أهل هذه البلاد حبّ السادة الحاكمين للأدب القديم ، وأنهم (أي الموالى) في حاجة إلى تعلم اللغة العربية ، والتفوق فيها ، أقبـلوا هم كذلك على الأدب العربي يحفظونـه ، ويتدارسونه ، ويروونه حتى برعوا فيه ، وقد مر بنا عـدد كبير من هؤلاء الموالي الذين كانوا من الرواة الأفذاذ ، وكأنهم كانوا بعملهم هذا يرمون إلى إتقان اللغة العربية وآدابها ، حفظاً ، وفهماً ، ودراسة ، فكان منـهم العلماء الثقات ، الذين يُرجـع اليهم كلما أشكل أمر ، وبجانب هذا كأنما كانوا يرومون أن يكونوا محدّثين ممتـازين ، يشنفون الآذان ، ويغذون القلوب والأرواح ، كلما تاقت النفـوس إلى البهجة والترويح ، فكان منهم الحفظة الأذكياء ، الذين يبلّون الصدى ، ويشفون الغليل .

ومما كان له أثر كبير في رواج جمع الأدب الجاهلي وتدوينـه ، ما كان من الخلفاء والولاة والحكام من ميول أدبية ممتازة ، فقد كان فيهم حب شديد للأدب ملك عليهم أفئدتهم ، فكان الخليفة كثيراً ما يتوق الى سماع قصيدة معينة ، أو قطعة أدبية ، فيسأل عنها . وقد فعل هـذا رسول الله ﷺ ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً ، وكذلك كان الخلفـاء الراشدون وبخاصة عمر بن الخطاب ، وفي عصر الدولة الأموية اشتد اهتمام الخلفاء بالأدب ، فكثيراً مـا كانوا يرسلون في طلب عالم أو راوية لسؤاله عن خـبر أو قصيدة شعرية . وكتب الأدب والتاريخ مملوءة بذكر الأمثلة الكثيرة في هذا الشأن . وقـد كانت الفرحة تعم نفوسهم ، والبشر يعلو وجوههم حينما يجدون الجواب الشافي عند من يسألونه ، فتنفرج أساريرهم ، وتنبسط أيديهـم عن واسع السخاء ، وكريم العطاء . ومن هنا تسابق الرواة في الحفظ والجمع والتدوين ، حبـاً في الشهرة ، وطمعاً في الغنى والثراء . وهذا ولا شك كان له أكبر الأثر في شحذ الهمم للبحث والتحصيل ، فجمع بذلك شيء كثير من الأدب الجاهلي ، وربما

كانت الرغبة في حسن الصيت وكثرة الغنى، سبباً في دفع بعض الرواة إلى الاختلاق ، كما رأينا في سيرة بعضهم ، ولكن المتنافسين والعلماء والنقاد كانوا لأمثال هؤلاء بالمرصاد ، وقد أوردنا أمثلة لذلك فيما سبق .

وتدوين النصوص الأدبية بالصورة التي وصلت الينا بها الآثار الجاهلية تبدو فيها ظواهر كثيرة ترجع إلى عوامل شخصية أو نفسية أو عقلية أو وجهات نظر مختلفة لدى الأدباء أنفسهم ، أو الرواة أو القائمين بالتدوين .

فمما لا شك فيه أن كل عملية من الحفظ والجمع والتدوين تخضع خضوعاً كبيراً للذوق الشخصي ، فكل فرد له ميول خاصة ، وأهواء معينة ، فهذا يميل إلى نوع ، وذاك إلى آخر ، وهكذا ، بحكم اختلاف الأشخاص في الشخصيات ، والميول ، والرغبات ، ومن ثم نجد الرواة قد يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً في الكم والكيف ، فقد يميل بعضهم إلى حفظ شيء معين ، وبعضهم يميل إلى شيء آخر ، وإن اتحدوا في النوع فقد يختلفون في الكم ، فهذا يحب حفظ القطع الطويلة وذاك يحب المقطوعات القصيرة . ومع أن العرب كانوا يحرصون على الآثار الأدبية حرصهم على أعز الأشياء، لأنهم كانوا يعدونها من أهم الاشياء الضرورية لهم ، فإننا مع ذلك نرى بعض القصائد فيها اختلاف بين الروايات بعضها وبعض ، مما يدل على أن الرواة لم يكونوا يتفقون في حفظ القصائد ، فنجد مثلاً قصيدة تروى طويلة في بعض الروايات ، وهي نفسها تروى في رواية أخرى قصيرة ، وقد تجيء في رواية ثالثة أقصر من الأوليين ، ويعلل بعضهم ذلك بأن النفس يبقى فيها ما ترى أنه أوثق اتصالاً بحالتها القائمة ، وأصدق تعبيراً عنها ، أما بقية القصيدة مما لا يمت إلى نفس الذي يحفظها بسبب ، فليست في حاجة إليه ، ولذلك يكون مثل هذا الجزء أقرب إلى أن يضيع ويذهب أو ينسى من الذاكرة .

وإن النفوس تتباين ، والبواعث على قراءة الأدب وحفظه وتدوينه مثل البواعث على إنشائه وقوله ، تختلف باختلاف الأشخاص ، وباختلاف الأحوال للشخص الواحد، ومعنى هذا أن المحفوظ من قصيدة مثلاً قد يختلف باختلاف

حالات النفوس ، وباختلاف الأفراد ، وهذا قد يؤدي الى أن يتفرق النص الأدبي في عدد من الناس ، وقد يذهب من القصيدة أكثرها ؛ ولذلك لا تبقى كلها مجتمعة متصلة الأجزاء ، وإنما هي أشلاء متناثرة ، تتلقفها أفواه حافظة ، ويذهب كل بنصيبه حيث يحلو له ، فإذا جاء بعد ذلك دور الجمع والدراسة ، كان في لمّ شتاتها ، وترتيب أجزائها ما لا يخفى من عسر ، فضلاً عما قد يصيبها به ذلك التفرق من نقص واضطراب واختلاط وتداخل مع غيرها من القصائد التي تتفق معها في الوزن والقافية ، وقد تكون القصيدة أو القصائد الأخرى لصاحب القصيدة نفسه ، وقد تكون لغيره .

ولا شك أن تدوين ما لم يكن مدوناً من النصوص كان يتوقف على ما في ذواكر الحفاظ والرواة منه ، والاعتماد على الذاكرة ، مع مرور الزمن ، وكثرة المحفوظ ، يؤدي أحياناً إلى حدوث اختلاف بين الرواة في ألفاظ النص الأدبي الواحد . والباحثون يرجعون ذلك إلى أحد الاحتمالات الآتية :

أن الراوي قد يعمد إلى البيت نطق به الشاعر على لغته ، فيغير منه الكلمة إلى ما يوافق لغته هو ، ما دام ذلك لا يغير من جوهر المعنى شيئاً .

أو أن الراوي قد تسقط منه بعض الكلمات على وجه النسيان ، فيحاول أن يضع مكانها بديلاً عنها ، وما كانوا يرون في ذلك من بأس ما دام الغرض الذي يرمي اليه الشاعر قائماً ، والمعنى الذي يقصده لم يتغير ، والراوي عندما يقدم على ذلك إنما كان يستعمل ألفاظاً فصيحة مستعملة في التعبير الأدبي ؛ ويبدو أن ذلك كان شائعاً ومعروفاً بين الشعراء والرواة ، ولذلك نجد بعض الشعراء يطلب كتابة شعره ، ولا يتركه للحفظ فقط ، كما يروى عن ذي الرمة إذ قال « لموسى بن عمرو : اكتب شعري ، فالكتاب أعجب إلي من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة التي قد تعب في طلبها ليلة ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ، ولا يبدل كلاماً بكلام [1] » .

---

(١) العمدة : ٢ - ٢٥٠ .

أو أن الشاعر ، أو الأديب نفسه قد يكون ألقى نصه الأدبي على وجهين أو وجوه مختلفة في أوقات عدة ، وقد يبدو له أن كلمة أليق ، أو أحسن ، أو تسقط من حافظته الكلمة التي أنشأ عليها النص في بادىء الأمر ، ثم يتصادف أن يحملها عنه في كل مرة راوٍ أو رواة مختلفون ، فيحمل كل منهم عنه ما سمعه منه ، ويدّعي صادقاً أن ذلك سمعه مشافهة من الأديب نفسه .

ويدّعي بعض العلماء أن الرواة كانوا أحياناً يقومون بتغيير بعض الألفاظ إذا رأوا فيما ورد عن الأديب خطأ كما يروى في بيت امرىء القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقب　　إثماً من الله ولا واغـــل

فقالوا : حذف الإعراب ، وليس بالحسن ، وذهبوا إلى أنه يريد « أشربُ » فحذف الضمة ، ولذلك غيروه ، فجعله بعضهم ، « فاليـــوم فاشربْ » ، بصيغة الأمر [1] .

وفي قول عدي بن زيد :

ففاجأها وقد جمعت جموعاً　　على أبواب حصن مُصْلتينا

فقـــدّدت الأديم لراهشيه　　وأُلْفَى قولها كذباً ومَيْنا

فقالوا إن في قوله « مينا » سناد ، ولذلك أراد المفضل الضبي أن يفر من هذا السناد فغيرها ، وجعلها « كذباً مبيناً » [2] .

فكأن الرواة كانوا يقومون بالإصلاح والتهذيب ، بجانب مهمتهم الأساسية التي هي الحفظ والنشر . وإذا كان الأمر كذلـك فيبدو أن الذي دفعهم إلى هذا هو حرصهم على صحة اللغة وصفائها .

وهناك ظاهرة واضحة في اختـلاف الرواة في ترتيب أبيـــات القصائد

---

(١) الموشح للمرزباني ، ص ٨٥ ، وزعم قوم أن الروايـــة الصحيحة : « اليوم أسْقَى » ، وبذلك كان المبرد يقول . (العمدة : ٢ - ٢٧٤) .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

الشعرية فرواية تحكيها بشكل معين ، في حين أن أخرى تحكيها بشكل آخر ، من حيث تقديم بعض الأبيات أو تأخيرها . وهذه الظاهرة ليس فيها شيء على الإطلاق ، فلا تدل على تزوير ولا تحريف ، لأنها كانت تروى عن الحافظة . والذاكرة عرضة لذلك دائماً ، وبخاصة إذا كان المحفوظ فيها كثيراً، وقد يكون هناك الشيء الكثير من النوع الواحد ولا ريب في أن مما ساعد على حدوث ذلك بشكل ملموس استقلال البيت الواحد ؛ ووحدته التي قدسها الشاعر العربي والتزمها ، وجعل الخروج عنها عيباً في الشعر .

وفي بعض الأحيان نجد البيت أو البيتين أو الثلاثة تنسب لقائل مجهول ، ويحدث ذلك غالباً في الشواهد الشعرية ،مما دعا الباحثين إلى الاعتقاد باختلاقها لتبرير رأي ، وفي كثير من هذه الحالات يحاول الراوي أن يذكر أن القائل رجل أو امرأة ، أو من قبيلة كذا .

وفي نسبة الأثر إلى صاحبه ، قد يحدث خلط واضطراب ، بسبب تشابه الأسماء ، فهناك مثلاً أربعة أدباء كل منهم اسمه كثير ، وعشرة كل منهم امرؤ القيس ، وثمانية باسم النابغة ، وستة عشر باسم الأعشى ، وقد ألفت في ذلك كتب عديدة ، منها : معجم الشعراء للمرزباني ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ، وقد يحدث هذا اللبس بين أدباء القبيلة الواحدة مثل هذيل ، إذ فيها عشرات من الشعراء فإذا قيل الهذلي بدون تعيين، لم يعرف أيهم المقصود.

ولذلك كثيراً ما كانوا يضيفون الشعر المجهول النسب إلى شاعر اشتهر بقوله في الغرض الذي فيه النص ، وفي ذلك يقول الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل ، قيل في ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذا سبيله قيل في لبنى إلا نسبوه الى قيس بن ذريح [1] ، كما أنهم نسبوا الى عنترة العبسي كل شعر حوى اسم عبلة ».

هذه هي أهم الظواهر التي نراها في تدوين الأدب الجاهلي ، ولكن مهما يكن ، فإن الرواة قد قاموا بمهمة جليلة إذ حفظوا لنا هذا التراث الرائع .

---

(١) الأغاني ، جـ ٢ ص ٨ .

والرواية الشفهية – وان ضاع بسببها شيء كثير ، بسبب كثرة المحفوظ فيها وتزاحمه ، مع تقادم الزمن ، واختلاف الميول والأهواء – فقد كان لها الفضل الأكبر في تنقل هذا التراث من جيل إلى جيل ، صحيحاً سليماً في النطق والأداء والتلقي ، بعيداً عن التحريف والتصحيف ، كما أن الرواة الذين قاموا بتدوين هذا التراث قد أدوا للأجيال التالية لهم وللأدب نفسه خدمات عظيمة الشأن ، فقد حفظوا هذه الكنوز من الضياع وسط تيارات الحياة المضطرمة ، ومشاغلها المعقدة المتشابكة التي تلت أيام هؤلاء الحفظة الأفذاذ ، فسجلوها في بطون الكتب ، فظلت خالدة ، وما بقي منها إلى اليوم يعتبر من أمهات المراجع للأدباء والعلماء والباحثين . وإنه لما يؤسفنا أشد الأسف أن كثيراً مما دوّنه هؤلاء الرواة والعلماء في عصر التدوين قد ضاع بسبب عوادي الزمن والاضطرابات السياسية ونهب المراكز الحضرية على يد المغول . ومما بقي لنا من آثار العلماء الأجلاء نجد أنهم بذلوا مجهوداً ضخماً في الجمع والتدوين ، والدرس والبحث ، وتمييز الصحيح من الزائف ، فأبعدوا النصوص المشبوهة المتهمة ، ونصّوا عليها ، وأوصلوا الينا – بفضل جهودهم المشكورة – قدراً عظيماً من الآثار الأدبية الجاهلية الصحيحة ، التي لا يرقى اليها الشك . والكتب الأدبية تفيض بالأمثلة لكل هذا ، وهي تشهد لهم بالجهد الكبير ، والفضل العظيم .

الفصل الخامس

مصادر الأدب الجاهلي

تتكون مصادر الأدب الجاهلي التي بين أيدينا الآن مما بقي لنا من آثار العلماء والأدباء والرواة والباحثين الذين تحدثنا عنهم في الفصل السابق ومن أتى بعدهم من المؤلفين . ولم يحظ النثر الجاهلي حتى الآن بجمعه في مصدر واحد ، أو كتاب خاص [١] . فما جاء إلينا منه مبعثر هنا وهناك في كتب الأدب والقصص والتاريخ ، مثل العقد الفريد لابن عبد ربه ، والكامل للمبرد ، والحيوان ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والأغاني للأصبهاني، والآمالي لأبي علي القالي ، وكتب الأمثال ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والحيوان للجاحظ ، وديوان المعاني للعسكري ، والمزهر للسيوطي ، والمخصص لابن سيدة ، وشروح دواوين الشعراء، وشرح النقائض لأبي عبيدة، وكتب السيرة النبوية، وتاريخ الطبري ، وابن الأثير ، والمسعودي ، وكتب المعاجم . ويأتي النص النثري في كل من هذه الكتب عندما تأتي المناسبة التي تستدعيه ، وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل إن شاء الله في الجزء الخاص بالنثر الجاهلي من هذا البحث .

أما الشعر فقد نال عناية عظيمة ، فجمع في كتب خاصة ، وحظي كثير

(١) جمع بعضاً من الخطب والرسائل الأستاذ أحمد زكي صفوت في بداية الجزأين الأولين من مجموعتيه : جمهرة خطب العرب ، وجمهرة رسائل العرب .

منها بالبحث والدراسة والتحقيق والتعليق ، هذا بالإضافة إلى وجود كثير من الأشعار الجاهلية في كتب التفسير واللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ والسير. ومن هذه الكتب الخاصة والعامة تتكون مصادر الشعر الجاهلي. ومصادره الخاصة وردت إلينا إمـــا في صورة مجموعات ومختارات ، وإما في صورة دواوين: لقبائل أو لأفراد: لكل شاعر ديوان خاص وأهم **المجموعـــات والمختارات** ما يأتي: —

١ — المعلقات:

هذا اسم تقليدي لعدد من القصائد الطوال ، وقد اختلف في عددهـــا ، وفي أصحابها ؛ وأكثر الروايات على أنها سبع: لامرىء القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعـة ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة ابن شداد العبسي ، والحـارث بن حلزة. ولكن المفضل الضبي يضع مكان الأخيرين النابغة الذبياني ، والأعشى ، وقال: من زعم أن في السبع الـتي تسمى السموط لأحد غير هؤلاء فقـد أبطل [١]. وقد سار على رأي المفضل هـــذا صاحب جمهرة أشعار العرب. والرأي الأول صاحبُه في الأصل حماد الراوية ، ويرى نولدكه أن السبب الذي حمل حماداً على ضم الحارث بن حلزة إلى مجموعته [٢] ». أن حماداً كان مولى لقبيلة بكر بن وائل ، وكانت هـذه القبيلة في عداء دائم مع قبيلة تغلب زمن الجاهلية ، ولمـا كانت قصيدة عمرو ابن كلثوم قد لقيت شهرة واسعة لتمجيدها قبيلة تغلب ، ولانتشار هذه القبيلة في البلاد لم يسع حماداً أن يعدل عن اختيارها ، ولكنه اضطر إلى التفكير في وضع قصيدة أخرى إلى جانبها تشيد بمجد سادته ، وهم قبيلة بكر بن وائل ، وهكذا اختار قصيدة سليل هذه القبيلة ، وهو الحارث بن حلزة.

وهناك بعض الروايات تجمع بين الرأيين فتعد المعلقات تسعاً ، بإضافـــة

---

(١) العمدة: ١ - ٩٦.

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ص ٦٧.

القصيدتين اللتين اختارهما المفضل إلى اختيارات حماد . وأما التبريزي فقد جعل المعلقات عشراً بإضافة قصيدة لعبيد بن الأبرص .

وكما اختُلف في عددها وأصحابها ، اختُلف في اسمها ، فوردت لها أسماء كثيرة ، هي : المعلقات السبع ، والسبع الطوال ، والقصائد السبع الطوال الجاهليات ، والسبعيات ، والمعلقات العشر ، والسموط ، والمشهورات ، والمشهورة ، والمذهبات . ولكن الاسم المشهور لها هو : المعلقات .

ويرجع اختيارها في الأصل إلى حماد الراوية ، فسماها « السُّموط » جمع سمط وهو العقد ، وأراد حماد من هذه التسمية الدلالة على نفاسة ما اختاره والافتخار بخالص اختياره [1] ، وقد اختلف في سبب تسميتها بالمعلقات .

فقيل سميت بذلك الاسم لأن العرب اختارتها من بين أشعارها ، لما رأوا من عظم شأنها ، ورفعة قدرها : فأكبروها ، وعظموها ، حتى بلغ من شدّة تعظيمهم لها أنهم كتبوها بالذهب على الحرير ، ثم علقوها على أركان الكعبة ، وقيل بأستارها . يقول ابن عبد ربه [2] : « لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها بين أستار الكعبة ، فمنه يقال: مذهّبة امرىء القيس ، ومذهّبة زهير، والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات».

ويقول ابن رشيق (٣٩٠ – ٤٦٣) في كتابه العمدة [3] : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال : مذهّبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غيرُ واحد من العلماء » .

وابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ يقول في مقدمته [4] : « حتى انتهوا إلى

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان جـ ١ ص ٦٧ .
(٢) العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٦٩ - (وعاش ابن عبد ربه ٢٤٦ – ٣٢٨) .
(٣) جـ ١ ص ٩٦ .
(٤) ص ٥٣٢ .

المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بن حجر ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، من أصحاب المعلقات السبع وغيرهم ، فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك ، بقدمه ، وعصبيته ، ومكانه في مضر ، على قيل في سبب تسميتها بالمعلقات » .

وقال البغدادي [1] (١٠٣٩ – ١٠٩٣) : « ومعنى المعلقة أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسنوه روي ، وكان فخراً لقائله ، وعلق على ركن من أركان الكعبة ، حتى ينظر إليه ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به ، وأول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس ، وبعده الشعراء » . ثم قال : « وروي أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار ، فسماها المعلقات . »

وظاهر من هذه الآراء أنهم يعللون سبب تسميتها بالمعلقات بأن ذلك من تعليقها بالكعبة ، وهم يؤيدون تفسيرهم ذلك بأن تعليق الأشياء الهامة على الكعبة كان من دأب العرب ، جاهلية وإسلاماً ، فقد علّقت قريش بها الصحيفة التي تآمرت فيها على قطيعة بني هاشم ، وعلّق بها الرشيد عهده بالخلافة للأمين والمأمون ، ولما كانت هذه القصائد موضع الاستحسان والإعجاب من العرب ، فقد نالت الاهتمام والإكبار منهم ، فعلقوها على الكعبة .

وهناك آراء تنكر خبر تعليقها بالكعبة ، وتعتقد عدم صحته ، وقالوا إنما سميت معلقات لعلوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ومرءوسيهم ورؤسائهم ، وذلك لشدة عنايتهم بها ، فقد كانت مشهورة وتجري بكثرة على أفواه الرواة وأسماع الناس .

---

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ٦١ طبعة بولاق .

وقيل إنما سميت بالمعلقات لا لتعليقها بالكعبة ، وإنما لأن « الملك [(١)] كان إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول: «علقوا لنا هذه » لتكون في خزانته» ، وأقدم من أنكر خبر التعليق على الكعبة أبو جعفر النحاس المتوفي سنة ٣٣٨هـ، فقد قال في شرحه للمعلقات : «وقيل إن العرب كان أكثرهم يجتمعون بعكاظ ويتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : « علقوها وأثبتوها في خزانتي » . ويقول أبو جعفر النحاس أيضاً : « إن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال،ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة»[(٢)].

ويعتمد من يرون إنكار خبر التعليق بالكعبة ، على أن من يوثق بروايتهم وعلمهم لم يشيروا إلى هذا التعليق ، ولا سموا تلك القصائد بهذا الاسم ، كالجاحظ والمبرد وصاحب الأغاني والزوزني والتبريزي . ويقولون إن الأسماء التي وردت بها تلك القصائد فيما لدينا من كتب الأدب واللغة إلى آخر القرن الثالث هي : السموط ، والسبع الطوال ، والسبعيات . أما التسمية الأولى فهي تسمية حماد ، وأما الثانية فعن المفضل ، وأما الثالثة فهي للباقلاني في إعجاز القرآن .

وأصحاب هذا الرأي يؤيدون إنكار تعليق هذه القصائد على الكعبة بأن الكعبة حين تهدمت وجددت على عهد رسول الله ﷺ لم يرد ذكر ولا أثر لتعليق هذه القصائد في الكعبة . ولكن من يرون أنها علقت على الكعبة يردون عليهم بأن تعليقها كان لفترة غير طويلة لا تعدو الموسم الذي قيلت فيه.

ومن الذين ينكرون خبر تعليقها على الكعبة من يقول إن تسميتها بالمعلقات لم يكن لتعليقها على الكعبة ، وإنما لأن العرب في الجاهلية كانت إذا كتبت شيئاً في الرقاع المستطيلة من الحرير أو الجلد أو نحوهما ، فخافت عليه قرض فأرة أو تآكل عثة ، طوته على عود أو خشبة ، وعلقته في جدار البيت ، أو الخيمة ، بعيداً عن الأرض ، لحرصهم عليه .

---

(١) العمدة : ١/٩٦ .
(٢) إرشاد الأريب لياقوت : حماد .

فمن ينكر خبر تعليقهـا بالكعبة يرى أن سبب تسميتها بذلك يرجع إلى علوقها بالأذهان لأهميتها ، أو لأمر الملك بتعلقها أي إثباتها في خزائنه، أو إلى تعليقها على جدار المنزل ، خوفاً عليها .

ومنهم من يرى أنها سميت بذلك لنفاستها ، أخذاً من العِلق بمعنى النفيس الثمين من الأشياء والحلى والثياب [1] .

وقد ورد التعليق بمعنى الكـَلـَف والعشق ، كما في قول عنترة في معلقته :

عُلّقتُها عَرَضاً ، وأقتل قومَها زَعماً لعَمْرُ أبيك ليس بمزعمِ [2]

فعلقتها هنا تفعيل من العلق والعلاقة وهمـا العشق والهوى ، يقال علق فلان بفلانة إذ كلف بها . فلعل هذه القصائد سميت بالمعلقات لكلف الناس بها وحبهم لها ، فكأنهم عشقوها ، وتعلقوا بها .

وعلى كل ، فهذا الخلاف ليس إلا في التسمية ، والجميع يتفقون على أصالتها والثقة بها ، وعلو درجتها الفنية ، ولذلك كانت موضع اهتمام الأدباء في جميع العصور ، فحظيت بالدرس والبحث والشرح ، لا بين العرب وحدهم بل اهتم بها الأدباء غير العرب كذلك . وقد أورد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي [3] سجلاً لهذه الدراسات والشروح العربية والأجنبية ، من بينهـا : شروح : أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، المتوفي سنة ٣٢٧/٩٣٩ ، وأحمد ابن محمد النحاس المتوفي سنة ٣٣٨/٩٥٠ ، والحسين بن أحمد الزوزني المتوفي سنة ٤٨٦/١٠٩٣ ؛ ويحيى بن عـلي التبريزي المتوفي سنة ٥٠٢/١١٠٩ ، ودراسات ونشر كل من . أرنولد ، ليـبزج ١٨٥٠ ، وليدي بلنت ، ومستر بلنت ، ونولدكه، وجايجر .

---

(١) راجع رأي Lyall في تاريخ الأدب العربي لبلاشير ١٥٧ .

(٢) ديوان عنترة ص ١٦ : بيروت ١٩٥٨ .

(٣) ج ١ ص ٦٨ - ٧٢ .

٢ – المفضليات :

هي مجموعة من القصائد سميت باسم من اشتهر بجمعها ، وهو المفضل بن محمد ابن يعلى الضبي المتوفي سنة ١٦٤/٧٨٠ وقيل ١٦٨ هـ. وقيل ١٧٠ هـ . والشائع المعروف أن المفضل جمعها لتلميذه المهدي حينما جعله والده الخليفة العباسي المنصور مؤدباً له. وكان المفضل سماها في الأصل كتاب الاختيارات ، ولكنها بعد ذلك سميت باسمه .

وهذه كسابقتها اختلف في عددها ومن جمعها . فقيل إنها مائة وست وعشرون قصيدة ، أضيف إليها أربع قصائد وجدت في بعض النسخ، ويقول ابن النديم: « هي مائة وثمانية وعشرون قصيدة، وقد تزيد وتنقص ، وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عن المفضل ، والصحيحة التي رواها ابن الاعرابي [1] تلميذ المفضل وربيبه » .

وروى صاحب الأغاني أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «مقاتل الطالبيين[2]» عن ابن الأعرابي وعن أبي عثمان اليقطري وعن علي بن أبي الحسن ، ثلاثتهم عن المفضل ، قال : « كان إبراهيم بن عبدالله بن الحسن متوارياً عندي ، فكنت أخرج وأتركه ، فقال لي : إنك إذا خرجت ضاق صدري ، فأخرج إليّ شيئاً من كتبك أتفرّج به ؛ فأخرجت إليه كتباً من الشعر، فاختار منها السبعين قصيدة التي صدرتُ بها اختيار الشعراء ، ثم أتممتُ عليها باقي الكتاب » .

وأما أبو علي القالي ، فقد روى في كتابه الأمالي [3] عن أبي الحسن علي ابن سليمان الأخفش عن أبي جعفر محمد بن الليث الأصفهاني ، قال : « أملى علينا أبو عكرمة الضبي المفضليات من أولها إلى آخرها ، وذكر أن المفضل

---

(١) الفهرست ص ١٠٨ .

(٢) صفحة ٣٣٩ ، ٣٧٢ طبعة القاهرة .

(٣) ج ٣ ص ١٣٠ دار الكتب .

أخرج منها ثمانين قصيدة للمهدي ، وقُرئت بعدُ على الأصمعي ، فصارت مائة وعشرين . قال أبو الحسن – يعني الأخفش – أخبرنا ثعلب أن أبا العالية الأنطاكي والسِّدْريّ وعافية بن شبيب ، وهؤلاء كلهم بصريون من أصحاب الأصمعي ، أخبروه أنهم قرءوا عليه المفضليات ، ثم استقرءوا الشعر ، فأخذوا من كل شاعر خيار شعره ، وضمّوه إلى المفضليات ، وسألوه عمّا فيه مما أشكل عليهم من معاني الشعر وغريبه ، فكثرت جداً » .

ويقول أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري في أول شرح المفضليات: « أملى علينا عامر بن عمران أبو عكرمة الضبي هذه القصائد المختارة المنسوبة إلى المفضل بن محمد الضبي إملاءً ، مجلساً مجلساً ، من أولها إلى آخرها ، وذكر أنه أخذها عن أبي عبدالله محمد بن زياد الأعرابي ، وذكر أنه أخذها عن المفضل الضبي . قال أبو محمد : وكنت أسأل أبا عمرو بُنْدار الكرْخي ، وأبا بكر العبدي ، وأبا عبد الله محمد بن رستم ، والطوسي وغيرهم ، عن الشيء بعد الشيء منها ، فيزيدونني على رواية أبي عكرمة البيت والتفسير ، وأنا أذكر ذلك في موضعه إن شاء الله . فلما فرغنا منها صرتُ إلى أبي جعفر أحمد بن عُبيد بن ناصح ، فقرأتها عليه إلى آخرها ، شعرها وغريبها ، فأنكر على أبي عكرمة أشياء ، أنا مبينها في مواضعها ، ومسند إلى أبي جعفر ما فسَّرَ وروى ، في موضعه إن شاء الله ، والمعين الله عز وجل ، والحول والقوة به . وعمودُ الكتاب على نسَق أبي عكرمة وروايته ... وحُدِّثتُ أن أبا جعفر المنصور تقدم إلى المفضل في اختيار قصائد للمهدي ، فاختار له هذه القصائد. فلذلك نسبت إلى المفضل [1] » .

هذه روايات مختلفة ، منها ما ينسب اختيارها كلها للمفضل ، ومنها ما ينسب إليه اختيار بعضها ، ومنها ما يشرك معه فيها الأصمعي ، وهي رواية الأخفش . ويرى الدكتور شوقي ضيف أن ذلك كان من الأخفش وأنه فعل ذلك بعامل التنافس بين البصريين والكوفيين ، فالأخفش البصري يريد أن

(١) المفضليات : دار المعارف سنة ١٩٦٣ ، ص ١٢ .

يقول إن المفضليات من صنع البصريين والكوفيين جميعاً لما كان لها من شهرة في عصره فاقت شهرة الأصمعيات . ثم يقول الدكتور شوقي ضيف : « ولو أنه اطلع على رواية ابن الأعرابي خصم الأصمعي لزايله هذا الوهم (٢) » . ولكن ألا يرى الدكتور في عداوة ابن الأعرابي للأصمعي التي يعترف بها الدكتور في نصه – ألا يرى في ذلك ما يمس النزاهة بين ابن الأعرابي والأصمعي ؟ ألا يجوز أن يكون ابن الأعرابي لتحامله على الأصمعي أراد أن يحرم الأصمعي حق مشاركته في الاختيار ؟ .

على كل ، هذا خلاف شكلي لا يمس جوهر الموضوع ، فالقصائد التي تتضمنها هذه المجموعة أصيلة ، وأهل للثقة والاعتماد عليها ، سواء نسب اختيارها إلى المفضل ، أو إليه هو والأصمعي ، فكلاهما ثقة ، أمين ، صادق في روايته .

وهي لسبع وستين شاعراً معظمهم من الجاهليين ، فمنهم ستة شعراء إسلاميون ، وأربعة عشر شاعراً من المخضرمين الذين ولدوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ، والباقون وهم سبعة وأربعون شاعراً كلهم جاهليون ؛ عاشوا وماتوا قبل الإسلام .

وقد لقيت المفضليات اهتماماً كبيراً من العلماء والأدباء والباحثين في شتى العصور ، فكان لها شهرة عظيمة في الأوساط الأدبية والعلمية، وقام بدراستها كثير من الأدباء العرب والمستشرقين ، ومن أهم شروحها شرح ابن الأنباري وقد نشره لايل Lyall مع ترجمة انجليزية في جزأين ، وقام بعمل فهرست لها في جزء ثالث المستشرق بيفان Bevan ، كما شرحها المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١ – ١٠٣٠ والتبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ – ١١٠٨ .

---

(١) تاريخ العصر الجاهلي صفحة ١٧٧ .

٣ - الأصمعيات :

وهذه المجموعة تسمى كذلك باسم الذي اختارها وجمعها ، وهو الأصمعي الأديب الراوية المشهور ، وتشتمل على اثنتين وتسعين قصيدة وقطعة ، لواحد وسبعين شاعراً ، منهم ستة إسلاميون ، وأربعة عشر مخضرمون ، وأربعة وأربعون جاهليون ، وسبعة مجهولون .

وأغلب ما تحتويه قطع قصيرة ، قد تكون الواحدة منها بيتين فقط ، والأصمعيات تلتقي مع المفضليات في تسع عشرة قصيدة ، وكان ذلك من الأسباب التي دعت بعض الباحثين إلى أن يقولوا إن مجموعة المفضليات ليست كلها من اختيار المفضل الضبي ، وإنما اشترك معه في اختيارها الأصمعي بأن زاد في مجموعة المفضل بعده بعض القصائد لم يخترْها المفضل الضبي ، والحقيقة أن هذه القصائد المشتركة بينهما هي هي في المفضليات والأصمعيات اللهم إلا في النادر اليسير ، فقد تزيد قصيدة بيتاً أو تختلف لفظة في المفضليات عن الأصمعيات ، مما يثير شبهة في أصل الاختيار ، أيكون ذلك مرجعه إلى أن المفضل قد اختار بعض القصائد من المفضليات ، ثم جاء الأصمعي فزاد في المفضليات ؟ أم أنها كانت في الأصمعيات أصلاً ثم أدخلت في المفضليات ؟ أم أنهما كانا في كتاب واحد ثم دخل بعضهما في بعض ، حتى لم يتبين أيهما هذا وأيهما ذاك ؟ اختلفت آراء الباحثين في ذلك[١]. وهذا كما أشرت إليه سابقاً، ليس إلا خلافاً لفظياً يرجع إلى صاحب الاختيار، ولا يمس جوهر الموضوع — وهو المختار نفسه — بشيء . فقيمة القصائد والقطع المختارة في كلتا المجموعتين، في الدرجة العليا من الأصالة والصحة ، ومن ينسب إليهما اختيارهما كانا من الرواة الموثوق بصدقهما وأمانتهما العلمية .

وقد سبق أن أوردنا في الحديث عن الأصمعي قول ابن النديم[٢] : « وعمل

---

(١) راجع في ذلك مقدمة كل من المفضليات والأصمعيات للأستاذين عبدالسلام هارون واحمد شاكر نشر دار المعارف ، وكتاب العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف .

(٢) الفهرست ، ص ٨٣ .

الأصمعي قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها » . ويغلب على الظن أن ابن النديم يقصد بقوله هذا مجموعة الأصمعيات ، وليست الدواوين الشعرية التي عملها الأصمعي [1] ، لأن مجموعة الدواوين لا ينطبق عليها – في أغلب الظن – اسم قطعة من الشعر ، فكل ديوان يجوز أن يسمى قطعة ، وليست كل الدواوين قطعة ، والأولى بتسميته قطعة هو الأصمعيات، ثم إن مجموعة الدواوين ليست قليلة الغريب، ولا مختصرة في الرواية ، بل كل من هذه الدواوين فيه كثير من الغريب ، ثم إن ما روي من القصائد لكل شاعر في الدواوين التي عملها الأصمعي ليست مختصرة ، بل في كل منها قصائد طويلة كثيرة ، وإنما ذلك ينطبق تماماً على الأصمعيات ففيها قطع قصيرة، قد تكون الواحدة بيتين فقط مثل القطع : ٤٦،٤٥،٥ ، في طبعة دار الكتب ، نشر الاستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، فالظاهرة الغالبة في الأصمعيات قصر القطع المختارة على وجه العموم .

وربما كان يبغي من وراء اختياره « وجهةً لغوية » ، ففي الأصمعيات يتجلى مزاج الأصمعي الذي يرجح في نظره الناحية اللغوية والنحوية في كل أثر شعري ، على كل الناحية الأدبية [2] ولعل هذا هو السبب فيما يقال عن الأصمعيات من أنها لم تلق ما لقيته المفضليات من الانتشار والقبول .

والحق أن الأصمعيات والمفضليات جمع كل منهما ثروة أدبية لغوية ممتازة ولكن المفضليات تفوق زميلتها في كلتا الناحيتين الأدبية واللغوية ، ولعل ذلك راجع إلى أن اختيارها في الأصل كان يقصد منه تثقيف ولي العهد تثقيفاً أدبياً لغوياً بحيث يتجلى فيه الذوق الأدبي الممتاز الذي يرضي الخليفة وولي العهد . وعلى كل فكلتا المجموعتين من أهم مصادر الشعر الجاهلي ، ولهما قيمة عالية في عالم الأدب .

---

(١) يرى ذلك الدكتور ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٨١ .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ، ص ١٥٩ .

وقد نشرها بالقاهرة الأستاذان عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر، نشرة علمية مضبوطة مع شرح أبياتها .

٤ – جمهرة أشعار العرب

هذه مجموعة تنسب إلى أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، وقد ورد ذكره في كل من خزانة الأدب للبغدادي ، والمزهر للسيوطي ، والعمدة لابن رشيق . ومن ثم يكون ابن رشيق أقــدم من ذكر محمد بن أبي الخطاب القرشي « ونَسَبَ إليه كتاب جمهرة أشعار العرب » وإذا كان ابن رشيق مات سنة ٤٥٦ أو ٤٦٣ هـ يكون محمد بن أبي الخطاب القرشي قد عاش في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع .

وقد حدث خلاف في هذه المجموعة حول جامعها فقيل هو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي هذا ، وقيل هو المفضل بن عبدالله بن محمد بن المجبَّر بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ، فمن يرى أنهـا للأول يحتج بأنه قد كتب على أول الكتاب إنه من تأليف أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، وأن أكثر الأخبار والروايات في القسم الأول من الكتاب وهــو مقدمة مصدرة بقوله : « قال محمد » ، ثم إن الكتاب ورد منسوباً إليه في الكتب الثلاثـة التي أشرنا اليها سابقاً وهي : خزانة الأدب ، والمزهر ، والعمدة .

ومن يرى أن جامعها هو المفضل بن عبد الله الذي هــو من سلالة عمر بن الخطاب يعتمد في هذا الرأي على أن المفضل هذا كان سند رواية أبي زيد في هذا الكتاب، وأن أبا زيد بعد أن تحدث عن تقسيم الاختيار في هذا الكتاب قال : « قال المفضل : فهذه التسع والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، وأنفَس شعر كل رجل منهم ؛ فكأن هذا كله كان من صنع المفضل ، وأما محمد بن أبي الخطاب فليس له إلا أنه روى هذا التقسيم والشعر عن المفضل [١] .

---

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ، ص ٥٨٦ .

وهـذا الخلاف أيضاً كالخلاف في المجموعات السابقة ، حـول صاحب الاختيار ، فهو خلاف لا يمس صميم الموضوع بشيء ، فالذي يهمنا هنـا هو ما فيه من مادة أدبية .

وهذه المجموعة سباعية في الاختيارات ، وفي تقسيمها، فهي سبعة أقسام، وفي كل قسم سبع قصائد ، على النحو التالي :

أ – **المعلقات** : لامرىء القيس ، وزهـير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني ، والأعشى ، ولبيد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثـوم ، وطرفة بن العبد .

وظاهر أنه سار في رأيه هـذا على رأي المفضل الضبي الذي أسقط من المعلقات معلقـتي الحارث بن حلزة ، وعنترة العبسي ، ووضع مكانهما معلقتي الأعشى والنابغة الذبياني .

ب – **المجمهرات** : وأصحابها : عبيد بن الأبرص ، وعنترة بن شداد العبسي، وعديّ بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأميـة بن أبي الصلت ، وخداش بن زهير ، والنمر بن تولب .

ج – **المنتقيات** : أي المختـارات : وهي للمسيب بن علس ، والمرقش ، والمتلمس ، وعروة بن الورد ، والمهلهل ، ودريـد بن الصمة ، والمتنخل بن عويمر .

د – **عيون المراثي** : وأصحابها : أبو ذؤيب الهذلي ، وعلقمة بن ذي جدن الحميري ، ومحمد بن كعب الغنوي ، والأعشى الباهلي ، وأبو زيد الطائي ، ومالك بن الريب النهشلي ، ومتمم بن نويرة اليربوعي .

هـ – **المذهبات** : وربما كان يقصد بهـذا الاسم أنها تستحق أن تكتب بالذهب ، وهي لشعراء من الأنصار (الأوس والخزرج) خاصة،

وهم : حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة، ومالك بن العجلان، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة بن الجلاح ، وأبو قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرىء القيس .

و - **المشوبات** : وهي للمخضرمين، أي الذين شابهم الكفر والإسلام، وهم : النابغة الجعدي ، وكعب بن زهير ، والقطامي ، والحطيئة ، والشماخ ، وعمرو بن أحمر ، وابن مقبل .

ز - **الملحمات** : وأصحابها إسلاميون كلهم ، وهم : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، وعبيد الراعي ، وذو الرمة ، والكميت بن زيد ، والطرماح بن حكيم .

ومن ذلك نرى أن هذه المجموعة تضم تسعاً وأربعين قصيدة ، ولم يبين لنا صاحب اختيارها على أي أساس جعل تقسيمها سباعياً ، في نوعيتها ، وفي وحداتها ، كما أنه لم يوضح لنا أسباب هذه التسميات السبعة ، ولماذا وضع كلا من هذه القصائد في قسم معين دون غيره ، وربما كان اختيار هذه الأسماء لأسباب معنوية تكمن في معنى لفظ الاسم مثل المشوبات ، التي شاب أصحابها زمن الجاهلية وزمن الإسلام ، وظاهر أن اسم المعلقات ، اسم تقليدي ، تابع فيه غيره . وعلى كل فهذه الأسماء حُلىً من العنارين المختارة ، ويبدو أن وضع كل قصيدة في قسمها من هذه الأقسام - ما عدا المعلقات - راجع لذوق جامع هذه المختارات الأدبي ، ورأيه الشخصي .

وعلى كلٍّ هي مجموعة طيبة من القصائد الجيدة ، لشعراء مشهورين في الجاهلية والإسلام ، يدل اختيارها على ذوق أدبي جيد ، إذ تتضمن هذه المجموعة نماذج حسنة لأغراض شعرية متنوعة .

وقد طبعت الجمهرة حتى الآن ثلاث طبعات وكلها عن أصل واحد ، فلا اختلاف بينها . وطبعت دون شرح في « نيل الأرب في فضائل العرب »

ببيروت سنة ١٨٩٥ ، واعتمدت هذه الطبعة على نص غير النص الذي اعتمدت عليه الطبعة الثانية للكتاب الآنف الذكر بعنوان : تزيين نهاية الأرب : بيروت ١٨٦٢ [١] .

وقام بدراسة عليها بعض المستشرقين مثل نالينو ، ونولدكه في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية .

٥ – مختارات ابن الشجري :

صاحب هذه المختارات هبة الله العلوي بن أحمد بن الشجري ، المتوفي سنة ١١٤٧/٥٤٢ ، وقد جعلها ابن الشجري أقساماً ثلاثة ، وأهم ما في القسم الأول قصائد للشنفري وطرفة ولقيط الإيادي والمتلمس ، والقسم الثاني به مختارات من شعر زهير وبشر بن أبي خازم ، وعبيد بن الأبرص ؛ وفي القسم الثالث اختيارات من ديوان الحطيئة .

٦ – دواوين الحماسة

وهذه عدة مختارات ، كل منها يسمى ديوان الحماسة ، وفي العادة يقال الواحد منها منسوباً لصاحبه الذي يقال إنه اختاره ، ولعلها جميعها قد تبعت في التسمية أول ديوان ظهر منها ، وهو ما جمعه أبو تمام ، والذي سيأتي الحديث عنه فيما يلي إن شاء الله . وأشهر هذه المجموعات ما يلي :

أ – ديوان الحماسة لأبي تمام :

هو منتخبات جمعها أبو تمام المتوفي سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م وقسّم أبو تمام ديوانه هذا عشرة أقسام ، جعل كل قسم منها باباً ، وهي : باب الحماسة ، وباب المراثي ، وباب الأدب ، وباب النسيب ، وباب الهجاء ، وباب الأضياف والمديح ، وباب الصفات ، وباب السير والنعاس ، وباب المُلَح ، وباب مذمّة النساء .

---

(١) بروكلمان : ٧٦/١ .

وباب الحماسة ، أول أبواب الكتاب وأكبرها ، ولعلّ هذا هو السبب الذي جَعل اسمه يُطلق على المجموعة كلها ، وكان أن أطلق هذا الاسم على ما تلاه من دواوين مماثلة في الاختيار ، فسُمي كل منها باسم ديوان الحماسة .

وأبواب الكتاب العشرة متفاوتة الطول ، فالأول أطولها ، بل إنه يكاد يستغرق نصف الكتاب وحده ، والأبواب الأربعة الأخيرة قصيرة جداً . وقد أخذ أبو تمام هذه المختارات من كتب كانت مدوّنة . قال التبريزي[1] : «وكان سبب جمع أبي تمام الحماسة أنه قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان ، فمدحه ، وكان عبد الله لا يجيز شاعراً إلا إذا رضيه أبو العميثل وأبو سعيد الضرير ، فقصدهما أبو تمام ، وأنشدهما القصيدة التي أولها :

أهُنَّ عَوادي يوسفٍ وصواحبُه ... فعَزْماً فَقِدْماً أدركَ السَّؤْلَ طالبُه

فلما سمعا هذا الابتداء أسقطاها ، فسألهما استتمام النظر فيها ، فمرّا بقوله:

وركبٍ كأطراف الأسنّة عرّسوا ... على مثلها والليلُ تسطو غَياهبُه

لأمر عليهم أن تتمَّ صدورُه ... وليس عليهم أن تتم عواقِبُه

فاستحسنا هذين البيتين وأبياتاً أخرى ... فعرضا القصيدة على عبدالله وأخذا له ألف دينار ، وعاد من خراسان يريد العراق ، فلما دخل همذان اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة ، فأنزله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطرق ومنع السابلة ، فغمّ أبا تمام ذلك وسرّ أبا الوفاء . فقال له: وطِّن نفسك على المقام ، فإن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان ، وأحضره خزانة كتبه ، فطالعها ، واشتغل بها ، وصنف خمسة كتب في الشعر ، منها كتاب الحماسة ، والوحشيات ، وهي قصائد طوال ، فبقى كتاب الحماسة في خزانة آل سلمة ، يضنون به ، ولا يكادون يبرزونه لأحد ، حتى تغيرت أحوالهم ، وورد همذان رجل من أهل دينور يعرف بأبي العواذل ، فظفر به

---

(١) شرح ديوان الحماسة ج ١ ص ٣ – ٤ .

وحمله إلى أصبهان ، فأقبل أدباؤها عليه ، ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة في معناه ، فشهر فيهم ثم فيمن يليهم » .

وتدل الأخبار على أن أبا تمام كان يقوم بالتغيير في بعض الأبيات التي يختارها ، فيصلحها ويهذبها . ومن ذلك ما يرويه المرزوقي في مقدمته ، إذ يقول : (١) « وهذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشعر إلى المتردد في الأفواه ، المجيب لكل داع ، فكان أمره أقرب ، بل اعتسف في دواوين الشعراء جاهليّهم ومخضرمهم ،وإسلاميهم ومولدهم ، واختطف منها الأرواح دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام ، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ، لأن ضروب الاختيار لم تخف عليه، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستتر عنه ، حتى إنك تراه إلى البيت الجيد، فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها في نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما في اختياره بها » .

وقصر أبو تمام اختياره على شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، ويندر أن يورد قصيدة كاملة ، ومعظم الشعراء الذين اختار أبو تمام من أشعارهم غير مشهورين ، فإذا لاحظنا ضخامة الكتاب مع اقتصار أبي تمام في اختياره على أبيات قليلة في كل قطعة، تبين لنا كثرة عدد الشعراء الذين اختار أبو تمام من أشعارهم .

وقد طبعت هذه الحماسة عدة طبعات في البلاد العربية وغيرها وشرحت شروحاً مختلفة ، بعضها مختصر ، وبعضها مطول ، منها شرح أبي محمد القاسم ابن محمد الأصبهاني المتوفي سنة ٢٨٧ = ٩٠٠ ، وشرح أبي الفتح بن جنى ، المتوفي سنة ٣٩٢ = ١٠٠٢ ، وشرح المرزوقي المتوفي سنة ٤٢١ = ١٠٣٠ ، وشرح ثابت بن محمد الجرجاني المتوفي سنة ٤٣١ = ١٠٣٩ ، وشرح أبي العلاء المعري المتوفي سنة ٤٤٩ = ١٠٥٧ ، وشرح التبريزي ، أبو زكريا يحيى بن علي المتوفي سنة ٥٠٢ هـ وشرح عبدالله بن الحسين العكبري المتوفي سنة ٦١٦ هـ /

(١) شرح ديوان الحماسة ، ١٣ - ١٤ .

١٢١٩ م. وغير ذلك مما يدل على عناية الأدباء والعلماء ، والباحثين بها ، ولا شك أن ذلك دليل على قيمتها الأدبية الممتازة .

ب - حماسة البحتري

وهذه المجموعة تلي المجموعة السابقة ، وهي لأبي عبادة الوليد بن عبادة البحتري الشاعر المتوفي سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م ، ويقال إن البحتري ألفها إجابة لطلب الفتح بن خاقان وزير الخليفة العباسي المتوكل . وهي عبارة عن مختارات كثيرة ، وكلها قطع قصيرة ، قسمها البحتري على مائة وأربعة وستين باباً ، وكثيراً ما تأتي القطعة من بيت واحد ، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية ، وقطعها الكثيرة العدد تدور حول مختلف معاني الشعر . ولم تنل حماسة البحتري من الذيوع والاستحسان ما نالته حماسة أبي تمام ، ولعل هذا كان السبب في أن القدماء لم يعنوا بشرحها ، وقد طبعت في بيروت سنة ١٩١٠ م عن نسخة ليدن الوحيدة مع مقدمة ونقد من عمل لويس شيخو ، كما نشرت في القاهرة سنة ١٩٢٩ م ، وكتب بحثاً عنها كل من المستشرقين نولدكه Noeldeke وجاير Geyer في مجلة الجمعية الشرقية الالمانية .

ج - حماسة الخالديين :

وهي مجموعة للأخوين : أبي عثمان سعيد المتوفي سنة ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، وأبي بكر محمد المتوفي سنة ٣٨٠ = ٩٩٠ ، وهما ابنا هاشم الخالدي ، وكانا من قرية من قرى الموصل ، تعرف بالخالدية ، وهما شاعران أديبان حافظان على البديهة ، وكانا من شعراء سيف الدولة الحمداني . ومن هذه الحماسة نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة .

د - حماسة ابن الشجري :

صاحبها هبة الله بن الشجري المتوفي سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م وهو صاحب المختارات السابقة . وقد طبعها كرنكو Krenkow في حيدر آباد سنة ١٣٤٥

ه — الحماسة المغربية :

جمعها يوسف بن محمد البياسي في تونس سنة ٦٤٦ ﻫ / ١٢٤٨ م ، ويوجد مختصر منها في مكتبة : جوتا ١٣ .

و — الحماسة البصرية :

جمعها صدر الدين علي بن الفرج البصري ، وقدمها سنة ٦٤٧ ﻫ/١٢٤٩ م إلى الملك الناصر أمير حلب وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منها .

ودواوين الحماسة على العموم ، يظهر فيها بوضوح الميل إلى المقطعات القصيرة ، والاختيار فيها من أشعار شعراء غير مشهورين في الغالب ، وكثيراً ما نجد قطعاً مختارة أصحابها مجهولون لجامع الديوان . وهي تضم معاني وأغراضاً كثيرة مختلفة غير الحماسة، وإنما سميت كلها بهذا الاسم مجاراة لديوان الحماسة لأبي تمام الذي كان أولها وأسبقها ، وهذا كما أشرنا سابقاً ، سمي بهذا الاسم لأن الباب الأول فيه كان باب الحماسة ، وهو أطول الأبواب ، فغلب اسمه على كل الكتاب . وظاهر أن الغرض الأساسي من هذه الاختيارات كان أدبياً وخلقياً ، ويظهر كذلك أن جامعي هذه المختارات كانوا يرمون إلى إبعاد السآمة والملل عن القارىء ، فجعلوا المختارات قطعاً صغيرة في مواضيع مختلفة ، كما لم ينسوا جانب الفكاهة فيها فضمنوها بعض الطرائف والملح ، ليشيعوا فيها جو المرح والمتعة ، ويتجلى ذلك بوضوح في حماسة أبي تمام . ولم يعن أصحابها بالرواية والسند ، فلم يهتموا بالتعريف بمصادرهم ، وتوثيق ما يذكرون ، ومن ثم فقيمة هذه الدواوين أدبية أكثر منها تاريخية . ويعود الفضل إلى دواوين الحماسة في التعريف بكثير من الشعراء ، الذين لولا هذه الدواوين ، لظلوا مجهولين ، وقد بينت هذه الدواوين بوضوح تام كثرة الشعراء العرب ، وبخاصة في العصر الجاهلي .



والحق إن المجموعات والمختارات التي تحدثنا عنها تعتبر من مصادر الشعر

الجاهلي المهمة ، فقد جمعت كثيراً من القصائد الطوال بأجمعها ، وعدداً كبيراً من القطع القصيرة التي تحتوي على المعاني السامية ، والعواطف النبيلة، والصور الرائعة ، وهي في مجموعها لو درست دراسة شاملة لأعطت صورة واضحة عن العصر الجاهلي ، كما أنها حفظت لنا أسماء كثير من الشعراء لولاها لضاعوا في زوايا النسيان ، والإهمال . ويبدو أن أصحاب الاختيارات القصيرة ، رأوا أن هنـــاك كثيراً من المجموعات اهتم جامعوها بالقصائد الطوال ، وكأنهم أحسّوا أن ذلك ربما كان مدعاة للسأم أو الملل ، أو انصراف القارىء عنها، فأحبوا أن يجدّدوا في الاختيارات ، مع تنويعها ، وتخليد ذوي المواهب الذين لم يتح لهم من الشهرة والذيوع ما أُتيح لأصحاب الطوال المعروفات . فاكتفوا بالبيت الواحد ، أو الأبيات المعدودات في كل قطعة ، وأكثروا من ذلك .

وبذلك أصبحت مجموعـــات الاختيارات كلها تتضمن القصائد الطوال والقطع القصار ، وتضم الشعراء المشهورين والمغمورين ، وجميعهم من ذوي المواهب الأدبيـــة ، فاكتسب الجميع الشهرة والذيوع ، وكتب لهم الخلود ، ووقفنا على انتشار الروح الفنية الأدبية في العصر الذي نحن بصدد دراسته . وحفظت لنا سجلاً أدبياً ممتازاً لذلك العصر . فهي مصدر مهم من مصادر الأدب في العصر الجاهلي .

الدواوين الشعرية :

أما الدواوين الشعرية للعصر الجاهلي ، فهي نوعان : دواوين القبـــائل ، ودواوين الأفراد .

دواوين القبائل :

إذا رجعنا الى كتب التراجم والأخبار والتاريخ نجد أنه قد كان هناك كتب كثيرة ألّفهـا الرواة والعلماء ، تجمع أشعار القبائل وأخبارها ، لكل

قبيلة كتاب خاص ، وربما كان عدد كبير من هذه الكتب من تأليف شخص واحد بنفسه ، كما نرى مثلاً في ترجمة أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي عمرو الشيباني ، فهذا قد سبق أن ذكرنا أن ابنه قال : « لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة » . وفي كتاب الفهرست لابن النديم وكتاب المؤتلف والمختلف للآمدي مثلاً نجد عشرات من الكتب التي ألفت لتجمع أشعارالقبائل فمما ورد في الفهرست مثلاً :

أشعار الأزد ، وأشعار بني أسد ، وأشعار أشجع ، وأشعار بجيلة ، وأشعار تغلب ، وأشعار بني تميم ، وأشعار بني حنيفة ، وأشعار بني شيبان ، وأشعار بني عدوان ، وأشعار مزينة ، وأشعار هذيل ، وأشعار بني يربوع ، وغيرهم .

ومما ذكره الآمدي : أشعار الأزد ، وأشعار بني تغلب ، وأشعار الرباب، وأشعار َفهْم ، وأشعار بني عامر بن صعصعة ، وأشعار بني عوف بن همام ، وشعر هذيل ، وشعر بني يشكر ، وغيرهم .

ومعنى هذا أن كل قبيلة كانت تعنى بجمع أشعارها وأخبارها ، وجعلها في كتاب خاص ليبقى سجلاً خالداً لها ، وأن الرواة والعلماء ، لما رأوا اهتمام القبائل بهذه الناحية تسابقوا في جمع أشعار القبائل وتدوينها ، فرأينا من الرواة من قام بعمل عشرات من هذه الكتب كما تحكي كتب الأدب والتاريخ .

ويبدو أن الرواة كانوا يجمعون في كل كتاب ، كل ما استطاعوا أن يحصلوا عليه من أشعار القبيلة، سواء أكان الشاعر منهم غزير النتاج أو قليله ، فكثرت أسماء الشعراء لدى كل قبيلة ، والظاهر أن كل قبيلة كانت تحاول أن تنافس غيرها من القبائل في كثرة شعرائها ، فحفظوا تراث أبنائهم الشعري ، ولو لم يكن للواحد منهم سوى أبيات معدودات ، حتى كان الشعراء في كل قبيلة كثيرين ، ومن ثم ليس في الإمكان الآن أن تُحصى أسماء جميع الشعراء — المكثرين والمقلين — لدى جميع القبائل . يقول ابن قتيبة [1] : « والشعراء

(١) الشعر والشعراء ، ج ١ ص ٤ .

المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها » .

ويمكن أن نفهم مما كتب عن القبائل ، في المجال الأدبي وبخاصة الشعر ، أن كل قبيلة كانت تحاول أن يكون لها كتاب يجمع أخبارها وأشعارها ، يدل على ذلك هذا الثبت الكبير الضخم الذي يذكر في ترجمة أعلام الرواة والعلماء الذين عنوا بجمع الأشعار والأخبار . ومن ثم نتوقع أن يكون هناك كتب في هذا المجال بعدد القبائل العربية في العصر الجاهلي . وبهذا يكون ما ذكر في كتب التاريخ والأدب منها ليس إلا جزءاً من تراث القبائل الجاهلية، لأن هناك كثيراً من القبائل الجاهلية لهم شعراء مشهورون، ولكن لم يرد باسم القبيلة كتاب يجمع أخبارها وأشعارها .

ومع أن المفهوم من كتاب القبيلة أنه يجمع أشعار كل شعرائها ، فإننا نجد أحياناً في كتب التاريخ ما يدل على أن كتاب القبيلة قد يخلو من بعض أشعار أبنائها . من ذلك مثلاً ما نجده في كتاب « المؤتلف والمختلف » للآمدي ، إذ يذكر بعض الشعراء ، ويقول إنه لم يجد لهم في كتب قبائلهم ذكراً ، وأحياناً كان يعلل ذلك ، فيقول : « وأظن شعره درس فلم يُدرَك [1] » .

واذا كان الأمر كذلك ، كان معناه أن هذه الكتب الكثيرة لا تضم جميع النتاج الأدبي لجميع القبائل العربية ، بل تنقص منه أشياء رغم حرص القبائل والرواة على ألا يفوتهم من ذلك شيء .

وعناوين الكتب التي ورد ذكرها إلينا تبين أن الواحد منها كان يسمى « كتاب بني فلان » أو « أشعار بني فلان » ، ويُفهم من هذا أن الكتاب إذا

(١) ص ٢٣ .

كان عنوانه « أشعار بني فلان » كان يقتصر على ذكر الشعر وما يتصل به ؛ كما نرى في الأثر الباقي لنا من ذلك ، وهو « شعر الهذليين » . أما إذا كان عنوانه « كتاب بني فلان » فيفهم منه أنه يحوي أخباراً ، وآثاراً أدبية ، وكل ما يتصل بالقبيلة على أمور مهمة كقصص وأحاديث وأنساب .

وإذا كنا مع هذه الكثرة التي توقعناها في كتب القبائل ، لا نجد في كتب الأدب والتاريخ إلا ذكراً لعدد قليل منها ، فإننا كذلك لم يصل إلينا مما ذكر من هذه الكتب إلا « شعر الهذليين » .

وإذا رجعنا إلى ما قيل عن عدد شعراء هذيل تبين لنا أن الكتاب الذي وصل إلينا ويحمل عنوان « أشعار الهذليين » او « ديوان الهذليين » لا يحتوي على شعر جميع شعرائها ، وإنما يضم جزءاً من أشعارهم . والجزء الذي وصل إلينا من أشعار الهذليين أقل شعرائه جاهليون ، وأكثرهم إسلاميون .

وقد طبع ما وصل إلينا من أشعار الهذليين في مجموعتين إحداهما في أوروبا والأخري بالقاهرة . أما مجموعة أوروبا فتتكون من أربع قطع : —

الأولى - أشعار الهذليين ج ١ ، مع شرح أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري وقد قام بنشرها وتحقيقها المستشرق كوزجارتن Kosegarten في لندن سنة ١٨٥٤ م .

الثانية — أشعار الهذليين ج ٢ ، نشره فلهاوزن Wellhausen مع ترجمة ألمانية في برلين سنة ١٨٨٧ م .

الثالثة — ديوان أبي ذؤيب ، نشره المستشرة الألماني يوسف هِل J. Hell في هانوفر سنة ١٩٢٦ .

الرابعة — ديوان ساعدة بن جؤية ، وأبي خراش ، والمَنخل ، وأسامة بن الحارث ، ونشره كذلك يوسف هل ، في ليبزج سنة ١٩٣٣ .

وأما طبعة القاهرة فهي طبعة دار الكتب المصرية ، وهي تتداخل مع القطعة الرابعة في مجموعة طبعة أوروبا ، واختلطت فيهـا نسخة السكري بنسخة أخرى مختصرة ، ولذلك كان يقل فيها الشرح وإسناد الرواية .

وقد قام بعض المستشرقين بدراسة وأبحاث حول أشعـار الهذليين ، من ذلك : حول شرح ديوان الهذليين بقلم فلهاوزن : ZDMG 39 - 411 - 80 وآخر أشعار الهذليين بقلم كاسكل W . Caskel .

وما بين أيدينا من أشعار الهذليين يعتبر ثروة أدبية ولغوية ممتازة ، ولو درس دراسة فنية لأظهر لنا جوانب قيمة هامة من الناحيتين اللغوية والأدبية بالنسبة للقبائل العربية في العصر الجاهلي .

دواوين الأفراد :

يقصد بها تلك الكتب التي يشتمل كل منها على شعر شاعر خاص ، وقد كان لكثير من هذه الدواوين حظ البقاء إلى عصرنا هذا ، وبعضها طبع عدة مرات ، وبعضها لم يطبع إلا مرة واحدة ، وبعضها ما يزال مخطوطاً ، كما أن منها ما حظي بالشرح الواسع أو المختصر ، ومنها ما لم تمسه يد بعد . ومن هؤلاء الشعراء من روى شعره أكثر من راو واحد ، فجاء شعره عن طريق روايات متعددة ، كثيرة أو قليلة ، ومنهم من روي شعره عن طريق واحدة ولكن جميعها يتفق في أن السند في هذه الروايات كلها تنتهي الى أحد رجال الطبقة الأولى من الرواة . كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ومن أهم من ورد ذكر دواوين خاصة لهم من الشعراء :

أمرؤ القيس ، وأعشى قيس ، وأميـة بن أبي الصلت ، وابن الدمينة ، والأفوه الأودي ، وأوس بن حجر ، وبشر بن أبي خازم ، وحاتم الطائي ، والحارث بن حلزة ، والخنساء، ودريد بن الصمة ، وزهير ، وسلامة بن جندل، والسموأل بن عاديا ، والشنفري ، وطرفة بن العبد ، وطفيل الغنوي ، وعامر ابن الطفيل ، وعبيد بن الأبرص ، وعدي بن زيد العبادي ، وعروة بن الورد،

وعمرو بن قميئة ، وعمرو بن كلثوم ، وعلقمة بن عبدة ، وعنترة بن شداد ، وقيس بن الخطيم ،ولبيد بن ربيعة ، والمتلمس ، والمثقب ، والمهلهل ،والنابغة الذبياني .

ولكن ما يزال شعر كثير من شعراء العصر الجاهلي مبعثراً في شتى كتب الأدب والتاريخ ، مثل عبد يغوث ، وأبي قيس بن الأسلت ، والحصين بن الحمام ، وقيس بن عاصم،وجابر بن حني ، وعبد القيس بن خفاف البرجمي . وهؤلاء الشعراء وأمثالهم ينتظرون من يلم شتات نتاجهم ، ويجمع تراث كل منهم في ديوان خاص .

وكثير من الدواوين التي وردت إلينا مصنوعة بعمل الرواة المتقدمين قد حظي بأكثر من رواية واحدة ، كما أشرتُ إلى ذلك آنفاً ، فمن هذه الدواوين مثلاً : **ديوان امريء القيس** ، فقد رواه كل من الأصمعي ، وأبي عمرو الشيباني ، ومحمد بن حبيب، والطوسي، والمفضل الضبي ، وأبي عبيدة،وصنعه ابن السكيت ، والسكري؛ **وديوان زهير بن أبي سلمى** ، اشترك في صنعه كل من ابن السكيت ، والسكري ، وابن الأنباري ، والشنتمري ، وغيرهم .

وديوان عدي بن زيد : صنعه جماعة من الرواة .

وديوان لبيد : عمله الأصمعي وأبو عمر الشيباني ، والطوسي ، وابن السكيت ..

وديوان الأعشى الكبير : صنعه السكري وأبو عمرو الشيباني والأصمعي وابن السكيت . وقد حظي بالشرح أو التعليق كثير من دواوين الشعراء القدامى مثل :

شرح ديوان الشعراء الستة للبطليوسي ، وشرح ديوان النابغة الذبياني لابن السكيت ،وللأعلم الشنتمري ، وشرح ديوان طرفة للأعلم ، والشنقيطي برواية ابن السكيت ، وشرح ديوان زهير لثعلب ، وللأعلم الشنتمري ، وللسكري، وشرح ديوان علقمة للشنتمري ، وشرح ديوان امريء القيس ، للسكري،

وللبطليوسي ، وللتبريزي ، ولابن النحاس ، وللبغدادي . وجمع لويس شيخو أشعار كثير من الشعراء الجاهليين في كتابه : « شعراء النصرانية » .

وقد قام كثير من العلماء والأدباء والباحثين بنشر كثير من هذه الدواوين نشراً علمياً دقيقاً ، وإخراجها إخراجاً متقناً مضبوطاً ، وبعضهم يكتفي بنشر رواية معينة ، وبعضهم يجمع بين الروايات المختلفة مع المقارنات الدقيقة بينها ، كما فعل الأستاذ ابو الفضل ابراهيم في ديوان امرىء القيس ورواياته الكثيرة .

وبحكم اتصالي بالأدب الجاهلي ، وكثرة مطالعتي في نصوصه وشروحها ، كثيراً ما أجد كلمات في أصول النصوص ، وفي الشرح كذلك ، تحتاج إلى تفسير ، لأنها ليست من الألفاظ التي تدور على ألسنة الفصحاء في عصرنا الحاضر ، ويصعب فهمها على القراء الآن ، فوددت لو تُنشَر كنوزنا الأدبية الثمينة نشراً علمياً دقيقاً ، ثم توضَّح نصوصها بلغة سهلة يسيرة تتناسب مع عصرنا الحاضر ، فأخرجت على هذه الطريقة ديوان طرفة ابن العبد .

ولا يزال كثير من تراثنا الأدبي مخطوطاً ، وإنا لنأمل في شباب أمتنا العربية الصاعد الوثاب ، وعلمائها الفضلاء ، وباحثيها الأجلاء ، ان يزيحوا الستار عن هذه الكنوز الثمينة ، ويقدموها للعلم والمعرفة والإنسانية في صورة زاهية جميلة ، فتُري العالمَ آثار الأمة العربية الخالدة ، وفنها الرائع العظيم .

ودواوين الشعراء التي كان لها حظ الطبع والنشر ، لم يقف حجمها عند القدر الذي وردت به أولاً ، فقد اعتاد الأساتذة الفضلاء الذين يقومون بنشر هذه الدواوين ، أن يراجعوا النسخة التي يريدون نشرها للديوان ، ويقارنوها بنسخ أخرى منه إن وجدت ، ويضيفوا إليها ما قد يجدونه من زيادات عنها في غيرها من الروايات ، منبهين على ذلك في موضعه ، ثم هم بعد ذلك قد

يضيفون إلى الديوان كثيراً من الأبيات التي قد يجدونها في كتب أخرى مثل كتب النحو أو اللغة أو التفسير ، أو غير ذلك ، وهكذا نجد الديوان يزيد عن أصله الأول ، وكلما تعددت طبعاته ربما زادت الإضافات فيه بما قد يُعثر عليه في أثنـــاء المطالعات في كتب أخرى من زيادات جديدة لم تتضمنها الطبعات السابقة .

الفصل السادس

قضية الانتحال في الأدب الجاهلي

الأدب الجاهلي أدب قديم ، كان يُلقى ، وينشد ، ويحفظ ، ويُروَى عن طريق المشافهة ، والروايات الشفهية ، ولم يدوّن إلا بعد زمن طويل ، كما مر الحديث عن ذلك بالتفصيل فيما سبق .

وكل أثر له قيمته وأهميته وتكتنفه مثل هــذه الظروف يكون عرضة للشك والاتهام ، والقيل والقــال ، والظن والطعن ، في أصله ، ونسبه ، وأصحابه ، وصحته ، وصدقه ، وقيمته ، وحجمه ، ونقصه ، والزيادة عليه ، وما إلى ذلك مما قد يعرض لفكر الإنسان وعقــله من شكوك وظنون حينما يتصدى لدرس أثر من الآثار لم ينل من وسائل المحافظة عليه والاحتياطات الدقيقة ما يكفل له البقاء سليماً صحيحاً منذ وجوده إلى مــا شاء الله له من الحياة .

والأدب ، في كل أمة من الأمم ، وبخاصة ما فيه من نصوص رائعة ، من الآثار الفنية الممتازة التي تعتز بها الأمم وتفتخر ، وتعتبرها دليــل مجدها ، وسجلّ مفاخرها ، ومن ثم تعرضت الآداب القديمــة في كل الأمم للشك والاتهام ، ورمى كثير منها بالاختلاق والانتحال .

فاتهم الأدب الجاهلي بالوضع والتزوير ، وحدث مثل هذا للآداب القديمة الأخرى ، كالآداب اليونانية [١] والرومانية والانجليزية ، فقد رمى كل أثر من هذه الآثار القديمة الخالدة بأنه ليس لأصحابه الذين يُدَّعى أنه لهم ، وأنه دخله كثير من التحريف والتزييف والادّعاء ، فليست الأمة العربية أول أمة رُمي أدبها الجاهلي القديم بالوضع والانتحال ، وإنما الأمم الأخرى رميت آدابها القديمة بمثل هذا الاتهام .

والأدب بعامة ، والشعر منه بخاصة ، كانت العرب في جاهليتها وإسلامها تكبره وتجله ، وكانت له منزلة سامية في نفوسهم ، وكانت القطع الرائعة فيه تحظى بالعناية والاحترام ، وكان أصحابها يلقون منهم مهابة وإجلالاً ، لذلك نتوقع أن تكون الروائع الأدبية محلاً للادّعاء ، فيدّعي أكثر من واحد أنها له ، وكانت القبائل تعتز بما لها من نتاج أدبي ، وتتيه على غيرها بالكثير المحفوظ لها منه، ويعتز السادة بما قيل فيهم وفي أسلافهم من رائع القول وفصيح البيان ، فتسابق الكل في جمع ما كان لهم ولذويهم وأسلافهم من آثار ، وأحسّ الرواة هذا الاهتمام من الجميع ، فتسابقوا هم كذلك، في الجمع والرواية، وتنافسوا في الاكثار من ذلك ليفوق كل منهم سواه في الحظوة ، والمنزلة ، والمكافأة . وبطبيعة الحال نتوقع كذلك أن يتطرق إلى الأدب شيء من الدخيل ، أو ما يظن أنه دخيل ، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في حديثنا عن بعض الرواة فيما سبق .

ولم تكن هذه الملاحظة لتغيب عن الثقات من العلماء والرواة والباحثين منذ جمع الأدب الجاهلي وتدوينه ، فقد تنبهوا إلى ذلك ووقفوا على كثير من النصوص التي ليست أصيلة ، فعرفوها ، ولم يقبلوها ، واستطاعوا أن يميزوا بين الأصيل والمختلق ، ويتبينوا الصحيح من الزائف . وكتب الأدب والتاريخ مملوءة بذكر ملاحظات هؤلاء الثقات وتنبيهاتهم، وقد أشرنا كذلك إلى بعضها

---

(١) راجع بحثاً طويلاً عن المشكلة الهومرية في كتاب مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد صفحة ٢٨٧ – ٣٢٠ .

في حديثنا عن الرواة ، أمثـــال المفضل والأصمعي ، وأبي عمرو بن العلاء ، وأبي عبيدة معمر بن المثني .

من ذلك مثلاً ، ما روي عن أبي عبيدة [1] أنه قال : « كان قُراد بن حنش من شعراء غطفان ، وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره ، فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبي سلمى ، ادعى هذه الأبيات :

إن الرزية لا رزية مثلُها　　ما تبتغي غطفانُ يوم أضلَّتِ
إن الرِّكابَ لتبتغي ذا مِرَّة　　بجنوب نخْلَ إذا الشهورُ أُحلَّت
ولنعم حشو الدرع أنت لنا إذا　　نَهِلَت من العَلَق الرماحُ وعَلَّت
يَبْغُون خير الناس عند كريهة　　عظُمت مصيبتُهم هناك وجَلَّت

ويروى أن أبا عمر بن العـــلاء ذكر أن ذا الأصبع العدواني قال يرثي قومه [2] :

وليس المرء في شيء　　من الإبرام والنقضِ
إذا يفعل شيئاً خـــا　　له يَقضي وما يَقضي
جديدُ العيش ملبوسٌ　　وقد يوشك أن يُنضي

ثم نص على أنه لا يصح من أبيات ذي الإصبع الضادية هذه إلا الأبيات التي أنشدها ، وأن سائرها منحول .

وكان محمد بن سلام المتوفي سنة ٢٣١ هـ أول من درس قضية الانتحال ، وأثارها في كتابه « طبقات فحول الشعراء » . إذ أورد فيـــه كثيراً من

---

(١) طبقات ابن سلام ص ١٤٧ - ١٤٨ .
(٢) الأغاني جـ ٣ ص ١٠٦ .

الملاحظات والآراء التي تدل على دراسة وتحقيق ، وقد أوردنا فيما سبق بعض ملاحظاته عن محمد بن إسحق صاحب السيرة النبوية . ومما يقوله عن انتحال الشعر [1] : « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم ، ثم كان الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ... وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال » . فهو بهذا النص يبين أن الشعر الجاهلي قد وجد به شيء من الدخيل ، الذي صُنع ونسب إلى غير قائليه ، ثم بيّن أسباب ذلك ، وأرجعها إلى رغبة القبائل في الاستكثار من شعرها ، وزيادة الرواة على ما كانوا يروون من محفوظ لديهم . ولكنه لم ينس أن يذكر الفضل لذويه ، فاعترف بأن أهل العلم ، بفطنتهم وخبرتهم ، وعلمهم وذوقهم ، كانوا يستطيعون أن يعرفوا الحقيقة ، ويميزوا بين الأصيل والدخيل.

وكتابه فيه كثير من الملاحظات والتعقيبات على الشعراء الجاهليين وأشعارهم . من ذلك مثلاً قوله ، وقد أوردناه سابقاً : « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه ، قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر ، وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذاك ، فلما قل كلامهما حُمل عليهما حمل كثير [2] » .

وقال عن عدي بن زيد : « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد ، واضطرب فيه خَلفٌ ، وخَلَط فيه المفضل [3] » .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، ص ١٤ والمزهر جـ ١ ص ١٧٤ .
(٢) طبقات الشعراء ص ١٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣١ .

وقال عن حسان بن ثابت : « كثير الشعر جيده ، وقد حُمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش ، واستبّت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة، لا تليق به [1] » .

ولم يغفل ابن سلام حق الرواة ، فذكر كثيراً من الملاحظات التي تتصل ببعضهم ، من ذلك قوله [2] وقد ذكرناه سابقاً : « أخبرني أبو عبيدة أن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي ، في الجلب والميرة ، فنزل النحيّت ، فأتيته أنا وابن نوح العطاردي ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته ، وكفيناه صنيعته ، فلما نفد شعر أبيه ، جعل يزيد في الأشعار ، ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله » .

وكذلك قوله : [3] « أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال ، قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، وهو عليها ، فقال : ما أطرفتني شيئاً ، فعاد إليه ، فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى، قال : ويحك، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أعلم شعر الحطيئة ؟ ولكن دعها تذهب في الناس [4] » .

وإذا كان ابن سلام قد رأى بعد بحثه ودراسته أن هناك في الشعر ما هو مختلق ومنتحل ، وفي الرواة من هو ثقة عدل ، ومن هو متهم ، فقد انتهى إلى أن أهل العلم والدراية لم يكن ليشكل عليهم ما زاده الرواة ولا ما

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ . والمزهر جـ ١ ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥ . والمزهر جـ ١ ص ١٧٦ .

(٤) هذا ما يقوله ابن سلام ، ولكني ما زلت اعتقد أن حماداً لم يكن شاعراً كما أوضحت ذلك في كلامي عن حماد . ولعل هذه القصيدة للحطيئة أو لغيره ، واستغل حماد جهل بلال بصاحبها فادعاها لنفسه أو تظاهر بموافقة بلال بتركها تذيع باسم الحطيئة .

وضعه المولدون ، ومن ثم فعلينا أن نقبل ما قبله الثقات ، وأن نرفض ما رفضوه ، وفي ذلك يقول : [1] « وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير ، لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف،وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه من أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد ، إذا أجمع أهل العلم الرواية الصحيحة على إبطال شيء منه، أن يقبل من صحيفة ، ولا يروي عن صحفي. وقد اختلف العلماء في بعض الشعر ، كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج عنه » .

فهو هنا يعتقد بوجود دخيل في الشعر ، قد افتعل وصُنع صنعاً ، ووُضع على غير قائليه ، وأن هذا الدخيل لا قيمة له ، ومن الممكن تبينه ومعرفته لخلوه من نواحي الروعة والجمال في شتى الأغراض الشعرية ، وأنه لم يكن مما رواه أهل الثقة عن مصادر موثوق بها من أهل البادية ، ويرى أن الثقات من العلماء والرواة ينبغي أن يكونوا محل ثقة منا ، فنقبل منهم كل ما ارتضوه ، ونرفض كل ما رفضوه .

ولا شك أنه على حق في دعوته إلى الاعتماد على من وثُق به من الرواة الذين قاموا بجمع الأدب وتدوينه ، فإذا كان هؤلاء أهلاً للثقة والتصديق في عصرهم فهم أولى بذلك في العصور التالية ، وبخاصة في عصرنا الحاضر ، فلقد كانوا قريبين من زمن هذا النتاج الأدبي الذين قاموا بجمعه وتدوينه ، وكان بينهم من كان يعرف الجاهليين ، أو كان على صلة ممن عرف الجاهلين . على أن الظروف التي أحاطت بالرواة والعلماء في زمن الجمع والتدوين وقد حملتهم على التنافس في الدقة والتحري – تستدعينا أن نجعلهم محل ثقة في جميع ما قبلوه، ما لم يقم لدينا الدليل القاطع على خلاف ذلك . ولا أظن دليلاً مثل ذلك

---

(1) ابن سلام : ٥ - ٦ .

سيحدث – إلا إن كان معجزة لطول العهد بـين زمن هذا الأدب ، وبيننا الآن .

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، أثار الباحثون من المستشرقين والعرب قضية الانتحال من جديد . ففي سنة ١٨٦٤ م « تناول المستشرق نولدكه الموضوع ، فأشار إلى الشكوك التي يثيرها مظهر الشعر الجاهلي . وبعد ثماني سنوات تناول المستشرق أهلوارد المسألة بدون أي تجديد فيها ، فعرضها بدقة لم يتناولها سلفه ، وقال : إن القصائد المروية غير موثوق بصحتها ، إن من ناحية المؤلف ، أو ظروف النظم ، أو ترتيب الأبيات ، فمن الواجب إذن إخضاع كل أثر من القرن السادس وأوائل السابع لفحص دقيق قبل قبوله » .

« وشايع العلماء أمثال موير وباسية وليال وبروكلمان طوال ثلاثين سنة المستشرقَين : نولدكه وأهلوارد في موقفهما الحذر ، على أننا نلحظ عند ليال شكاً متصاعداً في قيمة المعطيات الإخبارية ، ومن ثم في أهمية النصوص المعترف بجاهليتها . ويظهر الموقف ذاته حوالي سنة ١٩٠٤ عند كليمان هوار [١] » .

وفي سنة ١٩١٦ نشر المستشرق مرجليوث Margoliouth بحثاً عن الشعر الجاهـلي ، في المجلة الأسيوية الملكية ، وكان قد تحدث عن وضع الشعر الجاهلي قبل ذلك في مادة « محمد » من دائرة معارف الأديان والأخلاق Encyclopaedio of Religion and Ethics. وفي كتابه عن « محمد وظهور الإسلام» Mohammed and the rise of Islam وقدتصدى للرد عليه سير تشارلز ليال Lyall في مقدمة ترجمة المفضليات ، ولكن مرجيلوث عاد ونشر في المجلة السابقة (عدد يوليو سنة ١٩٢٥) بحثاً عنوانه : « أصول الشعر العربي » The origns of ArabicPoetry وقد أطال في هذا البحث ، وذكر فيـه الشبه التي دعته إلى الشك في الشعر الجاهلي [٢] ، وحملته على أن يقول إن

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ، ص ١٧٦ ،

(٢) لخص هذه المقالة تلخيصاً وافياً الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابـه « مصادر الشعر الجاهلي » ص ٣٥٢ وما بعدها .

الشعر الذي جمع ونسب إلى الجاهليين مصنوع ومنحول ، وصُنع في العصور الإسلامية ، ونسبه واضعوه إلى شعراء جاهليين زوراً وبهتاناً .

وملخص مقالته باختصار ، أنه كان قبل الإسلام في الجزيزة العربية شعر وشعراء بدليل ورود الإشارة إلى ذلك في القرآن ، ثم يتعرض لوصف القرآن للشعراء ، ويشير إلى العدد الكبير من الشعراء الجاهليين الذي وردت لهم أشعار في الأدب الجاهلي ، ويشك في أن الشعر الجاهلي قد حُفظ بالرواية الشفهية لأن الإسلام – في نظره – ما كان يحث على ذلك ، ولكنه في الوقت ذاته يحاول أن ينفي أن الشعر الجاهلي كتب كذلك ، إذ أنه لو حفظ بطريق الكتابة ، لكان للعرب – في نظره – كتاب أو كتب ، والقرآن ينفي أنه كان لهم كتاب ، ويزعم أن الشعر الجاهلي الموجود مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه ، ويرى ان التطور من الأسلوب القرآني إلى الأسلوب الشعري المنتظم يبدو – في نظره – متمشياً مع المألوف ، وهو بهذا يعتقد أن الشعر الجاهلي وضع بعد الإسلام بعد أن سمع العرب القرآن ، فتأثروا به ، فقالوا شعرهم بلغته وساروا بفنهم من الصور الشاذة إلى المنتظمة .

فكأنه يريد أن يقول إن العرب قبل الإسلام ، كان لهم شعر وفيهم شعراء ولكن شعرهم لم يكن كامل النضج ، ولا في درجة عالية من التهذيب والكمال كالتي نرى عليها الشعر الجاهلي المنسوب إلى الجاهليين ، وبعد أن سمع العرب القرآن – وفيه ، كما يدّعي ، النثر المسجوع وأمثلة من الأوزان الشعرية – تطوروا بفنهم الشعري إلى هذه الدرجة العليا من النضج والكمال التي نرى عليها الشعر المنسوب إلى الجاهليين .

ويجره الحديث إلى الرواية والرواة ، فيتحدث عن سوء أخلاق الرواة أمثال حماد وخلف ، ويذكر ما قاله كل من الرواة في الآخرين ، ويدّعى أنهم لم يكونوا يُوثق بعضهم بعضاً ، وينكر الرواية بحجة أن الشعراء الجاهليين كانوا لسان الوثنية الناطق ، وقد أبطل الإسلامُ الوثنية وحاربها ، فلم يكن هناك مجال في نظره لحفظ تلك الأشعار التي قيلت في نظام أبطله الإسلام .

وهو بهذا كله ينكر أن الشعر الذي بين أيدينا منسوباً إلى الجاهليين ، ليس لهم ، وإنما قيل بعد الإسلام ونسب إليهم ، ويستمر في إيراد الأدلة التي يعتقد أنها تؤيد رأيه هذا ، فيدعي أن الشعر الجاهلي المنسوب الى الجاهليين يحمل في طياته دلائل بطلانه ، ذلك أن فيه كثيراً من القصص الديني الذي ورد في القرآن، وفيه كلمات إسلامية مثل الحياة الدنيا ويوم القيامة والحساب، وليس فيه ما يشير إلى الآلهة المتعددة التي كانت عند الجاهليين ، وأن آراء الشعراء الجاهليين في الموضوعات الدينية تبدو مماثلة لما في القرآن . وأنه لا يرى في الشعر المنسوب إلى الجاهليين أثراً للاختلاف بين لهجات القبائل ، ولهجات الشماليين والجنوبين ، ويرى أنه من الصعب عليه أن يتصور أنه كانت هناك لغة مشتركة في أنحاء الجزيرة قبل الإسلام ، وينتهي إلى أن الشعر الذي ينسب إلى العرب قبل العصر الأموي مشكوك فيه ، بحجة أن الممالك التي كانت في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت لها حضارة راقية، ولكن النقوش التي عثر عليها لهم وبخاصة في اليمن ، لا تدل على وجود أي نشاط شعري لها . فكيف يمكن تصديق أن بَدْواً أقلّ رقياً من هذه الممالك المتحضرة بكثير كان لهم شعر في هذه الدرجة العالية .

وقد دحض نظريته هذه المستشرق برونليخ Braunlich بأننا نرى مثلا بعض الأقوام الابتدائيين كالأسكيمو وسكان جزر « سالمون » لا علاقة للشعر عندهم بالحياة الاجتماعية ، وعليه فعدم وجود الشعر في النقوش الحميرية يؤيد فقط نقص الروابط بين الحضارة الجنوبية ونوع الحياة البدوية في الشمال »[1].

ومن ينظر في كلام مرجليوث السابق يجد أنه تضمن أفكاراً عجيبة ، لا تعتمد على سند عقلي سليم .

فهل من المعقول أن التقاليد الشعرية التي كانت لدى العرب قبل الإسلام كانت شاذة ، وغير منتظمة ، ولم تصبح في الدرجة العليا التي نرى عليها

---

(١) بلاشير ، ص ١٨٠ .

الشعر المنسوب إلى الجاهليين إلا بعد أن تطوروا بهـا بعد أن سمعوا ما في القرآن من سجع ، وبعض التراكيب الموزونة ؟

وإذا كان القرآن نفسه يهـاجم الشعر والشعراء ، فكيف يجيء فيه شعر أو يحاكى أسلوب الشعراء ؟ إن ذلك لبعيد كل البعد عن القرآن . ثم هل من المعقول أن ما تضمنه القرآن من بعض الالفـاظ الموزونة كفيل بأن يجعل العرب في فترة أقل من قرن يتطورون بفنهم الشعري من بدائية وفطرية وشذوذ إلى أوزان منتظمة موسيقية متنوعة ، وإلى أسلوب شعري في درجة عليا من النضج والكمال .

وإذا كان مرجليوث ينكر الرواية الشفهية ، والكتابة ، في المحافظة على الشعر الجاهلي ، فبأي الوسائل كان يحفـظ ، أو يتناقل من مكان إلى آخر ، ومن جيل إلى جيل؟ إنه لمن البديهي أن نقول إن الأغاني والأناشيد التي يرتلها الأميون ومن هم على الفطرة يتناقلونها من جيل إلى جيل عـن طريق الرواية الشفهية ، إن لم تجد من يدوّنها ، والكتاب الذي ينفي القرآن وجوده بـين العرب يقصد به الكتاب الديني المقدس .

ثم إن الطعن في الرواة جميعهم ، ورفضهم كلهم بحجة سوء أخلاق بعضهم أو بسبب بعض كلمات تقال ، طعناً فيهم ، بدافع الغيرة والتنافس ، أمر لا يستسيغه المنطق ، ولا يقبله عاقـل . ولماذا لا نأخذ في الاعتبـار شهادات الاعتراف بالأمانة والصدق والنزاهة التي قيلت في كثير من الرواة الصادقين .

وهل يتصور عاقل أن الإسلام اخترع ألفاظاً جديدة لم يكن للعرب بهـا سابق عهد ؟ إذن كيف كان العرب يفهمونها لو كان الأمر كذلك ؟ المعروف ان الإسلام قد أدخل معاني جديدة، ومفهومات جديدة لألفاظ كانت معروفة ومستعملة لديهم .

وأما عدم وجود أثر للآلهة المتعددة عنـد العرب في الشعر المنسوب إلى الجاهليين ، فهذا سوف نبحثه مع أشياء أخرى عندما نعرض لآراء بعـض

الباحثين فيما بعد إن شاء الله ، وكذلك الحـال في شأن اختلاف اللهجات بين العرب قبل الإسلام .

ومن الأساتذة المستشرقين الذين أفاضوا في الحديث عن قضية الانتحال في الأدب الجاهلي الدكتور ريجيس بلاشير ، فقد عقد لذلك فصلاً طويلاً [1] ، بدأه بأن الحديث عن صحة الشعر الجاهلي قديم قدم الشعر نفسه ، وأثنى على جهود علماء العراق وقت التدوين في تحريهم الحقيقة ، ثم عرض بعد ذلك آراء كثير من المستشرقين أمثـال مرجليوث ، وبرونليخ ، ونولدكه ، وأهلوارد ، وجولدزيهر ، ونور اندريه ، ووليم مارسيه ، وتريتون؛ وعقد بعض مقارنات بين آرائهم حول هذه القضية ، كما عرض لرأي الدكتور طه حسين ، الذي سيأتي الحديث عنه بالتفصيل إن شاء الله . ثم يستعرض هو نفسه الموضوع من جانب متعددة ، فيقول [2] عن الجوانب الـتي تثير الشكّ في الأدب العربي القـديم :

« إننا إذا فحصنا النصوص الشعرية الجاهلية بمجملها ، وجدنا أولاً أن الشكوك التي أثارتها يجب أن تمتد آثارها إلى آثار معاصرة الإسلام، أو جاءت بعده بقليل . وتجدر الإشارة من جهة ثانية إلى أن الانتحال لا يبقى محصوراً في الشعر ، بل يتناول النثر ، حتى لنستطيع الجزم أن ليس لدينا – باستثناء القرآن – سطر واحد من النثر يرجع تاريخه إلى هـذا العهد . ومن الضروري إذا أردنا أن نتبين حقيقة المسألة بأن نشير إلى أن هناك كمية من الآثار القديمة التي أفسدتها الرواية الشفهية والتدوين ، امتزجتـا بآثار منحولة ذات مظاهر مختلفة، ومنها قطع أدبية بديعة، صنعت حسب التقاليد الشعرية المتبعة طوال النصف الثاني للقرن السابع ، في حين أن مصادرها أقدم من ذلك ، دون ريب ، وقسم آخر على العكس قطع منحولة ، صنعت بسذاجة وقلة دراية ، تكفي تجربة قليلة للكشف عن حقيقتها . ولا بد إذن من عمل مزدوج سواء

(١) قضية الشعر الموضوع ، تاريخ الأدب العربي لبلاشير ، ص ١٧٦ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

أكان المقصود قطعاً أدبية، أو أشعاراً منحولة».

ثم يذكر طائفة من الشعر المدسوس، فيقول [1]: «إننا نفرد دون تردد كمية هائلة من الشعر المدسوس في أساطير وردت في سيرة ابن هشام، وكتاب التيجان لعبيد بن شرية، وكتاب الأغاني؛ إن هذا الإفراد يتناول قطعاً منسوبة إلى العمالقة، والثموديين، كما يتناول أيضاً قصائد ذات طابع ديني أمثال قصائد ورقة أو أمية بن أبي الصلت، أو قصائد متأخرة ذات طابع سياسي، وديني، منسوبة إلى أقرباء النبي ﷺ، كأبي طالب، وابنه علي» ويتطرق في حديثه إلى إنكار بعض نصوص فيها طابع ديني:

وظاهر أنه في كلامه هذا يردد كثيراً مما قاله الباحثون القدماء من العرب، فهم قد تبينوا صنع كثير مما أشار إليه في كلامه السابق. وأما النصوص الجاهلية ذات الطابع الديني، فلنا عندها وقفة فيما بعد إن شاء الله.

ثم يتحدث عن الطريقة التي يمكن بها معرفة الدخيل من الأصيل، في نصوص الأدب الجاهلي، فيقول [2]: «إن في خواص المقلدات أن تكون أكثر أصالة من الأصيل، ولكي نكشفها بين كتلة الشعر الذي قيل إنه جاهلي، وجب أن يكون في حوزتنا آثار غير مشكوك في صحتها، يمكن أن تتخذ معياراً إذا صح التعبير، وهذا ما ينقصنا بالضبط، لأننا مجبرون على اللجوء إلى عصر متأخر، لكي تكوّن فكرة عن هذه التقاليد الشعرية السابقة للقرن السابع، ثم لو فرضنا أننا نملك هذا العنصر المميز، فهل نستطيع الانتفاع به للكشف عن مبالغات القطع المقلدة؟».

وهو في كلامه هذا يرى أننا نستطيع الكشف عن الآثار المنحولة بمراجعتها مع آثار قيلت في عصر متأخر. وذلك كما نرى فيه تجاهل للنصوص التي أجمع الرواة والعلماء والثقات على أصالتها وصدقها من تراث الجاهليين.

ولكنه يعقب على هذا المعيار بأنه غير مجد، ولن يفيد شيئاً، ثم يتابع

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦.

كلامه عن عدم جدوى هذه المحاولة ، إذ يقول [1] : « لقد فقدنا ، منذ عصر المفضل ، الأمل في تمييز المنحولات التي دسها حماد الراوية أو خلف الأحمر في كتلة الآثار المشهورة بصحتها . وهل نجسر ، دون شيء من السخرية ، على الجزم بأننا في وضع أكثر ملاءمة للنجاح في مهمتنا من علماء القرن الثالث (التاسع للميلاد) ؟ » ثم يستمر فيقول : « وهنا أيضاً يجب العدول عن ذلك فعوضاً عن التمادي ، دون جدوى ، في هذا البحث العقيم ، فلنحول أنظارنا إلى مسائل أخرى من ذات النوع » .

ويعود إلى الاعتراف بالحقيقة ، فيصرح بأننا إذا طرحنا جانباً، كل الآثار التي شك فيها الأقدمون ، تبقى لنا بعد ذلك من النصوص الجاهلية ما يعكس لنا صورة الشعر الجاهلي بوجه عام ، فيقول [2] : « ولا شك أنه يجب ، في البحث الذي سردناه ، أن ندع جانباً آثار الشنفري التي اعتبرها بعض علماء المسلمين في القرون الوسطى منحولة ، كما أنه من دواعي الحذر ألا نعتبر الآثار التي وضعها حماد تحت اسم امرىء القيس ، كما نضرب صفحاً عن القصائد التي تدل الظواهر على أنها تمارين تلاميذ ، أو تقليدات قصد منها التهكم أو إظهار البراعة أو تأليف مقلد مدّع ، حتى إذا وضعنا هذه القصائد جانباً ، كما يمليه الحذر، أكثر منه إبعاد المنحول ، وجدنا أنفسنا أمام كمية هائلة من المقطوعات أو القصائد التي يمكن اعتبارها انعكاساً للشعر الجاهلي بصورة عامة » .

وهو هنا يعترف بوجود آثار يمكن أن تصور حالة العصر الجاهلي الأدبية بصورة عامة ، ولكنه اتخذ جانب الحيطة والحذر،فلم يقبل أن ينص صراحة على أن ما سوى المشكوك فيه ، نصوص جاهلية أصيلة مقطوع بصحتها ، ولا شك أن ذلك مما يغمط العلماء والرواة الثقات حقهم ، مع أنه نوه بجهودهم في البحث والتمحيص ، فكان الأولى به أن يقبل ما قبلوه ، ويقطع بصحته

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٧ .

وأصالته تبعاً للنتيجة التي انتهوا إليها بعد بحوثهم ودراساتهم التي قاموا بها في هذا السبيل .

وبعد أن نصح في كلامه السابق، بترك الجدل في موضوع الأصيل والدخيل، والاتجاه إلى « مسائل أخرى من ذات النوع » ، بدأ يتحدث عن أثر الرواية الشفهية في النصوص المنسوبة إلى الجاهليين ، فقال [٢] : « إن الرواية الشفهية كان لها نتائج سيئة في الآثار التي ترجع إلى القرن السادس الميلادي ، وإن قسماً ضئيلاً من الشعر الجاهلي قد وصل إلينا ، وإن ما أوجدته الظروف الخاصة ، وما نتج عن الارتجال ، ذهب أدراج الرياح ، وإن ما تبقى من هذا الشعر فهو من انتخاب الرواة والجامعين أو العلماء ، وإن هذه النصوص تعطينا صورة جزئية جامدة عما كانت عليه في ذلك العصر » .

والحق أن الرواية الشفهية ، إن كان لها بعض النتائج السيئة في ضياع بعض النصوص ، فقد كان لها فوائد عظيمة ، أشرنا اليها فيما سبق ، ومن أهمها البعد عن التصحيف والتحريف الذي ينشأ من الكتابة وقراءتها وإذا كان الذي وصلنا من الأدب الجاهلي قسم ضئيل مما أنتجه الجاهليون ، فليس ذلك راجعاً إلى الرواية الشفهية وحدها ، إنما كان أيضاً لظروف أخرى تحدثنا عنها سابقاً ، وقد بيّنها الباحثون القدماء بإيضاح . ثم النصوص التي حفظها لنا الرواة وقاموا بتدوينها وبقيت لنا إلى اليوم كفيلة بأن تعطينا صورة حية لما كانت عليه الحياة في ذلك العصر ، من معظم نواحيها ، إن لم تشمل كل النواحي ، ومن أهمها الناحية الأدبية .

ثم أنتقل إلى الحديث عن لغة الشعر ، وما أصابها ، فقال [٢] : « ومما لا ريب فيه ، من جهة أخرى ، أن لغة الشعر الجاهلي قد أصابتها تحريفات قبل تدخل الكتابة ، فنحن واجدون في النصوص المذكورة أن الشعراء أيّاً

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة ، منزهة ، بصورة عامة ، عن كل أثر لهجي ، خاضعة لقواعد تركيبية ، هي بصورة مجملة ، قواعد نحاة البصرة ، ولا شك في أن القصائد الجاهلية قد جردت ، بتأثير كبار الرواة ، من كثير من الظواهر اللهجية ،كما أن التثبيت الكتابي بدوره أتم توحيد اللغة ، وحتى الأسلوب .

وبلاشير هنا لا يتخذ وحدة اللغة في الأدب الجاهلي سبباً في الطعن في أصالته ، ولكنه ينحو باللائمة على الرواة ، فهم في نظره ، الذين حرفوا اللهجات القبلية التي كانت في آثار أدباء القبائل المختلفة لهجاتهم ، وحوّرها الرواة – أو حرّفوها على زعمه – فجعلوها كلها لغة واحدة . وذلك ، بطبيعة الحال ، شيء مستبعد حصوله ، إن لم يكن مستحيلاً ، وإلا فأين هذه المجتمعات والمحافل التي كانت تعقد بينهم للإجماع على التحوير أو التحريف ؟ ، وإذا كانت حدثت فلماذا لم تتناقلها الأخبار ، ويكتب عنها التاريخ ؟ حقيقة قيل إن الرواة قد يحدث أن يضعوا كلمة مكان كلمة ندت عن ذاكرتهم ، وهم في ذلك يحافظون على المعنى المقصود بألفاظ أدبية فصيحة ، والواقع أن الرواة لم يتدخلوا في توحيد لغة الأدب الجاهلي بتحريف لهجاته الأصلية وتغييرها ، إنما توحيد لغة الأدب الجاهلي ، كان قبل الرواة بعصر طويل ، بل كان قبل الإسلام بأكثر من قرنين ، فالرواة لم يوحّدوا لغته ، وإنما تلقوه متحداً في اللغة والأسلوب من شعراء جميع القبائل العربية ، وقد فصلنا القول في ذلك بإسهاب في حديثنا عن لغة الأدب الجاهلي .

والصورة التي وجدت عليها النصوص الأدبية لم يجعلها الرواة خاضعة لقواعد نحاة البصرة ، وإنما من هذه النصوص استُنبِطت قواعدُ النحو ، ورتبها ونظمها نحاة البصرة والكوفة من بحثهم لهذه النصوص ودراساتهم لها. فهي سابقة على عملية استنباط هذه القواعد وتنظيمها ، ولم تُعمَل هذه النصوص على مقتضى هذه القواعد ، وإلا لما وُجدت فيها هذه النصوص الكثيرة التي ينص العلماء على وجود شذوذ نحوي أو صرفي ، في كل منها .

ثم يتحدث عن الناحية الدينية في النصوص الجاهلية ، ويعقب على آراء جولدزيهر ودورنبوج وباسيه وليال ، وسنعرض لهذه الناحية فيما بعد إن شاء الله .

أما الباحثون العرب ، فأشهر من تحدث في قضية انتحال الأدب الجاهلي منهم اثنان ، هما الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، والأستاذ الدكتور طه حسين .

فالأستاذ مصطفى صادق الرافعي عرض هذه القضية عرضاً مفصلاً في كتابه « تاريخ أدب العرب » الذي ألفه سنة ١٩١١ م ، وقد جمع كل ما قاله الباحثون القدماء حول هذا الموضوع ، فذكر ما قيل حول استكثار القبائل من أشعارها حينما وجدت أن ما لها منه قليل، وأن أكثرها في ذلك كانت قبيلة قريش[١]، ثم تحدث عما قيل في الشواهد وأنه دخلها كثير من الوضع والاختلاق، فالعلماء كانوا في حاجة إلى الشواهد في تفسير الغريب ، ومسائل النحو[٢] ويذكر أن الكوفيين اتهموا بأنهم كانوا أكثر الناس وضعاً للشعر الذي يستشهدون به لضعف مذهبهم، وتعلقهم بالشواذ ، واتخاذهم منها أصولاً يقاس عليها ، فكانوا يتخذون من الشاذ أصلاً[٣] ، ويقال إن أول من سنّ لهم هذه الطريقة شيخهم الكسائي ، ولهذا يقولون إن الكوفيين اضطروا إلى الوضع فيما لا يصيبون له شاهداً إذا كان العرب على خلافهم ، ولذلك كثيراً ما نجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف قائله .

ويتعرض كذلك للشواهد التي كان يخترعها بعض المتكلمين والمعتزلة ليستشهدوا بها على آرائهم[٤]، ويذكر ما جاءوا به ليثبتوا أن معنى الكرسي

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٣٦٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧٠ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٧٣ .

هو العلم في قوله : « وسع كرسيه السموات والأرض » ، إذ قالوا شطر بيت لشاعر مجهول : هو :

ولا يُكَرْسىء علم الله مخلوق

ثم ذكر أثر القصص في انتحال الشعر ، فقال إن القصاصين لما كثروا اضطروا أن يضعوا الشعر لما يلفقونه من الأساطير ، ليثبتوا تلك الأساطير في أفئدة العامة ، فوضعوا الشعر على آدم ، ومن دونه من الأنبياء ، ثم جاوزوا ذلك إلى عاد وثمود ، كما أن للاعراب شعراً ينسبونه إلى الجن [1] .

ثم عرض ما قيل في شأن الرواية ، والرواة، فقال إن الاتساع في الرواية كان من أسباب الوضع ، فالرواة كانوا يتهافتون على الشعر ، ويتسابقون على روايته ، لأنه عمود الرواية وزينتها ، وكان التسابق فيه من جهتين : الاتساع في الرواية ، ومعرفة تفسيره والبصر بمعانيه . ويذكر أن بعض الفحول من الرواة كانوا يحبون أن يتسعوا في روايتهم ، فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم من أبوابها، إظهاراً لتفوقهم، وأنهم يعرفون ما لا يعرف غيرهم ، وأن ذاكرتهم أقوى من سواهم ، ولذلك كانوا يضعون على فحول الشعراء قصائد لم يقولوها ، ويزيدون في قصائدهم التي تعرف لهم، ويضرب مثلاً لهؤلاء الرواة بحمادالراوية وخلف ، ويذكر نبذاً مما قيل عن رواية كل منهما [2] .

فالأستاذ الرافعي قد استقصى كل ما قاله الباحثون من العرب القدماء ، وجمعه في القسم الذي خصصه لهذا الموضوع .

أما الدكتور طه حسين ، فقد ألمّ بالموضوع من جميع نواحيه ، ووقف على ما قاله جميع الباحثين من العرب والمستشرقين حول قضية الانتحال ، وكوّن له في ذلك رأياً ، شرحه في كتاب نشره في سنة ١٩٢٦ ، سماه « في الشعر الجاهلي » ثم نشره في السنة التالية باسم « في الأدب الجاهلي » ، وقد أحدث

(١) المصدر السابق ، ص ٣٧٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧٩ .

هذا الكتاب حينئذ رجة عنيفة ، فألف بعض الباحثين كتباً في الرد عليه ، من أهمها :

١ – النقد التحليلي لكتاب « في الأدب الجاهلي » ، للأستاذ محمد أحمد الغمراوي .

٢ – نقد كتاب « في الشعر الجاهلي) ، للأستاذ محمد فريد وجدي .

٣ – نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » ، للأستاذ محمد الخضر حسين .

٤ – الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعة .

٥ – تحت راية القرآن للأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

وكتاب الدكتور طه حسين قسّمه سبعة أقسام، سمّى كل قسم منها كتاباً:

الأول : الأدب وتاريخه .

الثاني : الجاهليون : لغتهم وأدبهم .

الثالث : أسباب نحل الشعر .

الرابع : الشعر والشعراء .

الخامس : شعر مضر .

السادس : الشعر .

السابع : النثر الجاهلي .

وهذا الكتاب يدور حول رأي الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي الذي انتهى إليه بعد البحث والتفكير ، والقراءة والتدبر ، وقد لخص رأيه هذا بقوله [١] : « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ، ولا يدل

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ٦٥ .

على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الصحيحة لهذا العصر الجاهلي » .

وظاهر أن الدكتور طه حسين في رأيه هذا متأثر بآراء الذين يطعنون في أصالة الأدب الجاهلي من المستشرقين ، وعلى الأخص مرجليوث ، ويعلق بلاشير على ذلك فيقول [1] . « وينفرد طه حسين عن مرجليوث في نقطة واحدة ، فهو يسلم مبدئياً بأن ليس كل ما يسمى بالشعر الجاهلي مصنوعاً ، ولكن ما بقي من القديم منه قليل لا يمثل شيئاً ، ولا يدل على شيء . وهكذا فهو بوقوفه موقفاً حذراً اقترب بفكرته من آراء عدد من المستشرقين، أمثال جولد زيهر ، ونور أندريه ، ووليام مارسيه ، وتريتون ،وغود فروا ، وديمونتين ، وبرونليخ (في نقده الثاني لبحث مارجيلوث سنة ١٩٢٧)،ويعتقد هؤلاء أن نولدكه وأهلوارد، ومدرستيهما يفسحون مجالاً واسعاً للشعر الصحيح في الشعر المسمى بالجاهلي . وهم وإن لم يثبتوا نظرية مرجليوث الجريئة ، فقد وقفوا موقفاً فيه تحفظ . وفي الواقع هم يشايعون إلى حد ما ويليام مارسيه في قوله : إن كل شيء في الأدب الجاهلي غير موثوق به ، فالتاريخ اعتباطي ، ونسبة الآثار إلى أصحابها مترجرجة ، وموضوعة بصورة تحكمية ، وصحة العدد الكبير من الأبيات ، بل القصائد يفتقر إلى الأدلة ، ولا شك أنهم يوافقون ويليام مارسيه ، ومن ورائه النقاد ، في عدم إمكان الاستغناء بصورة عامة عن هذه الكمية الهائلة من الشعراء ، وإنه لدينا مقطوعات من الشعر لم يطرأ عليها الفساد ، ولكن الاتفاق لم يكن إجماعياً على هذه الا ثار التي سلمت من عوادي الزمن » .

ومن رأي الدكتور طه حسين ، يتبين واضحاً أنه لا يشك في كل الأدب المنسوب إلى الجاهليين ، بل الشك عنده ينصبّ على الكثرة المطلقة من هذا الأدب ، ومعنى هذا أن هناك قلة قليلة منه موضع الثقة والقبول ، ولكنه يعود فيقول إن هذا الجزء القليل الصحيح الباقي من الأدب الجاهلي لا يدل على

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ، ص ١٨٢ .

شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الصحيحة لهذا العصر .

والحق أن ما وصل إلينا مما قاله العرب الجاهليون قليل ، وقد نص على ذلك الرواة الأقدمون ، نصاً صريحاً واضحاً ، من ذلك قول أبي عمرو بن العلاء المشهور : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » . [١]

ربما تكون القلة القليلة التي يعنيها الدكتور طه حسين غير ذلك الجزء القليل الذي يعنيه أبو عمرو بن العلاء ، ولكن يبدو أن هناك جزءاً ما متفقاً على صحته وأصالته. وإذا كان هذا الجزء - ولو قليلاً - صحيحاً وأصيلاً ، فلماذا نهمله ولا نعتمد عليه في أي شيء ؟ أعتقد أنه إن لم يكن كافياً لإعطاء صورة كاملة للعصر الجاهلي ، فليس أقل من أن يعطينا صورة صحيحة جزئية تمثل الناحية التي هو نص صريح فيها .

وإذا كانت المسألة مسألة رأي واعتقاد ، فهناك آراء كثيرة تجعل هذا الجزء الصحيح الباقي لنا من أدب الجاهليين موضع احترام ، ونرى أنه مرآة صادقة للعصر الجاهلي ، وإذا كانت آراء الباحثين من العرب التي تؤيد ذلك موضع جدال ، فهناك كثير من المستشرقين يعتقدون ذلك ؛ فمنهم نيكلسون إذ يقول : [٢] « إن مزايا العصر الجاهلي ، وخواصه ، مرسومة صورها (كما تعكس صور الأشياء في المرآة) بأمانة ووضوح في الأغاني والأناشيد التي نظمها الشعراء الجاهليون » ويقول : [٣] « إن الأدب الجاهلي ، المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام الجاهلية تصويراً أقرب ما يكون من الدقة في مظاهره الكبرى » .

ويقول ثوربيكه Thobreke الألماني ، في كتابه « عنترة أحد شعراء الجاهلية » ، (ص ١٤) : « لانملك مصدراً موثوقاً منها لتدوين تلك الغارات

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ص ١٠ .

(٢) Literary History of the Arabs, P. 26 .

(٣) P. 27 .

البدوية سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية » . ويقول (ص ٢٩) : « يمكن تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها ، فقد صور العرب أنفسهم في الشعر صورة منطبقة على الحقيقة بدون تزويق ولا تشويه » [١] .

ويقول نولدكه في كتابه عن الشعر العربي القديم (ص ١٧ ، طبع هانوفر سنة ١٨٦٤): « إن عادات عرب الجاهلية وأحوالهم معلومة لنا بدقة ، نقلاً عن أشعارهم » [٢] . وقد كان الباحثون والمؤرخون الذين يتصدون للبحث في تاريخ العرب الجاهليين يتخذون من نصوص الأدب الجاهلي ، أهم مصدر يعتمدون عليه في بحوثهم ، وما زال الباقي منه إلى اليوم ، من أهم المراجع للباحثين في أحوال العرب قبل الإسلام .

وكأن الدكتور طه حينما دعا إلى عدم الاعتماد على البقية الباقية من تراث الجاهليين الأدبي في تصوير حالة الجاهليين ، أحس أن الباحثين دائماً يتطلعون إلى المصادر الهامة التي يعتمدون عليها في بحوثهم، فكان أن وجَّه الأنظار إلى المصدر الذي يعتقد أنه خير ما يصور حالة العرب قبل الإسلام ، فقال : [٣]
« إذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرىء القيس والنابغة والأعشى وزهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي ، لأني لا أثق بما ينسب إليهم ، وإنما أسلك إليها طريقاً أخرى ، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن ، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي، ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه . أدرسها في القرآن وأدرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي ، وجادلوه ، وفي شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ، ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي ألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام . بل أدرسها في الشعر الأموي نفسه ،

(١) الشهاب الراصد ، ص ٤٠ .
(٢) الشهاب الراصد ، ص ٤١ .
(٣) في الأدب الجاهلي ، ص ٧٠ – ٧١ .

فلست أعرف أمة من الأمم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة في الأدب، ولم تجدد فيه إلا بمقدار، كالأمة العربية. فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذي الرمة والأخطل والراعي أكثر من ظهورها في في هذا الشعر الذي ينسب إلى طرفة وعنترة وبشر بن أبي خازم».

ثم يسير في بيان الأسباب التي دعته إلي توجيه الباحثين عن صورة صادقة لحياة الجاهليين أن يلتمسوا ذلك في القرآن، فيحاول أن يشرح أن القرآن صوّر حالتهم الدينيه خير تصوير، ووصف حياتهم العقلية والاقتصادية والاجتماعية أحسن وصف.

فأما عن تصويره لحياتهم الدينية، فيقول: [٢] «فأنت ترى أن القرآن حين يتحدث عن الوثنيين واليهود والنصارى، وغيرهم من أصحاب النحل والديانات، إنما يتحدث عن العرب، وعن نحل وديانات ألفها العرب، فهل يبطل منها ما يبطل، ويؤيد منها ما يؤيد، وهو يلقى في ذلك من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من السلطان على نفوس الناس، وإذن فما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الأدب الذي يضاف إلى الحاهليين، ونتيجة البحث عنها في القرآن. فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة، بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفوس، والمسيطرة على الحياة العملية، وإلا فأين نجد شيئاً من هذا في شعر امرىء القيس أو طرفة أو عنترة؟ أو ليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين! أما القرآن فيمثل لنا شيئاً آخر، يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال، فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجئوا إلى الكيد، ثم إلى الاضطهاد، ثم إلى إعلان حرب لا تبقي ولا تذر».

---

(٢) المرجع للسابق، ص ٧٢ - ٧٣.

وواضح أن الدكتور طه حسين في هذا يوافق مرجليوث في الطعن في أصالة الأدب الجاهلي لخلوّه من تصوير الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام .

أما أن القرآن نص ثابت ، لا سبيل إلى الشك فيه ، فذلك حق ، ولا جدال فيه ، وأما أن القرآن يصور حياةالعرب الدينية قبل الإسلام ، فذلك أيضاً مقبول ، لأن الناحية الدينية أهم النواحي التي جاء الإسلام لإصلاحها ، وبيان الحق فيها ، فالدين الإسلامي جاء لهداية الناس ، وتبصيرهم بالعقيدة الصحيحة والخلق القويم ، وإخراجهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد ، فكان من الطبيعي أن يبين وجه الفساد والخطأ في المعتقدات الدينية التي لا تتمشى مع هذه المبادىء ، ولا تتفق مع العقل السليم والتفكير السديد ، ومن ثم كان لا بد أن يفيض في محاربة عبادة الأوثان التي لا تضرّ ولا تنفع ، ومعارضة الذين يتمسكون باتباع آبائهم وأجدادهم بغير استعمال العقل والتفكير الصحيح ، ومجادلة أصحاب العقائد التي لا تتمشى مع مبادئه ومناهجه . ومن ثم نتوقع أن نجد في القرآن الكريم تصويراً تاماً للحياة الدينية التي يحياها العرب في الجاهلية ، لأن الدين الصحيح كان الغرض الأساسي من الدعوة الإسلامية .

لكن مقارنة الشعر الجاهلي بالقرآن الكريم في هذه الناحية، أمر لاينبغي أن يكون ؛ ذلك لأن الشعر ليس من أهدافه الوعظ والإرشاد ، ولا الدخول في جدل أياً كان نوعه ، وبخاصة في النواحي الحساسة التي تمس مشاعر طوائف معينة كمسائل الدين والعقيدة ، حقيقة إن الأديب – كغيره من الناس – له إحساسه الديني ، وعواطفه الدينية ، ولا شك أنه – من المحتمل جداً – قد تحركت مشاعره الدينية، فتغنى بشعره ليصور ما يجيش بجوانحه من عواطف دينية فياضة ، كما نرى في كثير من النصوص الأدبية ، في عصرنا الحاضر ، وفي غيره من العصور، في جميع الأمم. ولذلك، من الجائز – بل من المؤكد – أن كان من الشعراء الجاهليين من تغنى بعاطفته الدينية ، وصوّر أثر عقيدته في نفسه ، أو تحدث عن الشعائر الدينية في شعره ، لا شك أن ذلك قد وجد

في الشعر الجاهلي ، إن قليلاً وإن كثيراً ، ولكننا نعلم أن الشعر الجاهلي ظل يحفظ ويتناقل عن طريق الرواية والمشافهة منذ العصر الجاهلي ، وفي العصر الإسلامي إلى أن دوّن فيما بعد ؛ ومن المعلوم أن الدين الإسلامي الجديد جاء بمبادىء جديدة في العقيدة والدين والمعاملات ، وأبطل كل ما كان مخالفاً لمبادئه وقوانينه ، وطالب متبعيه بتركها ، والتمسك بأسس الدين الجديد وقواعده ، والقيام بكل ما أمر به ، والبعد عن كل ما نهى عنه. ومن ثم كان من أول الأشياء التي لا يهتم بها الرواة المسلمون تلك النصوص التي تتصل بهذه الديانات والعقائد التي جاء الدين الإسلامي لإبطالها والنهي عنها ، ولذلك لن يكون عجيباً ألاّ نجد في الأدب الجاهلي عامة والشعر منه خاصة ، ما يصور فيض المشاعر الدينية عند العرب الجاهليين ، وخلو الأدب الجاهلي من الحديث عن العواطف الدينية التي كانت مسيطرة على العرب الجاهليين لا ينبغي أن يتخذ سبباً للطعن في أصالة الأدب الجاهلي ، ولا ينبغي أن يقال فيه لذلك إنه يصوّر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني والعاطفة الدينية ، المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية ، فمن المقطوع به أن كثيراً من الشعراء قد تغنوا في قصائدهم بذكر آلهتهم كاللات والعزى وغيرهما ، وتحدثوا عن شعائرهم الدينية الوثنية وغيرها التي كانت منتشرة بينهم ، لكن مثل هذه النصوص لا ينتظر خلودها ، لأنها كانت في عقيدة فاسدة ، وطقوس دينية باطلة جاء الدين الإسلامي لمحاربتها والقضاء عليها ، مَنْ ينتظر من العرب أن يحافظوا عليها ، وهم قد دخلوا في دين الله أفواجاً ، وأعجبوا بتعاليمه ومبادئه ، واقتنعوا عن عقيدة وإيمان ببطلان ما كانوا عليه ؟ فمن المؤكد ، أو على الأقل مما يغلب على الظن ، أن العرب على العموم ، والرواة على الخصوص ، وكلهم من المسلمين المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم بهذا الدين الجديد الصحيح ، لم يهتموا بهذه النصوص ، ولم يحافظوا عليها ، فلم يدوّنوها ؛ ومن ثم ، ليس غريباً إن نسيها العرب أو تناسوها ، وأغفلها الذين قاموا بتدوين هذا الأدب .

ومع هـــذا فالشعر الجاهلي لا يخلو من أبيات فيها إشارات إلى العقائد والشعائر الدينية التي كانت شائعة بين العرب في الجاهلية ، وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي ، ودواوين الشعراء كثير من الأمثلة على ذلك ، إذ نجد في ثنايا بعض القصـــائد ما يشير إلى شيء من النواحي الدينية . كقول عـــدي بن زيد (١) :

سعى الأعداء لا يألون شراً ... عليك ورب مكة والصليب

وقول أوس بن حجر في وصف الرمح (٢) :

عليه كمصباح العزيز يشبه ... لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

وقوله (٣) :

وباللات والعزى ومن دان دينها ... وبالله إن الله منهن اكبر

وقول امرىء القيس والتوأم اليشكري (٤) :

أحار ترى بريقا هب وهنا ... كنار مجوس تستعر استعارا

وقول طرفة يخاطب عمرو بن هند (٥) :

اني وجدك ما هجوتك والـ ... أنصاب يسفح بينهن دم

وقوله :

للفتى عقل يعيش به ... حيث تهدي ساقه قدمه

(١) شعراء النصرانية ، ص ٤٥٥ .

(٢) شعر الحروب للدكتور علي الجندي .

(٣) أديان العرب ، ص ١٧٢ .

(٤) ديوان امرىء القيس ، ص ١٤٧ ب : ١ . وقيل في شرحه إنه بالغ في وصف النـــار بقوله تستعر استعارا ، وخص نار المجوس لأنهم عبدتها ، فنارهم أعظم ، وأشد استعارا .

(٥) ديوان طرفة للدكتور علي الجندي ، البيت رقم ٤٠٣ .

أخـذ الأزلام مقتسماً فأبى أغواهمـا زلمـه
عند أنصاب لهـا زفر في صعيد جَمَّة أدمه [١]

وقول النابغة الذبياني :

فلا لعَمْر الذي مسحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد
ما قلت من سَيِّيء ممـا أتيت به إذاً فلا رفعت سوطي إلىّ يدي [٢]

وقال جابر بن حني التغلبي النصراني، وكانت النصرانية لا تبيح سفك الدم:

وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى دم

وقول امرىء القيس :

فأدركنه يأخذنَ بالساق والنسا كما شَبْرَق الولدانُ ثوبَ المقَدِّس

فهذا يشير إلى أن رجـال الدين الرهبان كان يُتَبَرَّك بهم، فالمقدس هو الراهب ، وكان إذا نزل إلى صومعته يجتمع الصبيان إليه ، فيخرقون ثيابه ، ويمزقونها تمسحاً به وتبركاً [٣] .

وأمثلة ذلك كثيرة من الأبيات المنتثرة في ثنايا القصائد ، يشير كل منهـا إلى عقيدة ، أو شعيرة دينية . ولكننا لن نجد قصيدة كاملة خالصة في الشعور الديني ، للأسباب المتقدمة . كما حفظت كتب التاريـخ والأدب كثيراً من الأبيات للمشركين والكفار وبخاصة إبان الدعوة الإسلامية وأيام الغزوات [٤].

---

(١) الزلم : واحد الأزلام . الصعيد : التراب . الأنصاب : الحجـارة التي كانوا يذبحون عندها . جمة : كثيرة . أدمه : جلوده ، أي جلود ما حمل الرجل إلى الأنصاب .

(٢) أديان العرب ، ص ١٧٤ .

(٣) ديوان أمرىء القيس ، ص ١٠٤ ، ب : ١٢ .

(٤) راجع كتب السيرة والأغاني وغيره من كتب الأدب مثل طبقات الشعراء لابن سلام عند الكلام على الشعراء الكفار كأمية بن أبي الصلت وابن الزبعرى قبل إسلامه .

ويعلق بلأشير على الناحية الدينية في الشعر الجاهلي ، فيقول [1] : « يظهر لنا الشاعر العربي في القرنين السادس والسابع للميلاد - إلا في أحوال استثنائية نادرة - مزوداً بأفكار دينية ضئيلة . ألم يحذف المسلمون كل ما من شأنه التذكير بعهود الوثنية ؟ يعتقد المستشرقون جولدزيهر ودورنبورج ومارسيه ، وليل ، ومرجليوث ، بحدوث إصلاحات Retouches ذات دوافع دينية أدت إلى حذف الصيغ المقدسة ، وتحاشي الإشارة إلى الوثنية ، واستبدال كلمة الله بكلمة اللات . وفي الواقع إن هذا التطهير ذا المصدر الديني ليس أقل تأكيداً ، فإذا كان حدث فعلاً فهو لم يؤدّ إلى اختفاء تام للصيغ الجامدة ، والإشارة إلى الطقوس الدينية في العصر الجاهلي ، فإن هناك كثيراً من الظواهر لا تزال باقية ، وإذا كانت نادرة ، فإن الزمن هنا وهناك عدا عليها ، كما أن الشاعر العربي في ذلك الزمن كان إما قليل الانشغال بالأمور الإلهية ، أو أنه كان حريصاً على عدم مزجها بأموره الدنيوية . أما الاستعاضة عن كلمة اللات بكلمة الله ، فهي غير مقبولة ، إذ ثبت اليوم أن استعمال كلمة الله كتسمية إلهية عليا ، سابقة للإسلام » .

ثم ينتقل الدكتور طه حسين إلى ناحية أخرى ، فيقول [2] : « ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها ، وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي : يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظاً عظيماً ، أليس القرآن قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون النبي بقوة الجدال ، والقدرة على الخصام ، والشدة في المحاورة ؟ وفيمَ كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون ؟ في الدين وفيما يتصل بالدين ، من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا لحلها : في البعث ، في الخلق ، من إمكان الاتصال بين الله والناس ، في المعجزة وما إلى ذلك . أفتظن قوماً يجادلون في هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ،

(١) تاريخ الأدب العربي ، ص ١٨٨ .
(٢) في الأدب الجاهلي ، ص ١٧٣ .

ويشهد لأصحابه بالمهارة ، أفتظن هؤلاء القوم من الجهـل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين ؟ »

وهنا يقول إن القرآن يصف الحياة العقلية للعرب الجاهليين ويصورهم بأنهم كانوا أقوياء في الجدال والمناظرة كالفلاسفة ، في حين أن الأدب الجـاهلي يصورهم بأنهم جهلاء أغبياء ، غلاظ خشنون . وهو لا شك يشير إلى جدال المشركين في الدين والعقيدة ، وهذا ما سبق أن تحدثنا فيه ، وأحب أن أشير هنا إلى أن العرب الجاهليين كانوا أهل ذكاء ونباهة وقد وضحت هذه النقطة بالتفصيل عند الحديث عن الجاهليين في أول فصل من الباب الأول ، ولكن أودّ أن أبيّن هنا أني أوافق الأستاذ الغمراوي في رده على هذه النقطة إذ يقول [1] : « فأما الحظ الذي أنفقه القرآن في الجهاد بالحجة فعظيم ، لكن عظمه لم يكن ناشئاً عن عظم قدرة على الجدال كانت عند المجادلين ، ولا عن حسن بصرهم بمواطن الحجة ، بل كان ناشئاً عن عظم رسوخ ما كان يجاهده القرآن فيهم ، من اعتقادات وعادات، تأصلت فيهم على مر القرون . فالقرآن أنفق ذلك الحظ العظيم في جهاد العادة لا في جهاد مقدرة على المخاصمة » . فلم يكن جدالهم في الناحية الدينية ناشئاً عن قوتهم العقلية في هذه الناحية ، ولا عن حجج قوية أوردوها ، أو براهين جاءوا بها ، وأخذ القرآن في ردها نصيباً كبيراً ، فالحقيقة أن حججهم وبراهينهم هنا كانت واهية ضعيفة لا سند لها من عقل ، أو تفكير سليم ، إنما هو تأصل العادة ، والتمسك بما كان عليه الآباء والأجداد .

ولا يصور الأدب الجاهلي العربَ قبل الإسلام جهلاء أغبياء ، بل بالعكس إن الأدب الجاهلي بعامة والشعر فيه بخاصة من أهم البراهين التي تنفي عن العرب قبل الإسلام الجهل والغباء ، فهو يثبت أن العرب الجاهليين كان فيهم الذكاء والفطنة ، وسعة الخيال ، ورقة الشعور ، وفيض العواطف النبيلة بمـا

---

(١) الشهاب الراصد ، ص ١٤٨ .

تضمنه من معان سامية ، ونظرات صادقة ، في الكون ، والإنسان ، وحسن التعبير وجمال التصوير .

وبعد ذلك يتحدث عن تصوير اتصال العرب بغيرهم ، في القرآن ، وفي الشعر الجاهلي ، فيقول [١] : « والقرآن لا يمثل الأمة العربية متدينة مستنيرة ، فحسب ، بل هو يعطينا منها صورة أخرى يدهش لها الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلي في درس الحياة العربية قبل الإسلام . فهم يعتقدون أن العرب كانوا قبل الإسلام أمة معتزلة ، تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ، ولا يعرفها العالم الخارجي ، وهم يبنون على هذا قضايا ونظريات ؛ فهم يقولون إن الشعر الجاهلي لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي أثرت في الشعر الإسلامي ؛ لم يتأثر بحضارة الفرس والروم . وأنى له ذلك ! لقد كان يقال في صحراء لا صلة بينها وبين الأمم المتحضرة . كلا ! القرآن يحدثنا بشيء غير هذا ، القرآن يحدثنا بأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، بل كانوا على اتصال قوي ، قسمهم أحزاباً ، وفرقهم شيعاً . أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين : حزب يشايع أولئك ، وحزب يناصر هؤلاء ؟ أليس في القرآن سورة تسمى « سورة الروم » تبتدىء بهذه الآيات : « الم . غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء » ؟ لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين ، فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم ، وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . وكانت إحدى الرحلتين إلى الشام حيث الروم ، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة ، أو الفرس » .

والحق أن الأدب الجاهلي لا يصور العرب في الجاهلية منعزلين عما سواهم

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ٧٤ - ٧٥ .

من الأمم ، وبخاصة من كانوا يجاورونهم ، كالروم والفرس والحبشة ، من ذلك ما يقوله ابن سلام : « وكان أبو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة ، في كلمة قال فيها :

لله درُّهمُ من عُصْبة خرجوا ... ما إن ترى لهم في الناس أمثالا

بيضاً مَرازبةً غرّاً جحاجِحةً ... أُسداً تُربِّبُ في الغيضات أشبالا

لا يَرْمُضون إذا حرَّتْ مغافرُهم ... ولا ترى منهم في الطعن مَيَّالا

مَنْ مِثْلُ كسرى وسابورَ الجنود له ... أو مثلُ وَهْرِزَ يومَ الجيش إذْ صالا

فاشربْ هنيئاً عليك التاجُ مرتفقاً ... في رأس غُمْدان داراً منك مِحْلالا[1] »

كما وردت فيه إشارات كثيرة للهند ، وبخاصة عند الكلام على السيوف . وقد سبق الحديث بإفاضة عن صلات العرب الخارجية ، وما كان لها من تأثير في لغتهم وأدبهم ، وقد ظهر ذلك واضحاً في كثير من الألفاظ الأجنبية التي عربها الجاهليون ، وقد ورد بعضها في القرآن الكريم ، فالواقع أن الأدب الجاهلي ، وبخاصة الشعر ، يدل دلالة قاطعة على صلة العرب الجاهليين بغيرهم من الأمم الأخرى ، ولا يمكن أن يصورهم أمة منعزلة في صحرائها عما سواها من الأمم ، ولا يمكن كذلك للعرب أن يعيشوا في عزلة تامة ، ولا يمكن كذلك ألا يظهر أثر هذا الاتصال في لغة العرب الجاهليين وأدبهم . ولا يمكن كذلك أن يتجاهل دارسو الأدب الجاهلي هذا الأثر ، فيعتقدوا « أن العرب كانوا قبل الإسلام أمة معتزلة تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي » .

حقيقة إن التأثير الخارجي في لغة العرب وأدبهم كان كثيراً بعد ظهور الإسلام ، واتساع رقعة العالم الإسلامي بعد الفتوحات التي تمت للمسلمين ،

---

(١) طبقات الشعراء ، ص ٦٦ .

بحكم الاتصال الذي زاد واتسع عما كان الحال عليه قبل الإسلام ، ولكن ليس هناك جدال في اتصال العرب بالعالم الخارجي في الجاهلية ، كما أنه ليس هناك جدال في ظهور أثر هذا الاتصال في الأدب الجاهلي .

ثم إن حديث القرآن عن صلة العرب بغيرهم من الأمم الأخرى كان في آيتين أو آيات معدودات ، وجاءت إشارته الى هذه الصلة في تلك الآيات في معرض حديثه عن أغراض أخرى تتصل بمبادئه وأهدافه ، ولم يكن الحديث فيه عن هذه الصلة مقصوداً لذاته . وجاء حديثه عنها مقتضباً ، بحيث لا يمكن أن يقال إنه صور صلة العرب بغيرهم تصويراً تاماً من جميع النواحي . إنما هو صوّرها من الناحية التي تتصل بأغراضه ومقاصده فقط .

وفي تصوير الحالة الاقتصادية بين العرب في الجاهلية يقارن بين القرآن الكريم والأدب الجاهلي في هذه الناحية فيقول : (١) « وأنت إذا قرأت القرآن رأيت أنه يقسم العرب إلى فريقين آخرين : فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة ، المسرفين في الربا ، وفريق الفقراء المعدمين ، أو الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم أن يقاوموا هؤلاء المرابين ، أو يستغنوا عنهم . وقد وقف الإسلام في صراحة وحزم وقوة إلى جانب هؤلاء الفقراء المستضعفين ، وناضل عنهم ، وذاد خصومهم والمسرفين في ظلمهم ، وسلك في هذا النضال والذياد مسالك مختلفة : سلك فيها مسلك القوة والعنف حين حرّم الربا وألح في تحريمه ، ومثّل الذين يأكلون الربا بالذين يتخبطهم الشيطان من المس ، وأمر الذين آمنوا أن يتقوا الله ويذروا ما بقي من الربا ، وآذنهم بحرب من الله ورسوله إن لم يفعلوا ، وسلك فيها مسلك اللين والرفق حين أمر بالصدقة ، وأوصى الأغنياء بالفقراء ، وضرب هذه الأمثال البينات يرغب بها أصحاب الأموال في البر بالفقراء والعطف عليهم ، وجعل الصدقة قرضاً يقدمه صاحبها إلى الله على أن يرد إليه مضاعفاً يوم القيامة ، وسلك فيها بينَ بينَ ، فيه حزم وشدة وفيه لين ورفق ، حين شرع الزكاة على أنها تطهير للأغنياء وسد لحاجة الفقراء » .

(١) في الأدب الجاهلي ص ٧٦ – ٧٧ .

ثم يستمر فيقول : « أفتظن أن القرآن كان يعني هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة ، وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو إلى ذلك ؟ فالتمس لي هذا أو شيئاً كهذا في الأدب الجاهلي ، وحدثني أين تجد في هذا الأدب شعره ونثره ما يصور لك نضالاً ما بين الأغنياء والفقراء . ومع ذلك ، فما هذا الأدب الذي لا يمثل فقر الفقير ، وما يحمل صاحبه من ضر ، وما يعرّضه له من أذى والذي لا يمثل طغيان الغني وإسرافه في الظلم والبطش وامتصاص دماء المعدمين ؟ ألم يكن بين هؤلاء العرب البائسين من انطلق لسانه مرة بالشكوى من هذه الحياة السيئة المنكرة ؟ ألم يكن بين هؤلاء العرب المسرفين في الظلم من انطلق لسانه مرة بما يمثل كبرياءه وتسلطه على هؤلاء البائسين؟ »

وهو هنا كذلك يسهب في بيان أن القرآن وصف الحالة الاقتصادية للعرب الجاهليين بالتفصيل ويستدل على ذلك بحديث القرآن عن الفقراء والأغنياء ، وفرض الزكاة ، وسنّ الصدقات ، وتحريم الربا ، ويذكر أن الأدب الجاهلي ليس فيه ما يشير إلى ذلك ، ومن ثم فهو لا يصور حالة العرب الاقتصادية .

حقيقة إن القرآن الكريم تحدث عن الأغنياء والفقراء ، وحرم الربا ، ونفر من البخل ، وكرّه في الشح والحرص ، وذمّ الطمع والجشع ، لأن من أهم مبادىء الدين الإسلامي إصلاح الفاسد ، وتقويم المعوج ، ومحاربة الصفات الذميمة ، والقضاء على العادات السيئة ، فبجانب اهتمام الدعوة الإسلامية ببيان العقيدة الصحيحة ، ودعوة الناس إلى الدين القويم ، كانت تهتم بإصلاح النواحي الاجتماعية التي كان الفساد فيها ظاهراً ومستشرياً ، فحارب الإسلام كل المفاسد الخلقية والاجتماعية ، ومن بينها الربا ، والسرقة ، والسلب ، والنهب ، والاعتداء على حقوق الآخرين ، وأعراضهم ، ودعا إلى المبادىء التي ترفع من شأن الانسان والمجتمع ومن بينها الزكاة والصدقات وبذل الأموال وتداولها فيما هو صالح للأفراد والمجتمعات .

وإذا لم يرد ذكر الربا في الأدب الجاهلي فلا ينبغي أن يعتبر ذلك نقصاً

فيه ، ولا سبباً للطعن في إصالته ، فالمعروف أن الأدب ليس إلا أثراً لانفعال الأدباء بظاهرة تثير انفعالهم ، وليس بلازم أن ينفعل الأدباء بكل الظواهر التي يحتويها الكون والحياة والظروف المختلفة ، ومن ثم ليس بلازم أن ينفعل الأدباء بظاهرة الربا ، فقد تكون بين الظواهر التي لم تثر مشاعرهم فلم يقولوا فيها شعراً ، ويجوز أن الشعراء أو بعضهم قد ثارت مشاعرهم بسبب الربا ، فقالوا فيه شعراً ، ولكنه ضاع ضمن ذلك الجزء الكبير الذي ضاع من نتاج الجاهليين الأدبي .

ويجوز أنه لم يوجد من الأدباء من تعامل بالربا ، فأحس بشناعته ، فقال فيه نصاً أدبياً ، ويغلب على الظن أن ذلك قد حدث ، فلم يكن بين الأدباء وبخاصة الشعراء من كان يدين أو يستدين بالربا ، ذلك لأن من يقرض ماله بالربا لا بد أن يكون غنياً ، ذا ثراء ظاهر ، ومال يفيض عن حاجته ، وحقاً كان في العرب من هذه حالته ، ولكنا لا نعتقد أن أحد الشعراء الجاهليين كان من هذه الطبقة ، فكتب التاريخ والأدب تتحدث عن الشعراء الجاهليين ، سواء كانوا حضراً أو بدواً ، وتصفهم بأنهم كانوا فقراء ، ولم تصف واحداً منهم بالغنى الكثير ، والمال الفائض الذي يقرضه بربا أو بدون ربا ، كما أننا لم نسمع عن أحد من الأدباء أنه اقترض من غني مالاً بالربا ، حتى ولا بدون ربا ، رغم أنهم كانوا جميعاً فقراء ، وإنما نعتقد أن حاجات الأدباء وبخاصة الشعراء كانت تقضى بسهولة ويسر ، وكان جميع أفراد القبيلة يتسابقون في سدّ حاجات شعرائهم ، وقضاء مصالحهم ، بل ويتسامحون كثيراً فيما يأخذه شعراؤهم من أموالهم ، ولو في غيبتهم ، وبدون سابق إذن منهم . فالشعراء كانت لهم منزلة في قومهم بل وفي غير قومهم ، جعلتهم موضع الاحترام والتبجيل ، من الجميع وبخاصة الأغنياء وذوو الثراء الفاحش ، بل كثيراً مما كان الناس يتهيبونهم ، ويخافون ألسنتهم ، ويرهبون تشهيرهم ، فكانوا على الأقل ، يتملقونهم ، ويتظاهرون بإكرامهم وإكبارهم . ومن كانت هذه حالهم ، فمن المستبعد جداً أن يقرضهم الأغنياء بربا ، إن لم يقرضوهم بدون انتظار للوفاء

أو السداد . ومن ناحية أخرى لن ننتظر من الشعراء أن يقولوا شيئاً يمس شعور المرابين ما دام الشعراء يلقون منهم كل احترام وإكبار .

على إن الثراء كان ظاهراً في بعض أشخاص من الحضر الذين يعيشون على التجارة أو الزراعة ، ولم نسمع عن أحد من الشعراء الحضريين ، أنه كان يشتغل بإحدى هاتين المهنتين ، فكان ثرياً ثراء يمكنه من التعامل بالربا ، أو أنه كان فقيراً اضطر إلى مد يده لأحد الأغنياء ليقرضه على أن يرد أكثر مما أخذ .

واستبعاد التعامل بالربا بين شعراء البدو أكثر احتمالاً ، ذلك لأن التعامل بالربا لا يكون عادة إلا بين قوم في حياتهم استقرار ، وفي ظروفهم ما يعمل على وجود ثقة متبادلة بين الدائن والمدين، فالمُقرض ، حتى بالربا ، لا يعطي ماله لأي شخص دون أن يكون واثقاً من مقدرته على السداد من جهة ، ومن إمكان العثور عليه بسهولة ، وبخاصة عندما يحين ميعاد السداد ، من جهة أخرى، وذلك لا يكون عادة إلا بين سكان المدن والقرى ، الذين يستقرون فيها ، ويعرف بعضهم بعضاً مثل مكة ويثرب والطائف واليمن ، بعكس البدو الذين كانوا يسهل عليهم التنقل ، ومن ثم يستبعد أن كان هناك تعامل بالربا بين سكان البدو على وجه العموم ، وبين الشعراء على وجه الخصوص . وإذا علمنا أن معظم الأدب الجاهلي منسوب إلى شعراء البدو ، فلن تكون هناك غرابة إذا لم يوجد ذكر للربا في الأدب الجاهلي . ومن لهذا لا ينبغي أن يكون ذلك نقيصة في الأدب الجاهلي ، وسبباً في رميه بأنه لا يصور الحياة الاقتصادية في العصر الجاهلي . على أن هذه الناحية بالذات ، (أعني التعامل بالربا) ظاهرة موجودة بين الناس في جميع العصور ، ولم نرها سجلت في دواوين الشعراء ، أو احتلت مكاناً بين الظواهر المثيرة الأخرى التي حركت مشاعر [1] الأدباء ، فهل يجوز لنا حينئذ أن نقول إن أدب عصر من هذه

---

(١) حقيقة قد وجدت بعض الأمثلة التي تتحدث عن الربا كتاجر البندقية لشيكسبير،ولكن هذه الأمثلة قليلة ونادرة بحيث يمكن أن تعد في حكم المعدوم ، مما يجعلنا نقول إن الحديث عن الربا ليس ظاهرة أدبية عامة بين جميع الأمم في كل العصور .

العصور لا يصور الحياة الاقتصادية لأمة ذلك العصر لأنه لم يتحدث عن الربا.

ثم لماذا يخص الربا دون غيره من الموضوعات الأقتصادية الأخرى ؛ فهناك مثلاً : الرهن الضار ، والتلاعب بالأسعار ، وإخفاء السلع ، والإتجار بها في السوق السوداء ، وأساليب البيع العجيبة التي كانت منتشرة بين الجاهليين ، وهي تتضمن أنواع الخداع والتحايل والمكر والغش ، مثل : بيع الحصاة (١) وبيع الغرر (٢) ، وبيع الملامسة (٣) ، وبيع النجش (٤) ؛ وكذلك التطفيف في الوزن والكيل ، وغير ذلك من المفاسد الاقتصادية التي كانت منتشرة بين الجاهليين ، وهي تضر بالفرد والمجتمع ، وقد نهى الإسلام عن كل ذلك ، وحرّمه تحريماً قاطعاً ، وأوعد كل من يتعامل بأي نوع من هذه المعاملات الضارة بالويل والثبور، والمعروف أن المعاملات بين الناس ضرورية لهم جميعاً، لأنها تتصل بحياتهم ، ولا يستغني عنها فرد من الأفراد. ولا شك أن الشعراء كانت لهم صلة بها ؛ فهل إذا لم نجد للأدباء نتاجاً يصور هذه الحالات الشنيعة، ويصف آثارها السيئة على النفوس ، كان ذلك مطعناً في أصالة الأدب؟ أعتقد أن أصالة الأدب شيء ، وتصويره لمثل هذه الحالات وغيرها شيء آخر ، ولا صلة لهذا بذاك .

فهناك ظواهر اقتصادية وغير اقتصادية لم يظهر لها أثر في الأدب ، لأنها

---

(١) بيع الحصاة : قيل هو أن يقول أحد المتبايعين للآخر : ارمِ هذه الحصاة فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم ، أو أن يبيعه سلعة ، ويقبض على كف من الحصى ، ويقول : لي بكل حصاة درهم ، وقيل معناه غير ذلك .

(٢) بيع الغرر : هو بيع المخاطرة ، وهو الجهل بالثمن أو المثمن أو سلامته ، كبيع السمك في الماء ، والطير في الهواء .

(٣) بيع الملامسة : على أنواع ؛ منها أن يأتي بثوب مطويّ أو في ظلمة ، فيلمسه المستام ، فيقول له صاحب الثوب : بعتكه بكذا ، على أن يقوم لمسك مقام نظرك ، ولا خيار لك إذا رأيته .

(٤) بيع النجش : أن يبيع الإنسان سلعة بيعاً صورياً لشخص اتفق معه على مساومته فيها بثمن كبير ، لينظر إليه ناظر ، فيقع فيها .

(راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ج ٨ ص ١٧٦ وما بعدها)

لم تثر عواطف الأدباء ، كما أن هناك أخرى كان لها تأثير في مشاعرهم ، فسجلوها في نصوصهم الأدبية . وإن أدب الصعاليك ليصف الفقر في الجاهلية ، ويدل دلالة واضحة على الشكوى والتألم من الفقر وآثاره في الإنسان ».

ثم يتحدث الدكتور طه حسين في جانب آخر من جوانب الناحية الاقتصادية التي يعتقد أن القرآن الكريم صورها تصويراً دقيقاً ، وأغفلها الأدب الجاهلي ، فيقول (١) : « ثم لا يمثل القرآن هذه الناحية وحدها من الحياة الاقتصادية الداخلية ، وإنما يمثل ناحية أخرى أقوم وأعظم خطراً منها : يمثل هذه الناحية التي كنا ننتظر أن يمثلها الشعر لأنها خليقة به ، وتكاد تكون موقوفة عليه – نريد هذه الناحية النفسية الخالصة ، هذه الناحية التي تظهر لنا الصلة بين العربي والمال ، هذه الناحية التي إن فكرنا فيها قليلاً لم تلبث أن نتساءل عن هذا الشعر الجاهلي : أصادق هو أم كاذب ؟ فالشعر الجاهلي يمثل لنا العرب أجواداً كراماً مهينين للأموال ، مسرفين في ازدرائها ، ولكن في القرآن إلحاحاً في ذم البخل ، وإلحاحاً في ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية ... إن العرب في الجاهلية لم يكونوا كما يمثلهم هذا الشعر أجواداً منفقين للمال ، مهينين لكرامته ، وإنما كان منهم الجواد والبخيل ، وكان منهم المتلاف والحريص ، وكان منهم من يزدري المال ، ومنهم من يزدري الفضيلة والعاطفة في سبيل جمعه وتحصيله » .

وهذه النقطة أيضاً لا ينبغي أن تكون سبباً في الطعن في الأدب الجاهلي ورميه بأنه لا يصور هذه الناحية الاقتصادية النفسية من حياة العرب الجاهليين ، بل إنه أي الأدب الجاهلي اشترك مع القرآن الكريم في تصويرها تصويراً دقيقاً ، ففي كليهما ذمّ للبخل ، ومدح للجود والكرم ، فالقرآن الكريم ذم البخل وذم الطمع ، والأدب الجاهلي ذم البخل وذم الطمع كذلك ،

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ٧٧ .

ولم يصوّر الأدب الجاهلي العرب قبل الإسلام أجواداً كراماً ، مهينين للمال ، مسرفين في إزدرائه ، بل صوّر العرب بأن كان فيهم أجواد كرماء ، وفيهم أشحاء بخلاء ، ففي الأدب الجاهلي كثير من النصوص يهجو فيها أصحابها أعداءهم بالبخل والشح ، ويذمونهم بالطمع والجشع ، وفيه كذلك كثير من النصوص التي يتغنى فيها أصحابها بالجود والكرم ، ولكن ينبغي ألا يغيب عن البال أن هذه النصوص التي تفيض بذكر الجود والكرم إنما تكون عادة في الفخر والمدح ، ومن المعلوم البدهي أن المدح أو الفخر لا يكون له شأن ، ولا يؤدي معناه الحقيقي إلا إذا كان بشيء نادر ، أو عظيم ، وليس شائعاً بين الناس ، ولا في متناول الجميع ، وإلا لما كان للمدح أو الفخر به أي معنى. وبهذا يتبين أن الجود والكرم والسخاء والبذل والعطاء والإنفاق والإسراف والإتلاف ، وغيرها من الصفات الـتي يتردد المدح والفخر بها في نصوص الأدب الجاهلي كانت صفات غير متيسرة للجميع ، ولا يتصف حقيقة بها جميع العرب . ولكن ليس هناك ما يمنع من أن يدعيها كل فرد وكل قبيلة لنفسه ، ويدعيها في أناشيده وأغانيه . وما كل ما ينسبه المرء لنفسه صحيح ، ولا كل ما يدعيه واقع وحق .

ثم يذكر الدكتور طه بعد ذلك جزئيـات يدّعي أنها ذكرت في القرآن الكريم ، ولم تذكر في الشعر الجاهـلي ، هي البحر ، والسفن ، والصيد ، واللؤلؤ ، والمرجان ؛ ثم يقول [1] : « ولكني ألاحظ أن ذكر القرآن لهذا كله ، وامتنانه على العرب بهـذا كله ، دليل قاطع على أن العرب لم يكونوا يجهلون هذا كله ، بل كانوا يعرفونه حق المعرفة ، وكانت حياتهم تتأثر بـه تأثراً قوياً ، وإلا فما عرض القرآن له ، وما أقام الحجة به عليهم . فأين تجد هذا أو شيئاً من هذا في الشعر الجاهلي ؟ »

هذا ما يقوله الدكتور طه حسين ، وأعتقد انه يتحامل على الشعر الجاهلي ،

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ٧٩ .

فقد ذكرت هذه الأشياء بكثرة في الشعر الجاهلي كلما سنحت الفرصة ، أو جاءت المناسبة التي تستدعي ذكر أحد منها ، وأرجو أن يقبل مثالاً واحداً أسوقه له ، جاءت فيه كل هذه الأشياء ، ورجائي هنا أن يعتبر هذا النص من القلة القليلة الباقية من الشعر الجاهلي التي يعتقد بصحتها ، ذلك النص هو قصيدة طرفة المشهورة بأنها معلقته ، إذ يقول فيها : (١)

كأنّ حُدُوج المالكية غدوة   خلايا سَفينٍ بالنواصِف مِنْ دَدِ
عَدَوْليَّة ، أو مِن سَفين يامِنٍ   يجورُ بها الملاحُ طوراً ويهتدي
يشقّ حَبابَ الماءِ حيزومُها بها   كما قَسَم التُّربَ المُفايلُ باليد

ويقول فيها :

وفي الحي أحْوَى ينفُضُ المَردَ شادِن   مظاهرُ سِمطَىْ لؤلؤٍ وزَبَرجد

تلك هي الشبهات التي أثارها الدكتور طه حسين ، وبسببها دعا الباحثين إلى أن يتجهو - إذا أرادوا صورة صحيحة صادقة للعصر الجاهلي - إلى القرآن الكريم ، فهو خير ما يصورها وينصحهم بسبب ذلك إلى أن يتجاهلوا الأدب الجاهلي ، لأنه في نظره لم يصور النواحي التي أثارها . وقد حللناها ، وعقبنا على كل منها .

ومما سبق يتبين أن القرآن الكريم لا يصور حياة العرب من جميع النواحي ، ولكنه حقاً يصورها في النواحي التي تعرض لها ، وهي تلك التي تتصل بمبادئه وأهدافه ، وأهمها الناحية الدينية ، وبعض النواحي الاجتماعية التي تنظم حياة الناس ، وتجعل مجتمعهم مجتمعاً صالحاً بعيداً عن المفاسد والعيوب ، فنبههم إلى أمثل النظم ، ووجوه الفساد وطرق إصلاحها ، فبجانب تبيانه للعقيدة

---

(١) ديوان طرفة للمؤلف ، الأبيات : ٢٥ ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

الصحيحة والدين القويم ، أوضح لهم الصفات الذميمة والعادات السيئة التي كانت منتشرة فيها وحاول تنفير الناس منها ، وتقبيحها لكي يبتعدوا عنها ، فنهاهم عن الربا ، والغيبة ، والنميمة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على الآخرين ، والمساس بشرفهم ، كما حرم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، ووأد البنات وغير ذلك من الأمور التي تحتاج إلى إصلاح وتهذيب ، لأن ذلك مما يتصل بغرضه وهو هداية الناس إلى الحياة السعيدة المثلى. أما نواحي الحياة وأحوالها الأخرى التي لا تتصل بأغراض الدين الجديد ومبادئه فلم يتعرض القرآن الكريم لها .

ومن ثم لم يتحدث القرآن الكريم عن جميع أحوال العرب سيئها وحسنها ، وشرها وخيرها ، ولا يتوقع منه ذلك أبداً ، لأنه لم ينزل واصفاً للعرب ولا مؤرخاً لهم . فمن يقتصر – في البحث عن صورة للعرب قبل الإسلام – على ما ورد في القرآن الكريم خاصاً بهم ، فلن يأخذ منه صورة للعرب كاملة من جميع النواحي ، لأنه اقتصر على ذكر علاج النواحي السيئة التي كانت فيهم ، ولم يتعرض لذكر ما كان فيهم من محاسن . ذلك لأن غرضه التهذيب والإصلاح وذلك لا يكون إلا لنواحي النقص والعيب ، فهي التي تحتاج إلى تهذيب وإصلاح . أما نواحي الحسن فمسكوت عنها ، وإن وعد بالثواب من يفعل الطيب أو يتبع الحسن ، كما أوعد بالعقاب من يرتكب إثماً ، أو يقترف جرماً . فالخلاصة أن القرآن الكريم وحده لا يصور حياة العرب الجاهليين من كل النواحي ، إنما يصور تلك النواحي التي تتصل بالأغراض التي جاء من أجلها الدين الإسلامي .

ويتبين كذلك مما سبق أن حثه على تجاهل الأدب الجاهلي عند البحث عن صورة صحيحة للعرب قبل الإسلام فيه تحامل على الأدب الجاهلي ، وإنكار لما تضمنه الأدب الجاهلي من حقائق في غاية الأهمية يجدر بالباحث أن يدرسها ، ويستقصيها ، لتعينه على تكوين صورة صحيحة صادقة للعرب قبل الإسلام . فقد اتضح لنا أن الأدب في الحقيقة مصدر أساسي من مصادر تاريخ العرب

الجاهليين ، وقد اعترف بذلك كثير من العلماء والباحثين ، من العرب والمستشرقين .

ومما يثير الدهشة أن ينصح الدكتور طه حسين الباحثين والمتطلعين إلى تصوير الحياة الجاهلية بالبحث عنها في الشعر الأموي نفسه ، لأنه لا يعرف أمة من الأمم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة في الأدب ، ولم تجدد فيه إلا بمقدار كالأمة العربية ، فحياة العرب الجاهليين (في نظره) ظاهرة في شعر «الفرزدق وجرير وذي الرمة والأخطل والراعى أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب إلى طرفة وعنترة وبشر بن أبي خازم » .

نصحه هذا يثير الدهشة ، لأنه يصرح بأن الأدباء العرب في العصر الأموي كانوا متمسكين بالمحافظة على التقاليد الأدبية التي كان يتمسك بها العرب القدماء، وهذا معناه أنه كانت هناك تقاليد أدبية قبل الإسلام، هي هي التي استمسك بها الأدباء الأمويون ، ومن قبلهم بالطبع . وهذا معناه كذلك اعتراف بنتاج أدبي كان موجوداً في العصر الجاهلي، وأن هذا النتاج قد وقف عليه الأدباء في العصر الجاهلي ، وظل حياً حتى اقتدى به الأدباء في العصر الأموي وساروا على منواله ، وترسموا خطاه . وهذا يفيد أنهم عرفوا النصوص الجاهلية الصحيحة ، فجاء أدبهم تقليداً صحيحاً كاملاً من جميع الوجوه ، ومعنى ذلك أن الرواة الذين حملوا هذه النصوص الجاهلية التي قلدها الأدباء الأمويون كانوا موضع ثقة واحترام من العلماء والأدباء وبخاصة هؤلاء الشعراء الذين سماهم الدكتور طه حسين . وإذا كان الأمر كذلك فلماذا نثق بالتقليد ، ولا نثق بالأصل الذي ترسمه الأدباء الأمويون ، وساروا على أسسه ومبادئه ! وأيهما أولى بالتصديق والقبول : الأصل أم صورته ؟

وكيف تكون حياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذي الرمة والأخطل والراعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب إلى طرفة وعنترة وبشر بن أبي خازم ؟ أذلك لأنه مختلق ومنحول ولم يقله من نُسب إليهم أم لأن صانعيه لم يوفقوا فيه إلى تصوير الحياة الجاهلية تصويراً

دقيقاً ؟ إن كان الاحتمال الأول ، فأقصى ما يمكن أن يقال حينئذ أنه اختلق في عصر الجمع والتدوين ، وذلك كان زمنه حوالي زمن هؤلاء الشعراء الذين سماهم ، ومن ثم لن يكون هناك من فرق بين أدباء الدولة الأموية والأدباء الذين اختلقوا هذا الأدب ونسبوه إلى أدباء العصر الجاهلي ، لن يكون هناك من فرق بين هؤلاء وأولئك لا من حيث الاتصال بالحياة العربية القديمة ، ولا من حيث الإلمام بالتقاليد الأدبية ، ومعرفة أساليب الكلام ، وطرق التعبير الأدبي ، والتصوير الشعري في العصر الجاهلي . فهؤلاء الذين اختلقوا بعض النصوص الأدبية ، ونسبوها إلى أدباء جاهليين لم يقولوها ، وما كانوا ليجرءوا على ذلك ، إلا إذا كانوا قد أنسوا من أنفسهم إحاطة تامة بحياة العرب الجاهليين ، ومعرفة شاملة لأساليبهم في التعبير الأدبي ، بدليل اعتراف بعض العلماء بأن من المختلق ما قد يلتبس على النقاد الضليعين في اللغة والأدب بحيث لا يستطيعون تمييز الدخيل من الأصيل .

وإن كان الاحتمال الثاني ، وهو قصور المزيفين عن التقليد الصحيح ، فما أسهل حينئذ تمييزه ، وما أحقه ، حينئذ ، برميه ، والضرب به عرض الحائط.

ومن ثم تكون النصوص الجاهلية التي وصلتنا عن طريق الرواة الثقات أهلاً للرضا والقبول ، وينبغي الاعتماد عليها في تصوير حياة العرب الجاهليين من النواحي التي تضمنتها هذه النصوص .

• • •

بعد ذلك يتحدث الدكتور طه حسين عن لغة الأدب الجاهلي ، ويتخذ منها سبباً قوياً للطعن في أصالته ، وللقول بأنه لا يمثل اللغة العربية في العصر الجاهلي مطلقاً ، فيقول [1] :

« إن الأدب الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية . ولنجتهد في تعرف اللغة

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ٨٠ – ٨١ .

الجاهلية هذه ما هي ؟ أو ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة أن أدبهم الجاهلي هـذا قد ظهر فيه ؟ أما الرأي الذي اتفق عليه الرواة ، أو كادوا يتفقون عليه ، فهو أن العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية ، منازلهم الأولى في اليمن ؛ وعدنانية ، منازلهم الأولى في الحجاز . وهم متفقون على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله ، فطروا على العربية ، فهم العاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتساباً ، كانوا يتكلمون لغـة أخرى هي العبرانية أو الكلدانية ، ثم تعلموا لغة العرب العاربة ، فمحيت لغتهم الأولى من صدورهم ، وثبتت فيها هذه اللغة الثانية المستعـارة . وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة إنمـا يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم ..... على هذا كله يتفق الرواة ، ولكنهم يتفقون على شيء آخر أثبته البحث الحديث ، وهو أن هناك خلافاً جوهرياً قوياً بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة) . وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا . » ثم يستمر فيقول : « وفي الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو ، والتصريف أيضاً » .

وبعد أن يتحدث طويلاً عن العرب البائدة والعرب الباقية ، يورد نصوصاً من اللغة الحميرية ليتبين الفرق بينها وبين العربية ، ثم يقول [1]: « الأمر إذن أوضح وأبين من أن نبين القول في تفصيله ، فالقحطانية شيء ، والعـدنانية شيء آخر .... وإذن فما خطب هؤلاء الشعراء الذين ينتسبون إلى قحطان ، والذين كانت كثرتهم تنزل اليمن ، وكانت قلتهم من قبائل يقال إنها قحطانية قـد هاجرت إلى الشمال ؟ ما خطب هؤلاء الشعراء ، وما خطب فريق من الكهان والخطباء يضاف إليهم نثر وسجع ، وكلهم يتخذ لشعره ونثره اللغـة

(١) المصدر السابق ، ص ٨٨ – ٨٩ .

العربية الفصحى كما نراها في القرآن ؟ »

ويستمر ، فقول : « أما أن هؤلاء الناس كانوا يتكلمون لغتنا العربية الفصحى ، ففرض لا سبيل إلى الوقوف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلي ، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى ، أو قل لغات أخرى . فما يضاف إليهم من الشعر والنثر ، في لغتنا الفصحى ، كما يضاف إلى عاد وثمود وطسم وجديس ومن إليهم من الشعر والنثر ، منحول متكلف لا سبيل إلى قبوله ، أو الاطمئنان إليه » .

وبعد ذلك يناقش القول بأن اليمنيين قد اتخذوا لغة العدنانيين لغة أدبية لهم ، ينشئون بها شعرهم ونثرهم الفنيين ، فيقبل هذا القول على أنه « حق لا يحتمل شكاً ولا جدالاً بعد ظهور الإسلام ، لأن اللغة العربية الفصحى وهي لغة هذا الدين الجديد ولغة كتابه المقدس ولغة حكومته الناشئة القوية أصبحت لغة رسمية ، ثم لغة أدبية للدول الإسلامية كلها » . أما قبل الاسلام ، فلا يقبل هذا الرأي ، بل يرفضه وينكره . معتمداً على أن « السيادة السياسية والاقتصادية – التي من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب – قد كانت للقحطانيين دون العدنانيين » ويقول : « فما العلة إذن في أن تفرض لغة قوم لا حظ لهم من سيادة ولا ثروة ولا حضارة على قوم هم السادة وهم الساسة ، وهم المترفون ، وهم المتحضرون؟ وكيف لم تفرض القحطانية لغتها على العدنانية ، والقحطانية – فيما يقول الرواة والمؤرخون – قد أذلت العدنانية وأخضعتهم لسلطانها ، أخضعتهم لسلطانها المباشر في اليمن ، كما أخضعتهم لسلطانها حين تسلط فريق منها على أطراف العراق والشام ، تحت حماية الفرس والروم فيما يقول الرواة والمؤرخون ؟ »

ثم ينكر كذلك هجرة فريق من القحطانيين إلى شمال البلاد العربية واستقرارهم فيها واتخاذهم لغة الشمال أداة للتخاطب والآثار الأدبية بحجة أن هذه الدعوى تقوم على أساسين ، هما النسب : وسيل مأرب ، وهو لا يقبل هذين الأساسين إلا اذا قام الدليل العلمي البين على صحتهما ؛ فهو لا يصدق

ما يقوله النسابون عن أن هذه القبائل التي يقال إنها هاجرت ، كانت حقاً من القحطانيين ، فذلك في نظره أحاديث «يتكلفها القصاص وأصحاب الأغراض والأهواء للذة والمنفعة». ويرى كذلك أن دعوى هجرة فريق من عرب اليمن اضطراراً بعد حادثة سيل العرم ، من أحاديث القصاص إلى أن تقوم عليها الأدلة العلمية ، فيقول : «نعم ! ذكر القرآن سيل العرم ، وأثبت البحث الحديث أن قد كان سيل العرم . وذكر القرآن ان هذا السيل قد تمزقت له سبأ كل ممزق ، ولم يزد القرآن على هذا ، ولم يحدد تاريخ سيل العرم ، ولم يقل كيف مزقت سبأ كل ممزق ، ولم يسمّ لنا القبائل السبئية التي مزقت ، ولم يبين لنا المواطن التي هاجرت اليها ، ولم تستكشف بعد نصوص تسمي هذه القبائل أو تدل على هذه المواطن » . وينتهي إلى أن يقول[1] : «نحن إذن بإزاء لغتين : إحداهما كانت قائمة في الشمال، وهي التي نريد أن نؤرخ آدابها، والأخرى كانت قائمة في الجنوب ، وهي التي تمثلها النصوص الحميرية والسبئية والمعينية . ونحن لا نسرف، ولا نشتط حين ننكر ما يضاف إلى أهل الجنوب من شعر وسجع ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام » .

والدكتور طه حسين كما نرى يرفض أدب اليمنيين الذي جاء بلغة الشماليين، لأن الجنوبيين كانت لهم لغة مخالفة للغة العدنانيين . حقيقة كان القحطانيون في أول الأمر يتخاطبون ، ويقولون أدبهم ، بلغة تختلف عن لغة العدنانيين ، ولكننا نعتقد أنه ما كان خلافاً أساسياً ، كاختلاف اللغة العربية عن اللغة الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية ، إنما كان اختلافاً بين أختين تفرعتا من أصل واحد، هو العربية الأصلية، فكل منهما لغة عربية ، ولكن تبعاً لاختلاف الظروف والبيئة والحياة في كل قسم اختلفت كل منهما عن الأخرى، وبطبيعة الحال لن يكون مثل هذا الاختلاف اختلافاً جوهرياً ، ربما يكون اختلافاً في بعض الألفاظ ، أو في المدلولات لبعض الألفاظ ، أو في طريقة النطق ، وما إلى ذلك من الاختلافات غير الجوهرية التي تكون بين الفروع التي جاءت

---

(١) في الأدب الجاهلي، ص ٢٩ .

من أصل واحد ، بدليل وجود اتفاق كبير بين بعض ألفاظ النقوش التي أوردها ، ونظيرها في العربية الفصحى ، كما فسرها هو في كتابه ، مثل[1] :

وأخهو – وأخوه

كلبت – كلبة (بالتاء المربوطة وليس في الكتابة الحميرية تاء مربوطة) .

هقنيو – أقنوا ومعناه أعطوا . والفعل الذي على وزن أفعل في اللغة الحميرية تبدل همزته هاء . والمعتل لا يحذف حرف العلة منه عند اتصاله بواو الجماعة).

وسعدهم – ساعدهم (بحذف الف المد في الكتابة) .

نعمتم – نعمة (والميم بدل التنوين) .

أختأمهو – أخت أمه (هو في «أمهو» بدل الهاء في العربية) .

بعلتي – صاحبتي

بعل – صاحب

فتقارب هذه الألفاظ وتشابه بعض الألفاظ ، ليس – كما يدعي – كتقارب الألفاظ وتشابه القواعد بين عربيتنا الفصحى من ناحية ، والسريانية والعبرانية من ناحية أخرى . حقيقة هذه اللغات فروع من الساميات ، ولكن عربية الجنوب وعربية الشمال أختان قريبتان ، من فرع واحد . فالاختلاف بينهما لن يكون كالاختلاف بين العربية والعبرية أو السريانية . فكلاهما لغة عربية، وأصيل في عربيته ، ومثلهما مثل عربية الجمهورية العربية المتحدة وأخواتها العربيات في سوريا، ولبنان، والعراق،والمملكة العربية السعودية،وباقي أقطار العالم العربي فلا يمكن أن يقال : إن لغة كل قطر تختلف اختلافاً جوهرياً عن كل من أخواتها في الأقطار الأخرى . كلنا – نحن أبناء العالم العربي – يلمس أن هناك اختلافاً بين هذه الأقطار في اللغة ، ولكنه اختلاف يسيرٌ لا

(١) في الأدب الجاهلي، ص ٨٦ .

يتجاوز اختلافاً في بعض الألفاظ، أو مدلولات بعض الألفاظ ، أو طريقة النطق لبعض الكلمات ، ولا يمكن أن يقال إن مثل هذا الاختلاف اختلاف أساسي بحيث يترتب عليه أن تكون كل منها لغة مغايرة مختلفة تمام الاختلاف. ثم إن النص الذي أورده لأبي عمرو بن العلاء، ويعتمد عليه في اعتقاده أن لغة اليمنيين كانت غير لغة العدنانيين ، بالرجوع إلى المصدر الأساسي الذي جاء فيه هذا النص ، تبين أنه هكذا : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا » [1] وليس كما جاء في استدلال الدكتور طه حسين إذ أورده هكذا : « ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا » [2] والفرق بين العبارتين واضح ، فالنص في العبارة الثانية يفهم منه أن لسان حمير غير لسان العدنانيين ، وأن لغتهم غير لغة العدنانيين ، كأن كلا منهما لسان خاص ، ولغة مغايرة للأخرى ، في حين أن العبارة الأولى تفيد أن كلتا الاثنتين عربية ، فهما لغة عربية ، وأن الاختلاف بين هاتين الأختين مقصور على الأماكن المتطرفة النائية من بلاد اليمن فقط .

ثم ان تسليم الدكتور طه حسين بأن اللغة الفصحى سادت في جميع القبائل اليمنية بعد الإسلام دليل على التقارب الشديد بين هاتين اللهجتين ، قبل الإسلام بوقت كاف ؛ إذ من غير المعقول أن يحدث ذلك بحيث يستطيع الكتاب والأدباء أن ينشئوا بها أدبهم في فترة وجيزة بعد ظهور الإسلام .

ويؤيد التقارب التام بين اللهجتين الجنوبية والشمالية نقش النمارة الذي عثر عليه لامرىء القيس وهو من أصل قحطاني ، إذ ثبت أنه « بلهجة قريبة من لهجة القرآن ... بلهجة نستطيع أن نقول إنها من الأمّ التي ولدت عربية القرآن [3] » .

على أن سيادة اليمنيين على الشماليين التي يتذرع بها ، ويرتب عليها أن

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ص ٤ - ٥ . والمزهر ج ١ ص ١٧٤ .
(٢) في الأدب الجاهلي ، ص ٨١ .
(٣) جواد علي ج ٤ ص ٣٤٢ .

تسود لغة اليمن على الشمال ، لم تكن سيادة عامة ، إنما كانت سيادة على بعض قبائل من أهل الشمال لا كلهم ، ولم تستمر طويلاً لمدة تكفي لفرض اللغة ، بل كانت لفترة وجيزة ، فلم يلبث الشماليون أن انتفضوا على الجنوبيين ، وتخلصوا منهم إلى الأبد .

ثم إنه ليس بلازم مطلقاً في كل فتح أو في كل سيادة ، أن يستتبع ذلك فرض لغة الفاتحين أو السادة ، بل قد يحدث ، ومع ظروف وأسباب ، ولكن ليس بلازم أبداً أن يحدث ذلك ؛ وكتب التاريخ والدراسات اللغوية خير شاهد على ذلك ، وأقرب مثل لهذا في تلك البقعة ، أن كلا من الفرس والأحباش قد احتلوا اليمن قبل الإسلام ، ولكن لم نسمع أن اللغة الفارسية أو اللغة الحبشية قد فرضت سيادتها على اليمنيين المغلوبين . فسيادة اللغة في إقليم ما إنما تخضع لظروف وعوامل كثيرة مختلفة قد يكون منها الفتح أو الغلبة ، ولكنّ ذلك ما كان ولا يكون السبب الوحيد .

وأما إنكاره هجرة بعض القبائل اليمنية واستقرارها في الشمال ، لأنه لا يصدق ما قيل عن نسبها ، وعن وقت هجرتها بأنه كان بعد سد مأرب . فاعتراضه على النسب غير واضح في هذا المكان ، لأن هذه القبائل إما أن تكون من القحطانية أو من العدنانية ، فإن كانت من العدنانية فلا إشكال حينئذ ، لأن أدبهم سوف يجيء مطابقاً لما ورد إلينا . وإن كانت من القحطانية فهذا ما يقول به معارضو رأي الدكتور طه حسين ، ويحاولون أن يعللوا بسببه مجيء أدبهم بلغة الشماليين .

وأما عن هجرتهم بسبب انهيار سدّ مأرب ، فإنه يقول إنه مصدق بما جاء في القرآن وما أثبته التاريخ من أن سيل العرم قد حدث ، وأنه مزق سبأ كل ممزق ، فمعنى هذا أن هناك قبائل من سبأ تركوا موطنهم الأصلي ، واستقروا في مواضع أخرى ، كل ذلك يوافق عليه الدكتور طه حسين ومن يعارضهم الدكتور طه . والخلاف الذي يثيره هو بينه وبينهم هو : تحديد سيل العرم ، وكيفية تمزيق هذه القبائل ، وأسماء هذه القبائل التي هاجرت ، والمواطن

الجديدة التي استقرت فيها. فمعارضوه يذكرون أن سيل العرم حدث في الجاهلية قبل ظهور الإسلام بوقت استقرت فيه هذه القبائل، التي هاجرت، في مواطنها الجديدة ، وأنها تفرقت في جهات شتى في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية ويذكرون أسماء قبائل معينة يحددون كلا منها بالاسم فإذا كان الدكتور طه حسين لديه معلومات أخرى عن تاريخ سيل العرم ، وكيفية الهجرة، وأسماء أخرى غير هذه القبائل التي ذكروها ، فإنه يؤدي للعلم والبحث خدمات جليلة بذكرها وتفصيلها .

ولو أصر على اختلاف لغة النقوش التي أوردها عن لغة الشماليين ، فليبين لنا أصحابها وأين كانوا يسكنون وفي أي العصور ، فلعلهم كانوا من أقاصي اليمن الذين ورد ذكرهم في كلمة أبي عمرو بن العلاء . أو لعل لغة هذه النقوش كانت من اللهجات الدارجة في الجنوب وليست لغة الأدب الفصحى ، إن كان تاريخ النقش في الفترة التي يحددها معارضو الدكتور طه ، ويقولون إن لغة الشماليين كانت فيها لغة الأدب عند الشماليين والجنوبيين .

والرأي المعقول في هذه المسألة أن لغة الأدب كانت واحدة بين الجنوبيين والشماليين فقد كان الأدباء في القسمين يؤلفون بها أدبهم ، كما سبق أن وضحنا ذلك عند الكلام على لغة الأدب ، وهذه اللغة هي اللغة العربية الفصحى . وليس بعجيب أن يحدث ذلك بين القسمين وإن اختلفت لهجاتهم كما هو حادث الآن بين جميع أقطار العالم العربي ، فكل قطر يتكلم بلهجة تختلف عن لهجات الأقطار الأخرى في أحاديثهم اليومية وقضاء مطالبهم الحيوية ، فإذا جاء دور اللغة الأدبية ، اتحدت على جميع الألسنة في جميع الأقطار ، وذلك حادث في جميع اللغات التي يكثر الناطقون بها ، وهم في أقطار متعددة كعالم المتحدثين باللغة الانجليزية مثلا .

والدليل على أن القسمين كانوا متحدين في اللغة الأدبية وهي اللغة الفصحى: نزول القرآن الكريم ، وفهم العرب جميعاً له ، وجدالهم حوله . والدكتور طه حسين نفسه يعترف بأنهم كانوا يجادلون ويخاصمون في مسائل معضلة ،

وأن جدالهم كان قوياً يشهد لأصحابه بالمهارة [١] ، ولم يقل أحد ولا الدكتور طه نفسه أن هذا الجدال كان عن طريق ترجمته لفريق من العرب ، أو للعرب الجنوبيين فقط . إنما الأخبار والتاريخ والمعلومات الوثيقة تؤيد أن العرب جميعهم فهموه حق الفهم ، ولم يترجم كله أو بعضه لأحد من الجنوبيين، ومعنى ذلك أنهم جميعاً فهموا نصوصه ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت لغته معروفة لهم جميعاً ، ثم إن التحدي الذي وجهه القرآن كان للعرب جميعاً وليس للفريق الشماليين دون الفريق الجنوبيين ، والتحدي لا يكون له معنى إلا إذا كان في ناحية يدعي المتحدَّي أن له فيها تفوقاً ونبوغاً ، وهذا معناه أن العرب الذين تحداهم القرآن بالفصاحة والبلاغة كانوا العربَ كلهم ، لا العرب الشماليين دون الجنوبيين .

ثم إن من الثابت تاريخياً ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يرسل مبعوثين إلى الجهات النائية في شبه الجزيرة العربية ومن بينها اليمن ، وأطرافها ، وكانوا يتفاهمون معهم باللغة العربية الفصحى ، لغة القرآن ، ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يثبت أن الترجمة كانت سبيل تفاهمهم . كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستقبل الوفود من جميع الجهات ، ومن بينها اليمن ، وكان يحدثهم ، ويتفاهمون معه ، بلغة يفهمها الجميع ، ولم يثبت أن الترجمة كانت الوسيلة في التحدث والتفاهم بينهم ، كما يحدث بين الذين تختلف لغاتهم . وهذا ليس معناه إلا أنه كانت هناك لغة مشتركة يفهمها الجميع ، الشماليون والجنوبيون من العرب ، هذه اللغة هي لغة القرآن ، وهي اللغة الفصحى ، التي هي لغة الأدب الجاهلي .

والدكتور طه يعترف بصراحة ووضوح أن لغة القرآن كانت اللغة الأدبية التي كان يستعملها الناس في العصر الجاهلي ، فهو يقول ما يلي بالحرف : [٢]

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٧٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٧١ .

« وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قـــد قاوموا القرآن ، وناهضوه ، وجادلوا النبي فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ، ووقفوا على أسراره ودقائقه ، وليس من اليسير ، بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب فلو كان كذلك لمـــا فهموه ولا وعوه ، ولا آمن به بعضهم ، ولا ناهضه ، وجادل فيه بعضهم الآخر . إنما كان جديداً في أسلوبه ، جديداً فيما يدعو إليه، جديداً فيما شرع للناس من دين وقانون، ولكنه كان كتاباً عربياً، **لغته هي اللغة الأدبية التي كان يصطنعها الناس في عصره ، أي في العصر الجاهلي** » .

ثم هو نفسه في موضع آخر يعترف بسيادة لغة قريش قبـــل الإسلام ، فيقول : [1] « فالمسألة إذن هي أن نعلم : أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده؟» ثم يجيب على هذا فيقول : « أما نحن فنتوسط ونقول : **انها سادت قبيـــل الاسلام** حين عظم شأن قريش ، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية » ولكنه يحس كأنه بذلك يوافق معارضيه ، فيتبعه بقوله : «ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئاً يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز»، فهو يُسرع ويقصر سيادتها على الحجاز فقط . ولكن ما رأيه في هؤلاء العرب الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة العربية خارج الحجاز ؟ أفهموا القرآن وجادلوه ، وناقشوه ، أم لم يجادلوه لأنهم لم يفهموه ؟ لا شك أنهـــم فهموا وعرفوا وجادلوا . وذلك معنـــاه أنه هذه اللغة كانت معروفة لهم وشائعة الاستعمال بينهم في الأدب .

ثم إذا لم يـــكن كل هذا مقنعاً في إثبات أن الجنوبيين كانوا مع الشماليين يستعملون لغة أدبية واحدة ، بل إن القسمين كانا يستعملان لغتين أدبيتين

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٥ .

مختلفتين ، فكيف غاب ذلك عن إدراك هؤلاء المزيفين الذين قاموا بصنع هذه النصوص الجاهلية المنسوبة إلى الجنوبيين ؟ كيف ينسبون إليهم نصوصاً بلغة لم تكن معروفة لهم ، ولا يؤلفون بها أدبهم ؟ والمعروف أن هؤلاء المزيفين كانوا مشهورين بالذكاء الخارق ، والفطنة التامة ، والإحاطة الكاملة بكل نواحي الحياة الجاهلية عند العرب جميعاً وبخاصة التقاليد الأدبية التي كانت شائعة عند الجاهليين ، جنوبيهم وشماليهم ، حتى استطاعوا بقدرتهم الفائقة أن يختلقوا نصوصاً مزيفة ، مشابهة تمام المشابهة للنصوص الأصيلة ، حتى التبس الدخيل بالأصيل ، ولم يتمكن أقدر النقاد ، وأقواهم فطنة وذكاء على التمييز بين هذا وذاك .

ثم إذا غفل المزيفون عن هذه الناحية ، ووقعوا فيها ، ألم يكن هناك من النقاد أو العلماء ، أو حتى من عامة الناس من يستطيع لأول وهلة أن يرد عليهم ادعاءهم ويبين كذبهم ، بحجة أن ما يختلقونه واضح التزييف ، لأنه يختلف في لغته عن لغة المنسوب إليهم ، المعروفة عنهم ؟ .

على أننا أشرنا فيما سبق إلى أن الأدباء من الجنوبيين الذين جاءت لهم نصوص أدبية في تراث الجاهليين ، إنما كانوا من أولئك الذين كانوا يعيشون في وسط العدنانيين أو قريباً منهم ، فكانت ديارهم في الشمال ، أو قريباً منه ، وليسوا من أولئك الذين كانوا يعيشون في أقاصي اليمن ، فليس هناك من الأدباء الجاهليين الجنوبيين الذين وردت لهم نصوص أدبية جاهلية من كانت داره في الجهات النائية من القسم الجنوبي. ولعل ذلك مما ينهي الخلاف أو يضيق شقته على الأقل. وبذلك ننتهي إلى أنه من المعقول –وهو الواقع فعلاً– أن يتحد الشماليون والجنوبيون في اللغة الأدبية ، قبل ظهور الإسلام للأدلة التي وضحناها آنفاً ، ومعظمها واقع وملموس . ولا ينبغي مطلقاً أن يكون اتحاد الجنوبيين والشماليين في لغة الأدب المنسوب إليها سبباً في الطعن في أصالته ، والموضوع قد يبدو – لأول وهلة – أنه مشكلة تثير الشبهة والشك ، ولكن بعد ما وضح الأمر ، وظهر

الحق ، وقامت الأدلة الكافية عليه ، ينبغي ، بل يجب أن تزول الشبهة ، وينتهي الشك ، ويرسخ الحق .

...

ويتحدث الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلي واللهجات الشمالية، فيحاول أن يتخذ من ذلك مطعناً جديداً في أصالة الأدب الجاهلي، وصدقه، فيقول[1]: «فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام ، فيقارب بين اللغات المختلفة ، ويزيل كثيراً من تباين اللهجات . وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية ، وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ... فاذا صح هذا كله كان من المعقول جداً أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام ، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة ، ولكننا لا نرى شيئاً من ذلك في الشعر الجاهلي ، فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجاً للشعر الجاهلي الصحيح ، فسترى أن فيها مطولة لامرىء القيس ، وهو من كندة أي من قحطان ، وأخرى لزهير ، وأخرى لعنترة ، وثالثة للبيد ، وكلهم من قيس، ثم قصيدة لطرفة، وقصيدة لعمرو بن كلثوم ، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة ، وكلهم من ربيعة . تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافاً في اللهجة ، أو تباعداً في اللغة ، أو تبايناً في مذهب الكلام : البحر العروضي هو هو ، وقواعد القافية هي هي ، والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين ، والمذهب الشعري هو هو . كل شيء في هذه المطولات يدل على أن اختلاف القبائل لم يؤثر في شعر الشعراء تأثيراً ما . فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان لا في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي،

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ٩٣ – ٩٤ .

وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل ، وإنما حمل عليها بعد الإسلام حملا . » ثم يقول : « ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى . فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان . »

وظاهر أنه هنا يشك في الأدب الجاهلي المنسوب إلى شعراء من القبائل العدنانية بحجة أن هذه القبائل كانت تختلف في اللهجات ، وأن كل قبيلة كانت لها لهجة خاصة بها ومن ثم يرفض الشعر الجاهلي المنسوب إليهم لأنه جاء بلغة واحدة ، ولا أثر لاختلاف لهجات القبائل فيه ، ويعتقد بأن هذا الأدب المنسوب إلى الأدباء الجاهليين الشماليين لم يصدر عنهم ، وإنما حمل عليهم حملا .

حقيقة كانت هناك لهجات بين القبائل العربية ، لكل قبيلة لهجتها الخاصة، ولكن اختلاف اللهجات بين العرب العدنانيين – كالاختلاف بين لهجات القبائل القحطانية – كان اختلافاً يسيراً، ولم يكن اختلافاً جوهرياً ، لأنه اختلاف بين أخوات من فرع واحد ، وشأن الاختلاف بين هذه اللهجات أقل بكثير من الاختلاف بين عربية الشماليين وعربية الجنوبيين فالاختلاف بين هذه اللهجات العدنانية ، بعضها وبعض، ليس إلا اختلافاً بين أخوات بينها تقارب شديد وكبير ، مثله كمثل الاختلاف بين اللهجات في مناطق الدولة الواحدة ، وإنا لنرى ذلك مشاهداً في كل أمة وفي كل دولة في جميع العصور ، ففي الجمهورية العربية المتحدة مثلا هناك لهجة القاهرة، ولهجة الإسكندرية، ولهجة الوجه البحري ، ولهجة الصعيد ، بل وفي مناطق كل من الوجهين القبلي والبحري اختلاف في اللهجات بين سكانها فهناك لهجة الشرقية، ولهجة الغربية، ولهجة منطقة القنال، وهكذا في كل بلد عربي ، وغير عربي، وفي كل دولة من دول العالم ، في جميع العصور . ولكن اختلاف هذه اللهجات لا يعدو أن يكون خلافاً يسيراً قليلا، وجميع المناطق يفهم كل منها الآخر بسهولة ويسر، وهذا الاختلاف كذلك لا يستلزم اختلافاً في لغة الأدب ، بل إن الواقع يثبت – والتاريخ على مر العصور يؤيد – أن سكان كل دولة مهما اختلفت

لهجاتهم المحلية في مناطقهم، فإنهم يتفقون جميعاً في اللغة الرسمية، لغة الأدب، فالجميع يؤلفون بها أدبهم، وكلهم يفهم هذه اللغة، فهُم جميعاً متحدون في هذه اللغة، مع اختلاف اللهجات المحلية [١]. وإذا كانت الأدلة الواقعية التي سقناها لبيان إمكانية وجود لغة أدبية تجمع بين الشماليين والجنوبيين، مقبولة ومقنعة، فهي هنا تكون دلالتها أقوى، وإقناعها أشد، وقبولها أوجب. والدكتور طه حسين نفسه يعترف أن لغة القرآن التي يعتقد أنها هي لغة قريش قد سادت [٢] قبيل الإسلام، وقد أوردنا نص هذا آنفاً، وهو مع تحفظه الذي أورده في نصه هذا! يعترف بسيادة لغة قريش في الحجاز كله، وهذا معناه على الأقل أنه كان هناك قبائل كثيرة أو قليلة -مع قبيلة قريش- كانت تتخذ لغة قريش لغة أدبية لها، وإذا كانت مجموعة من القبائل اتحدت في هذا الميدان، فلماذا لا تتحد فيه كذلك بقية القبائل الأخرى؟ هل المانع كان يرجع إلى اختلاف في الظروف، أو العقلية، أو المكانة الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية؟ لا أظن شيئاً من ذلك كان موجوداً بين قبائل العرب العدنانية كلها. ومن ثم، فلم يكن هناك ما يمنع، من أن تتحد جميع هذه القبائل في اللغة الأدبية، خصوصاً أن الإنسان دائماً مدفوع بغريزته إلى حب الشهرة وبعد الصيت، والأدباء بالذات، يحب كل منهم أن تشيع نصوصه في الآفاق، وتجري كلماتها على كل لسان في كل مكان. وهذا يستلزم الاتحاد في التعبير الأدبي ليكون المجال أمام النصوص الأدبية مفتوحاً. وكلما اتسع نطاق هذه الوحدة كانت الشهرة أكبر وأعظم.

ومع ذلك يسوق الدكتور طه حسين دليلاً آخر ليؤيد به اعتقاده أن أدب الجاهليين الشماليين مصنوع ومنحول، فيسوق مسألة تعدد القراءات في القرآن، ويقول [٣]: «إن القرآن الذي تلي بلغة واحدة، ولهجة واحدة،

---

(١) في الأدب الجاهلي، ص ١٠٤.
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٥.
(٣) في الادب الجاهلي، ص ٩٤-٩٦.

هي لغة قريش ولهجتها، لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته ، وتعددت اللهجات فيه ، وتباينت تبايناً كثيراً ، جد القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه ، وأقاموا له علماً أو علوماً خاصة. ولسنا نشير هنا إلى هذه القراءات التي تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً في ضبط الحركات ، سواء أكانت حركات بناء أو حركات إعراب.... إنما نشير الى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ، ويسيغه النقل ، وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش ، فقرأته كما كانت تتكلم ، **فأمالت** حيث لم تكن قريش تميل، **ومدت** حيث لم تكن تمد ، **وقصرت** حيث لم تكن تقصر ، **وسكنت** حيث لم تكن تسكن ، **وأدغمت أو أخفت أو نقلت** حيث لم تكن تدغم ولا تخفي ولا تنقل » . ثم يقول : « وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن ، وإنما هي شيء ، وهذه الأحرف شيء آخر ، فالأحرف: جمع حرف ، والحرف: اللغة ؛ فمعنى أنزل القرآن على سبعة أحرف أنه نزل على سبع لغات مختلفة في لفظها ومادتها . يفسر ذلك قول ابن مسعود : إنما هو كقولك هلم وتعال وأقبل. ويفسر ذلك قول أنس في الآية : «إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأصوب قيلا » أصوب وأقوم وأهدى واحد . ويفسر ذلك قراءة ابن مسعود : « هل ينظرون إلا زقية واحدة » مكان « هل ينظرون إلا صيحة واحدة » ... فأنت ترى أن هذه القراءات التي عرضنا لها إنما هي مظهر من مظاهر اختلاف اللهجات ».

وبعد أن يستطرد بحديث طويل عن القراءات للطبري، يقول الدكتور طه[1]:

« إن هذا النوع من اختلاف اللهجات له أثره الطبيعي اللازم في الشعر : في أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام . ولسنا نستطيع أن نفهم كيف استقامت أوزان الشعر وبحوره وقوافيه كما دوّنها الخليل لقبائل العرب كلها على ما كان بينها من تباين اللغات واختلاف اللهجات ، وإذا لم يكن نظم

(١) في الأدب الجاهلي، ص ١٠٣.

القرآن ، وهو ليس شعراً ولا مقيداً بما يتقيد به الشعر ، قد استطاع أن يستقيم في الآداء لهذه القبائل ، فكيف استطاع الشعر ، وهو مقيد بما نعلم من القيود ، أن يستقيم لها ؟ وكيف لم تحدث هذه اللهجات المتباينة آثارها في وزن الشعر وتقطيعه الموسيقي ، أي كيف لم توجد صلة واضحة بين هذا الاختلاف في اللهجة ، وبين الأوزان الشعرية التي كانت تصطنعها القبائل ؟ »

وهو بهذا يريد أن يقول إن أثر اختلاف اللهجات بين القبائل العربية قد ظهر في قراءات القرآن ، فلماذا لم يظهر هذا الأثر في الشعر الجاهلي كذلك ؟ ونحب قبل مناقشة هذا أن نشير إلى أن القراءات السبع المعروفة بيننا الآن ليست هي كل الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن كما يفهم من عبارة الدكتور طه ، وإنما هي منها ، فكلام السيوطي في الإتقان الذي يستدل به الدكتور طه، يفهم منه أن هذه القراءات السبع ليست هي الأحرف السبعة ، أي ليست هي هي ، وإنما معناه أنها من الأحرف السبعة وليست كلها ، فهي بعض منها ، ويدل على ذلك كلام السيوطي في الإتقان عند حديثه عن المصاحف العثمانية واشتمالها على بعض الأحرف السبعة [1] .

وأما عن ظهور أثر هذه الاختلافات بين اللهجات في قراءات القرآن ، وعدم ظهورها في الشعر فذلك أيضاً لا يستحق أن يكون سبباً لإثارة الشبهة والاتهام ضد الأدب الجاهلي . فالقراءات في القرآن إنما هي في الغالب ترجع إلى كيفية النطق ببعض الحروف والأصوات ، فالاختلاف بينها في معظم الحالات راجع إلى كيفية النطق ، كالإمالة والمد والقصر والتسكين والإدغام والإخفاء ، وما إلى ذلك ، كما نص على ذلك الدكتور طه حسين في نصه الذي أوردناه آنفاً وأظهرناه بخط أوضح . وذلك كان بطبيعة الحال يُتلقى بالمشافهة والرواية حتى يستطيع السامع أن يعرف كيفية النطق الصحيح بالقراءة المطلوبة . ولذلك كان من المبادىء المقررة في علوم القرآن أن : « المقرىء هو من علم بالقراءات أداء ، ورواها مشافهة ، فلو حفظ كتاباً

(١) راجع في ذلك ابن الجزري. قراءات القرآن ؛ والإتقان في علوم القرآن جـ ١ ص٤٩.

امتنع عليه اقراؤه بما فيه ، إن لم يشافهه من شوفِه به مسلسلاً ، لأن القراءة شيء لا يحكَم إلا بالسماع والمشافهة [1] » . والأدب الجاهلي إنما وصلنا مكتوباً ، ولم يحافظ على الرواية والمشافهة في الانتقال من جيل إلى جيل حتى وصل إلينا بهذه الطريقة ، وإنما من وقت تدوينه كتب بلغة واحدة . وإذا كان القرآن الكريم نفسه ، وهو النص الكريم المقدس ، قد كتب بلغة واحدة منذ زمن عثمان ، فهل يتوقع أن يدون الأدب الجاهلي عندما بدأ تدوينه – وذلك كان بعد كتابة القرآن الكريم بزمن طويل – بلهجات العرب جميعاً ، حتى ولو كانوا فيه مختلفين ؟ والاختلاف ولا شك كان موجوداً – كما رأينا في قراءات القرآن – في النطق ببعض الحروف والأصوات. فإذا لم يحافظ على تبيين هذا الاختلاف في كتابة القرآن الكريم، فهل يحافظ عليه في تدوين الأدب الجاهلي ؟ ونحن الآن نقرأ الأدب الجاهلي ، وننطق به ، وهو مكتوب أمامنا بلغة واحدة ، وكلٌّ من قارئيه ينطق ألفاظه حسب عادته وطريقته في الأداء ، ومن ثم قد يظهر بين الناطقين به في أقطار العالم العربي اختلاف في نطق بعض الحروف أو الألفاظ أو الأصوات، كل حسب ما تعوده لسانه ونشأ عليه منذ الصغر في بيئته الخاصة ، ومثل هذا الاختلاف يصور – في نظري – الاختلاف الذي كان بين القبائل المختلفة في العصر الجاهلي .

أما مسألة الاختلاف في بعض الكلمات واستبدالها بكلمات أخرى في بعض القراءات ، فذلك قليل ونادر جداً ، بل حدث ذلك في كلمات معدودات في القرآن الكريم، وكلها طبعاً كانت بتوقيف من النبي ﷺ لأن القرآن نزل بها. ونظير ذلك نجده في الأدب الجاهلي ، فكثيراً ما نجد بعض الألفاظ في بيت أو قصيدة تختلف باختلاف الروايات ، فلعل ذلك أثر من آثار اختلاف اللهجات ، فيجوز أن الشاعر قالها بحسب لهجة قبيلته ثم غيَّرها كل راو

---

(١) راجع كتاب القراءات واللهجات للاستاذ عبد الوهاب حموده (النهضة المصرية سنة ١٩٤٨) .

حسب لهجته، أو لعل الشاعر قالها بألفاظ مختلفة ليجمع في نصه ما يستطيع من لهجات، وذلك في نظري خير دليل على إثبات ظهور الاختلاف بين اللهجات القبلية في الأدب القديم. وعلى كل فدراسة شعر الهذليين في المجموعة التي بين أيدينا الآن من مجموعات القبائل التي دوّنها الرواة، تدل دلالة واضحة على كثير من الألفاظ القبلية الخاصة التي يبدو أنها كانت خاصة بقبيلة هذيل. ولو أن غيرها من مجموعات القبائل التي جمعها العلماء والرواة القدماء بقيت لنا إلى اليوم، لاستطعنا أن نقف منها على كثير من الألفاظ القبلية الخاصة، وحينئذ كان يمكن أن تقوم عليها دراسات لغوية مقارنة ممتعة.

وأما مسألة البحور والأوزان الشعرية، فهي ناحية موسيقية، وهذه تخضع للذوق السمعي الإنسان بحكم كونه إنساناً، ولا يختلف الإنسان الطبيعي في شأن النغمات الجميلة المستحسنة، فهي ولا شك تنال منه ارتياحاً واستحساناً، مهما اختلفت ظروفه أو بيئته، كما هو مشاهد بيننا، فالإنسان يطرب لسماع الموسيقى العذبة الشجية الصادرة من أي مكان وعن أي الأجناس من البشر، فكلها توافق الذوق الإنساني السليم. ومن ثم كان لكل إنسان أن يحب، ويعشق، ويردد، ويكرّر، ويستعمل، ما يشاء منها ما دام قد وافق منه قبولاً ونال عنده الاستحسان والإعجاب، ولا شك أن الذوق السمعي العام في كل مجموعة من البشر قد يألف أو يطرب لنوع خاص من الموسيقى والأنغام، فيحب أو يعشق نوعاً خاصاً منها، وذلك شيء طبيعي لأنه خاضع للميول والرغبات التي تختلف في الأفراد والمجتمعات. ولكن المشاهد أيضاً، أن الذوق السمعي العام في كل أمة يكاد يكون واحداً بين الأمة الواحدة، وإن اختلفت طبقاتها، أو تعددت مناطقها، أو كثر افرادها. فإذا لقيت هذه الأوزان والبحور الشعرية قبولا عاماً من القبائل العربية في العصر الجاهلي، فذلك شي طبعي. لأنهم جميعاً قبائل عربية من أصل واحد، وفي بيئة واحدة، وظروف للحياة والمعيشة تكاد تكون

واحدة . على أن البحور والأوزان التي استخرجها الخليل من الشعر القديم كانت متعددة وكثيرة ، وكان للشاعر أن يختار منها ما يحلو له ، وما يراه أنسب لغرضه . فاختلاف اللهجات - في اعتقادي - ليس له شأن في الأوزان الشعرية ، فهذه مسألة موسيقية ، وليس هناك ما يمنع أن تتفق هذه اللهجات العربية في كثير من النغمات الموسيقية ، فتجمع على استحسانها والإعجاب بها، خصوصاً أن هذه اللهجات عربية ، ولقبائل من أصل عربي واحد . فيغلب على الظن - بل إن الواقع الطبيعي يؤيد - أن هذه القبائل كانت متفقة في الذوق السمعي . فاتحدت لديهم البحور والأوزان الشعرية .

وختم الدكتور طه حسين حديثه في موضوع الاختلاق والانتحال في الأدب الجاهلي بالكلام عن الشواهد الشعرية التي كان يستعملها العلماء، فقال[1]: « نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ، ونحوهما ، ومذاهبها الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسراً ، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قُدّ على قَدّ القرآن والحديث ، كما يُقدّ الثوب على قدّ لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة . إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء وأن هذه الدقة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رزقوا حظاً من السذاجة لم يتح لنا مثله . إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة في الموازاة على الشك والحيرة ، وعلى أن نسأل أنفسنا : أليس يمكن ألا تكون هذه الدقة في الموازاة نتيجة من نتائج المصادفة . وإنما هي شيء تكلف وطلب ، وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي ؟». ثم يستمر فيقول[2] : « وهذا النحو من التكلف والنحل للأغراض التعليمية الصرفة كان شائعاً في العصر العباسي ، ولا سيما في القرن الثالث والرابع .. ومثل هذا كثير شعراً ونثراً وسجعاً ،

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

نجده في الأمالي والعقد الفريد وديوان المعاني لأبي هلال ، وغيرها من الكتب. وأكاد أعتقد أن هذا النحو من النحل هو أصل المقامـــات ، وما يشبهها من هذا النوع من أنواع الإنشاء » .

حقيقة استخدمت كثير من الأبيات والعبارات العربية القديمة للاستدلال بها على تفسير لفظ ، أو استخدام كلمـــة في معنى ، أو الاستدلال على قاعدة ، في كثير من العلوم ، فتساق هذه المأثورات القديمة استشهاداً بها على المراد توضيحه من مثل الأغراض السابقة .

والباحثون والمؤلفون في العـلوم العربية والإسلامية حينما يستشهدون لا يقتصرون في استشهادهم على أبيات الشعر ، إنما كل ما كان يحضرهم ، أو يعلمونه ، ويرونه مناسباً لغرضهم كانوا يستشهدون به . والحق يقال : إنهم في كل استشهاد يبدءون بالاستشهاد بالقرآن الكريم ثم الحديث الشريف ، ثم مأثور الكلام العربي الفصيح ، شعراً ثم نـــثراً ، من كلمات الأدباء الموثوق بفصاحتهم وتمكنهم في اللغة العربية الفصحى الخالصة . ومن الطبيعي إذا وجد الباحث أو المؤلف اقتباسات من كل هذه المصادر تصلح شواهد على ما يقول أتى بها ، فأكثر من شاهد من أكثر من مصدر ، أوضح في الدلالة ، وأقوى في البيان والإيضاح ، ولكن أولها بطبيعة الحال هو القرآن الكريم ثم الحديث الشريف ، ثم الشعر ، ثم النثر ، وذلك واضح تمام الوضوح في الكتب الدينية مثل : التفسير والحديث والفقه والأصول وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية ، وفي الكتب العربية والأدبية ، وأهمها في الاستشهادات كتب النحو والصرف والبلاغة والمعاجم اللغوية . والمقصود طبعاً من هذه الاستشهادات هو التوضيح ، وزيادة البيان ، وتقرير أن ذلك مستعمل ، وشائع ومفهوم الدلالة في اللسان العربي الفصيح . وحينما يستشهد العلماء بالشعر في تفسير القرآن الكريم ، لا يقصدون من ذلك طبعـــاً الاستدلال على عربية القرآن الكريم وفصاحته بعربية بيت من الشعر وفصاحته ، كلاّ ، ما كان هذا أو نحوه مقصوداً ، إنما المقصود زيادة إيضاح المعنى ، وتقريره في نفس القارىء أو السامع . ثم

إن الاستشهاد على ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف ونحوهما ومذاهبهما الكلامية ، لم يُقد عليهما قدّاً ، إنما هو مثل يساق لتوضيح جزئية معينة في أحد تعبيرات القرآن ببيان الاستعمال العربي الفصيح لمثل لفظ أو ألفاظ هذه الجزئية المعينة المطلوب توضيحها أو تقريرها .

هذا إلى أن الاستشهاد في كل العلوم على اختلافها إنما يقصد به توضيح المعنى أو القاعدة المطلوب بيانها ، بإيراد كلام عربي فصيح . فالاقتباسات أو الاستشهادات التي يؤتى بها لا بد ستكون عربية الألفاظ والاستعمال حتماً. وهذا بالطبع لا يطعن في أصالة ألفاظ الاستشهادات من ناحية الاستعمال اللغوي ، ولا من حيث تصوير اللغة العربية في هذا العصر . فمن يورد هذه الشواهد لا يستشهد بها إلا اذا كان واثقاً تمام الثقة من أنها كانت مستعملة — بألفاظها ومعانيها المطلوب الاستشهاد بها - في اللسان العربي الفصيح . فهي لا تمس أصالة اللغة العربية الفصحى ومن ثم فهي صالحة لتصوير اللغةالفصحى، تصويراً تاماً. غاية ما يقال فيها — إذا كانت مختلفة ومنتحلة - أنها لا تصوّر شخصية الأديب المنسوبة إليه .

ثم إن العلماء والمؤلفين كانوا يبذلون جهودهم بقدر ما يستطيعون ليوردوا شواهدهم منسوبة إلى أصحابها الذين قالوها ، ومن يراجع الاستشهادات في جميع الكتب يجد أن معظمها منسوب إلى قائلين معينين ؛ والقلة القليلة مجهولة القائل . وقد يكون ذلك بسبب الاعتماد على الذاكرة في حفظ الأدب ، ونقله ونشره ، وإذاعته فإذا كثر المحفوظ ، أو تشابه بعضه ، كان جزء أو أجزاء منه عرضة للنسيان أو الاختلاط أو الاضطراب ، أو الضياع .

حقيقة قد يكون بعض هذه الشواهد مختلفة ومنحولة ، وقد قال بذلك بعض الباحثين منذ القدم ، ولكن ليس من العدل أن نطعن في جميع هذه الاستشهادات ، ونرميها بالزيف ، ونصفها بأنها تطعن في أصالة الأدب الجاهلي، ولا تصور اللغة العربية في العصر الجاهلي. فالإنصاف يقضي، بأن ما كان منها من قصيدة أو قطعة معينة لشاعر أو أديب معين ، وقد تظاهرت الروايات

والأخبار الموثوق بها على صحته وأصالته ، لا بد أن يقبل ، وأن يعد صحيحاً صادقاً ، ويصلح لكل ما صلح له النص الكامل الصحيح الصادق ، أما ما وضح فيه الاختلاق ، فهو ظاهر النسب المزيف ، وأما ما كان مثاراً للشك والظنة فهو يستدعي البحث والتحري حتى تتبين حقيقته ، وإن كانت هذه الأنواع كلها صالحة للاستشهاد بها على أنها لغة فصيحة .

* * *

وينتقل الحديث بعد ذلك عن أسباب الانتحال ، فيحصرها الدكتور طه حسين في كتابه ، في : السياسة ، والدين ، والقصص ، والشعوبية ، والرواة .

وفي حديثه عن **السياسة** وتدخلها في اختلاق الأدب ونحله ، يتحدث الدكتور عن الظروف التي لابست الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية فيذكر ما كان من عداوة بين النبي ﷺ والكفار ، وما حدث من عداوة بعد الهجرة بين مكة ومن فيها من قريش ، والمدينة ومن فيها من الأنصار ، ثم ما حدث بعد وفاة النبي ﷺ من خلاف بين المهاجرين وهم من قريش ، والأنصار وهم من الأوس والخزرج ، وما حدث من شقاق في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وما أعقب ذلك من فتنة بين علي رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان ، وما استمر بعد ذلك من عداوات بين الأمويين والفرق والأحزاب الأخرى .

وهو في أثناء ذلك يذكر ما نتج بسبب هذه الاختلافات والعداوات من تسابق في قول الشعر والنصوص الأدبية فيقول إن التنافس الذي كان بين قريش والأنصار جعل قريشاً تستكثر من الشعر وبخاصة ذلك النوع الذي يُهجى فيه الأنصار ، وفي هذا يقول[1] : «ويستطيع الكاتب في تاريخ الأدب ان يضع سفراً مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير في شعر الفريقين الذي قالوه في الإسلام ، وفي الشعر الذي نحله الفريقان

---

(١) في الأدب الجاهلي ، صفحة ١٢٩ .

شعراءها في الجاهلية . هـذا دون أن يتجـاوز المؤرخ السياسي أو الأدبي الخصومة بين قريش والأنصار ، فكيف إذا تجاوزها الى الخصومة بين القبائل الأخرى ! ذلك أن العصبية لم تكن مقصورة على أهل مكة والمدينة، ولكنها تجاوزتهم إلى العرب كافة ، فتعصبت العدنانية على اليمنية ، وتعصبت مضر على بقية عدنان ، وتعصبت ربيعة على مضر، وانقسمت مضر على نفسها، فكانت فيها العصبية القيسية ، والتميمية ، والقرشيـة ، وانقسمت ربيعة ، فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر ، وقل مثل ذلك في اليمن ، فقد كان للأزد عصبيتها ، ولحمير عصبيتها، ولقضاعة عصبيتها » .

ويقول : « وإذا كان هذا تأثير العصبية في الحياة السياسية ، قد رأيت طرفاً يسيراً من تأثيرها في الشعر والشعراء ، فأنت تستطيع أن تتصور هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسي العنيف ، تحرص كل واحدة منهـا على أن يكون قديمها في الجاهلية خير قديم ، وعلى أن يكون مجدها في الجاهلية رفيعاً مؤثلا بعيد العهد . وقد أرادت الظروف أن يضيـع الشعر الجاهلي ؛ لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد ، وإنما كانت ترويه حفظاً ، فلما كان ما كان في الإسلام من حروب الردة ، ثم الفتوح ، ثم الفتن ، قتل من الرواة والحفاظ خلق كثير ، ثم اطمأنت العرب في الأمصار أيام بني أمية، وراجعت شعرها ، فإذا قد ضاع أكثره ، وإذا أقله قد بقي ، وهي بعد في حاجة إلى الشعر تقدمه وقوداً لهذه العصبية المضطرمة ، فاستكثرت من الشعر ؛ وقالت منه القصائد الطوال وغير الطوال ، ونحلتها شعراءها القدماء . » .

وينتهي إلى أن يقول : « إن العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت من أهم الأسباب التي حملت العرب على نحل الشعر للجاهليين ... إن مؤرخ الأدب مضطر حين يقرأ الشعر الذي يسمى جاهلياً أن يشك في صحته كلما رأى شيئاً من شأنه تقوية العصبية التي يؤيدها هذا الشعر لدى قبيلة أو عصبية قد لعبت – كما يقولون – دوراً في الحياة السياسية للمسلمين » .

وهنا نجد الدكتور طه حسين يخلط السياسة بالعصبية ، وحقيقة استغلت

السياسة ، في الفترة التي تحدث عنها ، العصبية . وكان لهذا أثره في النواحي السياسية والاجتماعية . فكان للعصبية أثر ظاهر في السياسة التي سارت عليها الدولة في العصر الأموي . وفي حديثه الطويل في هذا الفصل يذكر الأسباب التي كان من شأنها أن جعلت المسلمين يختلفون ، ويتعصب كل منهم لفريق، وما نتج عن ذلك من آثار أدبية لدى كل فريق . ويورد بعض الأمثلة التي قالها الشعراء وكلها من الشعر الإسلامي ، وليس فيها مثل جاهلي واحد ، ويلخص قولاً لمحمد بن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء عن رغبة كل فريق من المتخاصمين في التعالي على الآخرين ، مما اضطرهم إلى خلق الشعر لتقدمه وقوداً لهذه العصبية .

وهذا الكلام الأخير كلام قاله الأولون ، وأثبت التاريخ اشتعال العصبية من جديد بين المسلمين بعد ان كانت الدعوة الإسلامية أخمدتها ، وقال بسببها الأدباء نصوصاً أدبية كثيرة . ونحن نعلم أن العصبية كانت سائدة بين العرب في الجاهلية ، وكانت لهذا من أهم الأسباب التي دعت الشعراء والأدباء إلى قول الشعر والأدب في العصر الجاهلي ، فنكاد لا نجد قصيدة واحدة ، وبخاصة الطوال منها ، تخلو من عصبية جاهلية . ولهذا كان معظم الشعر الجاهلي يفيض بهذه النغمة إذ أنها كانت الملهم الأول للشعراء والمثير الأقوى لعواطفهم ، فاذا نحن أخذنا نشك في كل نص أدبي جاهلي فيه عصبية جاهلية ، كان معناه الشك في معظم نصوص الأدب الجاهلي لشيوع العصبية فيه . إنما الذي يقتضيه الإنصاف هنا أن نأخذ في الاعتبار دراسة الثقات من العلماء والنقاد والرواة السابقين ، فما ارتضوه وقبلوه على أنه أصيل ، فليس لنا أن نشك فيه أو نتهمه ، ما لم يقم الدليل الثابت القاطع باختلاقه ، وأنى لنا ذلك!.

وفي حديثه عن الدين ونحل الشعر يذكر أن الظروف المختلفة التي أحاطت بالحياة الدينية للعرب خاصة وللمسلمين عامة دعت إلى نحل الشعر ، فيقول[1]:

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ١٣٣ .

« كان هذا النحل في بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبي ، وكان هذا النوع موجهاً الى عامة الناس . وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهداً لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ما يتصل بها من هذه الأخبار والأساطير التي تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى ، كانوا ينتظرون بعثة نبي يخرج من قريش أو مكة . وفي سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع .وأنت تستطيع أن تحمل على هذا لوناً آخر من الشعر المنحول لم يضف الى الجاهليين من عرب الإنس ، وإنما أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن » . ويقول معللا هذه الظاهرة[1] : « والغرض من هذا النحل – فيما نرجح – إنما هو إرضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة في كل شيء » .

ويقول : « القرآن يحدثنا بأن اليهود والنصارى يجدون النبي مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . وإذن فيجب أن تخترع القصص والأساطير وما يتصل بها من الشعر ، ليثبت أن المخلصين من الأحبار والرهبان كانوا يتوقعون بعثة النبي ، ويدعون الناس إلى الإيمان به حتى قبل أن يُظل الناس زمانه » .

ويستمر فيقول : « ونوع آخر من تأثير الدين في نحل الشعر وإضافته إلى الجاهليين ، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه إلى قريش » .

ويقول [2] : « ونحو آخر من تأثير الدين في نحل الشعر ، وهو الذي يلجأ إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوباً في القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم ؛ فالرواة يضيفون إليهم شعراً كثيراً . وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جدّ في طبقات الشعراء في إثبات أن هذا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

الشعر وما يشبهه مما يضاف إلى تُبَّع وحمير موضوع منحول، وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص ، وابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص لا يكتفون بالشعر يضيفونه إلى عاد وثمود وتبع وحمير ، وإنما هم يضيفون الشعر الى آدم نفسه ، فهم يزعمون أنه رثى هابيل حينما قتله أخوه قابيل ».

ويتابع حديثه فيذكر أن من تأثير الدين في نحل الشعر ما كان يشعر، بالحاجة إليه علماء العرب والموالي في إثبات أن القرآن عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب : « فحرصوا على أن يستشهدوا على أن كل كلمة من كلمات القرآن عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها » . ويعقب على ذلك بأنه يعتقد أنه «إذا كان هناك نص عربي لا تقبل لغته شكاً ولا ريباً وهو لذلك أوثق مصدر للغة العربية ، فهو القرآن . وبنصوص القرآن وألفاظه يجب أن يستشهد على صحة ما يسمونه الشعر الجاهلي ، بدل أن نستشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن ».

ويستمر فيذكر أن الخصومات التي حدثت بين العلماء وأصحاب التأويل على فهم للقرآن وتأويل نصوصه ، « كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته ، ورأي الناس فيه ، وثقة الأمراء والخلفاء بعلمه ، ومن هنا كان العلماء حراصاً على أن يظهروا دائماً مظهر المنتصرين في خصوماتهم ، الموفقين للحق والصواب فيما يذهبون إليه من رأي،وأي شيء يتيح لهم هذا الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن ؟ وقد كثر استغلالهم لهذا الاستشهاد فاستشهدوا بشعر الجاهليين على كل شيء . وأصبحت قراءة الكتب الأدبية واللغوية وكتب التفسير والمقالات تترك في نفسك أثراً قوياً ، وصورة غريبة لهذا الشعر الجاهلي ، حتى ليخيل إليك أن أحد هؤلاء العلماء ، على اختلاف ما كان ينظر فيه من فروع العلم ، لم يكن عليه إلا أن يمد يده إذا احتاج ، فيظفر بما شاء الله من كلام العرب قبل الإسلام، كأن كلام العرب قبل الإسلام قد وعى كل شيء ، وأحصى كل شيء . .. ... فالمعتزلة يثبتون مذاهبهم بشعر العرب الجاهليين ، وغير المعتزلة من أصحاب المقالات ينقضون آراء المعتزلة معتمدين على شعر الجاهليين » .

ثم يتطرق إلى جانب آخر من جوانب الناحية الدينية ، فيقول [١] : « وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم ، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور ، ثم أعرضت عنه لما أضلها المضلون ، وانصرفت إلى عبادة الأوثان . ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفراد قليلون يظهرون من حين إلى حين وهؤلاء الأفراد يتحدثون ، فنجد من أحاديثهم ما يشبه الإسلام . وتأويل ذلك يسير ، أتباع إبراهيم ، ودين إبراهيم هو الإسلام . وتفسير هذا من الوجهة العلمية يسير أيضاً ؛ فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملاً بعد الإسلام ، لا لشيء إلا ليثبت أن للإسلام في بلاد العرب قُدمة سابقة وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجده من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين ، والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث شبه قوي أو ضعيف » .

ولهذا يقول [٢] : ونحن نعتقد أن هذا الشعر الذي يضاف إلى أمية بن أبي الصلت وإلى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبي أو جاءوا قبله إنما نحل نحلاً ، نحله المسلمون ليثبتوا – كما قدمنا – أن للإسلام قدمة سابقة في البلاد العربية . ومن هنا لا نستطيع أن نقبل ما يضاف إلى هؤلاء الشعراء ، والمتحنفين إلا مع شيء من الاحتياط والشك غير قليل » .

وينتقل إلى آخر نقطة في الناحية الدينية ، وهي اليهودية والنصرانية وصلتها بنحل الشعر ، ويدعي أن هاتين الديانتين كانتا منتشرتين في بلاد العرب ، ثم يقول [٣] : « مهما يكن من شيء ، فليس من المعقول أن ينتشر هذان الدينان في البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر ظاهر في الشعر العربي قبل الإسلام ، وقد رأيت أن العصبية العربية حملت العرب على أن ينحلوا

(١) المرجع السابق ص ١٤١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤٦ .

الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم في الجاهلية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر ، فالأمر كذلك في اليهود والنصارى : تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين ، وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين ، وأبوا إلا أن يكون لهم مجد وسؤدد ، كما كان لغيرهم مجد وسؤدد أيضاً ، فنحلوا كما نحل غيرهم ، ونظموا شعراً أضافوه إلى السموأل بن عاديا وإلى عدي بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى » .

وظاهر هنا أن الدكتور طه حسين أثار تحت هذه الناحية كثيراً من المسائل ، يعتقد أن ما قيل فيها من الشعر منحول ، وهي : ما قيل من الشعر إرهاصاً لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما أضيف إلى الجن ، وما ينسب إلى الأحبار والرهبان ، وما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه من قريش . وما ينسب إلى الأمم البائدة عند تفسير الآيات التي تتحدث عنهم ، وما يستشهد به على تفسير القرآن ومعاني ألفاظه ، وما يورده علماء اللغة والدين من استشهادات لإثبات سعة علمهم وتأييد آرائهم ، وما ينسب إلى من سموا بالموحدين » وما يضاف إلى شعراء اليهود والنصارى .

ولا شك أن فيما ذكره عن هذه المسائل شيء من الشعر والنصوص الأدبية قيل بعد الإسلام ونسب إلى أدباء جاهليين ، وقد فطن إليها العلماء والنقاد والقدماء ونصوا على نحل بعض الآثار الأدبية التي تتصل بهذه المسائل ، وقد رأينا فيما اقتبسناه من ابن سلام والرافعي ما يثبت ذلك .

ومن الردود على مسألة النصوص الأدبية التي وردت ممهدة لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، قول الأستاذ محمد الخضر حسين [1] : « أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق، فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها ، وشأنهم أن يفحصوا ما يرد في هذا الصدد، ويضعوه بمنزلته من الوضع أو الضعف أو الصحة، وكذلك فعل علماء الإسلام فحكموا على جانب مما كان

(١) نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٨٨ .

من هذا القبيل بالوضع كالأخبار والأشعار المعزوة إلى قس بن ساعدة »

والمعروف دائماً أن الثورات السياسية والاقتصاديه والاجتماعية تحدث عقب تدهور وفوضى وفساد . فسوء الحال في أية ناحيه من نواحي الحياة يدفع المفكرين وذوي الفطنة ، وأصحاب المواهب إلى البحث عن وسائل الإصلاح فيضرعون إلى الله أن يلهمهم الصواب ، ويفكرون ، ويتعمقون في التفكير ، فإذا ما هداهم الله سبل الرشاد ، وأنار لهم الطريق ، قضوا على الفوضى ، وأصلحوا الفاسد ، وقوّموا المعوج ، فتزول الغمة وتستقيم الأمور .

وإذا كان الحال كذلك في نواحي الحياة العملية ، فلماذا لا يكون ذلك في النواحي الروحية ؟ لماذا لا يحدث ذلك في الناحية الدينية ، حينما تنتشر فيها الفوضى ، ويعم الفساد ، ويسود الجهل ، ويضل الإنسان الطريق الصحيح إلى الدين القويم ؟ إن السنّة الطبيعية للإنسان والحياة تؤكد أنه في أثناء الأزمات ، وفي أحرج الأوقات ، توجد في المجتمعات عقول منيرة ، وأفكار وضاءة ، ترسل أشعتها وسط الظلمات ، وتتلمس المنافذ إلى آفاق الطمأنينة والاستقرار . وقد رأينا ما كانت عليه الحال من سوء وفساد بين العرب الجاهليين في شتى نواحي الحياة وبخاصة في الدين ، فكانوا في الحقيقة يعيشون في فوضى سياسية واجتماعية ودينية ؛ أمن معدوم ، وخطر يتهدد النفوس ، وظلم واعتداء ، وسلب ونهب ، وضلال ديني ، وفوضى ضاربة أطنابها في كل شيء : فساد وظلام ، وزعزعة واضطراب . ومن الطبيعي حينئذ أن يكون من بين أبنائهم من كانت فيهم بصيرة نافذة ، وعقول مفكرة ، فرأوا ذلك وأحسّوه ، فاتجهوا بنفوسهم نحو التفكير السليم ، والطريق الصحيح ، يتلمّسون النور ، ويرجون الحق والصواب ، وربما كان في هؤلاء من رزقوا الموهبة الفنية الأدبية ، فصوروا مشاعرهم ، وخلجات نفوسهم في صورة من يرى النور ، ويحدوه الأمل ، وينتظر تحقيق الرجاء ، فكان ذلك إرهاص الخير ، وبشير الاطمئنان .

لذلك لا نستبعد أنه في الجاهلية وبخاصة تلك الفترة التي سبقت بعثة النبي

ﷺ مباشرة قد وجد بين القوم من صفت نفوسهم ، وسما تفكيرهم ، فوصلوا بتأملاتهم الدينية إلى شيء من الحقيقة في الدين ، وتمنوا أن يتحقق لهم الأمل، وتتضح الحقيقة كاملة جلية . يقول ابن سلام : « وكان أمية (يعني ابن أبي الصلت) كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب » . ثم يقول ابن سلام : « فحدث سفيان وابن دأب أن أمية مر بزيد بن عمر بن نُفيل أخي عدي بن كعب ، وكان قد طلب الدين في الجاهلية هو وورقة بن نوفل ، فقال أمية : يا باغي الخير ، هل وجدت ؟ قال : لا [1] » .

وأما ما ينسب إلى الجن من أشعار ، فقد قال عنه الأستاذ محمد لطفي جمعة [2] : « والحقيقة أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون بالجن ، ونظموا شعراً جاهلياً عن علاقة الجن بالشعر والشعراء ... ولم تكن أمة ساميّة أو آريّة تخلو من الإعتقاد بالجن ، أو الأرواح الخيّرة والشريرة » . ويقول : « نقرأ الكثير عن الشعر المروي عن الجن والإنس ، ولم يخطر ببالنا يوماً ان المقصود أن الجن قالته حقاً وصدقاً ، وأنها تنشر باللغة العربية والأوزان العربية شعراً عربياً في أمور دينية أو سياسية ، ولكننا لو قرأنا ، وأدركنا ، نعلم أن هذا الشعر يتضمن فكرة الشاعر المعلوم أو المجهول الذي نظمه ، ولم ينسبه لنفسه ، وإن الجن ليست إلا وسيلة لروايته ، كما فعل شعراء الإفرنج ، مثل غوته ، وشيكسبير ، ودانتي ، وميلتون ، فقد أنطقوا الجن في دواوينهم بالشعر والنثر ، وزاد دانتي وميلتون بالخوض في وصف الجنة والجحيم ، ورويا لنا من شعر الملائكة والأبالسة ما لم يخطر على قلب البشر ، فهل صدّقنا أن الملائكة والشياطين والجن قالت هذا الشعر حقاً ؟ وهل يؤمن المؤلف بشاعرية الجن كما يصدق الطفل « عقدة الإصبع » أو قصة « أليس في أرض الجن » ؟

---

(١) طبقات الشعراء ، ص ٦٦ .

(٢) الشهاب الراصد ، ص ٢٠٩ - ٢١٢ .

بل نعد الشعر الذي نسب إلى الجن في مقتل سعد بن عبادة ورثاء عمر بن الخطاب من النوع التمثيلي الفطري الذي لم تنضج مواهب العرب في بابه ، لأنهم وإن نظموا شعراً تمثيلياً ، فإن خيالهم اتجه نحو هذا النوع من الأدب ، وقد ألّف اليونان قطعاً تمثيلية قوامها شخصيات خيالية أمثال ديونيس وجوبتر وباكوس وبروموتيه » ، ويقول : « إن الشعر الذي تَزعم الأعراب أنه للجنّ ، والأخبار التي عقدوها لها ، وتناقلها عنهم الرواة ، إنما هو من قبيل الخيال الشعري » . ويعلّل بعض الباحثين الشعر الذي ينسبه الأعراب إلى الجن ، بأنّ ذلك من أثر الفلاة والخلاء والوحشة والبعد عن الإنس ، فأخبار الجن لا تعرف إلا عن رجل من الأعراب ، أو رجل من الرواة الذين يقصّون للعامة وأشباه العامة . ثم إن « شياطين الشعراء » فكرة ، بل عقيدة راسخة عند العرب منذ القِدَم .

وأما ما يُنسب إلى عبد المطلب وهاشم وعبد مناف وقصي من أخبار ، فيجوز أن يكون ذلك مما نسب إلى قريش أنها افتعلته فيما بعد ، وأما المثال الشعري الذي أورده الدكتور طه حسين [1] ليدلل ؛ على نحل الشعر الجاهلي في قريش ، فهو شعر إسلامي إذ ينسب إلى قائل قاله بعد ظهور الإسلام ، ثم إن النقاد عرفوه ونبهوا عنه .

وأما ما يذكره عن الشعر المنسوب إلى الأمم البائدة ، فقد نبه عليه القدماء ، وبينوا وجه انتحاله ، واعترف الدكتور طه بأن ابن سلام كفاه ذلك « حين جد في طبقات الشعراء في إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف إلى تبع وحمير ... وعاد ، وثمود ، منحول وضعه ابن إسحق ومن إليه من أصحاب القصص » .

وأما عن الشعر الذي يساق للاستشهاد به في التفسير ، وبين علماء التأويل ، فقد سبق أن وضحنا أن ذلك ما كان يقصد به الإستدلال على عربية القرآن ،

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ١٣٧ .

وأكدنا أن هذا الزعم لم يكن ليدور بخلد المستشهدين به ، إنما كان القصد منه بيان معاني الألفاظ ، وتوضيح دلالتها في استعمالاتها المختلفة ، على أن كلها ليست جاهلية بل معظمها إسلامي ، وقليل منها جداً لا يعرف قائله . ومهما يكن فكلها لا تستحق الطعن والاتهام .

وأما ما ينسب إلى من يسمّون بالموحدين من نصوص شعرية ، فيجوز أن يكون ذلك من خلجات ذوي النفوس الشفافة الذين أشرنا إليهم سابقاً ، ممن يرون بصيص النور في دياجير الظلام ، ومعالم الطريق في متاهات البوادي والقفار ، فاهتدوا الى شيء من الخير والصواب ، وجاء ما اهتدوا إليه موافقاً للحق والرشاد .

وما قيل عن أدباء اليهود والنصارى وما نسب إليهم من أدب منحول ، فشأنهم في ذلك شأن غيرهم من الأدباء المسلمين وغيرهم من الطوائف الأخرى ، ينطبق عليهم جميعاً المبدأ العام ، وهو دراسة آثارهم ، ومعرفة آراء الثقات من العلماء والنقاد والباحثين السابقين في ذلك فما كان من نصوصهم موضع ثقة هؤلاء ، كان عندنا موضع قبول واحترام ، ما لم تكن هناك براهين قاطعة على خلاف ذلك .

وفي أثر القصص في انتحال الأدب، يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي[١] « فلما كثر القصّاصون وأهل الأخبار اضطروا من أجل ذلك أن يصطنعوا الشعر، لما يلفقونه من الأساطير حتى يوائموا بين رقعتي الكلام، وليحدروا تلك الأساطير من أقرب طريق إلى أفئدة العوام ، فوضعوا الشعر على آدم فمن دونه من الأنبياء وأولادهم وأقوامهم، وأول من أفرط في ذلك محمد بن إسحق».

وفي هذا الموضوع يتحدث الدكتور حسين عن أهمية القصص عن العرب ،

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٣٧٥ .

ثم يقول [1] : « وأنت تعلم أن القصص العربي لا قيمة له ولا خطر في نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر ... وإذن فقد كان القصاص أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر ، يزينون بها قصصهم ، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه . وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما يشتهون . »

ويتحدث عن فطنة العلماء والنقاد لهذه المسألة، فيقول: [2]«كثر هذا الشعر الذي احتاج إليه القصاص لتزدان به قصصهم من ناحية ، وليسيغها القراء والسامعون من ناحية أخرى ... وفطن بعض العلماء إلى ما في هذا الشعر من تكلف حيناً ، ومن سخف وإسفاف حيناً آخر ، وفطن إلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسب اليهم. ومن هؤلاء محمد بن سلام الذي أنكر – كما رأيت – ما يضيفه ابن إسحق الى عاد وثمود وحمير وتُبَّع ، وأنكر كثيراً ما رواه ابن إسحق في السيرة من شعر الرجال والنساء سواء منهم من عرف بالشعر ، ومن لم يقل شعراً قط ، وآخرون غير ابن سلام أنكروا ما روى ابن إسحق وأصحابه القصاصون ، نذكر منهم ابن هشام. »

ومن هذا الجانب ينكر الدكتور طه كل شعر يضاف إلى جذيمة الأبرش ، وزهير بن جناب ، ومالك وسعد ابني زيد مناة بن تميم ، وأعصر بن سعد بن قيس عيلان . ويقول: [3] « فليس لهذا كله إلا أصل واحد ، وهو تفسير طائفة من الأمثال ، ذكرت فيها أسماء هؤلاء الناس كلهم أو بعضهم، كقولهم: «لا يطاع لقصير أمر» ، وقولهم : «لأمر ما جدع قصير أنفه » ، وقولهم : «شب عمرو عن الطوق»، أو ذكر فيها ما يتصل بهؤلاء الناس في هذه القصص التي كانت شائعة عند هؤلاء الأخلاط من سكان العراق والجزيرة والشام ، وما يتصل بها من بوادي العرب ، كفرس جذيمة التي كانت تسمى «العصا»، والبرج

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ١٥١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

الذي بناه قصير على العصا بعد أن نفقت ، وكان يسمى «برج العصا» ، ودم جذيمة الذي جمعته الزباء في طست من الذهب ، وجمال عمرو بن عدي التي احتال قصير في إدخالها تدمر ، وعليها الرجال في الغرائر».

ويُدخل الدكتور طه حسين في هذا النوع أخبار المعمرين، كالمستوغر بن ربيعة بن سعد ، ودريد بن زيد بن نهد .

ثم يتحدث عن أيام العرب ، فيقول [١] : «والرواة أشد انخداعاً حين يتصل الأمر بالبادية اتصالاً شديداً، وذلك في هذه الأخبار التي يسمونها «أيام العرب»، أو «أيام الناس» . فهم قد سمعوا بعض هذه الأخبار من الأعراب ، ثم رأوها تقص مفصلة مطولة ، فقبلوا ما كان يروى منها على أنه جد من الأمر ، ورووه ، وفسروه وفسروا به الشعر ،واستخلصوا منه تاريخ العرب ، مع أن الأمر فيه لا يتجاوز ما قدمناه . فليست هذه الأخبار إلا المظهر القصصي لهذه الحياة العربية القديمة ،ذكره العرب بعد أن استقروا في الأمصار ، فزادوا فيه ، ونموه ، وزينوه بالشعر ؛ كما ذكر اليونان قديمهم فأنشئوا فيه «الإلياذة» و«الأوديسا» وغيرهما من قصائد الشعر القصصي التي لم يكن يبلغها الإحصاء . فحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء ، وحرب الفجار ، وهذه «الأيام» الكثيرة التي وضعت فيها الكتب ونظم فيها الشعر ، ليست في حقيقة الأمر – إن استقامت نظريتنا – إلا توسيعاً وتنمية لأساطير وذكريات كان العرب يتحدثون بها بعد الإسلام». ثم ينتهي إلى أن يقول [٢] :

«ومن هنا نستطيع أن نقول مطمئنين إن مؤرخ الآداب العربية خليق أن يقف موقف الشك – إن لم يقف موقف الإنكار الصريح – أمام هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين ، والذي هو في الحقيقة تفسير أو تزيين لقصة من القصص ، أو توضيح لاسم من الأسماء ، أو شرح لمثل من الأمثال » .

ثم يسمّي ما يندرج تحت هذا ، فيقول : « كل ما يروى عن عاد وثمود

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٢) في الأدب الجاهلي ، ص ١٥٩ .

وطسم وجديس وجرهم والعماليق موضوع لا أصل له . وما يروى عن تبع وحمير وشعراء اليمن في العصور القديمة ، وأخبار الكهان ، وما يتصل بسيل العرم وتفرق العرب بعده موضوع لا أصل له . وكل ما يروى من أيام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل بذلك من الشعر ، خليق أن يكون موضوعاً والكثرة المطلقة منه موضوعة من غير شك وكل ما يروى من هذه الأخبار والأشعار التي تتصل بما كان بين العرب والأمم الأجنبية من العلاقات قبل الإسلام كعلاقاتهم بالفرس واليهود والحبشة ، خليق أن يكون موضوعاً ، وكثرته المطلقة موضوعة من غير شك » .

وظاهر من هذا أن الدكتور طه حسين يذكر كثيراً مما قاله السابقون ، ويعترف بأن العلماء والنقاد كانت لديهم فطنة يستطيعون بها أن يميزوا بين الأصيل والدخيل ، فقبلوا الأول ، ورموا الثاني بالصنعة والزيف .

ولكن الأسماء التي ذكرها أسماء تاريخية ، تحدثت عنها كتب التاريخ والأدب ، وبعضهم لعب في حياته دوراً هاماً لفت الأنظار إليه . ثم إن الأمثال العربية لها أصل حتماً ، فالمثل يضرب ، لتشبيه الحالة التي يقال فيها ، بالحال التي قيل بسببها ، غير أن الأسماء السحيقة القدم ، من أعصر بن قيس عيلان من المستبعد حقاً – كما يقول الدكتور طه – أن يكون لسانهم الأدبي ، هو اللغة الفصحى التي ورد بها الأدب الجاهلي الذي لا يتعدى أقدم نص فيه مدة قرنين قبل الإسلام .

أما الأمم التي بادت ، ولم يرد ذكرها إلا في الكتب السماوية ، فواضح جداً أنهم لم يقولوا هذا الشعر الذي ينسب إليهم ، وأن الذين قالوه ونسبوه إليهم ، إنما فعلوا ذلك ، تصويراً لحالهم ، ونطقاً بلسانهم ، كي تتضح قصصهم ، وتكون أكثر قبولاً لدى السامعين .

وأما أيام العرب ، فهي حقيقة ، حدثت بينهم وأثرت في حياتهم ، وتحدثوا عنها في الجاهلية ، فأثارت مشاعر القوم ، وحركت عواطف الشعراء ، فقالوا فيها أروع قصائدهم ، وأجمل نصوصهم الأدبية ، وكان النصر فيها مجال فخرهم ، والهزيمة فيها عار لا يمحى إلا بنصر مؤزر ، وكان الحديث عنها مادة

شعرهم ، ومجال سمرهم . وليست قصصها ، وما فيهـــا من أشعار ، أساطير وذكريات كان العرب يتحدثون بها بعد الإسلام،فطبيعة الحيـــاة تأبى ذلك ؛ فالبيئة التي كان يعيش فيها الجاهليون سببت لهم حروباً وغارات كثـــيرة خاضوا غمارها ، والحرب ليست تقصد إلا القتل والإهلاك ، وما أشد مثل هذه الظاهرة إثارة لمشاعر الناس وعواطف الأدباء ، ولهذا عدّ النقاد الحربَ أعظم مثير للموهبة الشعرية ، فبسببها يكثر الشعر ، وتنحلّ عقدة اللسان . ومن ثم فالطبيعة الإنسانية تأبى إلا تصوير الحرب بما يحرّك المشاعر ويثـــير الوجدان ، وذلك هو الأدب .

فالذي لا شك فيه أن الجاهليين قالوا في حروبهم نصوصاً أدبية ، شعراً ونثراً ، بما يصوّرها تصويراً عاطفياً مثيراً ، ومن غير المقبول أن يظل العرب صامتين إلى أن تصبح هذه الحروب ذكريات عند ذرياتهم وأجيالهم المتأخرة، وهل يجوز أن تثير ذكريات الحرب مشاعر الأبناء ، ولا تثير الحرب نفسهـا مشاعر الآباء ؟

حقيقة قد تكون قصص الأيام دخلهـا شيء من المبالغات ، أو الزيادة ، بحكم مرور الزمن ، وتعاقب الأجيال . ولكن مما لا شك فيه أن الرواة الذين خصصوا أنفسهم للأخبـــار ، من أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى قد بذلوا مجهوداً عظيماً في استكشاف الحقائق ، وتنقيتها من الشوائب ، وشرح النقائض لأبي عبيدة خير شاهد على ذلك .

وهنا يثير الدكتور طه حسين موضوع اتصال العرب بغـــيرهم من الأمم الأخرى بطريقة تناقض إثارته لهذا الموضوع نفسه من قبل . فقد سبق أن طعن في الأدب الجاهلي ، ورماه بالزيف والتزوير ، لأنـه لم يصوّر العلاقات الخارجية للعرب ، ولكنه هنا يطعن في الأدب الجاهلي ، ويرميه بالصنعـــة والاختلاق لأن فيه نصوصاً تتصل بما كان بين العرب والأمم القديمة من العلاقات قبل الإسلام كعلاقاتهم بالفرس واليهود والحبشة ؛ ألا يبدو ذلك مثيراً للدهشة أيضاً ؟ إن لم يوجد نص في هذه العلاقات ، فالأدب كله عيوب ونقائص ولا

يصلح لشيء ، فهو كاذب ، وإن وجـدت هذه النصوص ، فهي مختلقــة ومزيفة ، لأنها لم تأت إلا لتفسير خبر أو تزيـين قصة ، وليست حقيقة لمن تنسب إليهم.

فالحقيقة أن صلة العرب الجاهليين بالأمم الأخرى لا شك فيهـــا ، وتردد صداها في الأدب الجاهلي وظهر أثرها واضحاً في اللغة العربية وأدبها . لذلك ينبغي أن نطمئن إلى ما قيل في أيام العرب من نصوص أدبية ، قبلها الثقات؛ أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي عمرو بن العلاء ، والمفضل الضبي ، والأصمعي ، وغيرهم ممن يشتهرون بالتدقيق والتمحيص .

وعن **الشعوبية** وصلتها بنحل الشعر ، تحدث الدكتور طه حسين عن نشأة الشعوبية بعد دخول الموالي في الإسلام ، وموقفهم من الأحزاب السياسية منذ قيام الدولة الأموية ، واستغلالهم الخصومات السياسية التي كانت بين هــذه الأحزاب ليعيشوا من جهة ، وليخرجوا من الرق ، أو حياة الولاء إلى حياة تشبه حياة الأحرار والسادة من جهة أخرى ، ثم ليشفوا ما في صدورهم من غل ، وينفسوا عن أنفسهم ما كانوا يضمرون من ضغينة للعرب من جهــة ثالثة[1] ؛ ثم ضرب أمثلة من حقد الموالي المغلوبين ، على العرب الغــالبين ، وأعقب ذلك بأن الشاعر من الموالي كان يكفيه ، عندما يحاول الافتخــار ، أن يثبت أن العرب انفسهم كانوا قبل أن يتيح لهم الإسلام هــذا التغلب يعترفون بفضل الفُرس وتقدمهم ، ويقولون في ذلك الشعر يتقربون بـه إليهم ، ويبتغون به المثوبة عندهم ، ولا سيما إذا كانت الحوادث التاريخيــة والأساطير تعين على ذلك وتدني منه[2] ؛ ويضرب أمثلة على سلطان الفرس ، قبل الإسلام بسيطرتهم على العراق ، واحتـلالهم اليمن بعد إخراجهم الحبشة منها ، وما كان بين العرب والفرس من وقائع ، وتبعية ملوك الحيرة لهم .

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص١٦١.
(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

ويرتب على ذلك أن الموالي أنطقوا العرب بكثير من نثر الكلام وشعره، فيه مدح للفرس وثناء عليهم ، وتقرب منهم ، وهم زعموا أن الأعشى زار كسرى ومدحه وظفر بجوائزه ، وهم أضافوا إلى عدي بن زيد ولقيط بن يعمر وغيرهما من إياد والعباد كثيراً من الشعر ، فيه الإشادة بملوك الفرس وسلطانهم وجيوشهم ، وهم أنطقوا شاعراً من شعراء الطائف بأبيات رواها الثقات من الرواة على أنها صحيحة لا شك فيها ، وهي أبيات تضاف إلى أبي الصلت بن ربيعة ، وهو أبو أمية بن أبي الصلت المعروف .

ويتحدث عن الشعوبية عند العرب ، فيقول[1] : «فكان العرب مضطرين إلى أن يجيبوا بلون من النحل يشبه هذا اللون ، فيه تغليب للعرب على الفرس، وفيه إثبات لأن ملك الفرس في الجاهلية وتسلطهم على العرب لم يكن من شأنه أن يذل هؤلاء أو أن يقدم عليهم أولئك. ومن هنا مواقف هذه الوفود التي تتحدث أمام كسرى بمحامد العرب وعزتها ومنعتها وإبائها للضيم ، ومن هنا هذه المواقف التي تضاف إلى ملوك الحيرة ، والتي تظهر هؤلاء الملوك احياناً عصاة مناهضين للملك الأعظم ، ثم من هنا هذه الأيام والوقائع التي كانت للعرب على الفرس كيوم ذي قار» .

ويستمر في الحديث عن الشعوبية ، فيقول إنها في العصر العباسي تطورت إلى شعوبية علمية ، كل من الفريقين يحاول أن يثبت لنفسه تقدماً ، وقدماً راسخة في العلم والأدب ، ويحط من شأن الآخر في هذا الميدان ، وألفوا في ذلك كتباً ؛ ومن كتب الشعوبية ضد العرب كتاب «مثالب العرب» لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وهو كتاب لا نعرف الآن إلا اسمه» . ويقول[2] : « وأما غير أبي عبيدة من علماء الموالي ومتكلميهم وفلاسفتهم فقد كانوا يمضون في ازدراء العرب إلى غير حد ، ينالونهم في حروبهم ، وينالونهم في شعرهم ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

وينالونهم في خطاباتهم ، وينالونهم في دينهم أيضاً ، فليست الزندقة إلا مظهراً من مظاهر الشعوبية ، وليس تفضيل النار على الطين ، وإبليس على آدم ، إلا مظهراً من مظاهر الشعوبية الفارسية التي كانت تفضل المجوسية على النار » .

ويقول [1] : « وأنت تجد في « البيان والتبيين » كلاماً كثيراً تستبين منه إلى أي حد كان الفرس يعجبون بآثار الأمم الأعجمية ، ويقدمونها على آثار العرب ، فهم يعجبون بخطب الفرس وسياساتهم ، وعلم الهند وحكمتها ، ومنطق اليونان وفلسفتهم ، وهم ينكرون على العرب أن يكون لهم شيء يقارب هذا . والجاحظ ينفق ما يملك من قوة ليثبت أن العرب يستطيعون أن ينهضوا لكل هذه المفاخر الأعجمية وأن يأتوا بخير منها » . ويقول : « ولعل أصدق مثال لهذه الخصومة العنيفة بين علماء العرب والموالي هذا الكتاب الذي كتبه الجاحظ في البيان والتبيين ، وهو « كتاب العصا » ... يثبت فيه أن العرب أخطب من العجم ، وأن اتخاذ الخطيب العصا لا يغض من فنه الخطابي . أليست العصا محمودة في القرآن والسنة وفي التوراة وفي أحاديث القدماء ؟ » .

ثم يقول [2] : « والذي يعنينا من هذا كله هو أن نلاحظ أن الجاحظ وأمثاله من الذين كانوا يعنون بالرد على الشعوبية ، مهما يكن علمهم ، ومهما تكن روايتهم ، لم يستطيعوا أن يعصموا أنفسهم من هذا النحل الذي كانوا يضطرون إليه اضطراراً ليسكتوا خصومهم من الشعوبية . فليس من اليسير أن نصدق أن كل ما يرويه الجاحظ من الأشعار والأخبار حول العصا والمخصرة ويضيفه إلى الجاهليين صحيح . ونحن نعلم حق العلم أن الخصومة حين تشتد بين الفرق والأحزاب فأيسر وسائلها الكذب » .

ويستمر فيقول : « إن الخصومة بين العرب والعجم ، دعت العرب

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ١٦٦ .
(٢) في الأدب الجاهلي ، ص ١٦٧ .

وأنصارهم إلى أن يزعموا أن الأدب العربي القديم لا يخلو ولا يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم المحدثة ... ومن هنا لا تكاد تجد شيئاً من هذه الأنواع الحيوانية التي عرض لها الجاحظ في كتاب الحيوان إلا وقد قالت العرب فيه شيئاً قليلاً أو كثيراً ، طويلاً أو قصيراً ، واضحاً أو غامضاً ... هم مضطرون إلى ذلك اضطراراً ليثبتوا فضلهم على هذه الأمم المغلوبة ، واضطرارهم يشتد ، ويزداد شدة بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسي ، وبمقدار ما ترفع هذه الأمم المغلوبة رؤوسها » .

هذا هو مجمل ما قيل عن أثر الشعوبية في نحل الشعر الجاهلي ، ويتلخص في أن الكراهية التي حدثت بين العرب والفرس بسبب الفتح والغلبة جعلت كلا من الفريقين يحاول أن يثبت تفوقه على الآخر قبل الإسلام ، فاختلق الأشعار ليؤيد بها دعواه .

والحقيقة أن العرب فتحوا بلاداً كثيرة واسعة ، وعاش الجميع إخوة في ظل الإسلام ، وتحت لواء قانونه الذي يتساوى بمقتضاه الجميع ، «إن أكرمكم عند الله أتقاكم » و « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى » . فالإيمان جمع بين قلوبهم ، وشد من أزرهم ، وكان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . فاختلط العرب بالعجم ، وانتقل كل منهم إلى ديار الآخر ، وأقاموا معاً في اتحاد ووئام ، وارتبطوا بالأخوة الصادقة ، والمصاهرة ، ونشأ من تصاهرهم أبناء جمعوا بين الدمين . فكانت الظاهرة العامة إخاء وتعاوناً ، وحباً وثقة ، حتى أصبح كثير من الموالي مقربين إلى الحكام العرب ، وكان منهم مشيرون ووزراء . ومن الناحية العلمية ، وبخاصة في النواحي العربية والإسلامية برع فيها كثير من الموالي ، وأصبحوا علماء ، يرجع إليهم في كثير من المعضلات ، وتركوا مؤلفات لا تزال حتى يومنا هذا من أهم المراجع العلمية ، فقد كان هناك من الموالي مَن لا ينكر فضلهم في خدمة اللغة العربية وآدابها ، بالرواية والتأليف كسيبويه ، وأبي عبيدة ، وابن السكيت ، وكذلك في النواحي الإسلامية ، ومن آثارهم هذه المؤلفات

الضخمة في التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية .

ومن الطبيعي أن يحدث في كل مجتمع تنافس بين أفراده ومجموعاته ، حتى ولو كانوا من جنس أو أصل واحد ، فما بالك إذا كان المجتمع يتكون من عناصر مختلفة الجنس أو الأصل ، لا بد أن نتوقع أن يحدث شيء من ذلك في كل مجتمع ، ولكنه لن يكون عاماً إنما يكون على صورة حوادث فردية ، ولا تشمل الرأي العام بحال من الأحوال . وإلا تفككت أوصال هذا المجتمع ، وانقسموا على أنفسهم ، فتذهب ريحهم ، وينتهي أمرهم .

حقيقة حدثت شعوبية بين العرب والموالي ، بطبيعة الحال ، وقد تحدث عنها التاريخ والأخبار بما لا يدع مجالاً للشك فيها ، ولكنها لم تكن بهذه الصورة المخيفة المفزعة التي تبدو من تصوير الدكتور طه حسين . إنما كانت حوادث فردية ، وما كتب فيها من شعر أو مؤلفات كان بحكم ما في هؤلاء الأفراد من غريزة حب الظهور والتعالي بالنفس والجنس ، كما كان من أبي عبيدة ، والجاحظ .

ولا يستطيع أحد أن ينكر صلة العرب بالفرس قبل الإسلام ، وقد تحدثت عنها كتب التاريخ والأدب ، وكان من الطبيعي أن تؤثر هذه الصلة في الأدب ، وأن تؤثر كذلك في لغة العرب ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق . وقد كانت هذه الصلة سبباً في اتصال بعض الشعراء والأدباء بالفرس بطريق مباشرة ، أو غير مباشرة عن طريق العرب الذين كانوا يتصلون بالفرس ، وقد أثبت التاريخ اتصال بعض أدباء العرب الجاهليين بالفرس كالأعشى وعدي ابن زيد ولقيط الإيادي ، فكان من الطبيعي حينئذ أن نجد لهم آثاراً أدبية تتصل بهم . ولكننا لا نتوقع بحال من الأحوال أن نجد لأديب عربي نصاً أدبياً يمدح فيه أحداً من الأعاجم مهما علا شأنه مدحاً يرفعه فوق قومه ، أو يعليه إلى درجة تفوق درجة قومه ، فذلك غير معهود في العربي ، فمثل هذه النصوص إن وجدت يغلب عليها الاختلاق والتزوير .

وكذلك الحال إن وجدنا فيما ينسب إلى العرب ما يدل على علمهم

بالجزئيات الدقيقة في محيط العلوم المحدثة ، فذلك يبدو افتعاله ، لأنه لم يؤثر مثل هذه الإحاطة العلمية الدقيقة عنهم قبل الإسلام .

أما الحوادث الثابتة تاريخياً ، كيوم ذي قار ، فالإنصاف يقتضي ألا تكون موضع شك أو جدال ، فالعرب والفرس لا بد – بحكم الاتصال والاختلاط – قد حدث بينهم خلاف في بعض وجهات النظر ، أدى في بعض الأحيان ، إلى اتساع هوة الشقاق ، إلى أن وصل الحال بينهم إلى وقوع صدام مسلح ، وهكذا حدثت بينهم مواقع وحروب سجلها التاريخ ، وتحدثت عنها الروايات والأخبار .

هذه الحروب والمواقع التي حدثت بين العرب والفرس ، شأنها شأن أي صدام مسلح أو قتال يحدث بين أي فريقين من العرب أو من غيرهم، من حيث روايتها بالحقيقة كما حدثت لا أكثر ولا أقل ، أو من حيث تجاوز الحقيقة بالمبالغة ومطاوعة الخيال . ومن ثم يجوز أن يكون قد دخلها شيء من المبالغات بحكم طبيعة الإنسان . ولكن مما يغلب على الظن، بل قد يكون من المؤكد أن العرب قد تحدثوا عن هذه الأيام ، وقال فيها الأدباء ما يصور عواطفهم ومشاعرهم نحو هذه الأحداث التي كانت ولا شك أبعد أثراً في نفوسهم من حروبهم الداخلية التي تكون بين فريقين من العرب .

وفي الحديث عن الرواة ونحل الشعر، يقول الدكتور طه حسين:[1] «ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي ، وجعلت حظه من الهزل عظيماً: مجون الرواة وإسرافهم في اللهو والعبث، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق » .

ولكنه لا يتحدث هنا إلا عن اثنين من الرواة ، فيقول :[2] « ولست

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٦٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦٩ .

أذكر هنا إلا اثنين إذا ذكرتهما فقد ذكرت الرواية كلها والرواة جميعاً فأما أحدهما فحماد الراوية ، وأما الآخر فخلف الأحمر » .

ويتحدث عنهما فيقول : « كان حماد الراوية زعيم أهل الكوفة في الرواية والحفظ ، وكان خلف الأحمر زعيم أهل البصرة في الرواية والحفظ أيضاً ، وكان كلا الرجلين مسرفاً على نفسه ، ليس له حظ من دين ولا خلق ولا احتشام ولا وقار . وكان كلا الرجلين سكيراً فاسقاً، مستهتراً بالخمر والفسوق وكان كلا الرجلين صاحب شك ودعابة ومجون » .

ويذكر أن حماداً كان صديقاً لحماد عجرد ، وحماد الزبرقان ، ومطيع بن إياس ، وأن خلفاً كان صديقاً لوالبة بن الحباب وأستاذاً لأبي نواس ، وأن « هؤلاء جميعاً كانوا في أمصار العراق الثلاثة مظهر الدعابة والخلاعة ، ليس منهم إلا من اتهم في دينه ، ورمي بالزندقة ، يتفق على ذلك الناس جميعاً ، لا يصفهم أحد بخير ، ولا يزعم لهم أحد صلاحاً في دين أو دنيا » .

ثم يسوق جملة من الأقوال التي قيلت ضد كل منهما ، فيذكر ضد حماد ، قول المفضل الضبى فيه ، ورأي يونس بن حبيب ، وحادثة حماد مع بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري . ثم يعقب على ذلك ، فيقول [1] : « وفي الحق أن حماداً كان يسرف في الرواية والتكثر منها ، وأخباره في ذلك لا يكاد يصدقها أحد ، فلم يكن يسأل عن شيء إلا عرفه » .

ويقول عن خلف : « وأما خلف فكلام الناس في كذبه كثير » . ويتطرق في حديثه هنا إلى أبي عمرو الشيباني فيقول إنه « راوية كوفي ، لم يكن أقل حظاً من صاحبيه هذين في الكذب والنحل .... ويقول خصومه : إنه كان ثقة لولا إسرافه في شرب الخمر [2] » .

ويذكر رأيه في أبي عمر الشيباني فيقول : « وأكبر الظن أنه كان يؤجر

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧١ .

نفسه للقبائل ، يجمع لكل واحدة منها شعراً ، يضيفه إلى شعرائها ، وليس هـــذا غريباً في تاريخ الأدب ، كان مثـــله كثيراً في تاريخ الأدب اليوناني والروماني » .

وينتهي الأمر إلى أن يقول : « وإذا فسدت مروءة الرواة ، كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبي عمرو الشيباني ، وإذا أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والنحل، ككسب المال ، والتقرب إلى الأشراف والأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين ونكاية العرب – نقول :« إذا فسدت مروءة هؤلاء الرواة فأحاطت بهم مثل هذه الظروف ، كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء » .

وبعد أن انتهى من رواة الأمصار التفت إلى رواة الأعراب ، فرمـــاهم بأنهم كانوا يتخذون النحل في الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب ، وقال عنهم : [1] « فليس من شك عند من يعرف أخلاق الأعراب في أن هؤلاء الناس حين رأوا إلحاح أهل الأمصار عليهم في طلب الشعر والغريب وعنايتهم بما كانوا يلقون إليهم منها ، قدروا بضاعتهم ، واستكثروا منها .

ثم لم يلبثوا أن أحسوا ازدياد حرص الأمصار على هذه البضاعة ، فجدّوا في تجارتهم ، وأبوا أن يظلوا في باديتهم ينتظرون رواة الأمصار ... وكذلك انحدروا إلى الأمصار في العراق خاصة ، وكثر ازدحام الرواة حولهم، فنفقت بضاعتهم ، وأنت تعلم أن نفاق البضاعة أدعى إلى الإنتـــاج ، فأخذ هؤلاء الأعراب يكذبون ، وأسرفوا في الكذب، حتى أحس الرواة أنفسهم ذلك».

ويبـــدو من ذلـــك أن الدكتور طه يطعن في الرواة كلهم سواء كانوا من الأمصار أو من البادية بحجة سوء أخلاقهم ، ويؤيد ذلك بمـــا قيل في حق الرواة الذين تحدث عنهم .

وقد سبق أن ذكرنا أهم ما قيل عن الرواة ، وتبين أن الكثرة منهم كانوا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

أهل ثقة واشتهروا بالنزاهة والأمانة ، وقليل منهم رموا بالاتهـــام ، وقد اختار الدكتور طه من بين هؤلاء اثنين أورد عنهما مـــا قاله فيهما الخصوم والأعداء، وذكر سوء أخلاقهما وفساد سلوكهما، مما كان شائعاً عنهما. ثم طعن بقية الرواة وهم الأكثرية ، لأن في الرواة هذين الراويتين . وأعتقدُ أنه كان عدلاً أن نقصر الاتهام على من شاع عنهم عدم الصدق و لأمانة ولا نأخذ غيرهم بجريرتهم ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . فالرواة لم يكون كلهم أصحاب لهو ومجون ، بل فيهم – وهم الأكثرية الغالبة – من كان ثقة صادقاً، مثال النزاهة والأمانة ، ومن كان يمحص ويدقق في كل ما يسمع ويأخذ ويروى ، فلا يقبل إلا ما ثبتت لديه صحته ، كأبي عمرو بن العلاء ،والمفضل الضبي ، والأصمعي .

على أن ما أورده على أقوال تطعن في نزاهة كل من حماد وخلف ، إنمـــا هي من أقوال خصومهم وأعدائهم ، فالمنافسة في كل شيء كفيـــلة بتوليد الخصومة والعـــدواة ، خصوصاً إذا كان ما يتنافس عليه الأفراد مما يجلب منفعة ، أو يحقق مصلحة ، أو يُعلي المكانة والمنزلة . وقد كان كل من حمـاد وخلف من المشهود لهم بالتفوق الكامل ، والبراعة الفائقة في ميدان الحفـــظ والرواية ، فليس عجيبـــاً حينئذ أن يخلق ذلك من منافسيهما ، وبخاصة من المعاصرين لهم ، خصوماً وأعداء ، وتعتبر هفوتهم ، ولو هينة ، جريمـــة لا تغتفر ، وكبوتهم ، ولو مرة ، سقوطاً إلى الأبد. وليس هناك من بني الإنسان من هو الكامل في كل شيء ، فالكمال المطلق لله وحده، ومن الأقوال المشهورة التي تكاد تكون من البدهيات : « لكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة » فالكل معرض للزلات والهفوات ، ومن طبيعة الإنسان:السهو والنسيان . ومن ثم فليس عجيباً من حماد وخلف أن يجيء منهما بعض الخطأ ، أو تحدث منهما زلات وهفوات . وليس ببعيد أن يستغل خصومهما ذلك فيشيعون عنهما سوء الخلق ، والكذب ، وعدم الأمانة والبعد عن النزاهة .

على أننا إذا بحثنا في أخبار الرواة جميعـــا سوف لا نجد واحداً منهم لم ينسب له خطأ ، أو لم نلتمس له هفوة ، حتى أولئك الذين شهد لهم بالثقـة

والنزاهة التامة قد رمى كثير منهم بالزيف والتزوير ، ولا شك أن كلا منهم إنسان ، وهو معرض لكل ما يتعرض له الإنسان من السهو والنسيان ، وما تجره المنافسة من الخصومة والعداوة ، والاتهام والتشهير. ولذا يجب ألا يغيب عن البال ما قاله الأقدمون ، وهو أن « المعاصرة حجاب » فالمنافسة على الشهرة قد تدفع إلى الحسد والافتراء والبهتان .

ولكن يبدو أن خصوم حماد وخلف ، قد رأوا في سلوكهما ، ما ساعدهم على التشهير بهم ، وإسقاطهم من المجتمع ، ذلك أنهما كانا من زمرة اشتهرت في العراق بالخلاعة والمجون والفسق والسكر والعربدة ، وهذه الصفات كفيلة بإسقاط الشخص مهما كان . وواحدة من هذه الصفات تكفي لهدر كرامة الشخص ، ورفض شهادته ، وبخاصة الخمر ، فهي تُذهب العقل ، وتُفقد الشعور ، وتجعل صاحبها يهذي ويخلط في كلامه ، ولا يعرف ما يقول . ومن ثم ليس بعجيب ممن يدمن عليها أن يدعي ما ليس له ، وأن ينسب الأشياء لغير أصحابها ، وأن يشيع في كلامه الاضطراب ، ويظهر في سلوكه العوج والفساد . وطبيعي إذا كانت هذه صفات كل من حماد وخلف ، أن يحدث من كل منهما في روايته خلط واضطراب ، ونسيان وهذيان ، وكذب وادعاء ، ويكثر ذلك منهما بكثرة سكرهما وعربدتهما ، وفقدهما الوعي والإدراك . وأغلب الظن أن كل واحد منهما كان في لحظات وعيه ، وتكامل صحوه ويقظته ، أعلم الناس وأذكاهم وأصدقهم ، ولعل مما يؤيد ذلك قول الأصمعي في حماد : « كان حماد أعلم الناس اذا نصح » ، وقال ياقوت في ذلك : « يعني إذا لم يزد وينقص في الأشعار والأخبار » . ومن الإسراف في الخمر وأثره في أمانة الرواة ، جاء تشنيع خصوم أبي عمرو الشيباني عليه إذ قالوا فيه ، إنه كان ثقة لولا إسرافه في شرب الخمر ؛ ولكن يبدو أن شربه الخمر ، لم يكن كعادة حماد وخلف وإسرافهما في ذلك ، فاذا أضيف إلى ذلك ما أثر عنهما من الخلاعة والفسق والمجون ، كانت الطامة الكبرى ، وحق لهما أن يضرب بروايتيهما عرض الحائط .

ومن ثم لا ينبغي أن يكون لقول الخصوم والأعداء أي أثر في الحكم على نزاهة الشخص وأمانته ما لم تقم البراهين القاطعة على ثبوت الدعوى ، وأحقية الاتهام . وما دامت سيرة كل من حماد وخلف كما وُصفت ، فليسا حينئذ أهلاً للثقة ، ولا يصح الاعتماد على روايتهما في أي شيء .

ولكن إذا سقطت عدالة هذين الراويتين ، فليس معنى ذلك أن تسقط عدالة غيرهما من الرواة فلم يكن الجميع مثلهما في الخلق والسيرة والسلوك ، بل كثير منهم شهد له بالورع والتقوى والبعد عن الشبهات ، واذا رفضت روايتهما لاحتمال بعدهما عن الأمانة والنزاهة والصدق ، فليس معنى ذلك أن نرفض رواية الآخرين ، فكثير منهم شهد له بالأمانة والصدق ، والدقة والتحري في كل ما يسمع ويروى ، مما جعلهم في نظر النقاد والعلماء والباحثين عدولا صادقين ، وهؤلاء أهل للثقة بهم ، والاعتماد عليهم .

وأما رواة الأعراب ، فهم كغيرهم من أهل الأمصار ، يجوز أن يكون فيهم الأمين النزيه ، وأن يكون فيهم المدعي المختلق . فالأولون أهل للثقة ، والأخذ عنهم باطمئنان ، والآخرون جديرون بالطعن والرفض . ومن حسن الحظ أن العلماء والنقاد الأوائل كانوا في منتهى الذكاء والفطنة ، فكان لديهم مقدرة فائقة تمكنهم من التمييز بين الأصيل والدخيل ، فبحكم مخالطتهم للأعراب ، وكثرة مدارستهم لما يسمعون ويروون ، وتحصيل قدر كبير من التراث العربي القديم ، ومداومة ترديده وتفهمه ودرسه ، تكوّن لديهم ذوق أدبي حاد ، مكنهم من معرفة الصحيح من الزائف . والمثال الذي ساقه الدكتور طه ليطعن به رواة الأعراب في أمانتهم ، وهو حادثة أبي عبيدة مع داود بن متمم بن نويرة يؤيد ذكاء الرواة الممتازين وفطنتهم ؛ إذ أنّ أبا عبيدة عرف ما زاده داود لوقته . وفي كتب التاريخ والأدب والنقد كثير من الأمثلة على ذلك .

• • •

هذا هو ما قيل عن الانتحال في الأدب الجاهلي ، أوردناه بإجمال ، وعلقنا

على كل جزئية بما استطعنا ، ومما سبق يمكن أن نستخلص الحقائق التالية :

من الثابت قطعاً أن العرب في الجاهلية كان لهم أدب، فيه شعر ونثر، وكان هذا الأدب في درجة عالية من النضج والكمال في التعبير والتصوير ، بدليل نزول القرآن الكريم بلغة فهمها العرب حق الفهم ، وتحدي القرآن للعرب يثبت تفوقهم في الفصاحة والبيان ، وقد وردت في القرآن إشارات تؤكد وجود الشعر والشعراء عند العرب الجاهليين .

ثم إن الشعراء والأدباء الذين كانوا موجودين وقت ظهور الإسلام، أمثال حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحه ، وكعب بن زهير ، والنابغة الجعدي، وأمية بن الصلت ، لا بد أنهم كانوا يسيرون في فنهم الأدبي على نمط أدبي ، استقر وضعه منذ أمد بعيد ، فآثار هؤلاء وأمثالهم الأدبية ، وهي في درجة عالية من الكمال الفني تؤكد أنهم لم يبتدعوا هذا النظم من عندهم ، بل لا بد أنهم كانوا ينسجون على منوال معروف ، ويتبعون نهجاً واضحاً ، وأسلوباً متفقاً عليه قبل أن يوجدوا، فكانوا يقتفون آثار رجال سبقوهم حيناً من الدهر، في التعبير والتصوير ، ومذاهب الكلام، وأساليب الأدب الكامل الرفيع .

وفي الطبيعة الإنسانية ، عادة ، ميل إلى التعبير العاطفي «تنفيساً عما تحسّه من عواطف وانفعالات ، وفيها ميل كذلك إلى حفظ شيء من هذه النصوص التي تصور أحوال النفس البشرية . ومن هنا نعتقد أن العرب حتماً قد حفظوا بعض آثار أدبائهم الذين كانوا قبل الإسلام ، لكي يتغنوا بها في الأوقات المناسبة ، ومنها تغذى الأدباء بعد ظهور الإسلام ، وترسموا خطاها، وساروا على تقاليدها . وإذا عرفنا أن العرب كانوا يهتمون بآثار ذويهم الأدبية – وبخاصة الشعر ، إذ كان للشعر تأثير كبير في نفوسهم ، وكان للشعراء منزلة سامية بين أفراد القبيلة، بل جميع القبائل- إذا عرفنا ذلك، استطعنا أن نتصور مدى اهتمام العرب بحفظ هذه النصوص التي كانت تحظى منهم بالاحترام والتقديس ، لأنهم كانوا يعدونها سجل مفاخرهم وأمجادهم ، ومن ثم قيل : «الشعر ديوان العرب».

وإذا كان للأدب هذه المنزلة في نفوسهم ، فلا بد أن نصوصه التي كانت موضع اهتمامهم ، قد لقيت منهم عناية كبيرة ، فحفظوها بدقة، وعملوا على أن يلقنها الآباء للأبناء ، وليس بعجيب أن يتلقاها الخلف عن السلف بشغف واهتمام، إذ كانوا يرون ما لها في نفوس الآباء من إكبار وإجلال فانتقلت هذه الآثار من جيل إلى جيل ، ولم تكن الكتابة قد شاعت ، فاعتمدوا في ذلك على الذاكرة مدة طويلة ، حتى أذن الله لها أن تسجل في بطون الكتب، عندما تهيأت الظروف لهذا التدوين .

وفي أثناء هذه الرحلة الطويلة للنصوص الأدبية الجاهلية منذ إنشائها إلى وقت تدوينها، لا بد أنها قد تعرضت لكثير من الأشياء ، كالنقص أو الزيادة، أو التغيير ، أو التبديل ، أو التحريف ، نظراً للظروف الكثيرة المختلفة التي مرت بالعرب ، والدولة الإسلامية على العموم في النواحي السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية ، ونظراً لاعتماد هذه النصوص في البقاء على المشافهة والذاكرة . ومن ثم ضاعت من آثار العرب الجاهلية أشياء ، ودخلها أشياء ، وغيّرت بعض الكلمات ، أو بدلت ، بقصد، أو بغير قصد، بحكم ما تتعرض له الذاكرة الأنسانية مع طول العهد،من سهو أو نسيان ، وبحكم ما في الطبيعة البشرية من ميل إلى العجب والزهو وحب الظهور والسيادة والسلطان ، وميل الى الشهرة وبعد الصيت .

ومن هنا دخل الأدب الجاهلي – كغيره من الآداب الأجنبية القديمة – بعض النصوص الدخيلة ، ورميت بعض نصوصه بالصنعة والاختلاق . واتهم بعض رواته بالتزوير والتزييف ، ولكن الكثرة منهم كانوا من الدقة والأمانة بمنزلة جعلتهم أهلاً للثقة بهم والاعتماد عليهم منذ أقدم العصور . ووجد من العلماء والنقاد من كانوا ذوي فطنة قوية ، وذوق أدبي ممتاز ، ومن طول ممارستهم للنصوص الأدبية القديمة ، وترديدها ، ومدارستها ، تكونت لديهم خبرة فائقة بطبيعة هذه النصوص وخصائصها ، لدرجة أنهم كانوا يستطيعون تمييز الدخيل من الأصيل . وبهذا صفوا لنا كثيراً من النصوص الجاهلية ،

ودونوها بعد أن ثبت لهم بالأدلة القاطعة أنها صحيحة وأصيلة . ونبهوا على ما رفضوه ، وما داخلهم شك فيه منها .

وهؤلاء الرواة والعلماء والنقاد الثقات ، لا نتوقع منهم إجماعاً على كل نص من نصوص الأدب الجاهلي ، وذلك شيء طبيعي ، فكلهم لم يكونوا في عصر واحد ، وكلهم لم يتلقوا من مصدر واحد ، والأمزجة والأذواق تختلف فيما بينهم ، فالقبائل العربية كثيرة ، ولكل قبيلة شعراؤها ، والشعراء لا حصر لهم ، والنصوص كل منها يختلف عن غيره طولاً وقصراً ، وغرضاً وموضوعاً ، وبحراً ، وقافية . فقد يحفظ الواحد منهم ما لا يحفظه غيره ، وقد يحفظ في غرض ، ويحفظ غيره في غرض أو أغراض أخرى ، وقد يروق لأحدهم بحر أو قافية معينة ، ويعجب غيره ببحر أو قافية أخرى . وقد يحفظ بعضهم القصائد الطوال ، وبعضم القطع القصار ، وقد يجمع بعضهم بين هذا وذاك .

وقد تدفع المنافسة في حب الشهرة ، ونيل الحظوة ، إلى الغيرة والحسد ، وربما تقود إلى التشنيع والتشهير عن طريق الادعاء والافتراء ، ومن ثم ينبغي ألا يعتمد على أقوال بعض الرواة التي تتضمن طعناً في نزاهة بعض زملائهم ، خصوصاً إذا كانوا من المتعاصرين ، فقد ثبت « أن المعاصرة حجاب ». فالعبرة في نزاهة الشخص وأمانته بما شاع عنه من ناحية السيرة والسلوك والخلق ، وما أجمع الكل على أمر إلا اشتهر وذاع . فمن عرف عنهم الأمانة والنزاهة ، أهل للثقة بهم ، والاعتماد عليهم .

وما تقبله النقاد الأقدمون بنفس مطمئنة في ثقة ويقين ، وما دوّنه الصدر الأول من العلماء والباحثين الثقات ليس لنا إلا أن نقبله ونصدقه ، لأنهم كانوا أعرف الناس بصحة الصحيح ، وأصالة الأصيل ، وزيف الباطل ، وتزوير المصطنع . فنفوا خبثه وزوره ، وأثبتوا صحيحه وأصيله ، وقد حفظ لنا مما دوّنوه كثير من المجموعات والدواوين . وعلى هذا المحفوظ من التراث الأدبي الجاهلي المقطوع بصحته – مع نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف – أسس الباحثون في اللغة والأدب علومهم مثل النحو والصرف واللغة ، ومن

هذه النصوص الأدبية الخالدة استخرج الباحثون البحور والأوزان وكتبوا في علم العروض والقوافي والبلاغة والنقد الأدبي.

أما ما ثبت وضعه واختلاقه بالدليل القاطع، وقد سبق أن أشرنا اليه مثل ما ينسب من شعر إلى آدم، وعاد، وثمود، وطسم، وجديس، وغير ذلك، فهذا واضح أمره، وخارج عن دائرة البحث، إذ ليس له إلا أن يضرب به عرض الحائط ووجود مثل هذه النصوص المزيفة في الأدب الجاهلي لا ينبغي أن يكون سبباً للطعن في أصالة الأدب الجاهلي، ورفضه كله. بل الرفض يجب ألا ينصب إلا على الزائف وحده.

وأما هذه النصوص التي قطع الرواة والعلماء والنقاد الثقات بصحتها وأصالتها، فيجب أن تكون موضع احترام، وأن نعتبرها مصدراً هاماً نعتمد عليه في تصوير الحياة الجاهلية، وفي تمثيل اللغة العربية في العصر الجاهلي تمثيلا صادقاً صحيحاً.

بل يمكننا، في تصوير حال العرب واللغة العربية في العصر الجاهلي، تصويراً دقيقاً، أن نعتمد على نصوص الأدب الجاهلي، ولو كان فيها نصوص مختلفة ومدسوسة التبست بالأصيلة الصحيحة، ذلك لأن الذين اختلقوا هذه النصوص ونسبوها إلى الجاهليين، كانوا – ولا بد – يعرفون هذا العصر معرفة تامة، بل كانوا أعرف الناس به، وبحال الأدباء فيه، وبالألفاظ والتراكيب التي كانت شائعة ومستعملة في هذا العصر، وبطرق التعبير الأدبي، والتصوير الفني، والأساليب والتقاليد التي كان يحافظ عليها الأدباء الجاهليون، وينسجون على منوالها، ولا بد، كذلك، أنهم كانوا أقدر الناس على اتباع أساليب الأدباء الجاهليين وتقاليدهم، كأنهم يعيشون في زمنهم وبيئتهم. فكانت لديهم المهارة الفائقة التي استطاعوا بها أن يختلقوا نصوصاً تطابق نصوص الجاهليين الأدبية مطابقة تامة من جميع الوجوه، حتى التبست على النقاد والأدباء والعلماء أصحاب الفطنة والخبرة والذوق الممتاز، وهم كانوا يعرفون ما كان آباؤهم الأقدمون يترسمون في نسجهم الأدبي، فما دام هؤلاء

النقاد والعلماء قد قبلوا نصوصاً هذا شأنها ، لأنهم لم يجدوا فيها أية ظاهرة ، ولو تافهة ، توحي باختلاقها أو تثير عندهم أدنى شك فيها ، فلنا حينئذ أن نعتمد عليها – كنص أدبي جاهلي – في تصوير حالة العرب واللغة العربية في العصر الجاهلي ، بقدر ما تحمل في طياتها من صور لهذا العصر .

حقيقة ، يمكن الاعتماد على مثل هذه النصوص في تصوير الحياة واللغة للعرب في الجاهلية ، ولكنها لا يمكن الاعتماد عليها في تصوير نفسية الأديب الذي تنسب إليه وفنه ، لأنها إذا لم تكن في الحقيقة والواقع لمن نسبت إليه فلن تكون معبرة عن شخصيته وميوله واتجاهاته ، ومن ثم تكون الصورة التي تعطيها هذه النصوص لمن تنسب إليه غير مطابقة للحقيقة . ولذلك عند البحث في تراجم الأدباء وفنهم الأدبي ، يجب أن نعتمد على ما ثبت بالدليل القاطع أنه لهم ، ولو من راوية واحد ، ما دام هذا الراوية مشهوداً له بالصدق والأمانة والنزاهة .

* * *

وبعد فما المقياس الذي ينبغي أن نتخذه للحكم على أي نص جاهلي بالأصالة أو الانتحال ، وأنه جدير بالقبول أو الرفض ، ومستحق للدراسة أو الإهمال ؟

يرى الأستاذ أحمد أمين[1] أن النصوص الجاهلية ينبغي أن « نمتحنها من ناحيتين : من ناحية السند ، أي الرواة الذين رووا الحادثة أو الحديث ؛ ومن ناحية المتن ، أي المنقول نفسه ، فإذا كانت الناحيتان صحيحتين وجب علينا أن نصدق ما قيل ، حتى يظهر وجه للنقد جديد ... فإذا كان الراوي كاذباً ، أو ليس بثقة لم نعتمد على ما روى ، وكذلك إذا قام برهان على ضعف المتن ، كأن يتشبب شاعر بموضع ثبت تاريخياً أنه لم يذهب اليه ، ولم يكن له به علاقة ، أو نحو ذلك . فإذا لم يكن شيء من هذين صح الاستدلال بالشعر المروي ، فالثقات مثلاً ضعفوا ما يروي ابن إسحق من الشعر ، وطعنوا في

---

(١) فجر الإسلام ، ص : ٥٠ .

حماد الراوية وخلف الأحمر ، فلندع ما يرويه هؤلاء ما لم يشاركهم غيرهم من الثقات في روايته ، ولكنهم وثقوا أبا عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وأمثالهما ، فلنأخذ بما رووا ، ما لم يقم دليل من ضعف المتن على كذبه . »

وواضح من هذا أن الأستاذ أحمد أمين يرى أن نقتدي بعلماء الحديث ، فقد ساروا على هذا المقياس ، حينما أخذوا يدرسون الأحاديث النبوية الشريفة .

ويعالج الدكتور طه حسين[1] هذا الموضوع من عدة وجوه ، فيقول إن «تصحيح السند وحده لا يكفي ، فقد يكون الراوي صادقاً مأموناً محتاطاً ، ولكنه يخدع مع ذلك عن نفسه وعما يروى له» . فهو يرى أن العناية بالسند وحده لا تكفي ، وأنه لا بد لنا أن نتجاوز هذا النقد الخارجي إلى نقد داخلي ، «نقد يتناول النص الشعري نفسه في لفظه ومعناه ونحوه وعروضه وقافيته» . ولكنه بعد آرائه في الأدب الجاهلي وبخاصة لغته ، يستدرك على هذا المقياس ، فيقول : «ولكنه مع الأسف الشديد ليس يسيراً ولا منتجاً بالقياس إلى الشعر الجاهلي ، فنحن لا نستطيع أن نقول في يقين أو ترجيح علمي إن هذا النص ملائم من الوجهة اللغوية للعصر الجاهلي أو غير ملائم ؛ لأن لغة هذا العصر الجاهلي لم تضبط ضبطاً تاريخياً ولا علمياً صحيحاً . » ونتيجة لعدم رضاه عن هذا المقياس يسأل قائلاً : « فكيف السبيل إلى تمييز الصحيح من غيره ؟ » ثم يجيب بقوله : «هنالك مذهب خداع يذهبه القدماء والمحدثون في تحقيق الشعر الجاهلي ، وخلاصته النظر إلى الألفاظ التي يأتلف منها الشعر ؛ فان كانت متينة رصينة كثيرة الغريب قيل إن الشعر جاهلي ، وإن كانت سهلة لينة مألوفة قيل إن الشعر مصنوع» . ويحلل هذا المذهب بأنه قائم على البداوة والحضارة وأثرهما في الأدب ، ويتحدث عن مدى انطباق ذلك على كل من عدي بن زيد ، والنابغة الذبياني ، والمنخل اليشكري ، والأعشى ، ثم يسأل بعد ذلك : « أفترى أن نقبل من هذا الشعر ما صلب واشتد فنصححه ، ونرفض منه ما سهل ولان ؟ » ويستمر فيقول : « وقد يمكن أن يقبل هذا

---

(١) في الأدب الجاهلي ، ص ٢٥٦ وما بعدها إلى ص ٣٠٨ .

لولا أن في الأمر نظراً يدعو إلى الوقوف والتردد والاحتياط ؛ فلا ينبغي أن يؤخذ الغريب الصعب على أنه صحيح لغرابته وصعوبته ، ولا أن يؤخذ اللين السهل على أنه منحول لسهولته ولينه ؛ ذلك لأن الغرابة قد تكون متكلفة ، وقد يتكلفها الراوي أو العالم ، ويتخذها وسيلة إلى خداع العلماء والمتأدبين». ويزيد على ذلك بأن الغرابة قد وجدت في العصر الأموي في رجز رؤبة والعجاج وشعر ذي الرمة ، وهنا يسأل فيقول : «أفترى أن رجز رؤبة والعجاج وذي الرمة يجب أن يكون جاهلياً لا لشيء إلا أنه غريب اللفظ ، مسرف في شدة المتن وقوة الأسر ؟ » ويستمر قائلاً : « وما لنا نعرض لرؤبة والعجاج وخلف ، والقرآن نفسه بين أيدينا نستطيع أن نقره وننظر فيه ؛ فسنرى أنه على شدة متنه وقوة أسره يسير سهل قليل الغريب بالقياس إلى الشعر الجاهلي . ونحن نستطيع أن نقرأ السورة الطويلة من سوره فنفهمها من الوجهة اللغوية دون أن نحتاج احتياجاً شديداً إلى المعاجم أفترى أن سهولة القرآن ويسر ألفاظه وقربه من الأفهام تترك مجالاً للشك في صحة نسبته إلى العصر الذي تلي فيه ؟ وينتهي من ذلك إلى أنه « لا ينبغي أن تتخذ غرابة اللفظ دليلاً على الصحة والقدم ، ولا ينبغي أن تتخذ سهولة اللفظ دليلاً على النحل والجدة » . ولكنه في الوقت ذاته يميل إلى الشك في الشعر الذي يسرف صاحبه في الغريب ، والشعر الذي يسرف صاحبه في السهولة واللين .

ويعرض للذين اتخذوا مبدأ البداوة في المعنى مذهباً لالتماس أسباب الصحة والنحل في المعنى دون اللفظ ، ثم يعقب عليه بأن « هذا المذهب ليس أقرب إلى الحق من المذهب الذي سبقه » . لأن العرب لم يكونوا كلهم أهل بادية ، فقد كانت هناك حضارة في اليمن ، وفي مدن الشماليين كمكة والمدينة والطائف ، ويستمر فيقول بأنه تبعاً لهذا المذهب كان « يجب أن يكون الفرق ظاهراً بين ألفاظ الشعراء الذين نشئوا وعاشوا في المدن ومعانيهم ، وألفاظ الشعراء الذين عاشوا في البادية ومعانيهم » . ولكننا لا نجد هذا الفرق ،

فشعر المكيين والمدنيين موافق كل الموافقة لشعر البدويين من أهل الحجاز ونجد في الخيال والتصور والأغراض والمعاني بوجه عام . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نعتمد على هذا المذهب ، لأن العرب لم يتحضروا كلهم بعد الإسلام ، وإنما ظلّت كثرتهم بادية في الحجاز ونجد ، وظلت تقول الشعر ، كما كانت تقوله في البادية ، ونحلت الشعر . فكيف تستطيع أن تقطع بأن التصور البدوي والخيال البدوي والمعنى البدوي تكفي ليكون الشعر جاهلياً ؟ ويرى أنه ليس هناك ما يمنع مهرة الرواة والشعراء المتحضرين أن يتقنوا الحياة البدوية إتقاناً تاماً ، ويحسنوا تقليد شعراء البادية في ألفاظهم ومعانيهم وأغراضهم . ثم ينتهي إلى أن « تزييف المعنى ليس أشد عسراً من تزييف اللفظ ، وليس من الفطنة أن تتخذ بدوية المعنى مقياساً لصحة الشعر الجاهلي ، كما أنه ليس من الفطنة أن نتخذ غرابة اللفظ مقياساً لصحة هذا الشعر أيضاً » .

ويعقب على هذا المقياس ، ويقترح جديداً ، فيقول : « إننا لا ينبغي أن نعتمد على اللفظ وحده ، ولا على المعنى وحده ، ولا على المعنى واللفظ فقط ، وانما نعتمد على اللفظ والمعنى وعلى أشياء أخرى فنية وتاريخية . ومن مجموع هذه الأشياء كلها نستخلص لأنفسنا مقياساً يقرّب إلينا صواب الرأي في هذا الشعر الجاهلي » . وبعد شرحه لهذا المقياس ، يقول إنه يصل إلى ذلك عن طريق المدارس الشعرية في العصر الجاهلي ، فقد كانت هناك مدارس شعرية ، وكل مدرسة كانت لها قواعد فنية تقوم عليها وخصائص فنية مشتركة بين جميع أبنائها . فيرى « أنه لا ينبغي أن نبحث عن الشعر الجاهلي الآن من حيث شخصية الشعراء الذين يضاف إليهم ، بل من حيث المدارس التي أنشأت هؤلاء الشعراء » . ومن نماذج المدارس التي ذكرها :

مدرسة أوس بن حجر ، وزهير ، والحطيئة ، وكعب بن زهير ، والنابغة .

مدرسة المدينة: وتتألف من: قيس بن الأسلت، وقيس بن الخطيم، وحسان ابن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وعبد الرحمن بن حسان، وسعيد بن عبد الرحمن بن حسان، وشعراء الأنصار في المدينة بعد الإسلام.

مدرسة مكة: وتتألف في نظره «من شعراء لم يكن لهم شأن في الجاهلية، ولكنهم ظهروا عندما اشتد جهاد قريش للنبي، وقويت شخصيتهم، حتى كونوا في مكة سنة شعرية قرشية خاصة، مثلها بعد الإسلام شعراء كعمر بن أبي ربيعة، والعرجي».

مدارس أخرى: في البادية، كمدارس الشماخ بن ضرار. ثم يقول: «وامض على هذا النحو، خذ الشعراء الجاهليين المضريين جماعات، ولا تأخذهم أفراداً، حتى إذا استطعت أن تحقق لكل جماعة خصائصها، فالتمس خصائص الأفراد ومميزاتهم».

هذا هو المقياس الذي يقترحه الأستاذ الدكتور طه حسين بعد أن عرض وجهات نظر مختلفة حول الموضوع، وعقّب عليها، ولا شك أن ما قاله عن المقاييس السابقة معقول ومقبول. ولكن هل المقياس الذي ارتضاه في النهاية كفيل بأن يميز لنا الدخيل من الأصيل، ويبين لنا الصحيح الحق من المزيف الباطل؟

لا شك أنه كانت هناك مدارس شعرية في العصر الجاهلي، فمن دراسة الأدب الجاهلي يتبين بوضوح أنه كانت هناك مجموعات من الأدباء، كل مجموعة منها كانت لها سمات معينة، وخصائص فنية تميزت بها عما سواها. وليس المجال هنا مجال الحديث بالتفصيل عن الأسس التي ينبغي أن تتخذ عند النظر في معرفة المدارس الأدبية، ومدى انطباق هذه الأسس على المدارس التي ذكرها الدكتور طه حسين حينما عرض رأيه في ذلك، وإنما مجال ذلك عندما

يحين موضعه إن شاء الله في الكلام على الأدب الجاهلي بالتفصيل . ولكن إذا أخذنا – في موضوعنا هذا – بفكرة الاعتماد على المدارس ، هل يكون ذلك المقياس جامعاً لكل أدباء العصر ؟ لا شك أنه – بجانب المجموعات التي كان لكل مجموعة منها سمات فنية معينة – كان هنــاك أفراد لهم شخصيات مستقلة . وتلك – على ما يبدو – سنة الكون ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . فماذا يفعل هذا المقياس مع أمثال هؤلاء ؟

ثم إننا إذا وجدنا نصّاً تتحقق فيه الخصائص الفنية لمدرسة من المدارس ، نستطيع حقاً أن نقول إنه ينتمي إلى مجموعة هذه المدرسة . ولكن كيف نستطيع أن نثبت أنه لم يكن هناك راوية ماهر قد تخصص في هذه المدرسة، فاستطاع أن يختلق ، على غرارها ، وبذلك ينحل من يشاء من أبنــائها ما يريد ؟ إن هذا المقياس لم يتعرض لذلك ، ولكن لنفرض جدلاً أننا تحققنا من أن مثل هذا الراوية لم يوجد ، فكيف نستطيع أن ننسب هذا النص إلى أحد أفراد هــذه المدرسة دون غيره من زمــلائه المشتركين معه في نفس الخصائص الفنية لهذه المدرسة ؟ وهذا أيضاً لم يتعرض له ذلك المقياس، مع أننا أحياناً نكون في أشد الحاجة لمعرفة صاحب النص الحقيقي ، وذلك حينما نبحث في شخصية معينة من الشخصيات الأدبية .

إن موضوع الانتحال في الأدب الجاهلي والبحث عن الحقيقة فيه، موضوع قائم على الشك بسبب ما أثير حوله من الاتهامات. وإذا استرسلنا مع الشك– بدون حدود– فسوف ينتهي بنا الأمر إلى التوقف عن العمــل ، لأننا إذا أخذنا نشك– إلى غير نهاية – في كل شيء يتصل بالنصوص الأدبية الجاهلية، فسوف لا نصل إلى نتيجة ، وستكبل عقولنا بسلاسل وأغــلال تعوقنا عن البحث في هذه النصوص ، بل تصرفنا عن النظر إليهــا ، فنضرب بها عرض الحائط ، ونهملها إهمالاً تاماً .

حقيقة إن الشك يقود إلى اليقين ؛ لأنه يدفع ، إلى البحث ، وهذا يؤدي إلى الحقيقة ؛ ذلك يحدث إذا اتخذنا لأنفسنا – حيال الشك – مبادىء وأسساً

تكون واضحة المعالم ، ينتهي عندها الشك ، بحيث لا يجرؤ أن يمسها أو يتطرق اليها ، لأننا اتفقنا - بادىء ذي بـــدء - على أن هذه المبادىء والأسس حقيقة ثابتة ، صادقة مصدقة لدى الجميـع .

والمسائل التاريخية ، وبخاصة تلك التي بَعُد العهدُ بيننا وبينها، لانستطيع أن نبحث عن الحقيقة فيها إلا عن طريق الوثائق المسجلة ، وهذه الوثائق قد تكون في بعضها وحيدة فريدة ، وقد تكون في بعضها كثيرة عديدة، وهذه قد يتفق المسجلون لها ، وقد يختلفون تبعاً لميولهم وأهوائهم . ومن هنا كان على الباحث في التاريخ أن يعرف كل ما يتصل بهؤلاء المسجلين، وما شاع عن كل منهم فيما يتصل بشخصيته وخلقـــه ، وسلوكه وعادته ، ومدى أمانته ونزاهته ، ثم يوازن بين الوثائق المختلفـة ؛ وبعقله الواعي ، وتفكيره السديد يستطيع أن يستنبط الحقيقة من بين ثنايا هذه الوثائق . فالمسألة مسألة قضايا تعرض أمام القضاء ليفصل فيها ؛ فقد تكون هناك قضية يتضح فيهـا الحق والصدق ، وهذه قضية يسهل فيها الحكم لأنها بعيدة كل البعد عن الادعاء والبهتان؛ وقد تكون هناك قضية يتضح فيها التلفيق والتزوير ، وهذه قضية، يسهل فيها الحكم أيضاً لأنها بيّنة البطلان ؛ وقد تكون هناك قضية يُخفي الحقيقة فيها حجبٌ وأستار ، وهذه على درجات بحسب ما يغشاها من الحجب والأستار ، قلة وكثرة ، أو ضعفاً وقوة ، وهنا تتجلى مهـــارة القاضي وفطنته ، فهو بخبرته ودرايته ، وعقله وتفكيره يستطيع أن ينفـــذ إلى أعماقها ، ويسبر أغوارها ، فيميز الخبيث من الطيب ، ويفصل بين الباطل والحق .

وعلى هذا الأساس إذا نظرنا إلى النصوص الأدبية التي تنسب إلى الجاهلين نجد انها وثائق قام بتسجيلها قوم منذ أمد طويل ، والآن قد بَعُد العهد بيننا وبين الزمن الذي أنشئت فيه هذه النصوص ، وبيننا وبين الزمن الذي دُوِّنت فيه . ولكن لا جدال في أن هؤلاء الذين قاموا بتسجيل هـــذه الوثائق كانوا أقرب منا عهداً بالزمن الذي قيلت فيه هذه النصوص ، فقد نقلوا - كما سبق أن ذكرنا - إما من أصحابها مباشرة ، وإما ممن أخذوا عن أصحابهـا ، ثم إنهم كانوا - ولا شك - أدرى منا بحال العصر الجاهلي الأدبيـة ، وظروف

الأدباء الجاهليين وحياتهم ، والأساليب التي كانوا يتبعونها ، وجميع التقاليد الأدبية التي كانوا يسيرون عليها في العصر الجاهلي ، حتى كان لدى كثير منهم ذوق أدبي حادّ ، استطاع به – عند الحاجة – أن يصيب كبد الحقيقة ومرماها .

وهؤلاء الذين اشتركوا في عمل هذه الوثائق – كلٌّ في ميدانه – كانوا يختلفون في الشخصيات والصفات ، والسلوك والعادات ، والميول والاتجاهات ولكنهم – ككل البشر في جميع العصور – ليس بينهم ما يمنع من أن يتفق بعض الأشخاص في قدر مشترك من الأخلاق أو السلوك أو الرغبات . ومن ثم كان فيهم قوم اتخذوا جانب الحيطة والحذر ، وسلكوا سبيل البحث وتحرّي الحقيقة في كل ما يقومون به من أعمال ، فاشتهروا بالأمانة والنزاهة والصدق، ووجد فيهم من ثبت عنه الكذب والادعاء . ومن هنا أعتقد أن الأساس الذي ، يضع للشك حداً يقف عنده ويمنعه أن يجرنا إلى ما لا نهاية في هذا الشأن : أن نتخذ من هؤلاء الذين ثبت عنهم الأمانة والصدق مورداً معيناً ، نقبل منه كل ما يمدنا به على أنه نقي ، خالص من كل الشوائب والعيوب ، ونرفض ما عداه لأنه معرض للتلوث بالميكروبات والجراثيم .

وإذا بحثنا قضايا الأدب الجاهلي نجد الأنواع الآتية :

١ – **نوع مقطوع بصحته وأصالته**: وهو ما قبله واعتمده الثقات من الرواة والنقاد ، ولم تقم ضده أدلة تقدح في صحته وأصالته، فجاء عن طريق شخص أو أشخاص ، كان – أو كانوا – موضع الصدق والأمانة ، وأهلا للثقة والاطمئنان ، ولم يُطعَن بشيء حقيقي ثابت . فهذا النوع من النصوص يجب قبوله ، والاعتماد عليه في كل شيء : في تصوير ما يتضمنه من مظاهر الحياة الجاهلية ، وفي تبيين النواحي الفنية للعصر الجاهلي ، والجوانب المختلفة لشخصيات مَن نُسِبَت إليهم من الأدباء الجاهليين .

٢ – **نوع مقطوع بانتحاله** : وهو ما نص الثقات على تلفيقه وتزويره ،

وقامت الأدلة القاطعة على عدم أصالته ، وهذا حكمه ظاهر ، فهو باطل من أساسه ، ولا مجال فيه للبحث الأدبي .

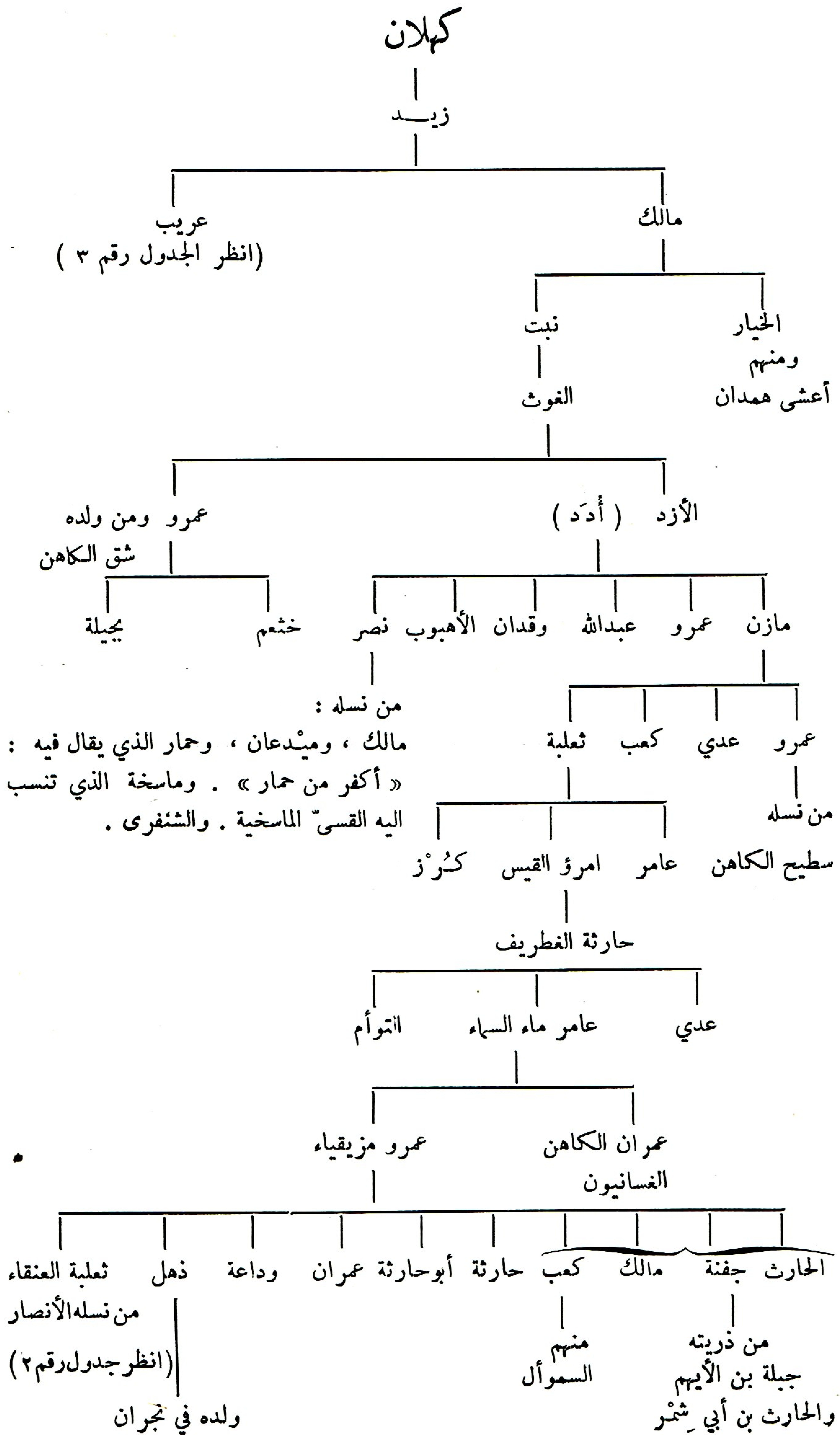
٣ - **نوع جاء عن طريق غير موثوق بها** : وهو ما انفرد برواية شخص أو أشخاص ، ثبت عنه - أو عنهم - الكذب والادعاء كحماد الراوية ، وخلف الأحمر ، فإذا لم تشارك هذه الطريق المشبوهة ، طريقٌ أخرى موثوق بها ، في رواية هذا النوع ، ولم يقبله الثقات ، بل رفضوه ، فليس لنا إلا أن نرفضه ولا نتخذه على أنه يمثل أية ناحية من النواحي الأدبية في العصر الجاهلي. أما إذا لم يرد فيه تجريح أو اتهام من أحد الثقات النزيهين ، فحينئذ لنا أن نقبله على أنه نص أدبي يمكن أن يمثل ما يتضمنه من نواحي العصر الجاهلي وهو - حقاً - محتمل للصدق والكذب، ولكنه ما دام لم يثر أي اتهام فمعناه أنه - ولو كان منتحلا - يحمل طابع الجاهليين الأدبي من جميع الوجوه ، إلا أنه لا ينبغي أن يعتدّ به في تصوير الشخصية الأدبية التي نسب إليها. ورفضُه في هذا المجال - بطبيعة الحال - إنما هو من باب الاحتياط ، لا من قبيل التأكد واليقين .

٤ - **نوع جاء عن طريق رواة موثوق بهم** ، ولكنهم لم يتفقوا على نسبته لأديب معين، فراوية ينسبه لشخص، وراوية ثان ينسبها لشخص آخر، وقد يتعدد المنسوب إليهم- أكثر من ذلك - بعدد الرواة الذين رووا النص. وهذا النوع الذي تعددت رواته ومن نسب إليهم من الجاهليين ، يمكن القطع بجاهليته ، ما لم يقم دليل ثابت على ضد ذلك ؛ وبذلك يصح لنا أن نعتمد عليه في تصوير ما فيه من النواحي الجاهلية ، لأن جميع من رووه ثقات ، وقد أجمعوا على نسبته لجاهلي ، ولكنهم اختلفوا على تعيين صاحبه. وواضح أنه لا ينبغي لنا ان نتخذ منه مقياساً للحكم على شخصية معينة من هذه الشخصيات المتعددة ما لم يقم دليل قطعي على تعيين هذه الشخصية يثبت أحقيتها به . حقيقة هو لواحد من هذه الشخصيات ولكن أنـّى لنا الآن - بعد هذا العهد الطويل - بمعرفة هذا الأديب الذي صدر عنه يقيناً ؟

٥ – **نوع منسوب إلى جاهلي بدون سند** : وهـــذا النوع هو ما نجده مدوناً في المصادر منسوباً إلى أحد الأدباء الجاهليين من غير أن يذكر الراوي أو الرواة الذين وصل إلينا عن طريقهم ، ولم يرد فيــه طعن ، ولم يثر أي شك . فأما من حيث جاهليته ، فيجوز لنا أن نعتمده من هـــذه الناحية ، فندرسه ونستفيد به في تصوير الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ، وأما من حيث نسبته للشخصية التي نسب أليها ، فقد تكون نسبته إليها جزافـاً ، وعندئذ يكون النسب مزوراً ، وقد تكون النسبة حقيقية وأن الشخص المنسوب إليه هو صاحبه . وهذا النوع – ومثله النوع الرابـع – إذا رجحت نسبته لشخصية معينة – يجوز لنا أن نستعمل في كلٍّ منهما أذواقنا الخاصة . وذلك يكون بعد أن نقرأ نتاج هذه الشخصية الأدبي الذي أجمع الرواة الثقات على أنه لها ، ولم يتطرق لذلك أي احتمال . فبعد فهمنا لهذا النتاج الموثوق بصحة نسبه لهذه الشخصية ، يتكون في العادة لدينـا رأي خاص ، وذوق خاص بالنسبة لهذه الشخصية . حينئذ نستعرض النص الذي من أحد النوعين المشار إليهما ، وندرسه دراسة تحليلية تفصيلية فإذا أحسسنا أن فيه ما يخالف روح هذه الشخصية الأدبية رفضناه، وإن وجدنا أنه يتفق مع ما تكوّن لدينا من ذوق وإحساس نحو هذا الأديب ، جاز لنا أن نقبله ، وندخله – مع ذكر المبررات – ضمن النصوص التي نعتمد عليها في تحليل شخصية هذا الأديب ، وتصوير نفسيته وموهبته الأدبية .

جداول الانساب

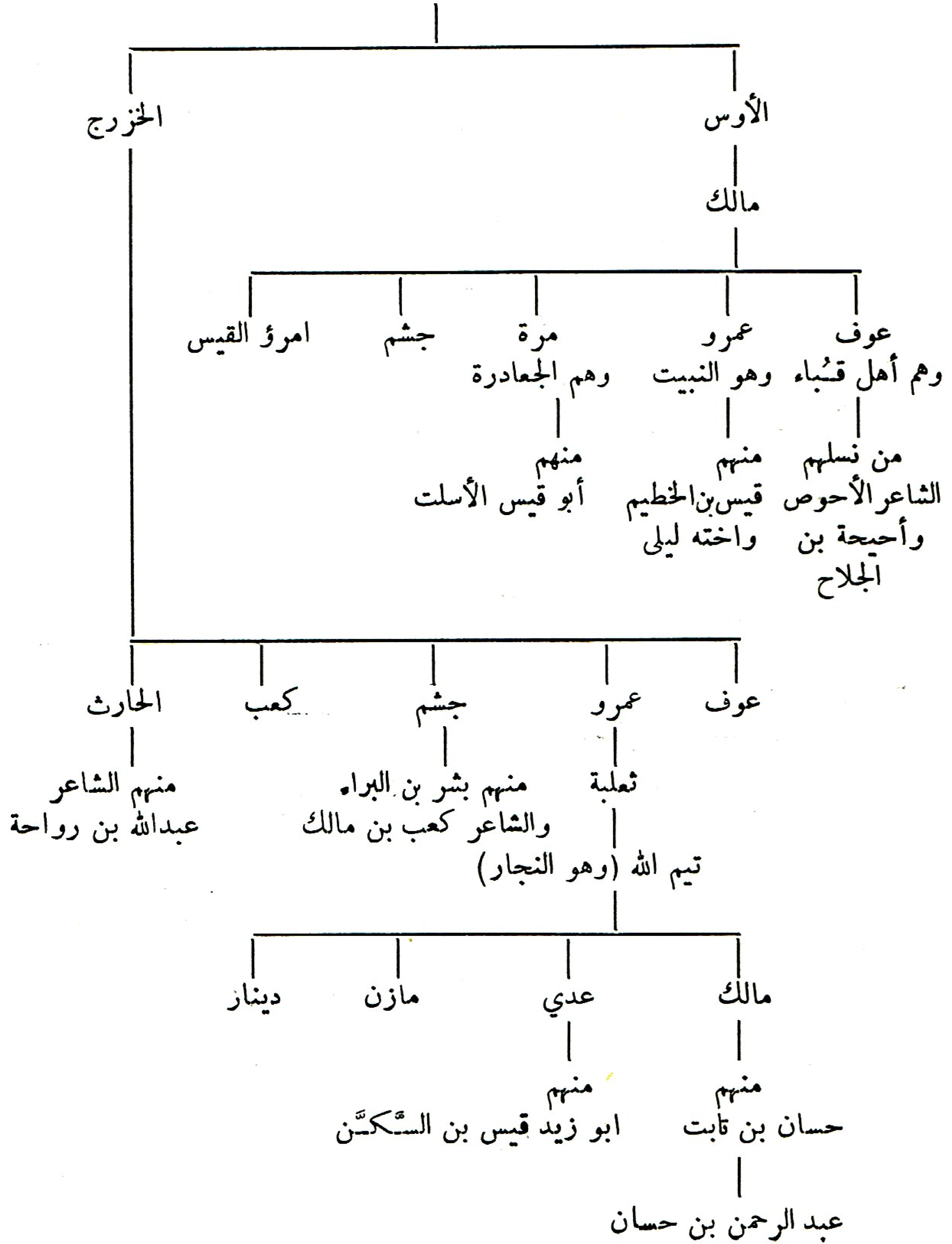
جدول رقم ١ :



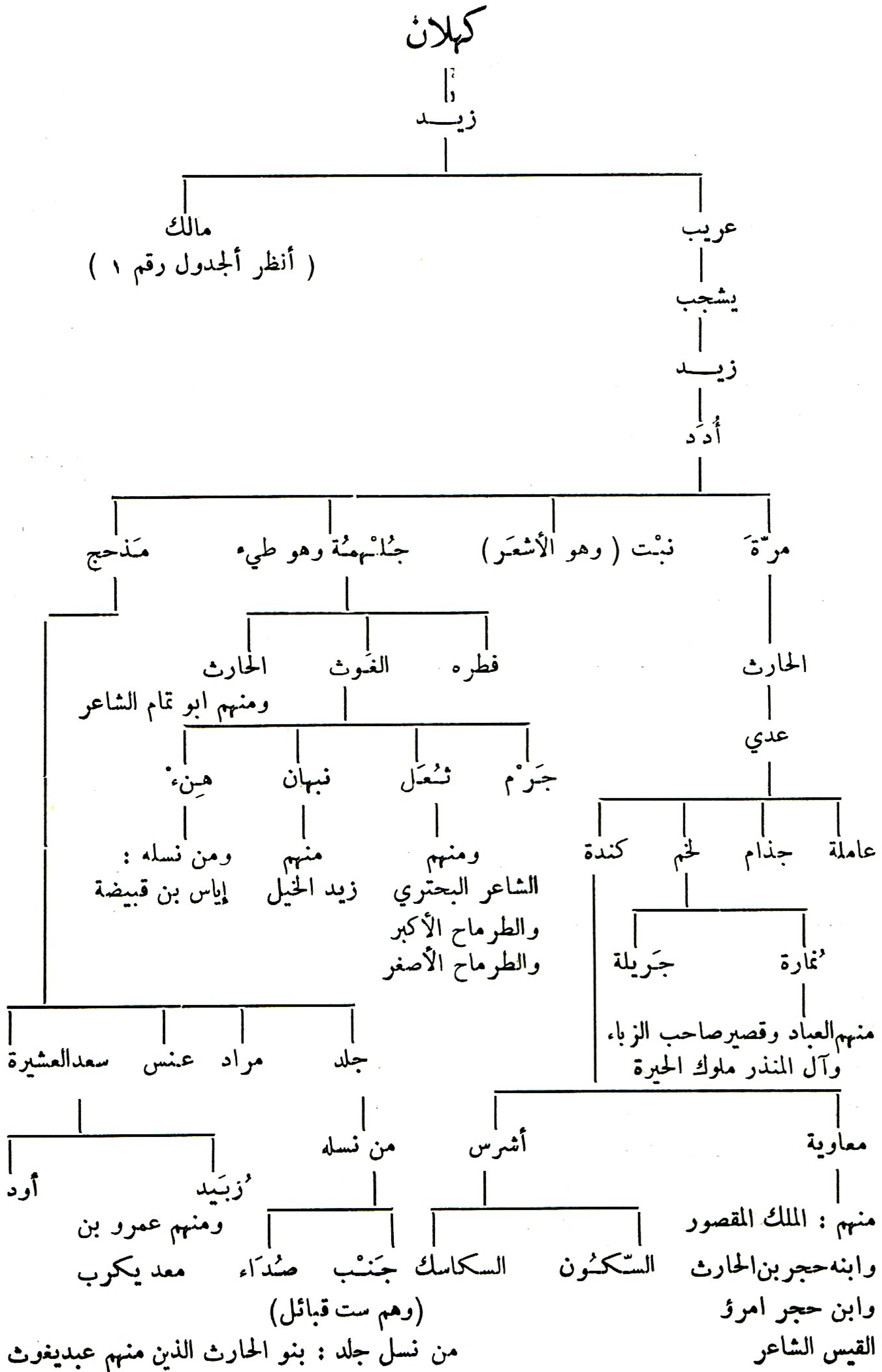
كهلان
زيـــد
مالك
عريب
(انظر الجدول رقم ٣)
الخيار
ومنهم
أعشى همدان
نبت
الغوث
الأزد (أدَد)
عمرو ومن ولده
شق الكاهن
مازن
عمرو
عبدالله
وقدان
الأهبوب
نصر
خثعم
بجيلة
من نسله :
مالك ، وميْدعان ، وحمار الذي يقال فيه :
« أكفر من حمار » . وماسخة الذي تنسب
اليه القسيّ الماسخية . والشنفرى .
عمرو
عدي
كعب
ثعلبة
من نسله
سطيح الكاهن
عامر
امرؤ القيس
كـُرْز
حارثة الغطريف
عدي
عامر ماء السماء
التوأم
عمران الكاهن
الغسانيون
عمرو مزيقياء
الحارث
جفنة
مالك
كعب
حارثة
أبوحارثة
عمران
وداعة
ذهل
ثعلبة العنقاء
من ذريته
جبلة بن الأيهم
والحارث بن أبي شِمْر
منهم
السموأل
ولده في نجران
من نسله الأنصار
(انظر جدول رقم ٢)

جدول رقم ٢ :

الأنصــــار

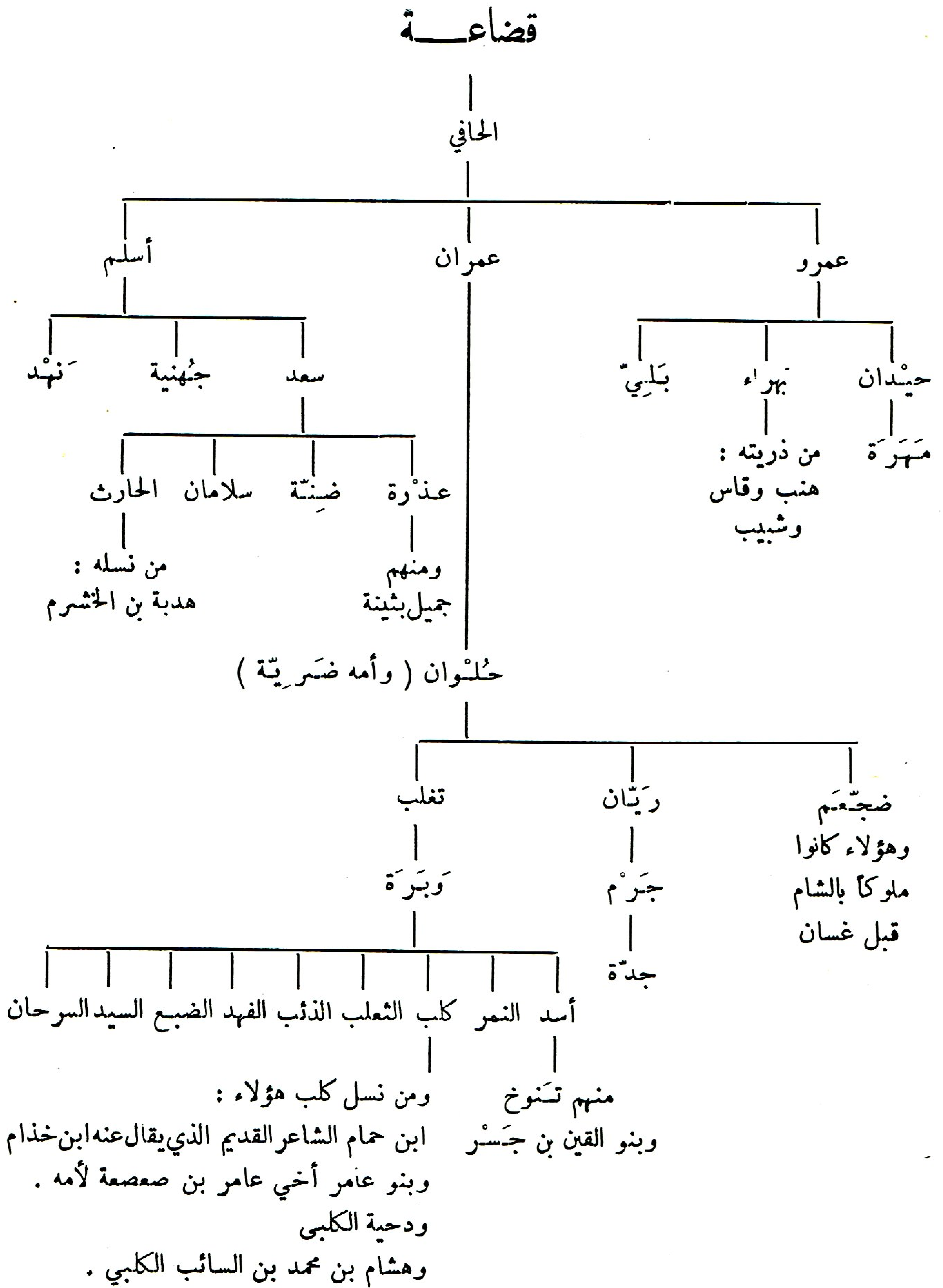


جدول رقم ٣ :



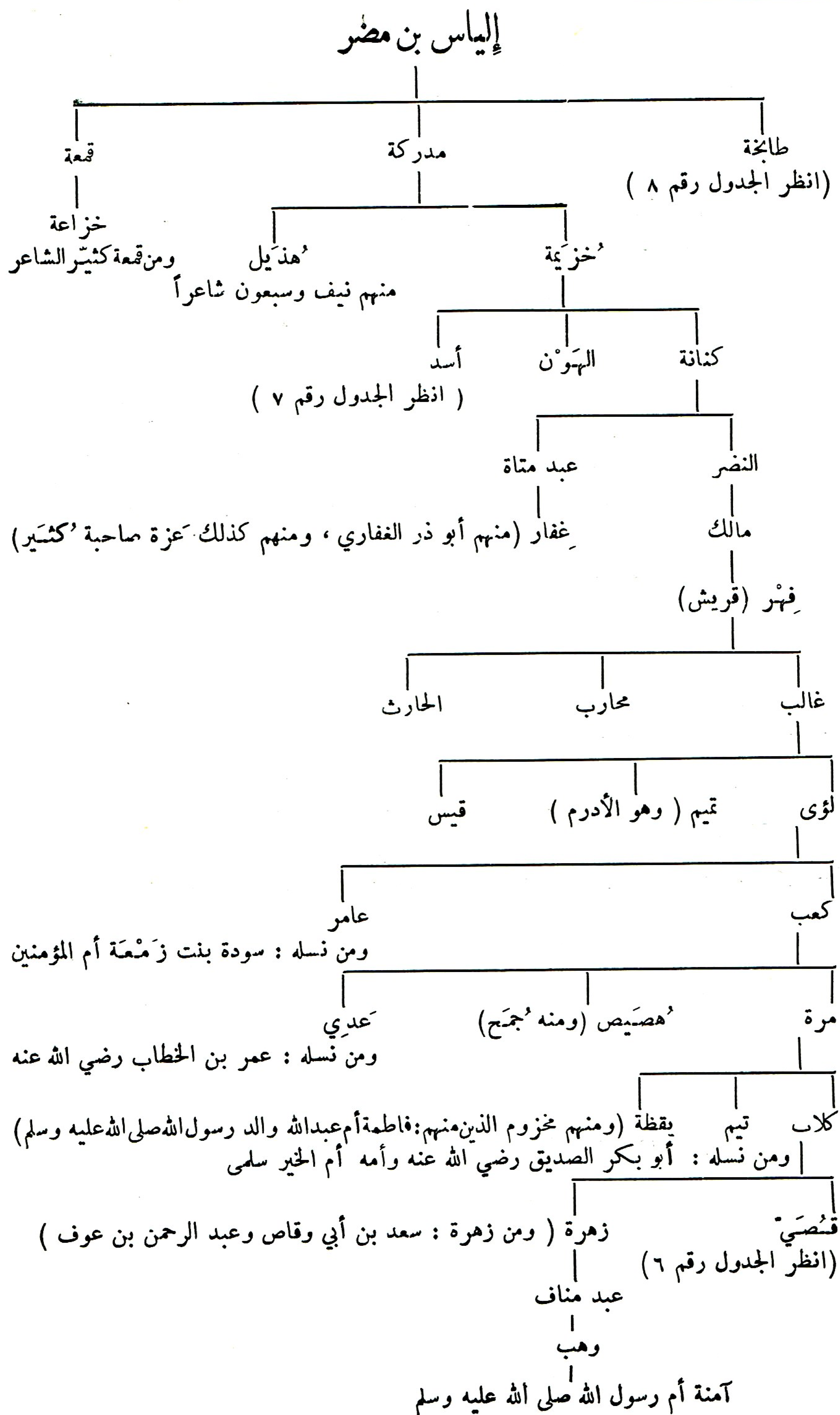
كهلان
زيد
مالك
(أنظر ألجدول رقم ١)
عريب
يشجب
زيد
أُدَد
مَذحج
جُلْهمُة وهو طيء
نبْت (وهو الأشعَر)
مرّةَ
الحارث
ومنهم ابو تمام الشاعر
الغوث
فطره
الحارث
عدي
هِنء
نبهان
ثُعَل
جَرْم
ومن نسله :
إياس بن قبيضة
منهم
زيد الخيل
ومنهم
الشاعر البحتري
والطرماح الأكبر
والطرماح الأصغر
كندة
لخم
جذام
عاملة
جَريلة
نمارة
منهم العباد وقصير صاحب الزباء
وآل المنذر ملوك الحيرة
سعد العشيرة
عنس
مراد
جلد
من نسله
أشرس
معاوية
أود
زُبَيد
ومنهم عمرو بن
معد يكرب
صُدَاء
جَنْب
(وهم ست قبائل)
السكاسك
السَّكُون
منهم : الملك المقصور
وابنه حجر بن الحارث
وابن حجر امرؤ
القيس الشاعر
من نسل جلد : بنو الحارث الذين منهم عبديغوث

جدول رقم ٤ :



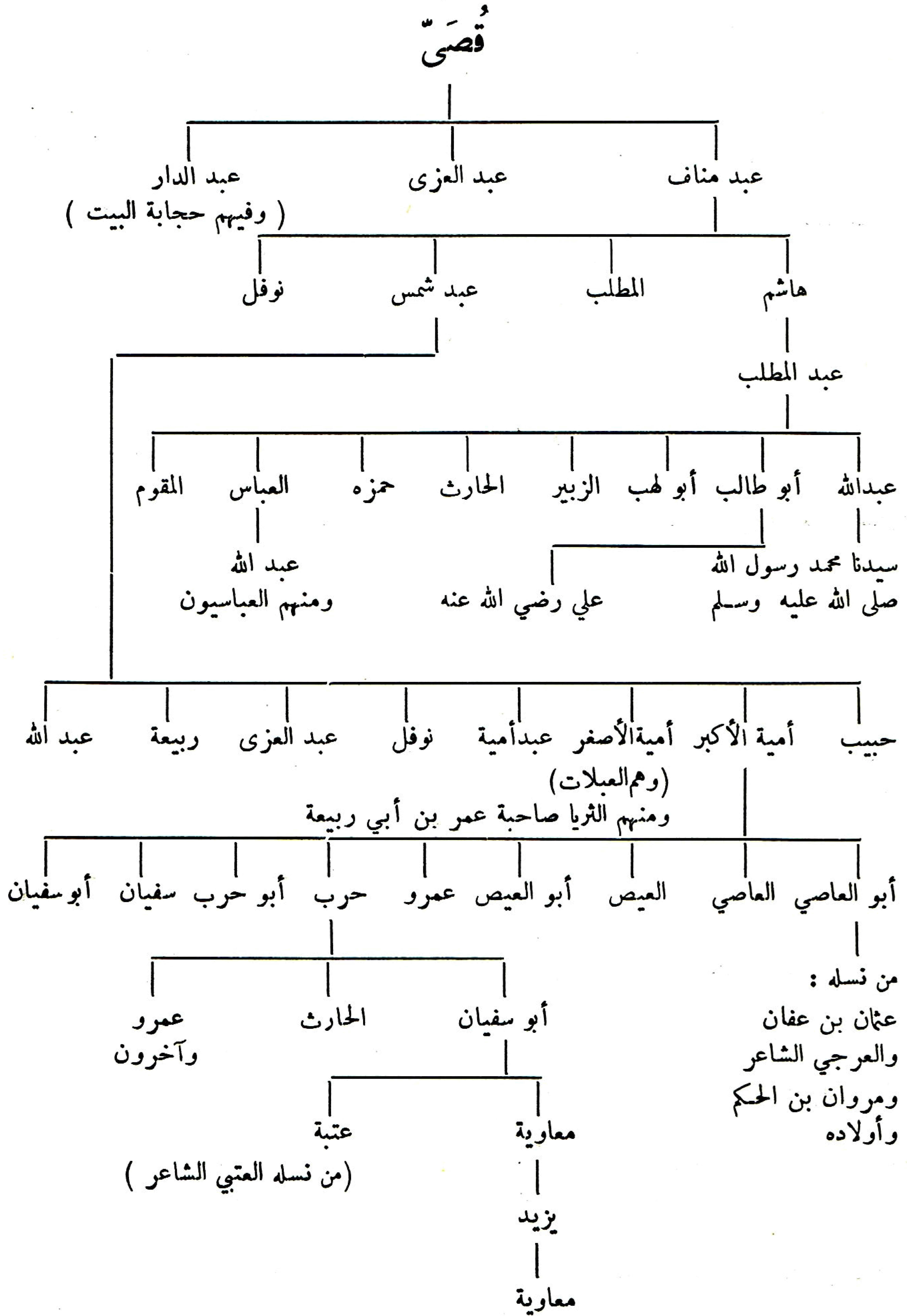
قضاعـــة
الحافي
عمرو
عمران
أسلم
حيدان
بهراء
بلي
مهرة
من ذريته :
هنب وقاس
وشبيب
سعد
جهنية
نهد
عذرة
ضنة
سلامان
الحارث
ومنهم
جميل بثينة
من نسله :
هدبة بن الخشرم
حلوان (وأمه ضرية)
ضجعم
وهؤلاء كانوا
ملوكاً بالشام
قبل غسان
ريان
جرم
جدة
تغلب
وبرة
أسد
النمر
كلب
الثعلب
الذئب
الفهد
الضبع
السيد
السرحان
منهم تنوخ
وبنو القين بن جسر
ومن نسل كلب هؤلاء :
ابن حمام الشاعر القديم الذي يقال عنه ابن خذام
وبنو عامر أخي عامر بن صعصعة لأمه .
ودحية الكلبي
وهشام بن محمد بن السائب الكلبي .

جدول رقم ٥ :



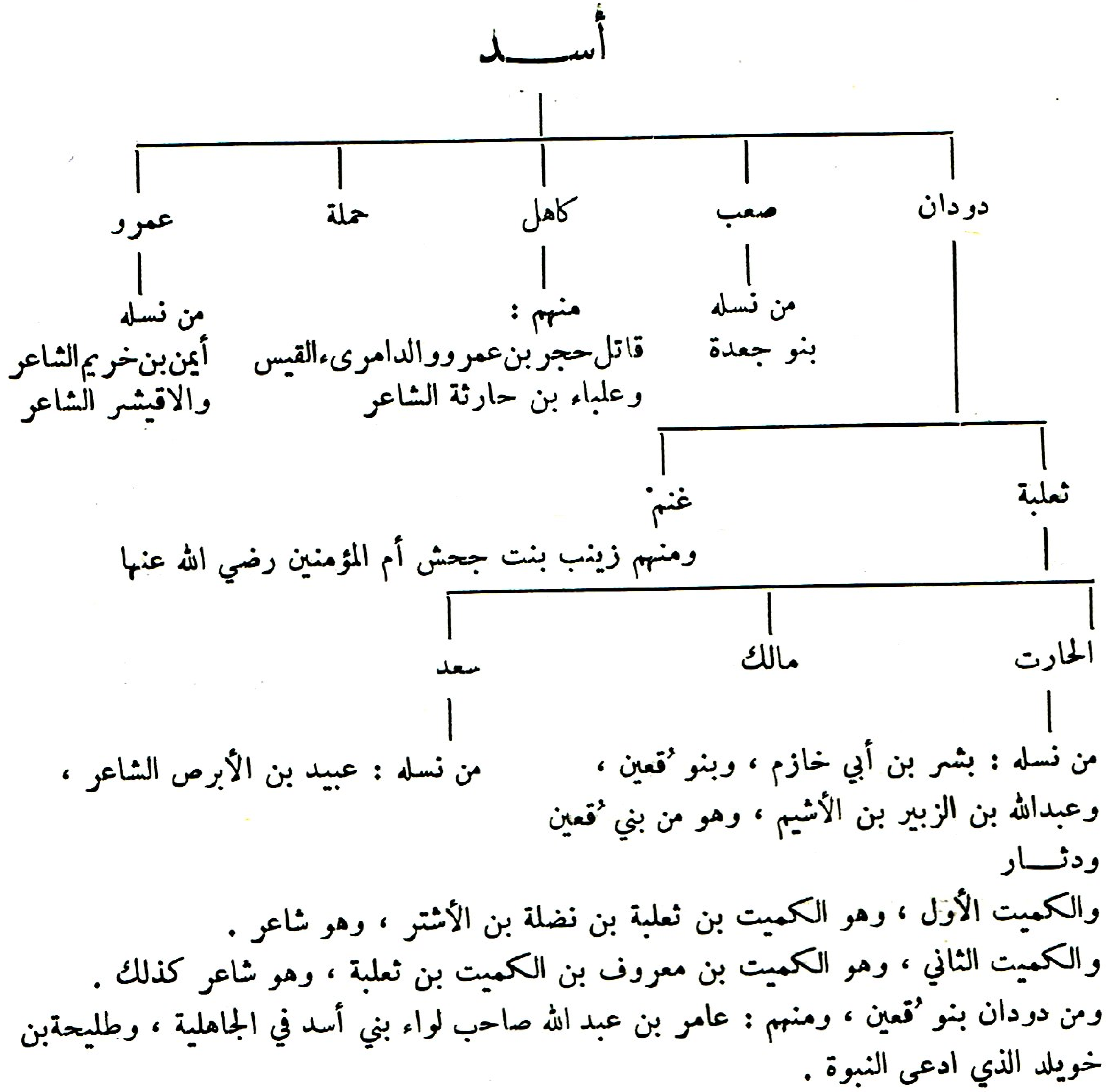
إلياس بن مضر
طابخة
(انظر الجدول رقم ٨)
مدركة
قمعة
خزاعة
ومن قمعة كثيّر الشاعر
هُذَيل
منهم نيف وسبعون شاعراً
خُزَيمة
كنانة
الهَوْن
أسد
(انظر الجدول رقم ٧)
النضر
عبد مناة
مالك
غِفار (منهم أبو ذر الغفاري ، ومنهم كذلك عَزة صاحبة كُثَيِّر)
فِهْر (قريش)
غالب
محارب
الحارث
لؤى
تميم (وهو الأدرم)
قيس
كعب
عامر
ومن نسله : سودة بنت زَمْعَة أم المؤمنين
مرة
هُصَيص (ومنه جُمَح)
عَدِي
ومن نسله : عمر بن الخطاب رضي الله عنه
كلاب
تيم
يقظة (ومنهم مخزوم الذين منهم: فاطمة أم عبدالله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم)
ومن نسله : أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأمه أم الخير سلمى
قُصَيّ
(انظر الجدول رقم ٦)
زهرة (ومن زهرة : سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف)
عبد مناف
وهب
آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم

جدول رقم ٦ :



قُصَيّ
عبد مناف
عبد العزى
عبد الدار
(وفيهم حجابة البيت)
هاشم
المطلب
عبد شمس
نوفل
عبد المطلب
عبدالله
أبو طالب
أبو لهب
الزبير
الحارث
حمزه
العباس
المقوم
سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
علي رضي الله عنه
عبد الله
ومنهم العباسيون
حبيب
أمية الأكبر
أمية الأصغر
(وهم العبلات)
ومنهم الثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة
عبدأمية
نوفل
عبد العزى
ربيعة
عبد الله
أبو العاصي
العاصي
العيص
أبو العيص
عمرو
حرب
أبو حرب
سفيان
أبو سفيان
من نسله :
عثمان بن عفان
والعرجي الشاعر
ومروان بن الحكم
وأولاده
أبو سفيان
الحارث
عمرو
وآخرون
معاوية
عتبة
(من نسله العتبي الشاعر)
يزيد
معاوية

جدول رقم ٧ :

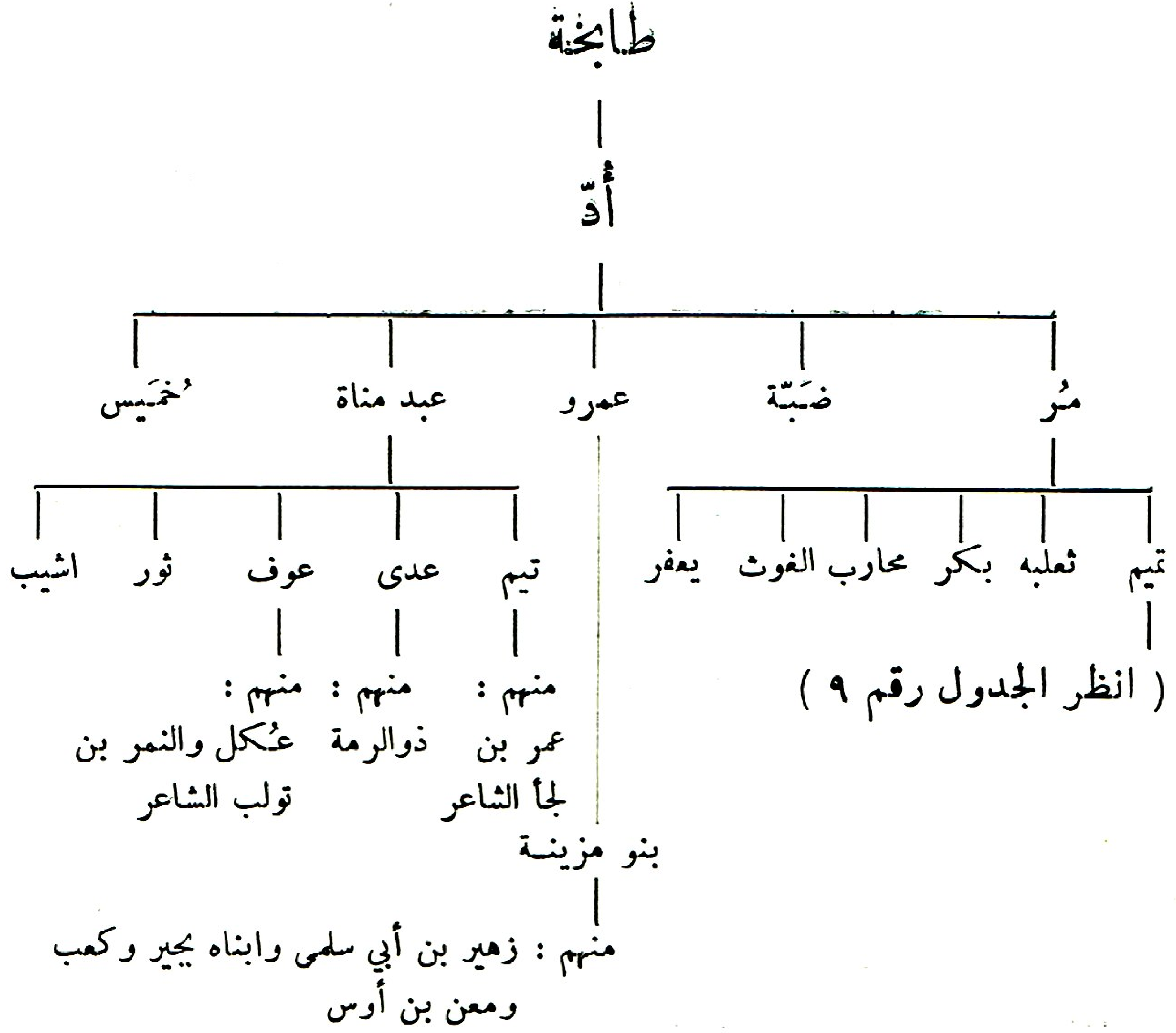


من نسله : بشر بن أبي خازم ، وبنو ُقعين ، وعبدالله بن الزبير بن الأشيم ، وهو من بني ُقعين ودثـــار

من نسله : عبيد بن الأبرص الشاعر ،

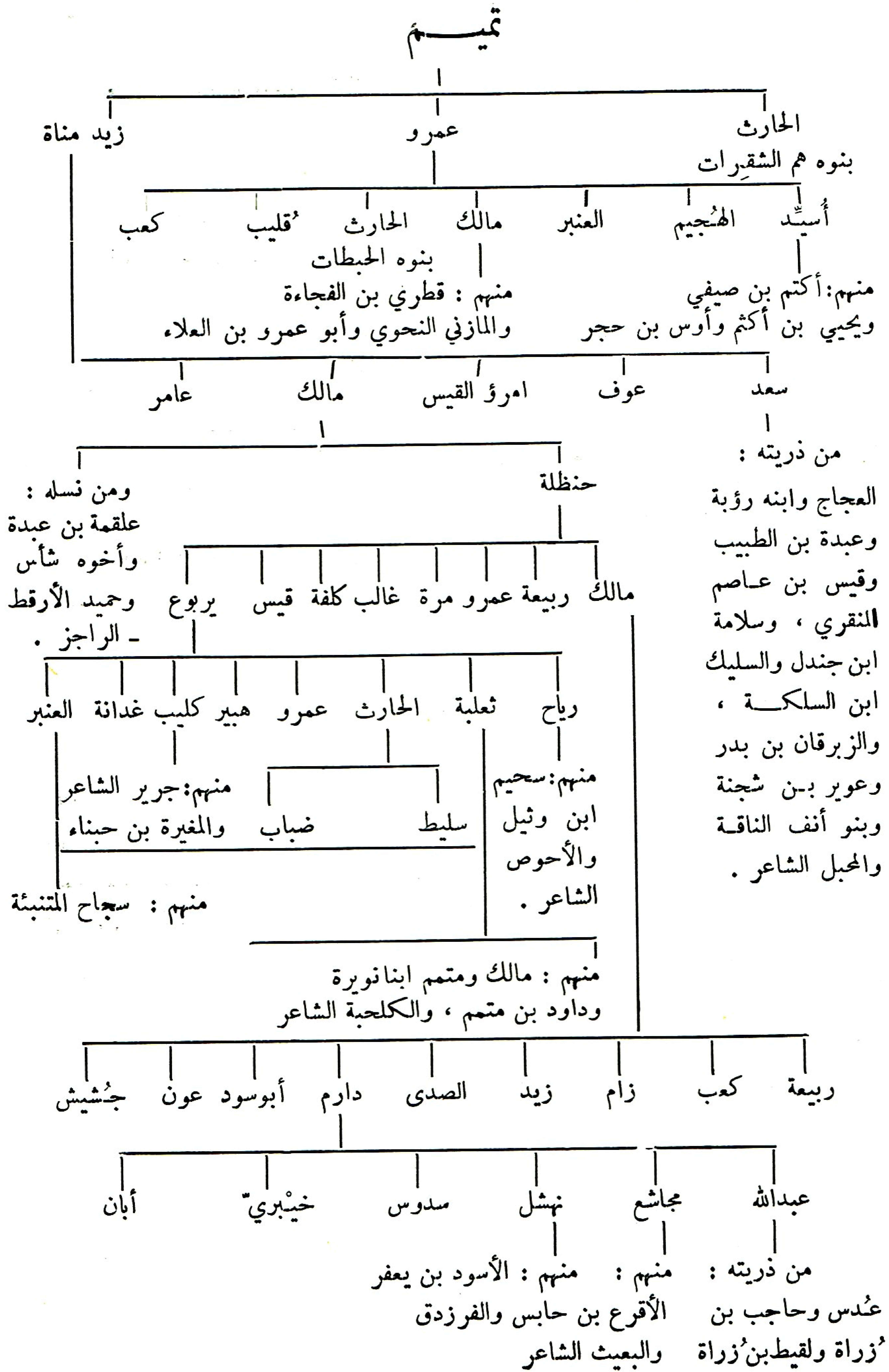
والكميت الأول ، وهو الكميت بن ثعلبة بن نضلة بن الأشتر ، وهو شاعر .
والكميت الثاني ، وهو الكميت بن معروف بن الكميت بن ثعلبة ، وهو شاعر كذلك .
ومن دودان بنو ُقعين ، ومنهم : عامر بن عبد الله صاحب لواء بني أسد في الجاهلية ، وطليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة .

جدول رقم ٨ :



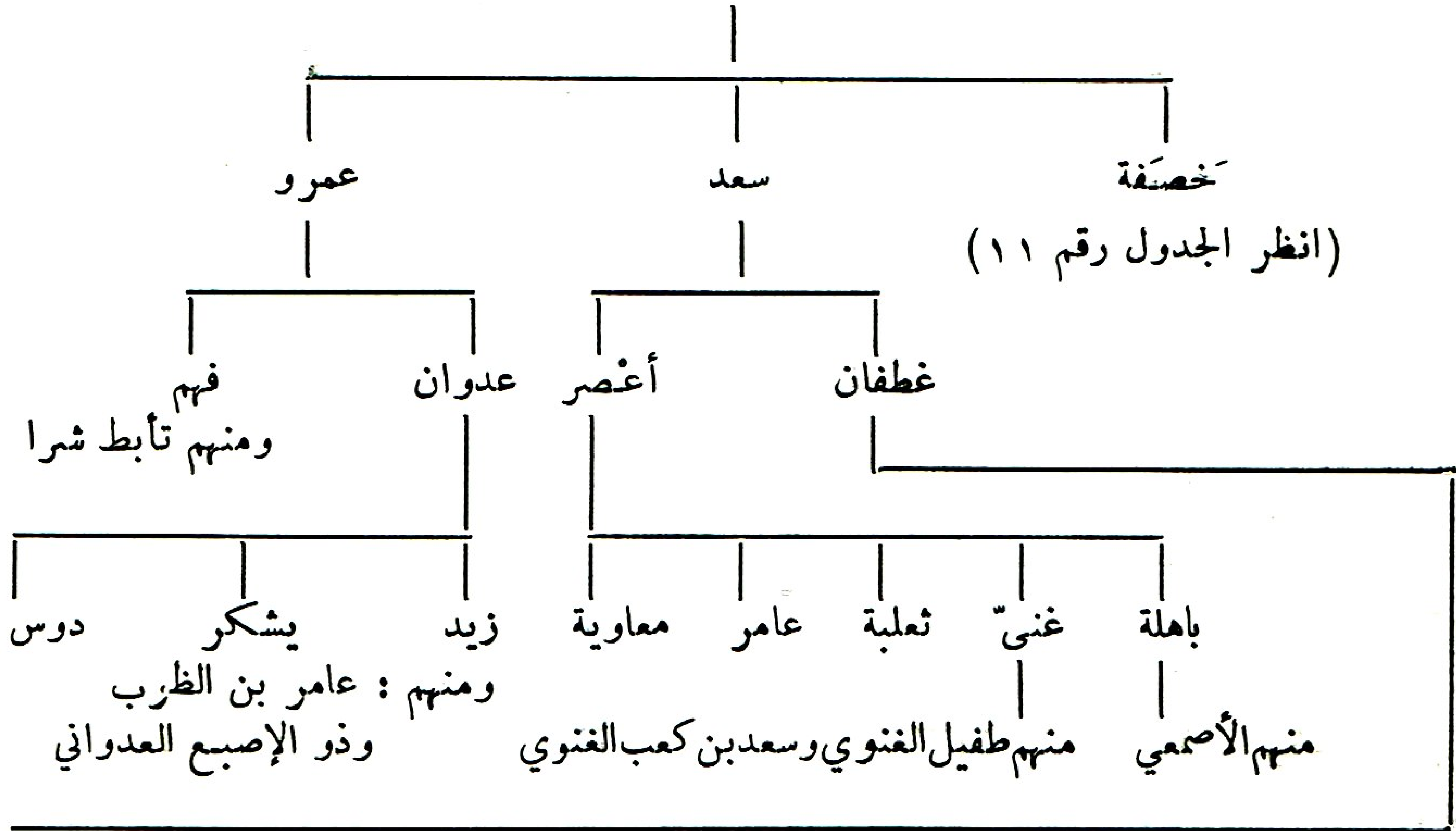
طابخة
أدّ
مُر
ضَبّة
عمرو
عبد مناة
حُمَيس
تميم
ثعلبه
بكر
محارب
الغوث
يعفر
(انظر الجدول رقم ٩)
تيم
عدى
عوف
ثور
اشيب
منهم :
عمر بن
لجأ الشاعر
منهم :
ذوالرمة
منهم :
عُكل والنمر بن
تولب الشاعر
بنو مزينة
منهم : زهير بن أبي سلمى وابناه بجير وكعب
ومعن بن أوس

جدول رقم ٩ :

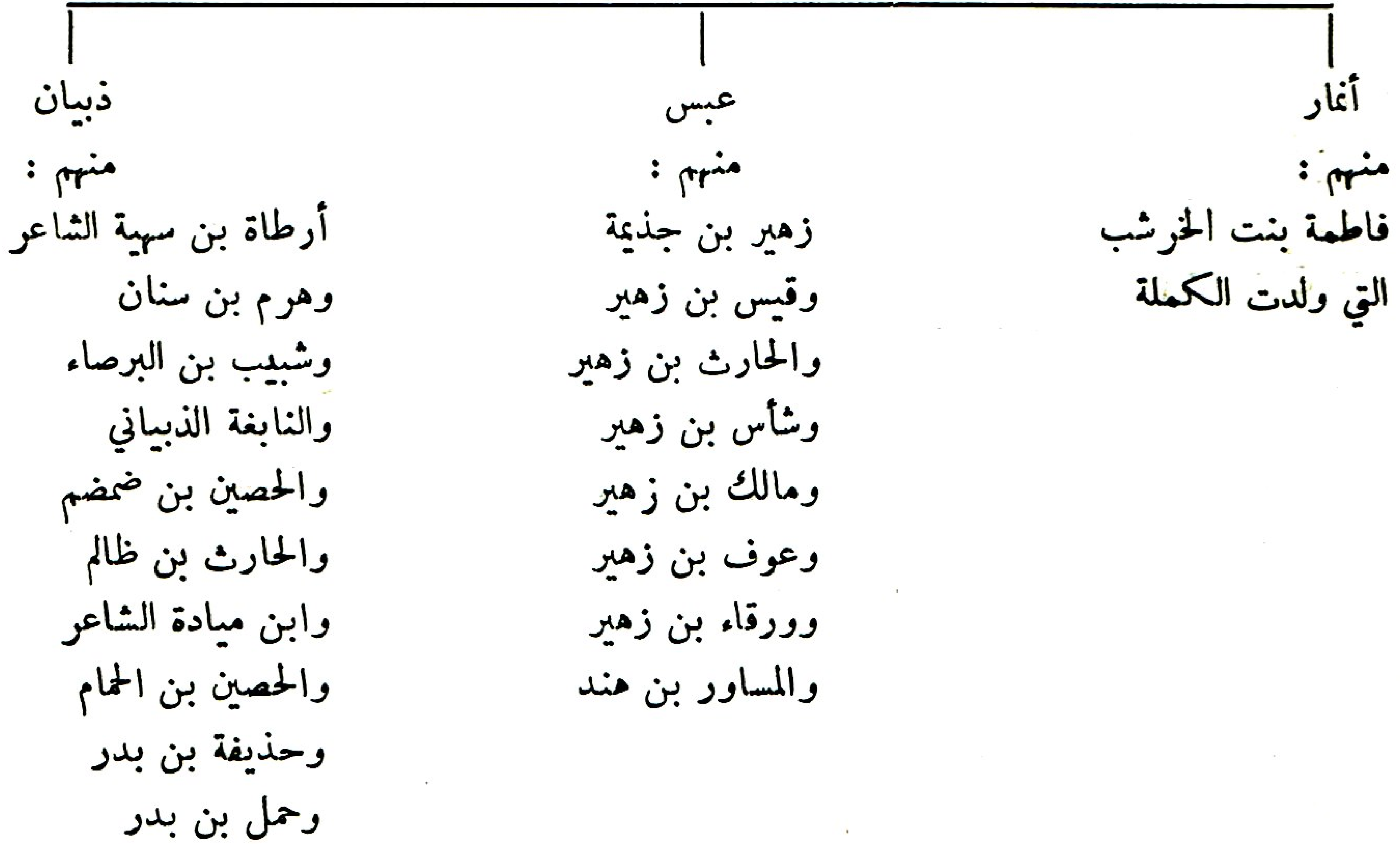


تميم
الحارث
بنوه هم الشقِرات
عمرو
زيد مناة
أُسيِّد
الهُجيم
العنبر
مالك
الحارث
بنوه الحبطات
قُليب
كعب
منهم: أكثم بن صيفي
ويحيى بن أكثم وأوس بن حجر
منهم : قطري بن الفجاءة
والمازني النحوي وأبو عمرو بن العلاء
سعد
عوف
امرؤ القيس
مالك
عامر
من ذريته :
العجاج وابنه رؤبة
وعبدة بن الطبيب
وقيس بن عاصم
المنقري ، وسلامة
ابن جندل والسليك
ابن السلكة ،
والزبرقان بن بدر
وعوير بن شجنة
وبنو أنف الناقة
والمحبل الشاعر .
حنظلة
ومن نسله :
علقمة بن عبدة
وأخوه شأس
وحميد الأرقط
- الراجز .
مالك
ربيعة
عمرو
مرة
غالب
كلفة
قيس
يربوع
رياح
ثعلبة
الحارث
عمرو
هبير
كليب
غدانة
العنبر
منهم: سحيم
ابن وثيل
والأحوص
الشاعر .
سليط
ضباب
منهم: جرير الشاعر
والمغيرة بن حبناء
منهم : سجاح المتنبئة
منهم : مالك ومتمم ابنانويرة
وداود بن متمم ، والكلحبة الشاعر
ربيعة
كعب
زام
زيد
الصدى
دارم
أبوسود
عون
جُشيش
عبدالله
مجاشع
نهشل
سدوس
خيبري
أبان
من ذريته :
عُدس وحاجب بن
زراة ولقيط بن زراة
منهم :
الأقرع بن حابس والفرزدق
والبعيث الشاعر
منهم : الأسود بن يعفر

جدول رقم ١٠ أ

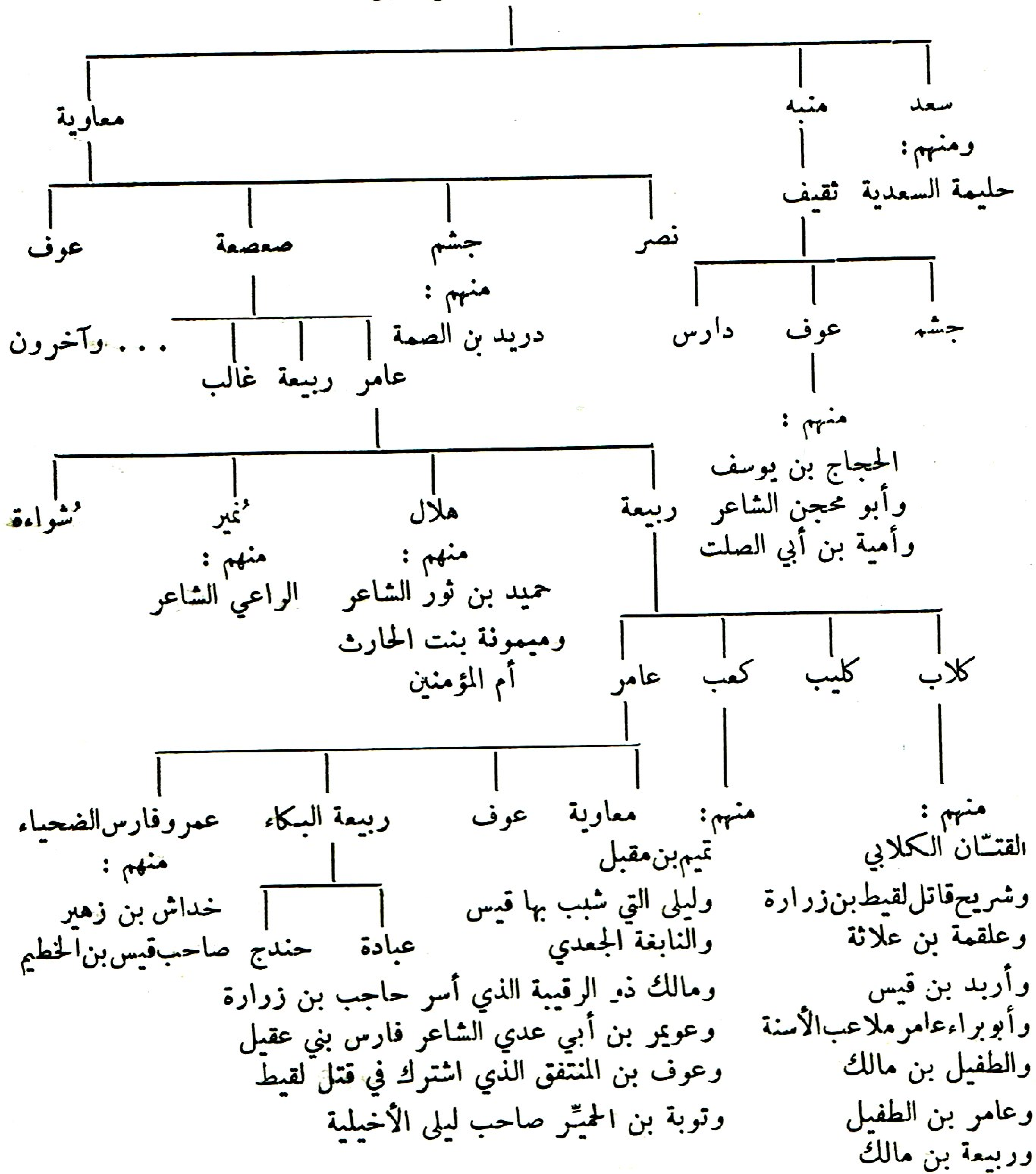


قيس عيلان بن مضر
خصفة
(انظر الجدول رقم ١١)
سعد
عمرو
غطفان
أعصر
عدوان
فهم
ومنهم تأبط شرا
باهلة
غنى
ثعلبة
عامر
معاوية
زيد
يشكر
دوس
منهم الأصمعي
منهم طفيل الغنوي وسعد بن كعب الغنوي
ومنهم : عامر بن الظرب
وذو الإصبع العدواني



بغيض بن ريث بن غطفان
أنمار
عبس
ذبيان
منهم :
فاطمة بنت الخرشب
التي ولدت الكملة
منهم :
زهير بن جذيمة
وقيس بن زهير
والحارث بن زهير
وشأس بن زهير
ومالك بن زهير
وعوف بن زهير
وورقاء بن زهير
والمساور بن هند
منهم :
أرطاة بن سهية الشاعر
وهرم بن سنان
وشبيب بن البرصاء
والنابغة الذبياني
والحصين بن ضمضم
والحارث بن ظالم
وابن ميادة الشاعر
والحصين بن الحمام
وحذيفة بن بدر
وحمل بن بدر

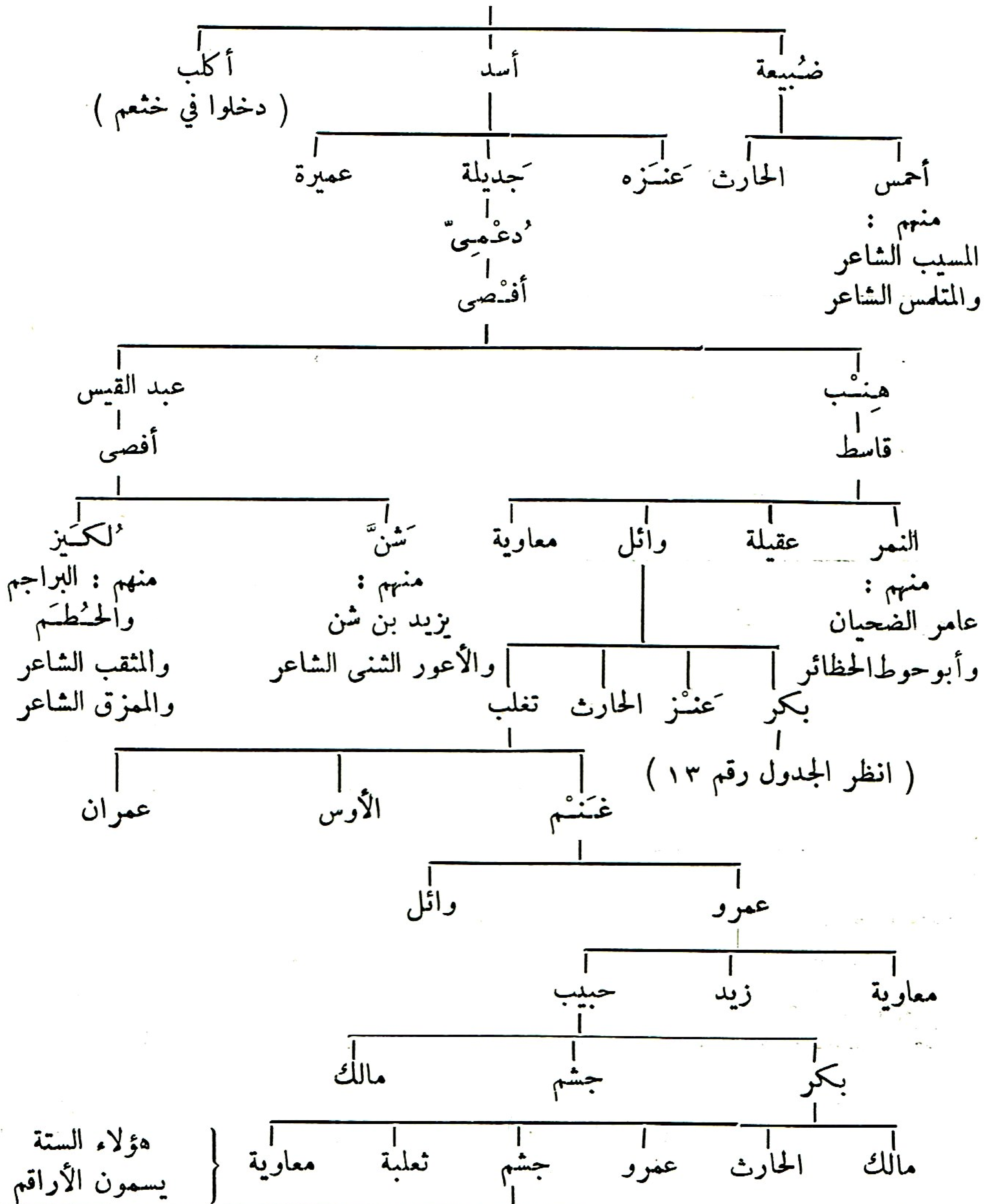
جدول رقم ١١ :



ولبيد بن ربيعة ، والحكم بن الطفيل ، وعروة الرجال ، وابنته كبشة ، ويزيد بن الصعق .

ومن أولاد خصفة : بنو سُليم ، ومنهم : بنو ذكوان ، وبنو بهثة ، وبنو بهز ، وبنو الشريد وبنو ظفر ؛ ومنهم : العباس بن مرداس الشاعر ، والعباس بن الأصم الفارس الجاهلي المشهور ، ومعاوية بن عمرو بن الحارث بن الشريد وأخته الخنساء ، وهند بن صخر بن الشريد السلمي .

جدول رقم ١٢ :

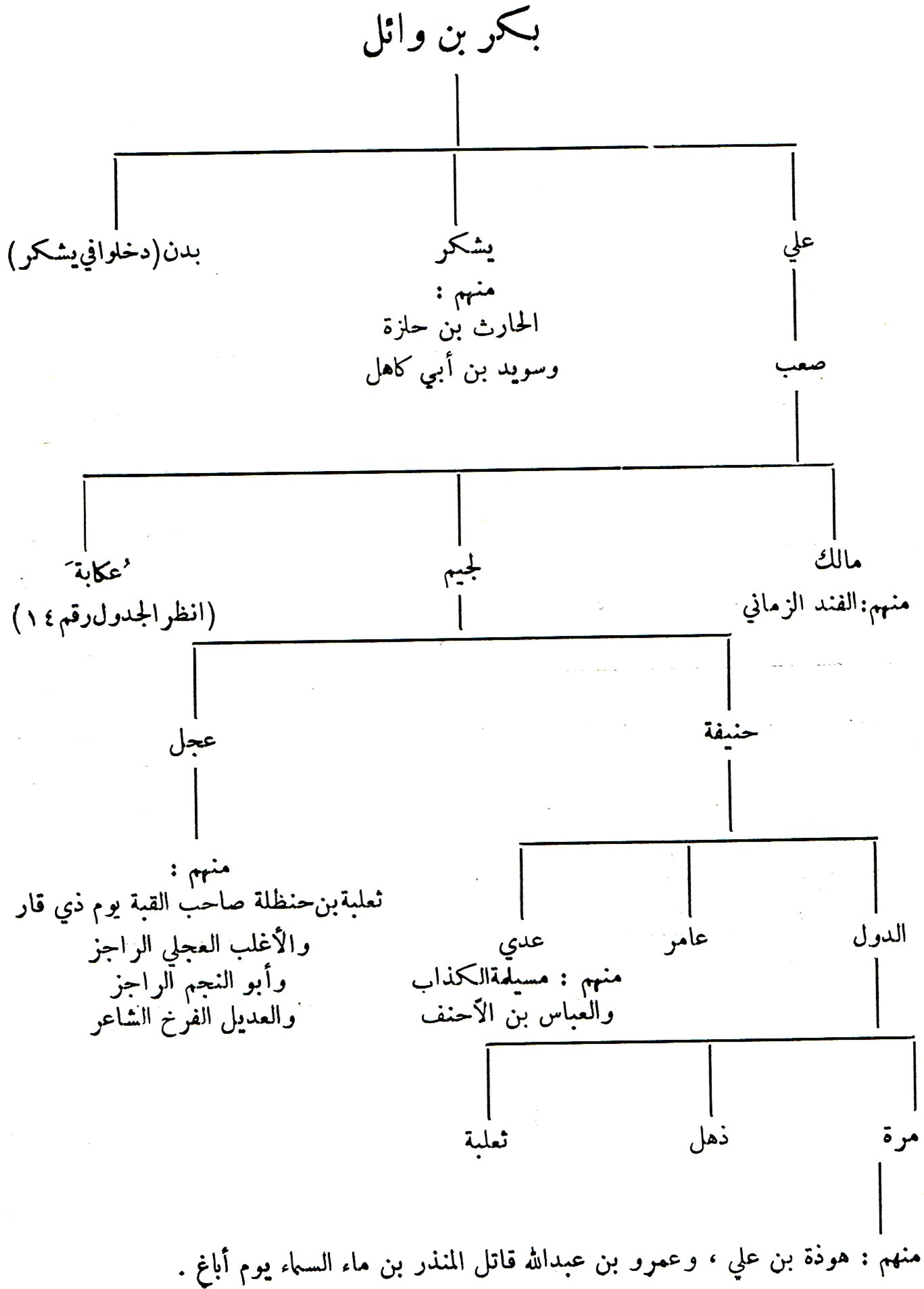


منهم : عمرو بن كلثوم ، وبنوه : عبد الله والأسود شاعران ، وعَبّاد ، وأخوه مرة بن كلثوم ، فارس بطل ، والعتابي الشاعر ، وامرؤ القيس بن أبان الذي قتله الحارث البكري بابنه بُجَير ، وكليب والمهلهل ، وليلى بنت المهلهل ، والقطامي الشاعر ، والأخطل .

ومن تغلب :

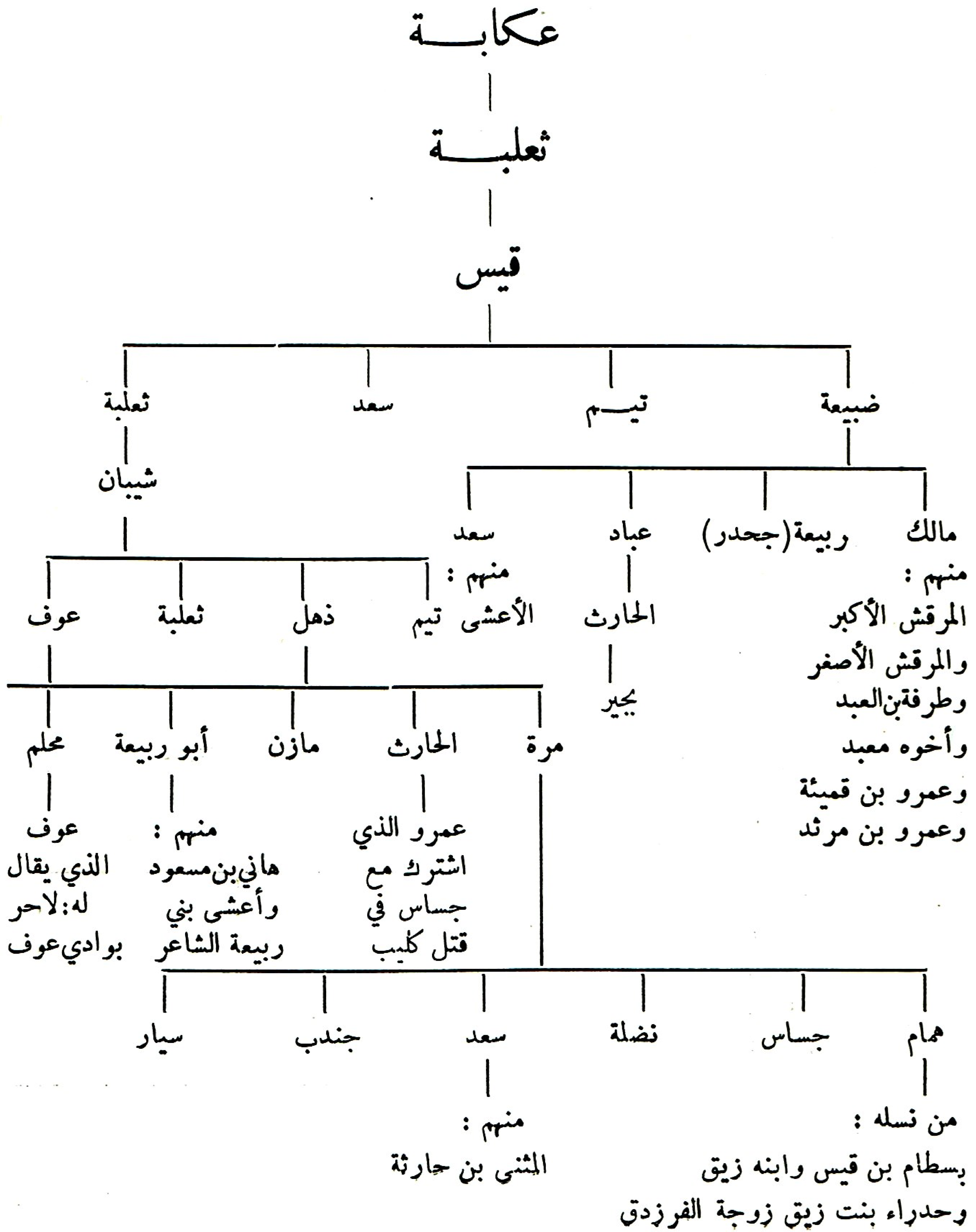
١ – كعب بن جعيل الشاعر
٢ – عميرة بن جعيل الشاعر
٣ – الأخنس بن شهاب
٤ – الوليد بن طريف
٥ – اخته ليلي

جدول رقم ١٣ :



منهم : هوذة بن علي ، وعمرو بن عبدالله قاتل المنذر بن ماء السماء يوم أباغ .

جدول رقم ١٤ :


عكابة
ثعلبة
قيس
ضبيعة
تيم
سعد
ثعلبة
مالك
ربيعة (جحدر)
عباد
سعد
منهم :
المرقش الأكبر
والمرقش الأصغر
وطرفة بن العبد
وأخوه معبد
وعمرو بن قميئة
وعمرو بن مرثد
الحارث
بجير
منهم :
الأعشى
شيبان
تيم
ذهل
ثعلبة
عوف
مرة
الحارث
مازن
أبو ربيعة
محلم
عمرو الذي
اشترك مع
جساس في
قتل كليب
منهم :
هاني بن مسعود
وأعشى بني
ربيعة الشاعر
عوف
الذي يقال
له: لاحر
بوادي عوف
همام
جساس
نضلة
سعد
جندب
سيار
من نسله :
بسطام بن قيس وابنه زيق
وحدراء بنت زيق زوجة الفرزدق
منهم :
المثنى بن حارثة

المصادر والمراجع

١ – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : طبعة الحلبي : القاهرة سنة ١٩٥١ .

٢ – أديان العرب في الجاهلية للأستاذ محمد نعمان الجارم : القاهرة سنة ١٩٢٣ .

٣ – الأصمعيات : دار المعارف ١٩٦٤ .

٤ – الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني : دار الكتب بالقاهرة .

٥ – الأمالي لأبي علي القالي : دار الكتب بالقاهرة .

٦ – إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي : دار الكتب سنة ١٩٥٠

٧ – أنساب العرب لابن حزم : دار المعارف سنة ١٩٤٨

٨ – أيام العرب للأساتذة : جاد المولى وأبي الفضل والبجاوي
القاهرة سنة ١٩٤٢:

٩ – بلوغ الأرب للألوسي : القاهرة سنة ١٣٤٢

١٠ – البيان والتبيين : تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون :
القاهرة سنة ١٩٤٨ .

١١ – تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعي :
نشر محمد سعيد العريان .

١٢ – تاريخ الآداب العربية لنالينو : دار المعارف سنة ١٩٥٤ .

١٣ - تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجي زيدان :
دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٥٧

١٤ - تاريخ الأدب العربي لبروكلمان : دار المعارف سنة ١٩٥٩ .

١٥ - تاريخ الأدب العربي للدكتور بلاشير ، وترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني
دمشق سنة ١٩٥٦ .

١٦ - تاريخ الأدب في العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف :
دار المعارف سنة ١٩٦٠ .

١٧ - تاريخ الرسل والملوك للطبري : القاهرة سنة ١٩٠٨ .

١٨ - تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي (الترجمة العربية) :
دار الكشاف ، بيروت سنة ١٩٦٥ .

١٩ - تاريخ العرب الأدبي لنيكلسون : لندن سنة ١٩١٤ .

٢٠ - تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي : المجمع العلمي العراقي .

٢١ - تاريخ العرب القدامى ، للأستاذ محمد فخر الدين : القاهرة سنة ١٩٣٣ .

٢٢ - تاريخ اليعقوبي : دار صادر ، بيروت سنة ١٩٦٠

٢٣ - تحت راية القرآن للاستاذ مصطفى صادق الرافعي : القاهرة سنة ١٩٢٦ .

٢٤ - تفسير البغوي : المكتبة التجارية بالقاهرة .

٢٥ - تفسير الخازن : المكتبة التجارية بالقاهرة .

٢٦ - تفسير الطبري : بولاق سنة ١٩٠٥ - ١٩١٢ .

٢٧ - جمهرة أشعار العرب للقرشي : القاهرة سنة ١٨٩١ .

٢٨ - الحيوان للجاحظ ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون :
القاهرة سنة ١٩٣٨ .

٢٩ – خزانة الأدب للبغدادي : القاهرة سنة ١٩٣٠ .
٣٠ - ديوان امرىء القيس : دار المعارف سنة ١٩٦٥ .
٣١ – ديوان الحماسة لأبي تمام : القاهرة ١٣٣٥
٣٢ - ديوان الحماسة للبحتري : بيروت سنة ١٣١٠ .
٣٣ – ديوان زهير : دار الكتب سنة ١٩٤٤ .
٣٤ - ديوان طرفة نشر الدكتور علي الجندي : الأنجلوالمصرية سنة ١٩٦١ .
٣٥ - ديوان الهذليين : دار الكتب .
٣٦ – السيرة النبوية لابن هشام : طبعة الحلبي سنة ١٩٣٦
٣٧ – شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، نشر الأستاذين الدكتور أحمد أمين وعبد السلام هارون : القاهرة سنة ١٩٥١ .
٣٨ – شرح النقائص لأبي عبيدة ، نشر بيفان : ليدن سنة ١٩٠٥ .
٣٩ – شعراء النصرانية للأب لويس شيخو : بيروت سنة ١٩٢٦ .
٤٠ – شعر الحرب للدكتور علي الجندي : نشر مكتبة الجامعة العربية بيروت سنة ١٩٦٦ .
٤١ – الشعر والشعراء لابن قتيبة : القاهرة سنة ١٩٤٥ .
٤٢ – الشهاب الراصد للاستاذ محمد لطفي جمعة : القاهرة سنة ١٩٢٦ .
٤٣ – صبح الأعشى للقلقشندي
٤٤ - صفة جزيرة العرب للهمداني : ابريل سنة ١٨٨٤
٤٥ – ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين: مكتبة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٦٤.
٤٦ – طبقات الشعراء لابن سلام : ليدن سنة ١٩١٦
٤٧ – العقد الفريد لابن عبد ربه : مطبعة الاستقامة سنة ١٩٤٠ .

٤٨ – العمدة لابن رشيق ؛ تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد : المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

٤٩ – فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين : مكتبة النهضة بالقاهرةسنة ١٩٦٤.

٥٠ – الفهرست لابن النديم : المكتبة التجارية سنة ١٣٤٨ .

٥١ – في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين : دار المعارف سنة ١٩٦٢

٥٢ – القاموس المحيط للفيروزبادي

٥٣ – القراءات واللهجات للاستاذ عبد الوهاب حمودة : النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ .

٥٤ – القرآن الكريم .

٥٥ – قصائد الهذليين : لندن سنة ١٨٥٤ .

٥٦ – قلب الجزيرة العربية للاستاذ فؤاد حمزة : المطبعة السلفية سنة ١٩٣٣.

٥٧ – الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير : القاهرة سنه ١٣٠١ .

٥٨ – الكامل في اللغة والأدب للمبرد : القاهرة سنة ١٩٣٦

٥٩ – مختارات ابن الشجري : القاهرة سنة ١٨٨٨

٦٠ – مروج الذهب للمسعودي : المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٥٨ .

٦١ – المزهر للسيوطي : دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .

٦٢ – مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد: دار المعارف سنة ١٩٦٢

٦٣ – معجم الأدباء لياقوت : نشر الرفاعي

٦٤ – معجم الشعراء للمرزباني تحقيق الأستاذ عبد الستار فراج القاهرة سنة ١٩٦٠

وتحقيق كرنكو : القدسي سنة ١٩٥٤ .

٦٥ - معجم ما استعجم للبكري : القاهرة سنة ١٩٤٥ .

٦٦ - المعلقات (شرح السبع الطوال الجاهليـــات) ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون : دار المعارف ١٩٦٣ .

٦٧ - المفضليات : اكسفورد سنة ١٩١٨ ، ودار المعارف سنة ١٩٦٤ .

٦٨ - المؤتلف والمختلف للآمدي ، نشر كرنكو : القدسي سنة ١٩٥٤

٦٩ - الموشح للمرزباني ، تحقيق الأستاذ علي البجاوي :
المطبعة السلفية سنة ١٩٢٩ .

٧٠ - النقد التحليلي للاستاذ محمد أحمد الغمراوي : المطبعة السلفية سنة ١٩٢٩ .

٧١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي للاستاذ محمد الخضر حسين :
القاهرة سنة ١٣٤٥ .

٧٢ - نهاية الأرب للنويري : دار الكتب بالقاهرة .

فهرس الأعلام

— ب —

— ت —

— ث —

— خ —

— د —

— ش —

— ص —

— ض —

– غ –

– ف –

– ق –

– ك –

فهرس القبائل

فهرس الاماكن

— ي —

فهرس الموضوعات

الفهارس

مطابع بيبلوس الحديثة
فرن الشباك – شارع مار نهرا
تلفون : ٢٨٤٥٢٩